www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

نسخة معالجة ومخفضة

وليام فوكنر

مجلة الابتسامة

نور في آب

رواية

ترجمة: توفيق الأسدي

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٤

www.ibtesama.com/vb

المعالجة وتخفيض الحجم
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com/vb

لمحة عن وليام فوكنر

ولد وليام فوكنر قرب أوكسفورد في ولاية الميسيسبي عام (١٨٩٧) كان أبو جده ، وهو الكولونيل وليام فوكنر واحد من الشخصيات الغريبة في الولايات الأمريكية الجنوبية أما المؤلف الذي لم يكن قد أبدع في المدرسة فقد رفض الجيش الأمريكي خدمته عند دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى ، الا أنه أصبح طيارا في سلاح الجو الكندي وبعد الحرب درس في جامعة الميسيسبي لفترة من الزمن ثم مارس عدة أعمال لسنوات عديدة وبينما كان يعمل في نيو أورليانز قابل شيروود أندرسون ، الروائي الأمريكي ، وقد شجعه هذا على الكتابة ، وكانت نتيجة ذلك أن كتب أول رواياته « راتب الجندي » (١٩٢٦) ثم كتب روايات أخرى وفي عام (١٩٢٩) ، عام زواجه ، عمل كملقم للفحم ليلاً في محطة توليد للطاقة وكتب « بينما أرقد محتضرة » (١٩٣٠) بين ساعات منتصف الليل والرابعة صباحاً خلال فترة أسابيع ستة من الصيف ثم كتب « الملاذ » على أن تكون عملاً مثيراً يدّر عليه المال ، حيث أن أعماله الأولى لم تكن

www.ibtesama.com/vb

مربحة جداً وقد عمل فيما بعد ككاتب للسيناريو في هوليوود وذلك لأجل النقود فحسب وقبل موته بقليل في تموز (١٩٦٢) ، انتقل فوكنر إلى « تشارلو تسفيل » فرجينيا وقد منح جائزة نوبل للآداب عام (١٩٤٩) أما كتبه الأخرى فمنها « الصخب والعنف » (١٩٢٩) ، « اللا مهزوم » (١٩٣٤) ، « النخيلات البرية » (١٩٣٩) « اهبط يا موسى » (١٩٤٢) ، « متطفل في التراب » (١٩٤٨)، و « قداس لراهبة » (١٩٥١) وكذلك « أبسالوم ، أبسالوم »

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل الأول

تفكّر « لينا » وهي جالسة إلى جانب الطرق ، تراقب العربة وهي تصعد التلّة باتجاهها (لقد جئت من ألاباما مسافة طويلة لقد قطعت المسافة كلها من ألاباما على قدميّ مسافة طويلة) تفكر **رغم أني لم أمكث شهراً واحداً على الطريق بعد ، فقد سبق لي وأصبحت في ميسيسبي ، أبعد عن البيت من أي وقت مضى . أنا أبعد الآن عن « دونز ميل » من أي وقت مضى منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمري (١)**

لم تكن قد عرفت « دونز ميل » الاّ بعد أن توفي أبوها وأمها ، رغم أنها كانت تذهب ست أو ثماني مرات كل عام إلى البلدة في أيام السبت ، بالعربة ، في ثوب سبق أن طلب بالبريد ، قدماها العاريتان مبسوطتان على أرضية العربة ، وحذاؤها ملفوف بورقة وموضوع إلى جانبها على المقعد كانت تنتعل الحذاء قبل أن تصل

---

(١) يستعمل فوكنر هنا الحرف الطباعي المائل وذلك لينقل – شأن رواياته الأخرى – أطواراً مختلفة من أطوار التفكير لذلك سنقوم بطبعها بحرف مختلف من الآن فصاعداً حتى نحافظ على ما أراد المؤلف نقله أصلا (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

العربة إلى البلدة بقليل وبعد أن أصبحت فتاة كبيرة كانت تطلب من أبيها أن يوقف العربة عند طرف البلدة وعندها كانت تنزل لتمشي لم تكن تحكي لأبيها عن سبب رغبتها في المشي بدلاً عن الركوب في العربة كان يظن أن ذلك يعود إلى الشوارع الملساء والأرصفة ولكن السبب كان اعتقادها بأن الناس الذين كانوا يروبها تمر بهم سيراً على الأقدام سيعتقدون أنها تعيش في البلدة هي أيضاً

حين كانت في الثانية عشرة من عمرها مات أبوها وأمها خلال صيف واحد ، في منزل مبني من جذوع الأشجار مؤلف من ثلاث غرف وبهو ، لا ستائر له ، في غرفة مضاءة بمصباح كازي تحوم من حوله الحشرات ، والأرضية العارية قد ملست لكثرة ما داستها الأقدام العارية فأضحت كالفضة العتيقة كانت أصغر الأطفال من بين من بقوا على قيد الحياة ماتت أمها أولاً قالت (اعتني ببابا) . وقد اعتنت « لينا » به ثم قال لها أبوها ذات يوم (اذهبي إلى دوتز ميل مع ماك كينلي جهزي نفسك للرحيل ، كوني مستعدة حين يأتي .) ثم مات . وصل ماك كينلي ، أخوها ، في عربة دفنوا الأب في بستان خلف كنيسة ريفية في عصر أحد الأيام ، ونصبوا له شاهدة قبر من خشب الصنوبر وفي صباح اليوم التاني رحلت إلى الأبد ، رغم أنه من الممكن ألا تكون قد أدركت ذلك آنئذ وهي تركب العربة مع ماك كينلي المتجهة نحو دونز ميل كانت العربة مستعارة وقد وعد الأخ باعادتها قبل هبوط الليل

كان أخوها يعمل في المنشرة كل رجال القرية كانو يعملون في المنشرة أو لأجلها كاوا ينشرون فيها شجر الصنوبر لقد أقيمت

www.ibtesama.com/vb

هناك منذ سبع سنين وخلال سبع سنوات أخرى كانت ستدمّر كل أشجار الصنوبر التي هي ضمن نطاقها عندها فان بعض الآلات وأغلب الرجال الذين يديروها ووجدوا هناك بسببها ولأجلها كانوا سيحملون على عربات شحن لينقلوا بعيداً إلاّ أن بعض الآلات كانت ستترك ، حيث أنه من الممكن دائماً شراء قطع جديدة على مخطط الانشاء عجلات كالحة محدقة وساكنة تبرز من أكوام ركام الآجر والأعشاب المسنّنة بخاصية مدهشة على نحو عميق ، و مراجل متلفة من الداخل ترفع مداخنها الصدئة غير ذات الدخان بشكل عنيد ومرتبك ومشدوه على مشهد مليء بندوب الأجذال (١) ، مشهد من الخراب العميق الهادىء ، أو المحروث ، غير المفلوح ذي أحشاء بطيئة التفسخ ، متجوّل إلى وديان حمراء مخنوقة تحت الأمطار الطويلة الهادئة للخريف والجنون الراكض للاعتدالات الربيعية ثم القرية التي لم تحمل في أفضل أيامها أي اسم في سجلات البريد ، لن يتم تذكرها الآن حتى من قبل الورثة المصابين بدودة الأنسيلوستوما الذين هدموا الأبنية وأحرقوها في مواقد المطبخ في الشتاء

كانت هناك خمس أسر على الأقل حين وصلت « لينا » ، كما كان هناك سكة حديدية ومحطة ، ومرة في اليوم كان قطار مختلط (للبيض والسود) يمر بها مسرعاً زاعقاً كان من الممكن ايقاف القطار براية حمراء ، ولكنه كان يظهر في العادة خارجاً من التلال المخربة بفجائية شبحية وهو يعول كبانسايث (٢) ، عبر وخلال تلك الأقل من

---

(١) جمع جذل وهو ما يتبقى من الشجرة بعد قطعها (المترجم)

(٢) بانسايث في الفولكلور الايرلندي والسكوتلندي هي كائن خرافي يعتقد المتطيرون أنه يتخذ شكل امرأة عجوز تتنبأ بالموت بعويل أو غناء حزين خارج المسكن (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

قرية كخرزة منسية من عقد مقطوع كان أخوها يكبرها بعشرين عاماً لم تتذكره الا بالكاد حين جاءت لتعيش معه حيث يسكن في منزل من أربع غرف دون طلاء ، مع زوجته التي أرهقها المخاض والأطفال فعلى مدى ستة أشهر من كل عام كانت زوج الأخ إما في حالة وضع أو في حالة استرداد للعافية بعد الوضع وخلال هذه الفترة كانت لينا تقوم بأعمال المنزل كافة وتعتني بالأطفال الآخرين وقد قالت لنفسها لاحقاً (لهذا السبب حملت أنا بواحد بهذه السرعة).

كانت تنام في غرفة ذات سقف منحدر في مؤخرة المنزل وكان لها نافذة تعلمت أن تفتحها وتغلقها من جديد في العتمة دون اصدار أي صوت ، حتى ولو كان ينام معها في الغرفة أولاً أكبر أولاد أختها ثم الولدان الأكبر سناً ثم الثلاثة الأكبر سناً عاشت هناك ثماني سنوات قبل أن تفتح النافذة أول مرة ولم تكن قد فتحتها اثنتي عشرة مرة حتى اكتشفت أنه لم يكن عليها أن تفتحها اطلاقاً قالت في نفسها « هذا حظي ولا شيء آخر »

حكت الزوج للأخ ثم لاحظ هو شكلها الآخذ بالتغير ، والذي كان عليه أن يلحظه من قبل كان رجلاً قاسياً كانت الرقة واللطف والشباب (كان في الأربعين) وكل شيء آخر باستثناء نوع من القوة العنيدة واليائسة والارث الكئيب المنادي بالافتخار بالعائلة ، قد استنزفت منه بالعمل الشاق والكد المتواصل ناداها بالعاهرة وقد اتهم الشاب المسؤول فعلاً (فالعازبون الشبان أو الكازانوفات (١)

(١) جمع كازانوفا ويقصد به هنا العاشق الأيطالي الشهير

(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

التافهون كانوا على أية حال أقل عدداً من الأسر) ولكنها رفضت الاعتراف أن الرجل قد رحل منذ ستة أشهر كانت تكرر بعناد

– سيرسل في طلبي قال انه سيرسل في طلبي

وهكذا بقيت صامدة خجولاً ، وراحت تستمد قوتها من ذلك الاحتياطي من الاخلاص الصبور العنيد الذي يعتمد عليه أمثال «لوكاس بيرتش » ، رغم أنه لانية لديهم في الحضور حين تدعو الحاجة إليهم وبعد أسبوعين آخرين نزلت مرة أخرى من النافذة كان في الأمر بعض الصعوبة هذه المرة « لو كان الأمر صعباً إلى هذا الحد سابقاً فأعتقد أني ما كنت أفعل ذلك الآن » هكذا كانت تفكر كان يمكنها أن ترحل خارجة من الباب في وضح النهار ما كان سيوقفها أحد ربما كانت تعرف ذلك ولكنها فضلت الذهاب ليلاً وعبر النافذة كانت تحمل مروحة من سعف النخيل ورزمة صغيرة مربوطة بأناقة ضمن منديل كبير مزيّن بالرسوم وكانت تحوي بين أشياء أخرى خمسة وثلاثين سنتاً في قطع من فئة الخمسة والعشرة سنتات أما حذاؤها فكان لأخيها ثم أعطاه لها كان مهترئاً قليلاً فحسب ، حيث أنه ما كان أي منهم ينتعل حذاء في الصيف وحين أحست بغبار الطريق تحت قدميها خلعت حذاءها وحملته بيدها

انها تفعل ذلك منذ أربعة أسابيع تقريباً وحتى الآن خلفها كانت الأسابيع الأربعة ، وما تثيره كلمة بعيداً عبارة عن طريق آمنة مفروشة بايمان عنيد وهادىء ومسكونة بوجوده وأصوات لطيفة لا أسماء لها

لوكاس بيرتش ؟ لا أعرف لا أعرف شخصاً بهذا الاسم في هذه

www.ibtesama.com/vb

الأرجاء . هذه الطريق ؟ إنها تؤدي إلى بوكا هونتاس . قد يكون هناك هذا ممكن . ها هي ذي عربة ستقطع بعض الطريق إلى هناك . ستأخذك حتّى تلك المرحلة ؛ وخلفها يتتابع الآن تتابع رتيب من التغيرات الهادئة غير المنحرفة من النهار إلى الليل ومن الليل إلى النهار مرة أخرى ، وكانت تتقدم عبره في عربات متشابهة ومجهولة ومتعمدة كأنما عبر تتابع من الأفاتارات » (١) ذات العجلات الصارّة والآذان الطرية ، كشيء يتحرك إلى الأبد ودون تقدم عبر احدى الحوالي

تصعد العربة التلّة باتجاهها لقد مرت بها قبل ميل من هنا تقريباً على الطريق كانت متوقفة قرب الطريق ، والبغلان نائمان في سيورهما ورأساهما موجهتان بالاتجاه الذي مشت به رأتها وكذلك الرجلين المقرفصين قرب حظيرة تقع إلى ما وراء الحاجز نظرت إلى العربة والرجلين مرة واحدة نظرة واحدة وشاملة ، سريعة ، بريئة وعميقة لم تتوقف ؛ من المحتمل جداً ألاّ يكون الرجلان خلف الحاجز قد شاهداها وهي تنظر إلى العربة أو إليهما وهي لم تنظر إلى الخلف أيضاً. لقد تابعت المشي حتّى ابتعدت عن الأنظار ، ببطء ، والحذاء غير المربوط حول كاحليها ، حتّى وصلت إلى أعلى التلة على مسافة ميل من المكان .ثم جلست على ضفة القناة الضحلة ثم خلعت حذاءها . بعد فترة بدأت تسمع صوت العربة . ها هي ذي تسمعها لبعض الوقت ثم بدت لها وهي تصعد التلة

كانت الطقطقة والقعقعة الحادتان المتقصفتّان لخشبها ومعدنها المهترّئين غير المشحمين بطيئتين ورهيبتين سلسلة من الانفجارات

---

(١) الأفاتار تجسد الآلهة في الفلسفة الهندية أو تجسد فكرة أو فلسفة في شخص معين (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

الجافة البليدة تصل إلى مسافة نصف ميل عبر الصمت الحار الساكن الثمل بالصنوبر لعصر يوم من أيام آب ورغم أن البغلين كانا يتهاديان في حالة شبيهة بنوم مطرد لا ينقطع ، فان العربة لا يبدو عليها أنها تتقدم كانت تبدو وكأنها معلقة في وسط المسافة إلى أبد الآبدين ، تقدمها متناهي الصغر جداً ، كخرزة رديئة على الخيط الأحمر الرقيق الذي هو الطريق . والأمر على هذه الحال إلى حد أن العين وهي تراقبه تفقده بينما تختلط الرؤية والحس ويمتزجان كالطريق نفسها ، مع كل التغييرات الهادئة الرتيبة بين العتمة والنهار ، أو كخيط سبق له وقيس وتتم اعادة لفه حول المكب وهكذا يحدث أخيراً أن صوتها يبدو وكأنه قادم بطيئاً ورهيباً ودون معنى وكأنه خارج من منطقة تافهة مبتذلة تقع إلى ما وراء المسافة حتى ، كأنها شبح يسير مسافة نصف ميل متقدماً على شكله تفكر « لينا » « من هذا البعد أسمعها قبل أن أراها » تفكر بنفسها كأنه سبق لها وتحركت ،ركبت العربة مجدداً. **تفكر ثم سيبدو الأمر وكأني أركبها مسافة نصف ميل قبل أن أصعد إليها حتى ، قبل أن تصل العربة حتى إلى مكان انتظاري ، وأنه حين تكون العربة فارغة مني مرة أخرى ، فسوف تستمر مدة نصف ميل أخرى وأنا لاأزال فيها تنتظر** ، وهي لا تراقب العربة الآن حتى ، بينما يستمر التفكير متراخياً وسريعاً وسلساً ، مترعاً بوجوه لطيفة لا أسماء لها وأصوات **لوكاس بيرتش ؟ تقولين إنك حاولت في بوكا هونتاس ؟ هذه الطريق ؟ إنها تؤدي إلى سبر ينغفيل انتظري هنا . ستمر عربة في القريب العاجل ستأخذك إلى أخر وجهتها** تفكر «واذا كان ذاهباً حتى جفرسون ، فسوف أركب ضمن مدى سماع لوكاس

www.ibtesama.com/vb

بيرتش قبل مدى نظره سيسمع العربة ، ولكنه لن يعرف لذا ستكون هناك واحدة ضمن مدى سماعه قبل مدى نظره وثم سيراني وسوف يُستثار وهكذا ستكون هناك اثنتان ضمن مدى نظره قبل تذكّره »

* * *

بينما كان آرمستيد ووينتر بوتوم جالسين أمام الجدار الظليل لاصطبل وينتر بوتوم ، رأياها تمر على الطريق وقد لاحظا فورا أنها شابة وحامل وغريبة قال وينتربوتوم

ـ أتمنى لو أعرف من أين جاءت بذلك البطن المنتفخ

قال آرمستيد

ـ أتمنى لو أعرف كم سارت به على قدميها

قال وينتربوتوم

ـ أعتقد أنها تزور شخصاً ما في مكان ما من الطريق قبل هنا

ـ لا أعتقد ذلك والا لكنت سمعت به . وليس ذاك شخصاً على الطريق أمامنا أيضاً كنت سأسمع بذلك أيضاً

قال وينتربوتوم

ـ أعتقد أنها تعرف إلى أين هي ذاهبة انها تمشي كمن هو كذلك

قال آرمستيد

ـ سيكون معها رفيق قبل أن تبتعد كثيراً

www.ibtesama.com/vb

كانت المرأة قد تابعت طريقها ، ببطء ، مع حملها المنتفخ الذي لا تخطئه العين لم يرها أي منهما وهي توجّه نحوها ولو نظرة واحدة خلال مرورها بذلك الثوب الأزرق باهت اللون عديم الشكل ، حاملة مروحة على شكل سعفة نخيل ورزمة ملابس صغيرة . قال آرمستيد

– لم تأت من مكان قريب انها تسير كمن صار له زمن وهو على هذه الحال وما زال لديه مسافة طويلة يقطعها

قال وينتر بوتوم

– لا شكّ أنها تقوم بزيارة لشخص ما في الجوار

قال آرمتيد

– أعتقد أني كنت سأسمع بذلك

استمرت المرأة في السير لم تكن قد نظرت إلى الخلف لقد ابتعدت عن الأنظار صاعدة الطريق منتفخة ، بطيئة ، متمهلة ، دون عجلة أو تعب كالعصر المتقدم نفسه كما أنها خرجت من حديثهما أيضاً ؛ وربما من ذهنيهما كذلك لأنه بعد فترة قال آرمستيد ما جاء ليقوله كان قد سبق له وقام برحلتين قاطعاً بعربته خمسة أميال ومقرفصاً وباصقاً لمدة ثلاث ساعات تحت الجدار الظليل لحظيرة وينتر بوتوم بالتمهّل واللاهدفية السرمديين اللذين يميزانه ، وذلك حتى يقول ما عليه أن يقوله وكان ذلك هو أن يعرض على وينتر بوتوم شراء معزقة كان هذا راغباً في بيعها. وأخيراً نظر آرمستيد إلى الشمس وعرض السعر الذي كان قد قرر عرضه وهو قابع في الفراش منذ ثلاث ليال قال

www.ibtesama.com/vb

– أعرف واحدة في جفرسون يمكنني شراؤها بذلك السعر

قال وينتر بوتوم

– أعتقد أنه حريّ بك أن تشتريها تبدو كأنها صفقة جيدة

قال آرمستيد

– بكل تأكيد

ثم بصق نظر ثانية إلى الشمس ثم نهض

– حسناً ، أعتقد أن عليّ أن أذهب إلى البيت

صعد إلى عربته وأيقظ البغلين أي أنه جعلهما يتحركان إذ لا يمكن سوى لزنجي أن يعرف متى يكون البغل نائماً أو مستيقظاً لحق به وينتر بوتوم حتى الحاجز وهو يستند بذراعيه عليه قال

– نعم يا سيدي كنت سأشتري تلك المعزقة بذلك السعر بكل تأكيد واذا لم تشترها أنت سأكون كلباً ان لم أشترها أنا ، نفسي ، بذلك السعر وأعتقد أن الشخص الذي يملكها ليس لديه بغلان قرينان للبيع بحوالي خمسة دولارات ، أليس كذلك ؟

قال آرمستيد

– بكل تأكيد

ثم تابع قيادة العربة التي بدأت مسيرها المقعقع البطيء المستهلك للأميال وهو لم ينظر إلى الخلف أيضاً من الواضح أنه لا ينظر إلى الأمام أيضاً ، لأنه لا يرى المرأة الجالسة في الحفرة قرب الطريق إلا حين تصل العربة إلى أعلى التلة تقريباً وفي اللحظة التي يميز بها الثوب الأزرق لا يستطيع أن يعرف ان كانت هي قد رأت العربة اطلاقاً أو

www.ibtesama.com/vb

لم ترها وما كان في وسع أي شخص أن يعرف قط إن كان هو قد نظر إليها حين كانا يقتربان ، دون أي أثر من آثار التقدم في أي منهما ، والعربة تزحف على نحو رهيب باتجاهها في تلك الحالة الواضحة من النعاس والغبار الأحمر الذي تتحرك فيه الأقدام المثابرة للبغلين في حالة من الحلم تضبطها الصلصلة المتفرقة للطقم ، والجزء الأمامي من العربة يتمايل بأذنين كأذني الأرنب الأمريكي ، والبغلان ما يزالان لا هما بالنائمين ولا هما بالمستيقظين حين يوقفهما

من تحت قبعة شمسية ذات لون أزرق باهت ، أبلتها الآن عوامل أخرى غير الصابون والماء المعتادين ، تنظر إليه بهدوء ودماثة شابة ، ذات وجه لطيف ، صريحة ، ودودة ومتيقظة انها لم تتحرك بعد تحت الثوب الباهت ذي اللون الأزرق نفسه الذي أبلته عوامل الطقس بدا جسدها عديم الشكل جامداً المروحة والصرّة قابعتان في حضنها لا ترتدي أي جوارب ترتاح قدماها الحافيتان جنباً إلى جنب في الحفرة الضحلة لم يكن زوجا الأحذيةالثقيلانالرجاليان إلى القرب منهما أكثر جموداً في العربة المتوقفة يجلس آرمستيد ، محدودباً ، بعينين لا لون لهما يرى أن اطار المروحة مربوط بأناقة باللون الأزرق الباهت نفسه الذي للقبعة الشمسية والثوب

— يقول :

— إلى أين أنت ذاهبة ؟

— كنت أحاول أن أقطع جزءاً من الطريق قبل حلول الظلام

هذا ما تقوله تنهض ثم تحمل حذاءها تتسلق ببطء وتمهل.

www.ibtesama.com/vb

نحو الطريق مقتربة من العربة لا ينزل آرمستيد ليساعدها بل يكبح البغلين فحسب بينما تصعد هي بثقل من فوق العجلة وتضع الحذاء تحت المقعد ثم تستأنف العربة المسير تقول

– أشكرك كان السير على الأقدام متعباً تماماً

من الواضح أن آرمستيد لم ينظر إليها ملياً ولو نظرة واحدة ومع ذلك فقد كان قد سبق له ورأى أنها لا ترتدي خاتم زواج انه لا ينظر إليها الآن ومن جديد عادت العربة إلى صلصلتها البطيئة المعتادة

يقول

– ومن أين أنت قادمة ؟

زفرت لم تكن تلك تنهيدة بقدر ما كانت زفيراً هادئاً ، أو كأنما كانت تعبّر عن دهشة هادئة

– من مكان بعيد كما يبدو لي الآن لقد قدمت من آلاباما

– من آلاباما ؟ في مثل حالتك ؟ أين هم ذووك ؟

لا تنظر إليه هي أيضاً

– أتطلع إلى لقائه على هذه الطريق قد تعرفه اسمه هو لوكاس بيرتش لقد قيل لي هناك بعيداً انه في جفرسون وهو يعمل في ورشة سحج الخشب

– لوكاس بيرتش

www.ibtesama.com/vb

نبرة صوت آرمستيد تكاد تكون مطابقة لنبرتها ها هما يجلسان جنباً إلى جنب على المقعد المرتخي ذي البزالات المكسورة يستطيع أن يرى يديها فوق حضنها والصورة الجانبية لوجهها تحت القبعة الشمسية ، انه يراها بزاوية عينه تبدو كأنها تراقب الطريق وهي تنبسط بين الآذان الرشيقة للبغلين

– وهل جئت إلى هنا قاطعة كل هذه الطريق ، على قدميك ، لوحدك ، باحثة عنه ؟

لا تجيبه للحظة ثم تقول

– كان الناس لطيفين معي كانوا لطيفين جداً

– والنساء أيضاً ؟

من زاوية عينه كان يراقب الصورة الجانبية لوجهها ، مفكراً **لاأعرف ما ستقوله مارثا** مفكراً « أعتقد أني أعرف فعلاً ما ستقوله مارثا أعتقد أن من شأن النساء أن يكنّ طيّبات على الأرجح دون أن يكنّ لطيفات جداً ويمكن للرجال ، الآن أيضاً ولكن المرأة الشريرة فحسب هي التي من المحتمل أن تكون لطيفة جداً مع امرأة أخرى تحتاج إلى العطف » مفكراً **أجل أعتقد ذلك . أعرف بالضبط ما ستقوله مارثا**

تجلس منحنية إلى الأمام قليلاً ، هادئة تماماً ، الصورة الجانبية لوجهها هادئة تماماً ، خدّها تقول

– انه لأمر غريب

– كيف للناس أن ينظروا إلى فتاة شابة تقطع الطريق مشياً في مثل حالتك ويعرفون أن زوجها قد هجرها ؟

www.ibtesama.com/vb

لا تتحرك.العربة الآنلها نوع من الايقاع ،خشبهاغير المشحم والغاضب مع العصر البطيء ،الطريق ، الحرارة . « وأنت تنوين أن تجديه هنا».

لا تتحرك ، من الواضح أنها تراقب الطريق البطيئة بين آذان البغلين ، المسافة المحددة التي نحتتها الطريق ربما

— أعتقد أني سأجده لن يكون ذلك صعباً سيكون حيث يجتمع معظم الناس معاً ، وحيث الضحك والمزاح كان دائماً بارعاً في ذلك

ينخر آرمستيد ، بصوت همجي فظ يقول

— هيا أيها البغلان

يقول لنفسه ، بين التفكير والتلفظ بصوت مرتفع

— أعتقد أنها ستجده أعتقد أن ذلك الشخص قد اكتشف أنه قد ارتكب غلطة شنيعة حين توقف عند هذه الناحية من آركنساس أو حتى تكساس

الشمس تنحدر ، انها على مسافة ساعة فوق الأفق الآن ، فوق الحلول السريع لليل الصيف الممرّ الضيق يتفرع عن الطريق ،أهدأ حتى من الطريق يقول آرمستيد

— ها قد وصلنا

تتحرك المرأة على الفور تمد يدها وتجد حذاءها من الواضح أنها لا تنوى حتى أن تؤخر العربة فترتدي حذاءها الآن تقول

— أشكرك كثيراً لقد ساعدتني فعلاً

تتوقف العربة مرة أخرى المرأة تستعد للنزول يقول آرمستيد

— حتى لو وصلت إلى مخزن فارنر قبل الغروب ، ستكونين مازلت بعيدة عن جفرسون مسافة اثني عشر ميلاً

www.ibtesama.com/vb

تمسك بالحذاء والصرّة والمروحة بيد واحدة وباضطراب ، والأخرى حرة لتساعدها على الهبوط تقول

– أعتقد أنه من الأفضل لي أن أستمر

لا يلمسها آرمستيد يقول

– تعالي لتقضي الليلة في بيتي ، حيث هناك نساء حيث يمكن لامرأة أن اذا أنت هيا تعالي الآن سأصطحبك إلى مخزن فارنر أول النهار وهناك ستجدين من يوصلك بعربته إلى البلدة لابدّ ستجدين شخصاً ما ذاهباً إلى هناك ، فغداً هو السبت لن يهرب منك خلال ليلة واحدة ان كان في جفرسون على الاطلاق ، فسيكون هناك في الغد أيضاً

تجلس ساكنة ، وممتلكاتها مجتمعة في يدها وهي تستعد للنزول تنظر إلى الأمام ، إلى حيث تلتف الطريق مبتعدة ، وقد تخللتها الظلال على نحو منحرف

– أعتقد أنه لا زالت أمامي بضعة أيام

– طبعاً لا زال أمامك الكثير من الوقت ولكنك عرضة إلى أن تحظي في أية لحظة الآن برفيق لا يستطيع المشي تعالي إلى البيت معي

يجعل البغلين يتحركان دون أن ينتظر جواباً تدخل العربة الممر ، الطريق المعتمة تعود المرأة إلى الجلوس ، رغم أنها لا تزال تحمل المروحة والصرة والحذاء تقول

– لن أثقل عليكم لن أزعجكم

www.ibtesama.com/vb

يقول آرمستيد :

– طبعاً تعالي معي

ولأوّل مرة يتحرك البغلان بسرعة تلقائياً

يقول آرمستيد

– انهما يشمان رائحة الشعير

يفكر « ولكن هكذا هنّ النساء ستكون هي أول من يحفر تحت امرأة من أخواتها من النساء ، ستسير عبر البلد كلها دون خجل لأنها تعرف أن الناس ، الرجال ، سيعتنون بها انها لا تهتم مطلقاً بالنساء لم تكن امرأة هي من ورّطتها فيما لا تدعوه هي حتى بالمشكلة. نعم يا سيدي اترك واحدة منهن تتزوج أو تتورّط دون زواج ، وعندها بالضبط ستنسحب من جنس النساء وصنفهن وتنفق بقية حياتها تحاول الالتحاق بجنس الرجال لذلك يتناولن النشوق ويدخّنّ ويردن أن يصوّتن »

حين تمر العربة بالمنزل وتتجه نحو الحظيرة ، تراقبها زوجته من الباب الأمامي انه لا ينظر في ذلك الاتجاه ، ليس في حاجة إلى أن ينظر ليعرف أنها ستكون هناك ، أنها هناك يفكر بجنون تهكمي وهو يدير البغلين باتجاه الباب المفتوح « أجل ، أعرف بالضبط ما ستقوله أعتقد أني أعرف بالضبط » يوقف العربة ، وهو ليس في حاجة إلى أن ينظر ليعرف أن زوجه في المطبخ الآن ، انها لا تراقب الآن ؛ بل تنتظر فحسب يوقف العربة يقول

– اذهبي إلى المنزل

www.ibtesama.com/vb

لقد سبق له ونزل والمرأة تنزل الآن ببطء بذلك التمهل الداخلي المضغي

– حين تقابلين شخصاً ما ، سيكون « مارثا » سأدخل بعد أن أطعم الحيوانات

لا يراقبها وهي تعبر الساحة وتتجه نحو المطبخ ليس في حاجة إلى ذلك وخطوة خطوة يدخل معها من باب المطبخ ويواجه المرأة التي تراقب باب المطبخ الآن كما تراقب بالضبط العربة وهي تمر من الباب الأمامي يفكر « أعتقد أني أعرف ما ستقوله بالضبط »

يخرج زوجي البغال إلى الخارج ويسقيهما ويربطهما ويعلفهما ، ثم يدخل البقرات القادمات من المرعى ثم يذهب إلى المطبخ انها لاتزال هناك ، المرأة الشيباء ذات الوجه البارد القاسي الغضوب التي حملت خمسة أولاد في ست سنين وربتهم حتى بلغوا مبلغ الرجال ومبلغ النساء ليست هي خاملة الآن لا ينظر إليها يذهب إلى المغسلة ويملأ مقلاة من الدلو ويشمّر عن ساعديه يقول

– اسمها بيرتش هذا على الأقل ما تقول انه اسم الرجل الذي تبحث عنه لوكاس بيرتش قال لها شخص في مكان ما من الطريق انه في جفرسون الآن

يبدأ بغسل نفسه وظهره إليها

– أتت قاطعة الطريق كلها من آلاباما ، لوحدها ، وعلى قدميها ، كما تقول

www.ibtesama.com/vb

لاتلتفت السيدة آرمستيد انها مشغولة عند الطاولة

— ستتخلى عن أن تكون وحيدة وستبقى كذلك لفترة طويلة قبل أن ترى آلاباما مجدداً

— أو قبل أن ترى ذلك الشخص ، بيرتش ، على ما أعتقد أيضاً

انه منشغل تماماً عند المغسلة ، بالصابون والماء وهو قادر على أن يشعر بها تنظر إليه ، إلى مؤخرة رأسه ، إلى كتفيه في القميص ذي اللون الأزرق الحائل من التعرق

— تقول ان شخصاً ما في « مخزن سامسون » أخبرها أن هناك شخصاً اسمه بيرتش أو ما شابه يعمل في ورشة سحج الخشب في جفرسون

— وهي تتوقع أن تجده هناك في انتظارها والمنزل مؤثث كله وجاهز

لا يستطيع أن يميّز من صوتها إن كانت تراقبه الآن أم لا يجفّف نفسه بكيس دقيق مشطور

— ربما ستجده واذا كان هارباً منها ، فأعتقد أنه سيكتشف أنه ارتكب خطأ شنيعاً حين توقف قبل أن يجعل نهر الميسيسيبي يفصل بينهما

والآن يعرف أنها تراقبه المرأة الشيباء غير البدينة وغير الناحلة ، والخشنة كالرجال والكادحة في ثوب رمادي متين ترتديه على نحو فظ وجلف ، ويداها على وركيها ، ووجهها كوجوه أولئك الجنرالات الذين هُزموا في المعركة

www.ibtesama.com/vb

تقول

– أنتم معشر الرجال

– ما الذي تريدين أن نفعله بها ؟ نطردها ؟ ندعها تنام في الحظيرة ربما ؟

تقول

– أنتم معشر الرجال ، الرجال اللعينين

* * *

يدخلان المطبخ معاً ، رغم أن السيدة آرمستيد في المقدمة تذهب نحو الموقد مباشرة تقف « لينا » في الباب تماماً رأسها غير مغطاة الآن ، وشعرها ممشط وناعم وحتى الثوب الأزرق يبدو كأنه قد انتعش وارتاح بعد تعب تستمر في النظر بينما السيدة آرمستيد عند الموقد تصفق الأغطية المعدنية وتعالج عيدان الحطب بالفظاظة الحادة التي للرجال تقول لينا

– أود تقديم المساعدة

لا تلتفت السيدة آرمستيد تصفق باب الموقد بفظاظة

– ابقي حيث أنت أريحي قدميك الآن ، وسوف تريحين ، ظهرك فترة أطول ربما

– سيكون كرماً متبرعاً بالفضل لو تسمحين لي بمساعدتك

– ابقي حيث أنت أنا أقوم بمثل هذا العمل ثلاث مرات يومياً منذ ثلاثين عاماً لقد انقضى ذلك الزمان الذي كنت أحتاج فيه إلى المساعدة في مثل هذه الأمور

www.ibtesama.com/vb

انها منهمكة عند الموقد ولا تلتفت إلى الخلف

– يقول آرمستيد ان اسمك هو بيرتش

تقول الأخرى :

– أجل

صوتها جدّيّ تماماً الآن ، هادىء تماماً تجلس ساكنة تماماً ، ويداها دون حراك فوق حجرها والسيدة آرمستيد لا تلتفت أيضاً لا زالت مشغولة عند الموقد ويبدو العمل كأنه يتطلب حجماً من الانتباه لا يتناسب مع روح الحسم الضارية التي أوقدت بها النار ويبدو أنه يتطلب منها انتباها أشبه بذاك الذي يبذل لساعة يد ثمينة

تقول السيدة آرمستيد

– هل أصبح اسمك بيرتش أم ليس بعد ؟

لا تجيب المرأة الشابة على الفور السيدة آرمستيد لا تجعل الموقد يقعقع الآن ، رغم أن ظهرها لا يزال نحو المرأة الأصغر سناً ثم تلتفت تنظر الواحدة منهما إلى الأخرى ، عاريتين فجأة ، تراقب احداهما الأخر المرأة الشابة على الكرسي ؛ بشعرها المرتّب ويديها الساكنتين على حجرها ، والمرأة الأكبر سناً قرب الموقد، تلتفت دون حراك أيضاً ، مع خصلة وحشية من الشعر الأشيب عند قاعدة جمجمتها ووجه كأنما نُحت من الحجر الرملي ثم تتكلم المرأة الأصغر سناً

– لم أقل الحقيقة اسمي ليس « بيرتش » اسمي « لينا غروف ».

تنظران الواحدة إلى الأخرى صوت السيدة آرمستيد ليس بالبارد ولا بالدافىء انه ليس أي شيء على الاطلاق

www.ibtesama.com/vb

– اذن تريدين اللحاق به حتى يصبح اسمك بيرتش في الوقت الملائم أليس كذلك ؟

تخفض لينا من بصرها الآن ، كأنما تراقب يديها فوق حجرها صوتها هادىء ، عنيد ومع ذلك فهو صاف

– لا أعتقد أني في حاجة إلى أي وعد من لوكاس لقد حدث لسوء الحظ أن اضطر هو إلى الرحيل لم تفلح خطته في العودة ليصطحبني كما كان ينوي أعتقد أني وهو لا نحتاج إلى اعطاء وعود حين اكتشف تلك الليلة أنه مضطر للرحيل ،

– اكتشف في أية ليلة ؟ تلك الليلة التي حكيت بها له عن ذلك الأمر ؟

لا تجيب الأخرى للحظة وجهها هادىء كالصخر ، ولكنه ليس صارما

ان لعناده صفة السلاسة صفة ذات تنوير داخلي تتميز بلا عقلانية وتجرد هادئين ورصينين تراقبها السيدة آرمستيد لا تنظر لينا الى المرأة الأخرى وهي تتكلم

– كانت قد وصلته الرسالة الخاصة باضطراره الى المغادرة قبل زمن طويل من ذلك ولكنه لم يخبرني بها في وقت أبكر لأنه لم يكن راغبا في ازعاجي بذلك حين سمع بالأمر أول مرة كان يمكنه ان يرحل، كان يعرف آنذاك أنه من الأفضل له أن يفعل، وأنه كان قادراً على الوصول على نحو أسرع الى مكان لا يضطهده فيه رئيس العمال. ولكنه واظب على التأجيل إلا أنه حين جرى ما جرى أخيراً ، لم نستطع

www.ibtesama.com/vb

التأجيل أكثر من ذلك كان رئيس العمال يضطهد لوكاس اذ لم يكن يحبه لأن لوكاس شاب ومليء بالحيوية طوال الوقت وكان رئيس العمال يريد أن يعطي وظيفة لوكاس الى ابن عم له ولكنه لم يرغب بإبلاغي بذلك لأن من شأنه أن يقلقني فحسب واذ حدث هذا الذي ترين لم نستطع أن ننتظر أكثر أنا التي طلبت منه الرحيل قال انه سيبقى لو أردت ، سواء عامله رئيس العمال بعدل أم لا ولكنني طلبت منه الرحيل لم يكن يريد الرحيل أبداً ، حتى في ذلك الحين ولكني طلبت منه ذلك على أن يرسل الي خبراً حين يصبح مستعداً لاستقبالي وثم لم تنجح خطته في أن يرسل في طلبي في الوقت الملائم كما كان يريد ان المكوث بين الغرباء لا يتيح الفرصة لشاب صغير السن أن يستقر بسرعة لم تكن يعرف ذلك مطلقاً حين غادرني ، أي أن الاستقرار سيستغرق منه زمناً أطول مما كان يتصوّر خاصة بالنسبة إلى شاب ممتلىء بالحياة كلوكاس الذي يحبّ الناس والمرح ، ويحبّه الناس بدورهم لم يكن يعلم أن ذلك سيستغرق منه زمناً أطول مما كان قد خطّط له ، كونه صغير السنّ ، والناس دائماً في اثره لأنه ماهر في الضحك والتنكيت ، ويتدخلون بعمله دون أن يدري لأنه لا يحبّ اطلاقاً ايذاء مشاعر الناس ولقد أردت أن يستمتع بآخر فرصة من المتعة ستتاح له ، لأن الزواج أمر مختلف ان كان بين شاب صغير السنّ ، شاب صغير السنّ وحيويّ ، وامرأة انه يدوم طويلاً جداً مع شاب صغير السن وحيويّ ألا تعتقدين ذلك ؟

لا تردّ السيدة آرمستيد تنظر إلى المرأة الأخرى الجالسة على الكرسي بشعرها الناعم ويديها الساكنتين القابعتين على حجرها ، ووجهها الهادىء المتأمّل

www.ibtesama.com/vb

– من المرجح أن يكون قد سبق له وأرسل خبراً اليّ وضاع على الطريق المسافة طويلة جداً بين هنا وآلاباما ، وأنا لم أصل إلى جفرسون بعد حتّى لقد قلت له اني لا أتوقع منه أن يكتب لي رسائل حيث أنه ليس بارعاً اطلاقاً في كتابتها قلت له « ارسل الي خبراً حين تصبح مستعداً لا ستقبالي سأكون في انتظارك » لقد أقلقني الأمر قليلاً في البداية بعد رحيله ، لأن اسمي لم يصبح بيرتش بعد وأخي وأسرته لا يعرفون لوكاس بقدر ما أعرفه أنا وكيف كان يمكنهم ذلك ؟

وببطء يعتّري وجهها تعبير من الدهشة الهادئة اللامعة ، كأنما قد فكرت للتوّ في شيء ما لم تكن مدركة حتّى أنها لم تكن تعرفه

– كيف كان يمكنهم ذلك ، حسب رأيك ؟ ولكن عليه أن يستقر أوّلا انه هو الذي سيعاني من كونه بين غرباء ، وأنا لا أعاني من أي شيء باستثناء الانتظار بينما عليه هو أن يعاني ويقلق ولكن بعد فترة أعتقد أني انشغلت كثيراً بحملي بحيث لم أكن قلقة فيما يخصّ اسمي أو ما يفكر به الناس ولكني ولوكاس لا نحتاج إلى عهود بيننا لقد حدث شيء غير متوقع أو أنه أرسل خبراً وضاع لذلك قررت في أحد الأيام أن أنطلق دون المزيد من الانتظار

– وكيف عرفت في أي اتجاه يجب أن تنطلقي ؟

لينا تراقب يديها انهما تتحركان الآن ، تثنيان بذهول مستغرق ثنية في تنورتها لم يكن ذلك عن قلة ثقة بالنفس أو حياء لاشكّ أنه رد فعل انعكاسي تأمّلي لليد وحدها

– لقد واظبت على السؤال فبما أن لوكاس شاب حيوي يتعرف على الناس بسهولة وسرعة ، كنت أعرف أنه أنّى ذهب سيتذكره

www.ibtesama.com/vb

الناس لذلك واظبت على السؤال وكان الناس لطيفين جداً . وبالتأكيد سمعت منذ يومين على الطريق أنه في جفرسون ، وأنه يعمل في ورشة للسحج

تراقب السيدة آرمستيد الوجه المطأطىء يداها على وركيها وهي تراقب المرأة الشابة بتعبير من الازدراء البارد المجرّد

– وهل تعتقدين أنه سيكون هناك حين تصلين ؟ هذا ان كان هو هناك على أية حال ؟ أنه سيسمع بوجودك في البلدة نفسها التي هو فيها ، وأنه سيبقى هناك حين تغرب الشمس ؟

وجه لينا المطأطىء جدّيّ وهادىء يدها توقفت الآن إنها تصبح ساكنة على حجرها ، كأنها قد ماتت هناك صوتها هادىء ، ساكن وعنيد

– أعتقد أنه على الأسرة أن يجتمع شملها حين يلد لها طفل خاصة حين يكون ذاك هو أوّل أطفالها أعتقد أن الرب سيتكفل بذلك

* * *

تقول السيدة آرمستيد بضراوة وقسوة

– وأعتقد أن على الرب أن يتكفّل بذلك

آرمستيد في الفراش ورأسه مسندة قليلاً إلى الأعلى ، يراقبها عبر اللوح الذي يسند قائمتي السرير الخلفيتين وهي تنحني في نور المصباح ، ولا زالت في ملابسها ، على الخزانة الصغيرة ، تفتش بعنف في أحد

www.ibtesama.com/vb

الأدراج تخرج علبة معدنية وتفتحها بمفتاح معلّق حول رقبتها وتفتح كيساً قماشياً تخرج منه تمثالاً صينياً صغيراً يمثل ديكاً له ثقب طولي في ظهره صلصلت به قطع النقود وهي تحركه وتقلبه وتهزه بعنف فوق الخزانة وتخرج من الشق قطعاً نقدية تتدفق على نحو هزيل آرمستيد في الفراش يراقبها يقول

– ما الذي تنوين فعله بنقود البيض خاصتك في هذا الوقت من الليل ؟

– أعتقد أنها نقودي ولي الحق في التصرف بها كما أشاء

تنحني أمام المصباح بوجه قاس مرير

– الله يعلم كم تعبت بها ورعيتها فأنت لم تقدم أية مساعدة

يقول

– طبعاً أعتقد أنه لا يوجد شخص في هذا البلد يمكنه أن يشك في حقوقك في تلك الدجاجات ألا « الأبوسوم » (١) والحيات ولا حصالة الديك هذه أيضاً

تنحني فجأة وتخلع فردة حذاء وتضرب بها الحصالة ضربة قاضية ومن الفراش يراقبها آرمستيد وهو مضطجع ، وهي تلم قطع النقود الباقية من بين شظايا الديك الصيني وتسقطها مع القطع الأخرى في الكيس وتعقده ثم تفكه ثلاث أو أربع مرات بلمسة ختامية فظة

---

(١) حيوان أمريكي (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

تقول :

– أعط هذا لها مع شروق الشمس جهز العربة والبغلين وخذها بعيداً عن هنا خذها حتى جفرسون إن شئت

يقول

– أعتقد أنها تستطيع أن تجد من سيوصلها من مخزن فارنر

* * *

نهضت السيدة آرمستيد قبل الفجر وجهزت طعام الفطور وحين عاد آرمستيد من حلب البقرات وجد الطعام على الطاولة قالت السيدة آرمستيد

– اذهب وقل لها أن تأتي وتأكل

وحين عاد هو ولينا إلى المطبخ لم تكن السيدة آرمستيد هناك نظرات لينا في أرجاء الغرفة لمرة واحدة ، متوقفة عند الباب بأقل من توقف ، وقد سبق لوجهها أن ثبت على تعبير تأصل فيه الابتسام والكلام ، الكلام المحضر كان آرمستيد على علم بذلك ولكنها لم تقل شيئاً كان التوقف أقل من توقف

قال آرمستيد

– لتأكل ثم نرحل لا زالت أمامك مسافة طويلة

راقبها وهي تأكل بذلك الذوق الهادىء ذي الشهية الحسنة الذي تناولت به في الليلة الماضية طعام العشاء ، رغم وجود ما يفسده الآن ألا وهو نوع من الكبح المهذب النيق ثم أعطاها الكيس القماشي

www.ibtesama.com/vb

المعقود أخذته ، وقد بدا السرور على وجهها ، وكذلك الدفء ، وليس الكثير من الدهشة على أية حال

قالت

– هذا لطف كبير منها ولكني لن أحتاج إليه لقد أصبحت قريبة جداً الآن

– أعتقد أنه من الأفضل لك أن تحتفظي به أعتقد أنك لابدّ لاحظت أن مارثا لا تحب أن يعارضها أحد فيما تنوي فعله

قالت لينا

– هذا كرم كبير منها ربطت النقود بصرّتها التي هي عبارة عن منديل كبير مزدان بالرسوم وارتدت قبعتها الشمسية كانت العربة تنتظرهما .وحين سارا بها على امتداد الممّر ، عبر المنزل ، نظرت نحوه ملتفتة برأسها ، قالت

– كان لطفاً كبيراً منكم جميعاً

قال آرمستيد

– كان ذلك من فعلها هي لا أدعي أي فضل اطلاقاً

– كان ذلك لطفاً كبيراً على أية حال عليك أن تقول لها كلمة وداع نيابة عني كنت آمل أن أراها بنفسي ولكن

قال آرمستيد

– طبعاً أعتقد أنها كانت مشغولة أو ما شابه سأقول لها

سارا بالعربة حتى المخزن في نور الشمس المبكرة ، والرجال

www.ibtesama.com/vb

الجالسون قد سبق لهم وراحوا يبصقون عبر الرواق الذي هشته أعقاب الأحذية ، ويراقبونها وهي تنزل ببطء وحذر من مقعد العربة ، حاملة الصرّة والمروحة ومن جديد لم يتحرك آرمستيد ليساعدها قال من المقعد

— هذه هي السيدة بيرتش تريد الذهاب إلى جفرسون . واذا كان هناك شخص مغادر إلى هناك اليوم فانها ترجو الذهاب معه

وصلت الأرض ، بالحذاء الثقيل المغبر نظرت إليه من الأسفل ، بهدوء وطمأنينة قالت

— كان ذلك لطفاً كبيراً

قال آرمستيد

— طبعاً . أعتقد أنك تستطيعين الوصول إلى البلدة الآن نظر إليها من عل ثم بدت له لحظة لا متناهية وهو يراقب لسانه يبحث عن الكلمات ، مفكراً بهدوء وبسرعة والأفكار تفرّ منه رجل كل الرجال . سيرفض مئة فرصة لفعل الخير ليقبل فرصة واحدة للتطفل حيث التطفّل أمر غير مرغوب فيه . سيتجاهل الفرص والمناسبات ويفشل في أن يراها ، فرصاً لجني الثروة والشهرة والرفاه ، وأحياناً الشر حتى . ولكن لن تفوته رؤية فرصة للتطفل ثم يجد لسانه الكلمات ، ويروح يصغي بالدهشة نفسها ربما التي راحت هي تصغي بها

— ولكني ما كنت لاثق كثيراً ب أو آمل ب

مفكراً إنها لا تصغي .إذا كانت تستطيع احتمال سماع كلمات كهذه فإنها لن تنزل من هذه العربة ، بتلك البطن وتلك المروحة

www.ibtesama.com/vb

وتلك الصرة الصغيرة ، لوحدها ، متجهة إلى مكان ما لم يسبق لها أن رأته باحثة عن رجل لن تراه أبداً من جديد وقد سبق لها ورأته أكثر مما كان متوجباً

— . في أي وقت تمرين فيه من هنا وأنت في طريق العودة ، غداً أو حتى هذه الليلة

قالت

— أعتقد أني سأكون على ما يرام الآن . لقد قالوا لي إنه هناك

أدار العربة وعاد بها باتجاه البيت، جالساً فيها محدودب الظهر ، بعينين لا لون لهما ، على المقعد غير الثابت ، مفكراً « ما كان في ذلك أي نفع ما كانت لتصدق ما يقال وما يسمع أكثر مما ستصدق التفكير الذي يدور من حولها . إنها أربعة أسابيع حتى الآن ، كما قالت أكثر مما كانت ستحس به أو تصدقه الآن جالسة هناك على تلك الدرجة العليا ، ويداها في حجرها وأولئك الناس جالسون القرفصاء هناك ويبصقون من فوقها نحو الطريق وهي لا تنتظرهم حتى يسألوها بل تروح تحكي لهم من تلقاء ذاتها حول ذلك الشخص اللعين وكأنما لم يكن لديها شيء خاص تخفيه أو تحكيه ، حتى حين سيقول لها « جودي فارنر » ، أو شخص آخر منهم إن ذلك الشخص في جفرسون في ورشة السحج يدعى « بنتش » وليس بيرتش وهذا لن يجعلها تقلق أيضاً أعتقد أنها تعرف أكثر من « مارثا » حتى

www.ibtesama.com/vb

كما حكت هي لمارثا في الليلة الماضية كيف أن الرب سيعيد الحق إلى نصابه »

* * *

تطلب الأمر سؤالاً أو سؤالين فحسب ثم بدأت لينا وهي جالسة على الدرجة العليا ، والمروحة والصرة على حجرها ، تحكي حكايتها مرة أخرى ، بتلك الاعادة المختصرة الصابرة والواضحة التي يتميز بها الطفل الكاذب ، والرجال الجالسون القرفصاء المرتدون الأوفرولات يصغون بهدوء

يقول فارنر

– اسم ذلك الشخص هو « بنتش » وهو يعمل في تلك الورشة منذ سبع سنين كيف تعرفين أن « بيرتش » هناك أيضاً ؟

انها تنظر بعيداً باتجاه الطريق ، باتجاه جفرسون وجهها هادىء ، مترقب ، مستقلّ قليلاً دون انذهال

– أعتقد أنه سيكون هناك في ورشة السحج تلك لوكاس يحب الاثارة دائماً ليس من النوع الذي يحب الحياة الهادئة لهذا السبب لم تعجبه « ورشة دون » عجباً لقد قرر قررنا أن نمارس بعض التغيير من أجل النقود والاثارة

www.ibtesama.com/vb

يقول فارنر

— من أجل النقود والاثارة ليس لوكاس أول شاب يتخلّى عما تربّى على فعله ، وهؤلاء الذين يعتمدون عليه يفعلون ذلك من أجل النقود والاثارة

ولكنها لا تصغي على ما يبدو تجلس بهدوء على الدرجة العليا ، تراقب الطريق حيث تنحني ، فارغة وآخذة بالارتفاع ، نحو جفرسون . ينظر الرجال الجالسون القرفصاء على امتداد الجدار إلى وجهها الهادىء الرائق ، ويفكرون كما فكر آرمستيد وكما يفكر فارنر إنها تفكر بوغد تخلّى عنها وهي في ورطة ، ويعتقدون أنها لن تراه أبداً مرة أخرى ، وربما سترى ذيل معطفه مسطّحاً من العدو يفكر فارنر « أو ربما تفكر هي بورشة « سلون » أو « بون » وأعتقد أنه حتى فتاة حمقاء ليست مضطرة للوصول حتى الميسيسبي لتكتشف أنها أنّى ذهبت فلن يكون ذلك المكان مختلفاً إلى حد كبير عن المكان الذي هربت منه أو أسوأ منه حتى لو كان لديها فيه أخ يعارض مغامرات أخته الليلية : » مفكراً **كان من شأني أن أفعل ما فعله أخوها ؛وكان من شأن الأب أن يفعل الفعل ذاته .ليست لديها أم لأنّ دم الأب يكره بحب وفخار ، ولكن دم الأم بالكره يحب ويعاشر**

انها لا تفكر في ذلك اطلاقاً انها تفكر بالنقود المعقودة في المناديل الموجودة في الصرة تحت يديها انها تتذكر طعام الفطور وتفكر كيف تستطيع أن تدخل المخزن الآن وتشتري الجبن والبسكويت الهش الناشف وحتى السردين لو أرادت في بيت آرمستيد لم تتناول سوى

www.ibtesama.com/vb

فنجان من القهوة وقطعة من خبز الذرة لا شيء أكثر ، رغم أن آزمستيد ألحّ عليها تفكر : « لقد أكلت بتهذيب » ، ويداها فوق الصرّة ، تتعرف على النقود المخبأة ، وتتذكر فنجان القهوة الوحيد والكسرة المحتشمة من الخبز الغريب ؛ تفكر بنوع من الفخر الهادىء « أكلت كسيدة كسيدة على سفر ولكني أستطيع الآن شراء السردين أيضاً لو وددت »

وهكذا يبدو عليها أنها تفكر بالطريق الصاعدة بينما الرجال الباصقون ببطء والجالسون القرفصاء يراقبونها سراً ، معتقدين أنها تفكر في الرجل والأزمة الوشيكة ، بينما تشنّ هي في الواقع معركة لطيفة مع ذلك الاحتراس الرباني للأرض العجوز التي تعيش عليها وبها هذه المرة هي التي تنتصر تنهض وتسير بقليل من الاضطراب ، وبقليل من الحذر وتعبر صف بطارية عيون الرجال وتدخل المخزن ، والبائع يلحق بها تفكر «سأفعلها» حتى وهي تطلب الجبن والبسكويت الهش . تفكر « سأفعلها» وهي تقول بصوت مرتفع

— وعلبة سردين

تلفظها « سوردينز »

— علبة قصدير

يقول البائع

— ليست لدينا علب قصدير والسردين بخمسة عشر سنتاً.

هو أيضاً يسميها « سوردينز »

تفكر ثم تقول

www.ibtesama.com/vb

— ما الذي لديك ضمن علبة بما يساوي نيكلاً (١)

— ليس لدي أي شيء سوى طلاء الأحذية لا أعتقد أن تريدين ذلك ليس لدي ما يؤكل على أية حال.

— أعتقد أني سآخذ تلك بخمسة عشر سنتاً اذن

تفك الصرة والكيس المعقود تطلب الأمر بعض الوقت لحل العقد. ولكنها تفكها بصبر، واحدة واحدة، ثم تدفع وتعقد الكيس والصرة مجدداً ثم تحمل مشترياتها حين تخرج إلى الرواق هناك عربة تقف في أسفل الدرج يوجد رجل على معقدها

يقولون لها

— ها هي عربة متجهة إلى البلدة سيأخذك معه

يستفيق وجهها هادئاً، بطيئاً، دافئاً تقول

— حسناً، أنتم لطفاء جداً

* * *

تتحرك العربة ببطء، بثبات، وكأنها هنا، ضمن الوحدة المشمسة للأرض الهائلة، خارج ووراء كل الزمان والعجلة من مخزن فارنر إلى جفرسون مسافة قدرها اثنا عشر ميلاً تقول

— هل سنصل هناك قبل موعد الغداء ؟

يبصق السائق

— ربما

---

(١) النيكل قطعة نقود تساوي خمسة سنتات

(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

من الواضح انه لم ينظر اليها ، ولا حتى عندما صعدت الى العربة .
ويبدو أنها لم تنظر اليه أيضاً وهي لا تفعل ذلك الآن .

— أعتقد أنك تذهب إلى جفرسون كثيراً

يقول

— نوعاً ما

العربة تصرّ تبدو الحقول والغابات معلقة في مسافة نصف لا مفر منها ، ساكنة ومرنة ، سريعة كالسراب ومع ذلك تجتازها العربة.

أعتقد أنك لا تعرف شخصاً في جفرسون اسمه لوكاس بيرتش

— بيرتش ؟

— آمل لقاءه هناك إنه يعمل في ورشة النجارة

يقول السائق

— لا ، لا أعرف أني أعرفه ولكن هناك عدداً كبيراً من الناس في جفرسون من الذين لا أعرفهم ربما يكون هناك

— سأنشر إعلاناً ، كما آمل ، لقد أصبح السفر مزعجاً تماماً.

لا ينظر السائق إليها

— من أين أتيت باحثة عنه ؟

— من آلاباما وهي بعيدة تماماً

لا ينظر إليها صوته غير مبال

— كيف سمحت لك أبواك بالسفر وأنت على هذه الحال ؟

— أبواي ماتا أعيش مع أخي لقد قررت أن أسافر وفعلت

— ها هه لقد أرسل لك أن تأتي إلى جفرسون

إنها لا تجيب. يستطيع أن يرى تحت قبعتها الشمسية الصورة الجانبية

www.ibtesama.com/vb

لوجهها الهادىء تستمر العربة في سيرها ، بطيئة ، سرمدية . الأميال الحمراء البطيئة تنبسط تحت الخطوات الثابتة للبغلين ، تحت العجلات ذات الصرير والقعقعة تقف الشمس عالية في السماء ، ويسقط ظلّ القبعة الشمسية على حضنها ترفع نظرها إلى الشمس . تقول

– أعتقد أن الوقت قد حان لنتناول بعض الطعام

يراقب من زاوية عينه وهي تفتح كيس الجبن والبسكويت الهش والسردين وتعرضها عليه

يقول

– لا رغبة لديّ

– سيكون لطفاً كبيراً منك أن تشاركني الطعام

– لا رغبة لديّ هيا كلي

تبدأ بالأكل تأكل ببطء ، بثبات ، وهي تمصّ زيت السردين الدسم من أصابعها بشهية بطيئة وقوية ثم تتوقف ليس فجأة ، بل بكمال مطلق ، وفكها لا يزال يمضغ ، وبسكويتة مقضومة في يدها ووجهها مدلّى قليلاً وعيناها دون تعبير ، كأنما كانت تصغي إلى شيء بعيد جداً أو قريب جداً يكاد يكون في داخلها شحب وجهها ، غاض منه لون دم العافية ، وها هي تجلس ساكنة ، تسمع وتحس الأرض العنيدة الممعنة في القدم ، ولكن دون خوف أن انزعاج تقول لنفسها دون تحريك الشفتين ودون صوت « انهما توأمان على الأقل » ثم تنقضي نوبة التشنج تأكل مجدّداً لم تكن العربة قد توقفت تبلغ العربة قمة التلة الأخيرة ويريان دخاناً

www.ibtesama.com/vb

يقول السائق

– جفرسون

تقول

– حسناً ، سأنشر اعلاناً لقد وصلنا تقريباً ، أليس كذلك ؟

إن الرجل هو الذي لا يسمع الآن إنه ينظر نحو الأمام ، عبر الوادي باتجاه البلدة على سلسلة التلال المقابلة وهي إذ تتابع سوطه الذي راح يشير به ، ترى عمودين من دخان أحدهما ذو كثافة شديدة صادر عن الفحم المحترّق فوق مدخنة عالية ، والآخر عمود مرتفع أصفر يقف على نحو واضح بين أجمة من الأشجار تبعد قليلاً عن البلدة يقول السائق

– هناك منزل يحترق أترينه ؟

ولكنها لا تبدو بدورها كأنها تصغي تقول

– عجباً ، عجباً ، لم أقض في الطريق أكثر من أربعة أسابيع وها أنذا في جفرسون عجباً المرء يستطيع أن يغلب فعلاً

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثاني

كان ذلك في صباح أحد أيام الجمعة، يعرف بايرون بنتش هذا منذ ثلاث سنوات وقد نظرت مجموعة الرجال العاملين على المقشطة فرأت الغريب واقفاً هناك، يراقبهم لم يعرفوا كم كان قد مضى عليه هناك بدا كمتشرد وليس كمتشرد أيضاً كان حذاؤه مغبراً وبنطاله متسخاً أيضاً ولكنه كان من نسيج صوفي محترم، ومكوياً بجدة وكان قميصه متسخاً ولكنه قميص أبيض، كما كان يرتدي ربطة عنق وقبعة من القش ذات حافة قماشية وهي جديدة تماماً، وقد رُفعت إلى الأعلى بزاوية وقحة ومشؤومة فوق وجهه الساكن لم يكن يبدو كمتشرد محترف في أسمال المهنة، ولكن كان فيه ما يوحي بانعدام الجذور على نحو واضح، وكأنه لا ينتمي إلى أية بلدة أو مدينة أو شارع أو جدران، وكأنه لا مربع هناك من الأرض يمكن أن يكون بيته وأنه كان يحمل معرفته معه دائماً كأنها رايه، بصفة قاسية، وحيدة بل وباعتزاز تقريباً وكما قال الرجال لا حقاً « كأنه كان سيء الحظ منذ فترة، وأنه لم يكن ينوي أن يسكت عن ذلك ولا هو مهتم كيف سيتحسن حظه » كان شاباً وقد راقبه بايرون وهو يقف هناك وينظر

www.ibtesama.com/vb

إلى الرجال المرتدين أوفرولات مبقّعة بالعرق ، ولفافة تبغ في زاوية فمه ووجهه مكفهر وهادىء على نحو ازدرائي ، وقد امتط نحو الأسفل قليلاً باتجاه جانب واحد بسبب الدخان وبعد برهة بصق اللفافة دون أن يلمسها بيده ثم التمت ومضى نحو مكتب الورشة بينما الرجال في الأوفرولات الباهته والملطخة من العمل ينظرون إلى ظهره بنوع من الحنق المشوب بالحيرة قال رئيس العمال

— يجب أن نمرّره عبر المقشطة ربما سيكون من شأن ذلك أن يزيل تلك النظرة عن وجهه

لم يعرفوا من هو لم يكن أي منهم قد سبق له ورآه قال أحدهم: ولكنها نظرة محفوفة جداً بالخطر تلك التي يحملها وجهه على الملأ قد ينسى ويستعملها في مكان ما فلا تعجب شخصاً ما . » ثم توقفوا عن التحدث في شأنه على أية حال عادوا إلى عملهم بين الأقشطة والمحاور التي تئز وتصرّ ولكن لم تمض عشر دقائق حتى تدخل مدير الورشة والغريب من خلفه

قال المدير ارئيس العمال

— جيدْ له عملاً يقول انه يستطيع استعمال المجرفة يمكنك أن تجعله يعمل في كومة النشارة

لم يتوقف الآخرون عن العمل ، ولكن لم يبق في الورشة رجل لم يكن يراقب الغريب مرة أخرى في ثيابه الغريبة المتسخة ووجهه المكفهر الذي لا يطاق وهيئته التي تحمل الازدراء البارد الهادىء . نظر رئيس العمال إليه نظرة قصيرة ، وتحديقته باردة كتلك التي للغريب

— هل سيعمل بتلك الملابس ؟

www.ibtesama.com/vb

قال المدير

— هذا شأنه أنا لا أستخدم ملابسه بل أستخدمه هو

قال رئيس العمال

— حسناً ، ان ما يرتديه يناسبني اذا كان يناسبك ويناسبه حسناً أيها السيد اذهب إلى هناك واجلب مجرفة وساعد أولئك الأشخاص في نقل تلك النشارة

التفت القادم الجديد دون أن يلتفظ بأية كلمة . راقبه الآخرون وهو ينزل إلى كومة النشارة ويختفي ويعود إلى الظهور وهو يحمل مجرفة ويبدأ بالعمل كان رئيس العمال والمدير يتحادثان عند الباب ثم افترقا وعاد رئيس العمال قال

— اسمه كريسماس (عيد الميلاد)

قال أحدهم

— اسمه ماذا ؟

— كريسماس

— هل هو أجنبي ؟

قال الرئيس

— هل سبق لك وسمعت برجل أبيض اسمه كريسماس ؟

قال الآخر

— لم يسبق لي أن سمعت بأي شخص له هذا الاسم

وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتذكر فيها بايرون أنه قد سبق له وفكّر كيف أن اسم شخص ما ، والذي يفترض أن يكون مجرد صوت يعبّر عمّن يكون ، يمكن أن يكون على نحو ما تنبؤاً بما سيفعله ، هذا

www.ibtesama.com/vb

اذا كان الأشخاص الآخرون قادرين على قراءة المعنى في الوقت المناسب بدا له أنه لم ينظر أي منهم إلى الغريب بصورة خاصة حتى سمعوا اسمه ولكنهم ما أن سمعوه ، حتى كان الأمر أشبه بوجود شيء ما في الانطباعة التي تركها الاسم يحاول أن يحكي لهم ما عليهم أن يتوقعوه؛ وأن الشخص كان يحمل معه تحذيره الذي لامفرّ منه ، كما تحمل الزهرة عطرها أو حية الجرس جلجلها ولكن لم يكن لدي أي منهم الحس الكافي لإدراكه . لقد ظنوا أنه كان أجنبياً وهذا كل ما في الأمر ، وبينما كانوا يراقبونه بقية يوم الجمعة ذاك ، وهو يعمل بربطة العنق تلك وقبعة القش والبنطال المكوي ، قالوا فيما بينهم ان الرجال في بلده يعملون بهذا الأسلوب ؛ رغم أنه كان هناك آخرون قالوا : « سيغيّر ملابسه الليلة. لن يعود بملابس الأحد هذه عندما يعود إلى العمل في الصباح »

جاء صباح السبت ومع وصول آخر العمال قبل الصفارة مباشرة ، كان قد سبق لهم وراحوا يقولون « هل أين . » وكان الآخرون يشيرون كان العامل الجديد يقف وحيداً عند كومة النشارة وكانت مجرفته إلى جانبه ، ويقف بثياب الأمس نفسها ، بتلك القبعة الوقحة ، ويدخن لفافة تبغ قال الأولون « كان هنا حين وصلنا وكان واقفاً هناك ، بتلك الطريقة . وكأنه لم يذهب إلى الفراش قط » .

لم يحادث أياً منهم اطلاقاً . ولم يحاول أي منهم أن يحادثه . ولكنهم كانوا جميعاً واعين بوجوده ، بالظهر المثابر (كان يعمل جيداً ، بنوع من المثابرة الكئيبة المكبوحة) وبالذراعين المثابرتين حان وقت الظهيرة باستثناء بايرون ، لم يكن أي منهم قد جلب أي طعام للغداء معه ، وقد

www.ibtesama.com/vb

بدؤوا يجمعون حوائجهم ليحضروا أنفسهم للرحيل حتّى يوم الاثنين.
ذهب بايرون وحيداً مع دلو غدائه إلى مبنى المضخة حيث يتناول العمال طعامهم عادة ، وجلس ثم جعله شيء ما ينظر إلى الأعلى . وعلى مسافة قصيرة كان الغريب مستنداً إلى عمود وقد راح يدخّن عرف بايرون أنه كان هنا حين دخل هو ، ولكنه لم يكن مهتماً بالرحيل . أو هناك ما هو أسوأ أنه جاء إلى هنا عن عمد ، متجاهلاً بايرون معتبراً إياه عموداً آخر قال بايرون

— ألن ترحل ؟

نفث الآخر الدخان . ثم نظر إلى بايرون . كان وجهه كالحاً ، واللحم بلون الرقّ الميت غير المجعّد ليس البشرة بل اللحم نفسه ، وكأن الجمجمة قد صيغت ضمن تناسق ساكن مميت ثم شويت في فرن لاهب الحرارة قال

— وكم يدفعون لقاء العمل الاضافي ؟

وعندها عرف بايرون عرف لماذا كان الآخر يعمل وهو مرتد للملابس يوم الأحد ، ولماذا لم يكن معه طعام الغداء لا البارحة ولا اليوم ، ولماذا لم يغادر مع الآخرين عند الظهر لقد عرف ذلك كأنما قال الرجل له انه لا يحمل قرشاً واحداً في جيبه وأنه قد مضى على الأرجح اليومين أو الثلاثة الأخيرة على لفافات التبغ فحسب ومع هذه الفكرة كان بايرون يعرض دلوه على الآخر ، والفعل لا اراديّ كالفكر لأنه قبل أن يكتمل الفعل فإن الرجل دون أن يغيّر وضعه الجسماني المتراخي المزدري ، أدار وجهه ونظر مرة واحدة نحو الدلو المعروض عبر دخان لفافته المتدلّي

www.ibtesama.com/vb

— لست جائعاً . ابق عليك قاذوراتك .

جاء صباح الاثنين وتبين لبايرون أنه كان على حق . لقد جاء الرجل إلى العمل بأوفرول جديد ، وبكيس ورقي فيه طعام . ولكنه لم يجلس القرفصاء معهم في غرفة المضخة ليأكل عند الظهر ، وكانت تلك النظرة لا تزال على وجهه قال رئيس العمال

— فليبق هناك « سيمز » لا يستخدمه لوجهه كما لا يستخدمه لملابسه

وقد فكر بايرون بأن « سيمز » لم يستخدمه للسانه أيضاً على الأقل لم يبد على كريسماس أنه يفكّر أو يتصرف على هذا الأساس. لم يكن لدى كريسماس ما يقوله لأحد حتى بعد مضي ستة أشهر لم يكن أحد يعرف ما الذي كان يفعله بين ساعات العمل في ورشة السحج بين الحين والآخر كان أحد زملائه يمرّ به في ساحة البلدة بعد العشاء وكان يبدو على كريسماس كأنه لم يسبق له أن رأى الآخر من قبل عندها يكون مرتدياً القبعة الجديدة والبنطال المكويّ واللفافة في احدى زاويتي فمه والدخان يضحك ساخراً عبر وجهه . لم يكن أحد يدري أين يسكن أو ينام في الليل إلاّ أنه كان يحدث أن يراه أحدهم وهو يسير في درب تمرّ عبر الغابات عند طرف البلدة ، وكأنه يعيش في مكان ما هناك في الخارج

وليس هذا ما يعرفه بايرون الآن كان هذا ما يعرفه آنئذ ، ما سمعه ورآه . لم يكن بينهم من يعرف أين يسكن كريسماس وما الذي كان يعمله فعلاً خلف ستار أو حجاب عمله الذي هو عمل رجل

www.ibtesama.com/vb

زنجي في ورشة السحج وربما ما كان أحد سيدري أبداً لولا ذلك الغريب الآخر براون ولكن ما إن حكى براون حتى اعترف اثنا عشر رجلاً بأنهم يشترون الويسكي من كريسماس منذ عامين ونيف ، وأنهم يلتقون به ليلاً لوحده في الغابات خلف منزل مزرعة كولونيالية قديمة على مسافة ميلين من البلدة كانت تعيش فيه وحيدة عانس في أواسط العمر من عائلة « بيردن » ولكن حتى أولئك الذين كانوا يشترون الويسكي ما كانوا يعرفون أن كريسماس كان يعيش بالفعل في كوخ متداع من أكواخ الزنوج على أرض الآنسة بيردن ، وأنه يعيش هناك منذ ما ينوف عن العامين

ثم حصل أن ظهر منذ حوالي ستة أشهر غريب آخر في ورشة السحج ، كما فعل كريسماس ذات مرة ، وكان يبحث عن عمل كان شاباً هو أيضاً ، طويلاً وقد سبق له وارتدى أوفرولاً بدا وكأنه كان يرتديه باستمرار منذ بعض الوقت ، وكان يبدو كأنه يسافر خفيفاً هو أيضاً كان له وجه وسيم يقظ واهن وندبة بيضاء صغيرة قرب فمه تبدو وكأنها كانت موضع تأمل طويل في المرآة ، وطريقة في ليّ رأسه بسرعة والنظر من فوق كتفه كما يفعل البغل أمام سيارة في الطريق ، هكذا فكر بايرون ولكنها لم تبد كحركة مراقبة للمؤخرة ، فحسب ، بل بدت لبايرون كأنها تتحلى بصفتي الثقة والوقاحة ، وكأن هذا الرجل كان يكرر ويلحّ طوال الوقت بأنه لم يكن خائفاً من أي شيء يمكن أو يستطيع أن يقترب منه من الخلف وحين رأى « موني » رئيس العمال ، العامل الجديد فقد ظنّ بايرون أنه كانت تدور في خلدهما كليهما الفكرة نفسها قال موني

www.ibtesama.com/vb

ـ حسناً . لن يضير بـ « سيمز » استخدامه لهذا الشاب انه لا يستخدم حتى بنطالا كاملاً

قال بايرون

ـ هذا صحيح انه يذكرني بتلك السيارات التي تسير على امتداد الشارع وفيها مذياع لا يمكنك أن تميز ما يقوله والسيارة ليست ذاهبة إلى أي مكان محدد وحين تنظر إليها عن قرب سترى أنه لا يوجد فيها أحد حتى

قال موني

ـ أجل انه يذكرني بحصان . ليس بحصان خسيس بل بحصان لا قيمة له يبدو جيداً في المرعى ، ولكنه ينزل دائماً إلى قاع النبع حين يصل أحدهم إلى البوابة وفي يده لجام انه يعدو بسرعة ، هذا صحيح ، ولكن حافره مصاب دائماً حين تريد ربطه إلى العربة

قال بايرون

ـ ولكني أعتقد أن الأفراس تحبه على الأرجح

قال موني

ـ بكل تأكيد ولا أعتقد أنه سيسبب لأي فرس أذى دائماً :

ذهب العامل الجديد ليعمل على كومة النشارة مع كريسماس كان كثير الجلبة ، ثرثاراً ، فراح يحكي للجميع من يكون وأين كان بلهجة وأسلوب ينمان عن جوهره الحقيقي ، عن دجله وكذبه فكر بايرون بأن هذا الرجل ما كان يوحي بالثقة فيما يقوله عن

www.ibtesama.com/vb

أفعاله . ولا حتى بالاسم الذي أطلقه على نفسه لا سبب هناك يدعو إلى ألاّ يكون اسمه هو براون ولكن الرجل لو نظر إليه سيعرف أنه في مرحلة ما من حياته تعرض لأزمة معينة بسبب حماقته فكان أن غيّر اسمه ، وأن الرجل سيعتقد أن براون قد غيّر اسمه بنوع من الخذل المرح ، وكأن الاسم لم يخترع أبداً وكانت المسألة هي أنه لا سبب هناك يدعو إلى أن يكون له اسم أو أن يحتاج إلى اسم على الاطلاق وما كان هناك من يكترث ، كما أعتقد بايرون ، سواء كان هناك شخص (مرتد لبنطال على أية حال) يهتم بمعرفة من أين جاء ولا أين ذهب ولا كم سيبقى لأنه أيان كان المكان الذي جاء منه وأياً كان المكان الذي مكث فيه من قبل ، سيدرك المرء أن هذا الرجل كان يتعيش من الزيف كما الجراد وقد بدا أنه كان يمارس ذلك منذ وقت طويل حتى أضحى بكليته مبعثراً ومنتشراً فلم يتبق منه أي شيء سوى الصدفة الشفافة عديمة الوزن التي أضحت أى ريح تعصف بها إلى النسيان والضياع

كان يعمل نوعاً ما ، على أية حال ، وبأسلوبه الخاص لقد أعتقد بايرون أنه لم يكن قد تبقى لديه ما يكفي ليجعله يتهرب من العمل على نحو جيد وماكر ولا حتى ما يجعله يرغب في التهرب حتى ، فعلى الرجل أن يكون أكثر من مجرد شخص عاديّ ليمارس التهرّب جيداً ، كما هو الحال لو أراد أن يمارس أي عمل آخر جيداً ، وحتى السرقة والقتل عليه أن يكون مصمماً على الوصول إلى هدف محدد وخاص ، ويجدّ للوصول إليه وكان هو على اعتقاد بأنّ براون لم يكن كذلك لقد سمع الجميع كيف ذهب ليخسر أول أجر أسبوعي له بأكمله في القمار في أول ليلة سبت قال بايرون لموني

www.ibtesama.com/vb

ـ يدهشني ذلك لقد ظننت أن رمي النرد كان على الأرجح الشيء الوحيد الذي يتقنه

قال موني

ـ هو ؟ ما الذي يجعلك تظن أنه قادر على اتقان أي نوع من أنواع التهور وهو لا يتقن حتى عملاً سهلاً كجرف النشارة بالرفش ؟ أو أنه قادر على خداع أي شخص بمسألة صعبة كاللعب بزوجين من النرد وهو الذي لا يعرف كيف يعمل بشيء سهل كالمجرفة ؟

ثم أضاف

ـ حسناً ، أعتقد أنه ليس هناك رجل آسف جداً لأنه غير قادر على أن يغلب أي شخص آخر بأي شيء ، فهو يستطيع على الأقل أن يبزّ كريسماس ذاك في التبطّل

قال بايرون

ـ بكل تأكيد أعتقد أن من أسهل الأمور على الكسول هو أن يكون طيباً

قال موني

ـ أعتقد أنه سرعان ما سيصبح سيئاً ، ولكن ذلك يتطلب وجود شخص يدلّه كيف يفعل ذلك

قال بايرون

ـ حسناً ، سيجده في مكان ما ، ان عاجلاً أو آجلاً

ثم التفتا كلاهما ونظرا إلى الأسفل نحو كومة النشارة ، حيث كان براون وكريسماس يعملان ، أحدهما بذلك الثبات المتأمّل الوحشي ،

www.ibtesama.com/vb

والآخر بحركة عالية من الذراع وخاطئة لا يمكنها حتى أن تخدع نفسها

قال موني

ـ أعتقد ذلك ، ولكني لو كنت أهدف إلى أن أكون سيئاً لكرهت أن أجعله شريكاً لي

لقد جاء براون للعمل ، شأنه شأن كريسماس ، بالملابس نفسها التي كان يرتديها في الشارع ولكنه ، خلافاً لكريسماس ، لم يغيّر ملابسه لفترة طويلة قال موني

ـ سيربح في احدى ليالي السبت تلك مبلغاً كافياً من لعبة الكراب فيشتري بذلة جديدة ويتبقى معه خمسون سنتاً اضافية يخشخشها في جيبه وفي يوم الأثنين التالي لن نراه مرة أخرى

ولكن براون استمر في تلك الأثناء بالقدوم إلى العمل بالأوفرول نفسه والقميص نفسه اللذين وصل بهما إلى جفرسون ، وراح يخسر أجره الأسبوعي في نرد ليلة السبت ، أو ربما كان يربح القليل ، وهو يحيّي هذا أو ذاك بالضحكات العالية الغبية نفسها ، والمزاح والتنكيت مع أولئك الرجال أنفسهم الذين كانوا يسرقونه دورياً ثم سمعوا في أحد الأيام أنه ربح ستين دولاراً قال أحدهما

ـ حسناً لن نراه بعد اليوم

قال موني

ـ لا أعرف ستون دولاراً مبلغ غير مناسب لو كان عشرة دولارات أو خمسمئة لكان معك حق على ما أعتقد ولكن ليس

www.ibtesama.com/vb

ستين فحسب سيشعر الآن أنه قد استقر جيداً هنا ، وأنه يكسب من مكان ما أجرته في أسبوع

وفي يوم الأثنين عاد براون إلى العمل بالأوفرول شاهدوهما براون وكريسماس ، عند كومة النشارة في الأسفل كانوا يراقبون هذين كليهما منذ وصول براون كريسماس يطعن الكومة بمجرفته ببطء وثبات وقوة ، كأنه يقطّع حية مدفونة (أو رجلاً مدفوناً كما قال موني) ، وبراون يستند على مجرفته وهو يقصّ حكاية على كريسماس كما يبدو واضحاً ، وربما طرفة ما لأنه كان يضحك الآن ، ويصرخ ضاحكاً ، ورأسه إلى الخلف ، بينما يعمل الرجل الآخر بوحشية صامتة لا تفتر ثم يعود براون إلى العمل لفترة ، بسرعة تعادل سرعة كريسماس ، ولكنه يلتقط أقل فأقل من النشارة في كل غَرْفَة ، حتى أن المجرفة لا تلمس النشارة حتى في القوس الفاتر الذي ترسمه ثم كان يستند عليها ثانية وينهي ما كان يحكيه لكريسماس ، ذاك الذي ما كان يبدو عليه حتى أنه يسمع صوت الآخر كأنما كان الشخص الآخر بعيداً مسافة ميل أو يتحدث بلغة مختلفة عن تلك التي يعرفها ، هكذا فكّر بايرون وكانا يُشاهدان معاً في البلدة في أمسيات السبت أحياناً كريسماس في بذلته النظيفة القاتمة الرصينة الصوفية المضلعة باللون الأبيض والقبعة المصنوعة من القش ، وبراون في بذلته الجديدة (كانت صفراء اللون مع خطوط حمراء متصالبة وبقميص ملوّن وقبعة تشبه قبعة كريسماس وان كان لها شريط ملوّن) وهما يتحادثان ويضحكان ، وصوته يسمع بوضوح عبر الساحة جيئة وذهاباً في صدى ، كما قد يبدو صوت لا معنى له في كنيسة

www.ibtesama.com/vb

قادماً من كل مكان في آن معاً كأنه كان يهدف إلى أن يرى الجميع أنهما صديقان هو وكريسماس ، هكذا فكر بايرون . ثم كان كريسماس يلتفت ويبتعد بذلك الوجه الهادىء الكالح عن أية مجموعة من الناس لمسّها صوت براون الفارغ وحده من حولهما ، وبراون يلحق به وهو لا يزال يضحك ويتكلم وفي كل مرة كان العمال الآخرون يقولون « حسناً ، لن يعود إلى العمل صباح الأثنين » ولكنه كان يعود كل أثنين كان كريسماس هو الذي ترك العمل أولاً

لقد ترك العمل في احدى ليالي السبت ، دون تحذير مسبق ، بعد ثلاث سنوات تقريباً كان براون هو الذي أعلمهم أن كريسماس قد ترك العمل كان بعض العمال متزوجين وبعضهم من العازبين ، وكانوا يمارسون مختلف الأعمال ويعيشون أنواعاً متحررة متنوعة من الحياة ، ومع ذلك فقد كانوا جميعاً يعودون صباح الأثنين إلى العمل بنوع من الجدية ، بل بنوع من اللياقة تقريباً كان بعضهم في مقتبل العمر ، كانوا يشربون ويقامرون ليلة السبت ، بل ويذهبون إلى مدينة ممفيس أحياناً ولكنهم كانوا يعودون صباح الأثنين هادئين وصاحين إلى العمل ، في أوفرولات نظيفة وقمصان نظيفة ، وينتظرون بهدوء حتى يسمعوا الصفارة ثم يذهبون بهدوء إلى العمل ، وكأنه لا يزال هناك شيء ما من يوم الأحد المقدس في الجو المتلبث أمام عقيدة تقول بأنه مهما يكن الانسان قد فعل بيوم أحده ، فإن قدومه هادئاً ونظيفاً إلى العمل صباح الأثنين مسألة محتشمة وصحيحة

هذا ما لاحظوه دائماً بالنسبة إلى براون وفي صباح الأثنين كان يظهر دائماً بالملابس المتسخة نفسها التي كان يرتديها في الأسبوع

www.ibtesama.com/vb

الذي مضى ، وبلحية غير حليقة لم تعرف الموس وكان يزداد صخباً ، فيصرخ ويلعب مازحاً مزاح ابن العاشرة لم يكن ذلك يبدو ملائماً للبقية من العمال الرزينين فبالنسبة إليهم كان الأمر أشبه بأنه وصل عارياً أو ثملاً اذن كان براون هو الذي أبلغهم صباح الأثنين ذاك بأن كريسماس قد ترك العمل وصل متأخراً ، ولكن لم يكن ذلك هو كل ما في الأمر لم يكن قد حلق لحيته أيضاً ، والفترة من الوقت لم يكونوا يعرفون أنه كان حاضراً حتى ، وهو الذي كان من شأنه أن يجعل نصف الرجال يسبّونه بعد مرور مثل تلك الفترة ، والبعض منهم جدياً لقد ظهر عندما سمع صوت الصافرة وذهب مباشرة إلى كومة النشارة وراح يعمل دون أية كلمة يوجهها إلى أي شخص ، حتى لو تحدث إليه أحدهم عندها رأوا أنه كان وحيداً هناك فذاك الكريسماس ، شريكه ، لم يكن هناك وحين وصل رئيس العمال قال أحدهم « حسناً ، أرى أنك خسرت أحد اطفائييك من المتدربين »

نظر موني إلى حيث كان براون يغرف من كومة النشارة وكأنها عبارة عن كومة من البيض بصق بسرعة

– أجل ، لقد اثرى بسرعة هذا العمل الصغير العتيق لم يعد يعجبه

قال آخر

– أثري ؟

قال موني وهو لا يزال يراقب براون

www.ibtesama.com/vb

ـ أحدهما أثرى   لقد رأيتهما البارحة يركبان سيارة جديدة هو

وهنا لوى رأسه نحو براون واستأنف يقول

ـ كان يقودها   لم أدهش من ذلك   ولكني مندهش حتى من أن أحدهما قد جاء للعمل

قال الآخر

ـ حسناً ، لا أعتقد أن « سيمز » سيعاني من أية مشكلة لايجاد رجل يحل محلّه في هذه الأوقات

قال موني

ـ ما كان ليجد أي صعوبة في فعل ذلك في أيّ وقت

ـ بدا لي كأنه كان ناجحاً تماماً

قال موني

ـ أوه ؛ صحيح . أنت تقصد كريسماس .

ـ من كنت تقصد اذن ؟ هل قال براون انه سيترك العمل هو أيضاً؟

ـ هل تعتقد أنه سيبقى هنا يعمل والآخر يدور بتلك السيارة الجديدة في أنحاء البلدة طوال النهار ؟

نظر الآخر نحو براون أيضاً:

ـ أوه ، أتساءل   من أين حصلا على تلك السيارة يا ترى ؟

قال موني

ـ لا أتساءل عن ذلك ، بل أتساءل ان كان براون سيترك العمل عند الظهر أو سيعمل حتى السادسة

www.ibtesama.com/vb

قال بايرون

— حسناً ، لو استطعت الحصول على ما يكفي من النقود هنا لشراء سيارة جديدة لتركت العمل أنا أيضاً

نظر واحد أو اثنان من الآخرين إلى بايرون ابتسما قليلاً قال أحدهما

— لم يصبحا ثريين بعد

نظر بايرون إليه.

فاستأنف قائلاً

— أعتقد أن بايرون يبقى بخيلاً حتى يجاري الآخرين

نظرو إلى بايرون

— براون هو ما يمكن أن يسمى خادماً عمومياً لقد اعتاد كريسماس أن يجعلهم يأتون إلى تلك الغابة خلف منزل الآنسة بيردن ، ليلاً ، أما براون فيحضرها لهم من البلدة وسمعتهم يقولون إنك إن عرفت كلمة السر تستطيع شراء زجاجة ويسكي من تحت قميصه في الشارع ليلة السبت

قال آخر

— ما هي كلمة السر ؟ ست قطع ؟

نظر بايرون من وجه إلى آخر

— هل هذه حقيقة ؟ أهذا ما يفعلانه ؟

— هذا ما يفعله براون لا أعرف ما الذي يفعله كريسماس لا أقسم على ذلك ولكن براون لن يكون بعيداً عن كريسماس « وافق شنّ طبقه » كما يقول القدماء

www.ibtesama.com/vb

قال آخر

— هذه حقيقة هل كريسماس متورط في ذلك ، أم لا ؟ أعتقد أننا لا نعرف.. لن يتمشى علانية وبنطاله إلى الأسفل كما هو شأن براون

قال موني وهو ينظر إلى براون

— لن يحتاج إلى ذلك

وقد كان موني على حق . وقد راقبا براون حتى الظهر ، وهو هناك عند كومة النشارة لوحده ثم سمعت الصافرة وحمل الجميع دلو الغداء وجلسوا في مبنى المضخة وبدؤوا يأكلون دخل براون ، مكتئباً ، وجهه كالح تبدو عليه علامات الاهانة في الحال ، كأنه طفل ، وجلس بينهم ، ويداه تتدليان بين ركبتيه لم يكن معه غداء هذا اليوم

قال أحدهم

— ألن تتغدى ؟

— قذارة باردة من دلو شحم خنزير قذر ؟ تبدأ مع الفجر وتعمل كالرقيق طوال النهار كزنجي لعين ، وساعة استراحة عند الظهر لتأكل قذارة من دلو من التنك

قال موني

— حسناً ، ربما يكدّ بعض الناس كما يكدّ الزنوج في تلك الأماكن التي قدموا منها ، ولكن الزنجي لا يستطيع أن يواظب حتى صفارة الغداء وهو يكدّ كما يكدّ بعض الرجال البيض

ولكن براون بدا أنه يسمع فعلاً ، كان يصغي ، وهو جالس بوجهه الكالح ويديه المدلاتين بدا كأنه لم يكن يصغي إلا إلى نفسه ، مصغياً إلى نفسه

www.ibtesama.com/vb

- أحمق الرجل الذي يفعل ذلك أحمق

قال موني

- لست مقيداً بالسلاسل إلى تلك المجرفة

قال براون

- أنت على حق تماماً ، أنا لست كذلك.

ثم انطلقت الصافرة عادوا إلى العمل . راقبوا براون وهم هناك في الأسفل عند كومة النشارة كان يحفر لفترة ثم يبدأ بالابطاء ، ويروح يبطيء ويبطيء حتى يصبح ممسكاً بالمجرفة كأنها سوط ركوب الخيل ، وكانوا قادرين على رؤيته وهو يتحدث إلى نفسه قال أحدهم:

- لأنه لا أحد هناك يحدثه

قال موني

- ليس الأمر كذلك إنه لم يقنع نفسه بعد لم يقتنع تماماً

- يقتنع بماذا ؟

قال موني

- بفكرة أنه أحمق أكبر بكثير مما كنت أفكر حتى أنا به.

وفي صباح اليوم التالي لم يظهر

قال أحدهم

- سيكون عنوانه من الآن فصاعداً دكان الحلاق

قال آخر

- أو تلك الحارة التي خلفها مباشرة

www.ibtesama.com/vb

قال موني

ـ أعتقد أننا سنراه مرة أخرى سيعود ليقبض أجر البارحة

وقد فعل ذلك ففي حوالي الحادية عشرة وصل براون كان يرتدي الآن البذلة الجديدة والقبعة التي من القش ، وتوقف عند الكوخ ووقف هناك ينظر إلى العمال المشتغلين كما فعل كريسماس منذ ثلاث سنوات ، وكأن مواقف حياة المعلم الميتة قد راحت تحرك على نحو ما ، ودون إدراك منه ، العضلات الراغبة للتلميذ الذي تعلم بسرعة كبيرة وعلى نحو جيد جداً ، ولكن براون حاول فحسب أن يبدو مبعثراً ومترنحاً على نحو فارغ بينما كان المعلم قد بدا كالح الوجه ، هادئاً وقاتلاً كحية قال براون بصوت مرح مرتفع قطعته الأسنان:

ـ تمرغوا فيه أيها الأنغال الكادحون

نظر موني إلى براون ثم لم تظهر أسنان براون قال موني

ـ أنت لا تدعوني بذلك النعت أليس كذلك ؟

وكان أن أنجز وجه براون سريع الحركة واحدة من تلك التغييرات الفورية التي كانوا يعرفونها . كأنما كان وجهه شديد التبعثر وهش التركيب جداً حتى أنه لم يكن من الصعب عليه أن يبدله هذا ما كان بابرون يفكر فيه قال براون

ـ لم أكن أخاطبك

قال موني بلهجة لطيفة وبارتياح

ـ أوه ـ حسناً لقد كنت تدعو هؤلاء الأشخاص الآخرين بالأنغال

وعلى الفور قال أحدهم

– هل كنت تدعوني بذلك ؟

قال موني

– حسناً ، لقد تلفظت بحقيقة الهية مرة واحدة في حياتك ، أو نصفها في الواقع . هل تريد مني أن أقترب منك وأهمس النصف الآخر في أذنك ؟

وكانت تلك آخر مرة رأوه فيها في المنشرة ، رغم أن بايرون يعرف ويتذكر الآن السيارة الجديدة (برفرف أو اثنين متجعدين الآن (وهي تسير في أنحاء البلدة ، متكاسلة ، دون هدف ، وبمواظبة ، وبراون متراخياً خلف المقود ولا يقوم بعمله جيدا بحيث يكون فاسقاً ومحسوداً ومتبطلاً ، ولم يعد سراً الآن ما كانا يفعلانه . لقد أصبح متداولاً بين الشبان وحتى الصبية أن الويسكي يمكن أن يشترى من براون على الفور تقريباً ، وأن البلدة تنتظر أن يتم القاء القبض عليه ، أن يخرجه من تحت معطفه الواقي من المطر ويعرض بيعه على شرطي متخف . وهم ما زالوا غير واثقين أن كان كريسماس على علاقة بالأمر ، سوى أنه لا يوجد هناك من يصدق أن براون يتمتع لوحده بحكمة كافية تجعله يحقق ربحاً حتى من بيع الويسكي بطريقة مخالفة للقانون . وكان بعضهم يعرف أن كريسماس وبراون يعيشان كلاهما في كوخ في ممتلكات آل بيردن ولكن حتى هؤلاء لا يعرفون إن كانت الآنسة بيردن تعرف أم لا ، وان كانوا يعرفون لما كانوا ليقولوا لها . إنها تعيش في المنزل الكبير لوحدها ، امرأة في منتصف العمر . وهي تعيش في هذا المنزل منذ ولدت . ومع ذلك فهي لا تزال غريبة امرأة أجنبية انتقلت أسرتها من الشمال خلال

www.ibtesama.com/vb

فترة « اعادة البناء والتنظيم » (١) إنها « يانكي » ، محبة للزنوج ، ولا يزال هناك في البلدة حديث عن علاقاتها الشاذة مع الزنوج في البلدة وخارجها ، رغم حقيقة أنه قد مرّ حتى الآن ستون عاماً منذ قتل جدها وأخوها في الساحة من قبل ماللو عبيد سابق بسبب خلاف حول أصوات الزنوج خلال انتخابات الولاية ولكن لا يزال هذا الأمر يحوم من حولها وحول المكان شيء ما غامض وغير مألوف ومهدّد ، رغم أنها مجرد امرأة وسليلة أولئك الذين كان لأسلاف البلدة سبب معقول (أو هكذا كانوا يظنون) لكرههم وخشيتهم ولكن كل ذلك كان هناك سليلو الجانبين في علاقتهم مع بعضهم البعض عبارة عن أشباح وبينهم طيف الدم المسفوح والهلع والغضب والخوف

* * *

لو وُجد حب في مرة من المرات لقال الرجل أو المرأة إن «بايرون بنتش » قد نسيه أو أنه (أي الحب) قد نسيه ، وهذا أكثر احتمالاً ذلك الرجل ضئيل الحجم الذي لن يعرف الثلاثين مرة أخرى ، والذي ينفق ستة أيام من كل اسبوع ومنذ سبعة أعوام في ورشة السحج يلقم الالواح إلى الآلة . والذي ينفق عصر أيام السبت هناك أيضاً ، وحيداً الآن ، والعمال الآخرون جميعاً في البلدة بملابس يوم الأحد وربطات العنق في ذلك التكاسل الرهيب عديم الهدف ، المتململ ، المعروف عن الرجال الكادحين

---

(١) خطة اتخذها الرئيس لينكولن خلال الحرب الأهلية الأمريكية لاعادة بناء وتنظيم الأراضي التي يحررها الجيش الشمالي من الجيش الجنوبي ، وقد تبناها خلفه الرئيس أندرو جونسون (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

وفي عصر أيام السبت تلك كان يحمل الألواح المنتهية على سيارات النقل حيث لا يستطيع أن يشغل آلة السحج لوحده وهو يعمل حتى وقت محدد ، حتى آخر ثانية قبل أن يسمع صوت صافرة وهمية العمال الآخرون والبلدة نفسها أو ذلك الجزء منها الذي يتذكره أو يفكر فيه ، يعتقد أنه يعمل ذلك لقاء أجر الساعات الاضافية . وربما يكون هذا هو السبب المرء يعرف القليل جداً عن أقرانه من البشر في نظره يتصرف كل الرجال والنساء على أساس ما يعتقد هو أن من شأنه أن يحرضه ، او كان مجنوناً إلى حد كاف ، بحيث فعل ما يفعله ذلك الرجل الآخر أو المرأة الأخرى .وفي الواقع لا يوجد في البلدة سوى رجل واحد يمكنه أن يتكلم ببعض الثقة حول بنتش ، والبلدة لا تعرف ابنتش أية علاقة مع هذا الرجل ، حيث أنهما يتقابلان ويتحادثان ليلاً اسم هذا الرجل هو هايتاور ومنذ خمسة وعشرين عاماً كان هذا قساً لإحدى الكنائس الرئيسية ، ربما الكنيسة الرئيسية نفسها وهذا الرجل هو الوحيد الذي يعرف أين يذهب بنتش مساء كل يوم سبت حين تنطلق الصافرة الوهمية ، أو حين تشير ساعة بنتش الفضية الضخمة إلى أن الصافرة قد انطلقت والسيدة بيرد التي يقيم بنتش لديها في بيتها الذي تقدم فيه المنامة والطعام ، لا تعرف سوى أنه بعد الساعة السادسة بوقت قصير من مساء كل سبت يدخل بنتش فيستحم ويبدل ملابسه فيرتدي بذلة عتيقة من النسيج الصوفي الرخيص ، ويتناول عشاءه ويسرج البغل الذي يؤويه في كوخ خلف المنزل كان بنتش نفسه قد أصلحه وسقفه ، ويرحل راكباً البغل القس هايتاور هو الوحيد الذي يعرف أن بنتش يقطع مسافة ثلاثين ميلاً في الريف ليقضي يوم الأحد وهو يقود جوقة في

www.ibtesama.com/vb

كنيسة ريفية وهي خدمة تمتد اليوم بطوله ثم يسرج بغله حوالي منتصف الليل مرة أخرى ويعود إلى جفرسون بمسير متواصل يستمر الليل كله وفي صباح الاثنين ، يكون مستعداً في ورشة السحج حين تطلق الصافرة ، بأوفروله وقميصه النظيفين لا تعرف السيدة بيرد سوى أنه من عشاء السبت وحتى صباح الاثنين من كل أسبوع تكون غرفته واصطبل البغل الذي بناه بيديه فارغين هايتاور هو الوحيد الذي يعرف أين يذهب وما الذي يفعله هناك لأن بنتش يزور هايتاور مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع في المنزل الصغير حيث يعيش القس السابق وحيداً ، مجللاً بالعار كما تقول البلدة المنزل غير مطلي بالدهان ، صغير ، منعزل ، سيىء الاضاءة ، كريه الرائحة ، مبتذل وهنا كانا يجلسان كلاهما في مكتبة القس ، يتحادثان بهدوء الرجل الناحل غريب الوصف غير المدرك اطلاقاً أنه رجل مكتنه بالغموض في نظر رفاقه من العمال ، والمنبوذ البالغ الخمسين من العمر الذي أنكرته كنيسته.

ثم وقع بايرون في الحب وقع في الحب رغم كل تراث تربيته الريفية المتزمتة الحذرة التي تقتضي مناعة كاملة ضد الشهوات الجسدية. لقد حدث ذلك في عصر يوم سبت وهو وحيد في الورشة على بعد ميلين كان المنزل لا يزال يحترق ، والدخان الأصفر يقف منتصباً كنصب تذكاري على الأفق . رأوه قبل الظهر حين ارتفع الدخان في البداية فوق الأشجار ، قبل أن تُطلق الصفارة ويرحل الآخرون قال أحدهم

— أعتقد أن بايرون سيترك العمل اليوم أيضاً اليوم ، فلديه حريق مجاني يتفرج عليه

www.ibtesama.com/vb

قال آخر

– إنه حريق كبير ما يمكنه أن يكون ؟ لا أتذكر وجود أي شيء هناك على الطريق كبير إلى حد يصنع معه كل هذا الدخان باستثناء منزل آل بيردن

وقال ثالث

– ربما يكون منزل آل بيردن هو الذي يحترق يقول أبي أنه يستطيع أن يتذكر كيف قالت الناس منذ خمسين عاماً إنه يتوجب حرقه، وإن قليلاً من اللحم البشري المدهن بداية جيدة لحرقه

وقال رابع

– ربما تسلل أبوك إلى هناك وأشعل النار فيه

ضحكوا ، ثم عادوا إلى عملهم ينتظرون الصفارة ويتوقفون بين الحين والآخر لينظروا إلى الدخان وبعد فترة دخلت شاحنة ملأى بجذوع الأشجار . وقد سألوا سائق الشاحنة الذي جاء ماراً بالبلدة ، فقال

– بيردن أجل ، هذا هو الاسم . وقد قال أحدهم في البلدة إن المأمور قد ذهب إلى هناك أيضاً

– حسناً ، أعتقد أن ووت كينيدي يحب مراقبة الحرائق ، حتى لو اضطر إلى أخذ شارته معه

قال السائق

– من الشكل الذي تبدو فيه الساحة ، لن يعاني من مشكلة كبيرة في ايجاد شخص ما ليقبض عليه

www.ibtesama.com/vb

أطلقت صفارة الظهر رحل الآخرون تناول بايرون غداءه ، والساعة الفضية مفتوحة إلى جانبه وحين أشارت إلى الواحدة عاد إلى العمل كان وحيداً ، في كوخ التحميل وراح يقوم برحلاته المثابرة اللامتناهية بين الكوخ والسيارة ، وقطعة مطوية من كيس كتان فوق كتفه كلبادة وهو يحمل فوق اللبادة أحمالاً من الأوتاد ما كان ممكناً لأحد أن يحزر أنه قادر على رفعها أو حملها ، وذلك حين دخلت « لينا غروف » من الباب الذي خلفه ووجهها قد تشكل بابتسامة هادئة متوقعة مسبقاً ، وفمها قد تشكل أيضاً على لفظ اسم معين يسمعها ويلتفت ويرى وجهها يشحب كالاهتياج المحتضر لحصاة ألقيت في نبع —

تقول خلف ابتسامتها الشاحبة وبدهشة طفل

— لست هو

— لا يا سيدتي

يتوقف وهو يلتفت نصف التفاتة بالأوتاد المتوازنة واستأنف يقول

— لا أعتقد أني هو من هو الذي لست أنا هو ؟

— لوكاس بيرتش قالوا لي

— لوكاس بيرتش ؟

— قالوا لي أني سأجده هنا

انها تتحدث بنوع من الشك الهادىء وهي تراقبه دون أن يرمش لها جفن وكأنها تعتقد أنه يحاول خداعها

www.ibtesama.com/vb

– حين اقتربت من البلدة راحوا يلفظون الاسم على أنه بنتش بدلاً عن بيرتش . ولكني ظننت أنهم كانوا يلفظونه على نحو خاطىء أو ربما سمعته أنا على نحو خاطىء

قال

– أجل يا سيدتي ، هذا هو اسمي بنتش بايرون بنتش

وبينما لا تزال الأوتاد متوازنة على كتفه ينظر إليها ، إلى جسدها المنتفخ ، ووركيها الثقيلين ، والغبار الأحمر فوق الحذاء الرجالي الثقيل في قدميها

– هل أنت السيدة بيرتش ؟

لا تجيب على الفور تقف هناك داخل الباب تراقبه بتركيز ولكن دون رعب ، بتلك التحديقة الساكنة المرتبكة والمرتابة قليلاً عيناها زرقاوان تماماً ولكن يوجد فيها ظل ذلك الاعتقاد بأنه يحاول خداعها

– قالوا لي على مسافة بعيدة من هنا وأنا في الطريق ان لوكاس يعمل في المنشرة في جفرسون قال لي ذلك كثيرون وقد وصلت إلى جفرسون فدلّوني على مكان الورشة وسألت في البلدة عن لوكاس بيرتش فقالوا « ربما تعنين بنتش » وهكذا ظننت أنهم حفظوا الاسم على نحو خاطىء وهذا لا يهم وحتّى حين قالوا لي ان الرجل المطلوب ليس داكن البشرة لا تقل لي انك لا تعرف شخصاً باسم لوكاس هنا

ينزل بايرون حمل الأوتاد المحزومة جيداً والجاهزة للرفع مجدداً.

– لا يا سيدتي ليس هنا شخص بهذا الاسم إطلاقاً وأنا

www.ibtesama.com/vb

أعرف كل الرجال الذين يعملون هنا ربما في مكان آخر في البلدة أو في ورشة أخرى.

– هل هناك ورشات سحج أخرى ؟

– لا يا سيدتي هناك بعض ورشات النشارة ، عدد كبير منها تراقب

– قالوا لي على الطريق انه يعمل في ورشة السحج

قال بايرون

– لا أعرف أحداً هنا بهذا الاسم ولا أتذكر شخصاً باسم ببرتش الا أنا واسمي هو بنتش.

تستمر في مراقبته بذلك التعبير غير المكترث بالمستقبل بقدر ما هو شكّاك بالآن الحاضر ثم تأخذ نفساً انها ليست تنهيدة بل هي تتنفس بعمق وبهدوء مرة واحدة تقول « حسناً » ثم تلتفت نصف التفاتة وتنظر في انحاء المكان إلى الألواح المنشورة والأوتاد المكومة

– أعتقد أني سأجلس قليلاً انه لأمر متعب ، السير عبر تلك الشوارع الشاقة من البلدة إلى هنا ويبدو أن السير من البلدة إلى هنا قد أتعبني أكثر من تلك الطريق من آلاباما كلها

انها تتحرك نحو كومة من الألواح

يقول بايرون

– انتظري

يقفز نحو الأمام تقريباً ، وهو ينزل الكيس عن كتفه المرأة توقف نفسها خلال فعل الجلوس وينشر بايرون الكيس على الألواح

– هكذا أسهل عليك

www.ibtesama.com/vb

تجلس وهي تقول

ــ حسناً ، أنتِ لطيف جداً

يقول بايرون

ــ أعتقد أن الجلوس هكذا أكثر راحة بقليل يخرج الساعة الفضية من جيبه وينظر إليها ، ثم يجلس هو أيضاً عند الطرف الآخر من كومة الخشب

ــ أعتقد أن خمس دقائق تكفي

ــ خمس دقائق للراحة

ــ خمس دقائق منذ أن دخلتِ لقد سبق لي وبدأت الراحة في عصر السبت أوقّت العمل بنفسي

ــ وفي كل مرة تتوقف فيها لمدة دقيقة تأخذها في الحسبان ؟ كيف سيعرفون أنك توقفت ؟ بضع دقائق لا أهمية لها ، أليس كذلك

يقول

ــ أعتقد أنهم لا يدفعون لي كي أجلس اذن فأنت قادمة من آلاباما

تحكي له ، بدوره هو أيضاً ، جالسة على الكيس بجسم ثقيل ، ووجهها هادىء وساكن ، وهو يراقبها بهدوء مماثل ، وهي تحكي له أكثر مما تعرف أنها تحكي ، كما أصبح دأبها الآن مع الوجوه الغريبة التي سافرت بينها مدة أربعة أسابيع ، بالبطء غير المضطرب الذي يكون لتبدّل في الفصول وبايرون بدوره تنطبع لديه صورة امرأة شابة مغرّربها ومهجورة وليست مدركة حتى أنها قد هُجرت وكنيتها ليست « بيرتش »

www.ibtesama.com/vb

يقول أخيراً

– لا ، لا أظن أني أعرفه ليس هناك غيري هذا المساء على أية حال بقيتهم هناك عند تلك النار على الأكثر

يريها العمود الأصغر من الدخان المرتفع كعمود عال دون ريح فوق الأشجار

تقول

– استطعنا رؤيته من العربة حتى قبل أن نصل إلى المدينة انه حريق كبير

– انه لمنزل كبير قديم فعلاً انه هنا منذ زمن طويل ولا تعيش فيه سوى سيدة واحدة ، ووحيدة وأعتقد أن هناك أناساً في هذه البلدة من شأنهم أن يسمّوا ذلك حكماً إلهيّاً عليها ، حتى في وقتنا الحاضر انها « يانكي » لقد هبطت عائلتها خلال فترة « اعادة البناء والتنظيم » لتحريض الزنوج وقد قتل اثنان منهما وهما يحاولان ذلك يقال انها لا تزال تختلط بالزنوج وانها تزورهم حين يمرضون كأنهم من البيض وهي دون طباخ لأن الطباخ لابد أن يكون زنجياً ويقول الناس انها تدعي أن الزنوج لا يختلفون في شيء عن البيض ولذلك لا يقترب الناس من بيتها أبداً باستثناء شخص واحد

انها تراقبه وهي تصغي والآن لا ينظر هو إليها ، بل ينظر إلى جانب بعض الشيء

– أو ربما هناك شخصان كما نمي إليّ وآمل أن يكونا قد وصلا إلى هناك في الوقت المناسب لمساعدتها على نقل الأثاث وربما حصل ذلك

www.ibtesama.com/vb

– من هما ؟

– شخصان يدعيان كلاهما بـ « جو » ويعيشان هناك في مكان ما جو كريسماس وجو براون

– جو كريسماس ؟ يا له من اسم مضحك

ومن جديد ينظر جانباً بعيداً عن وجهها الذي يبدي اهتماماً

– شريكه عجيب أيضاً ، براون ذلك وقد كان يعمل هنا هو أيضاً ولكنهما تركا العمل الآن ، كلاهما وإن لم تكن هذه خسارة لأحد على ما أعتقد

تجلس المرأة على الكيس ، مبدية الاهتمام وهادئة كان يمكن لهما أن يكونا جالسين في ملابس يوم الأحد على كرسيين من شرائح الخشب الرقيقة على الأرض التي ملست من الاستعمال أمام كوخ ريفي في عصر يوم العطلة المقدس

– هل شريكه يدعى « جو » أيضاً ؟

– نعم ياسيدتي ، جو براون . ولكني أعتقد أن هذا يمكن أن يكون اسمه الحقيقي لأن المرء حين يفكر في شخص اسمه جو براون ، فانه سيخطر له شخص كبير الفم يضحك باستمرار ويتكلم بصوت مرتفع وهكذا أعتقد أن هذا هو اسمه الحقيقي حتى لو كان « جو براون » يبدو سريعاً وسهلاً إلى حد كبير نوعاً ما كاسم طبيعي ولكني أعتقد أن هذا هو اسمه على أية حال لأنه لو كان يكسب من فمه لكان قد سبق له وامتلك هذه الورشة يبدو أن الناس يحبونه رغم كل شيء انهما يتدبران أمورهما ، هو وكريسماس ، على أية حال

www.ibtesama.com/vb

انها تراقبه   وجهها لا يزال هادئاً ، ولكنه قاتم الآن ، عيناها قاتمتان تماماً ومصمتان تماماً

— وما الذي يعمله هو وذاك الشخص الآخر ؟

— لا شيء يتوجب عليهما ألا يعملا ، على ما أعتقد   على الأقل لم يتم القبض عليهما بعد   كان براون يعمل هنا ، وذلك حين كان يفرغ من الضحك والتنكيت على الآخرين   ولكن كريسماس تقاعد وهما يعيشان هناك معاً ، في مكان ما حيث يحترق ذلك المنزل وقد سمعت عما يتعيّشان منه   ولكن ذلك ليس من شأني في المقام الأول وفي المقام الثاني فإن معظم ما يتقوّله الناس صحيحاً   لذلك أعتقد أني لست أفضل من غيري

انها تراقبه   انها لا ترمش حتى

— وهو يقول ان أسمه براون

كان يمكن لهذا أن يكون سؤالاً ولكنها لا تنتظر جواباً

— ما نوع الحكايات التي سمعتها تروى عما يفعلانه ؟

يقول بايرون

— لا أحب الاساءة إلى أي شخص   وأعتقد أن عليّ أن أتحدث ، كثيراً وكحقيقة يبدو أن الشخص ما إن يترك العمل حتى يتورط في الشر

تقول

— ما نوع الحكايات ؟

www.ibtesama.com/vb

لم تتحرك ، لهجتها هادئة ، ولكن بايرون كان قد سبق له ووقع في الحب ، رغم أنه لا يدري بذلك بعد انه لا ينظر إليها اذ يشعر بتحديقتها الجدية المصممة على وجهه وفمه

– يدعي البعض أنهما يبيعان الويسكي انهما يخبئانه في مكان ما هناك حيث المنزل يحترق وهناك حكاية عن ان براون حين كان ثملاً في احدى ليالي السبت كاد يفشي ما كان عليه ان يفشي به ، حول انه كان مع كريسماس في « ممفيس » في احدى الليالي على طريق معتم قريب من ممفيس ، وكان في المسألة مسدس وربما مسدسان لأن كريسماس دخل مسرعاً واخرس براون ونصطحبه معه هناك شيء ما لا يريد له كريسماس ان يقال ، على أية حال ، وحتى براون كان اعقل من ان يفشي به لولا سكره وهذا ما سمعته لم أكن هنا شخصياً

وحين يرفع وجهه الآن يجد انه قد عاد ليوجه نظره نحو الأسفل مرة أخرى حتى قبل أن تقابل عيناه عينيها يبدو عليه وكأنه يعرف مسبقاً شيئاً غير قابل للرجوع ، غير قابل للاستدعاء ، وانه يؤمن انه طالما كان هنا في الورشة وحيداً في عصر يوم سبت ولن تكون هناك فرصة لالحاق الأذى او الضرر

– كيف هو شكله ؟

– كريسماس ؟ عجباً

– لا اقصد كريسماس

– اوه براون اجل طويل شاب ذو بشرة داكنة النساء

www.ibtesama.com/vb

يجدنه وسيماً وباوعاً ايضاً هذا ما سمعته انه جيد في الاضحاك والمرح والتنكيت على الناس ولكني

توقف صوته لا يستطيع النظر إليها ، يشعر بتحديقتها الثابتة الرصينة على وجهه

تقول

– جو براون هل له ندبة بيضاء صغيرة هنا بالضبط قرب فمه ؟

لا يستطيع ان ينظر إليها ، وهو يجلس هناك على الخشب المكدس بعد ان فات الأوان ، وكان قادراً على ان يعضّ لسانه حتى يصبح قطعتين

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثالث

من غرفة مكتبته يستطيع ان يرى الشارع ليس بعيداً جداً ، حيث ان المرجة الصغيرة امام البيت ليست عميقة انها مرجة صغيرة تحوي نصف دزينة من اشجار القيقب الواطئة المنزل المؤلف من طابق واحد ، البني اللون ، غير المطلي بالدهان ، وغير البارز ، بيت صغير جداً ، مخفي تقريباً بأشجار اللاجر سترمية الهندية ذات الزهور ، والليلج والألثيا ، باستثناء الفجوة التي يمكن من خلالها ان يراقب المرء الشارع من نافذة المكتبة إنه مخفي جداً ولدرجة ان النور من مصباح الشارع عند الزاوية لا يلمسه الاّ بالكاد

ومن النافذة يمكنه ايضاً ان يرى اللافتة ، والتي يدعوها نصبه التذكاري وهي مزروعة في زاوية الباحة ، واطئة تواجه الشارع طولها ثلاثة اقدام وثماني عشرة بوصة مستطيل متقن يقدم وجهه لمن يمرّ وظهره إليه ولكنه ليس في حاجة إلى قراءتها لأنه صنع اللافتة بالمطرقة والمنشار ، ببراعة ، وطلى الأسطورة التي تحملها ، ببراعة ايضاً ، بكدّ ، حين ادرك ان عليه ان يبدأ بكسب المال ليأكل الخبز ويشعل الحطب ويرتدي الملابس وحين ترك المعهد اللاهوتي كان

www.ibtesama.com/vb

لديه دخل صغير موروث عن أبيه ، ولكنه ما أن استلم كنيسته حتى حوّله فوراً لدى استلام الشيكات ربع السنوية إلى مؤسسة للجانحات من الأحداث في ممفيس ثم خسر كنيسته وكان الشيء الأشدّ مرارة الذي واجهه في اعتقاده وكان اشدّ مرارة حتّى من الحرمان والعار — هو الكتاب الذي ارسله إليهم ليقول انه من الآن فصاعداً لن يستطيع ارسال سوى نصف المبلغ الذي كان يرسله سابقاً

وهكذا استمر في ارسال نصف دخل كان في مجمله يكاد يكفي ليقيم اوده قال في ذلك الحين « لحسن الحظ ، هناك امور استطيع أن افعلها » ولهذا السبب نجد اللافتة المنجّرة ببراعة والمخططة بيده والتي مزج مع الطلاء المستخدم فيها قطعاً من الزجاج على نحو ماكر وذلك حتّى تلتمع حين ينيرها مصباح الشارع ليلاً ، وتلتمع ايضاً الأحرف معطية تأثيراً شبيهاً بأجواء عيد الميلاد

« الموقّر غيل هايتاور ، D D (١)
دروس في الفن
بطاقات عيد الميلاد والذكرى السنوية مرسومة باليد
تحميض وطباعة صور »

ولكن كان ذلك منذ سنوات مضت ، ولم يكن لديه تلاميذ فن ، وقد صنع عدداً قليلاً من بطاقات عيد الميلاد وقام بتحميض بعض الصور ، كما ان الطلاء وقطع الزجاج قد جعلتها احوال الطقس باهتة كانت الأحرف لا تزال مقروءة على اية حال ، رغم ان قلة

---

(١) وتعني دكتور في اللاهوت

(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

من سكان البلدة ، شأنهم شأن هايتاور نفسه ، بقيت في حاجة إلى قراءتها ولكن بين الحين والآخر كانت مربية أطفال زنجية بأحمالها البيضاء تتلكأ هناك وتتهجأها بصوت مرتفع بتلك البلاهة الفارغة التي يتمتع بها امثالها من الكسالى الأميين ، أو يمرّ غريب وهو يمشي على امتداد الشارع الهادىء المنعزل غير المرصوف وغير المطروق الاّ قليلاً ، فيتوقف ويقرأ اللافتة ثم يتطلع نحو المنزل الصغير البني الذي يكاد يكون مختفياً ، ثم يستأنف السير وبين الحين والآخر قد يذكُر الغريب هذه اللافتة امام احد معارفه في البلدة فيقول هذا الصديق « أوه نعم هايتاور انه يعيش هناك لوحده لقد جاء إلى هنا ككاهن للكنيسة المشيخية ، ولكن زوجه كانت تخونه كانت تتسلل إلى ممفيس بين الحين والآخر وتستمتع بوقتها كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً ، اي بعد ان وصل إلى هنا مباشرة لقد ادعى ، البعض انه (اي الزوج) كان على علم بذلك وانه لم يستطع او ما كان يريد ان يرضيها هو نفسه وانه كان يعلم بما تفعله ثم حدث في احدى ليالي السبت ان قُتِلَتْ ، في منزل او ما شابه في ممفيس لقد تحدثت الصحافة كثيراً عن هذه الحادثة وكان عليه ان يستقيل من الكنيسة ، ولكنه رفض مغادرة جفرسون ، لسبب من الأسباب حاولوا ارغامه ، من اجله ومن اجل البلدة والكنيسة كان ذلك مضراً جداً بالكنيسة كما ترى فهناك غرباء يأتون ويسمعون عمّا حدث وهو يرفض مغادرة البلدة إلا انه استمر في الرفض لقد عاش هناك في الشارع الذي كان الشارع الرئيسي ، وحيداً وهو لم يعد الآن

www.ibtesama.com/vb

شارعاً رئيسياً على الأقل هذا امر مهم .ولكنه ما عاد يسبب قلقاً لأحد واعتقد ان معظم الناس قد نسوا امره وهو يقوم بالأعمال المنزلية بنفسه ولا اعتقد ان هناك اي شخص دخل ذلك المنزل منذ خمسة وعشرين عاماً ولا نعرف لماذا يبقى هنا ولكنك ان مررت في اي يوم في ذلك الشارع عند الغسق او الغروب لرأيته جالساً في النافذة جالساً هناك فحسب اما الناس فلا يرونه الا بالكاد في ارجاء المكان ، الا باستثناء تلك الأحايين التي يعمل بها في الحديقة

وهكذا فان اللافتة التي نجرها وخططها اقل قيمة لديه مما هي للبلدة ، فهو ما عاد واعياً بها كلافتة ، كرسالة انه لا يتذكرها اطلاقاً حتى يتخذ مكانه خلف نافذة مكتبته قبل الغسق تماماً وعندها تكون مجرد شكل مستطيل خفيض مألوف دون اي مغزى على الاطلاق ، خفيض عند ذلك الطرف من المرجة الضحلة المحاذي للشارع ، وربما تكون هي ايضاً قد نمت من الأرض التراجيدية التي لا مهرب منها مع اشجار القيقب المنتشرة والشجيرات دون مساعدة او إعاقة منه انه لم يعد ينظر إليها حتى ، كما لا يرى الأشجار التي يراقب من تحتها وخلالها الشارع ، منتظراً هبوط الليل ، لحظة الليل المنزل والمكتبة معتمان خلفه وهو ينتظر تلك اللحظة التي يكون فيها النور قد خبا من السماء ويكون الليل قد حل باستثناء ذلك النور الخفيف الذي تتنهده بتردد اوراق الشجر واوراق العشب المشبعة بضوء النهار ، مما يترك بعض النور الخفيف على الأرض رغم حلول الليل الآن ، سريعاً هكذا يفكر ، سريعاً ، الآن إنه لا يقول حتى لنفسه

www.ibtesama.com/vb

« لقد بقي ولا يزال شيء من الشرف والاعتزاز بالنفس ، شيء من الحياة »

* * *

حين وصل بايرون بنتش إلى جفرسون لأول مرة منذ سبع سنين ورأى تلك اللافتة الصغيرة « غيل هايتاور ، D D. دروس في الفن بطاقات عيد الميلاد تحميض وطباعة الصور » فكّر قائلاً « D D ما الذي يعنيه ذلك ؟ » وحين سأل قالوا له انها تعني : « Done Damned » (١) وان غيل هايتاور محكوم عليه فعلاً باللعنة في جفرسون على اية حال ، كما افادوا وحكوا له كيف وصل هايتاور مباشرة إلى جفرسون من المعهد اللاهوتي رافضاً قبول اية دعوة اخرى ، وكيف بذل كل جهد ممكن حتى يرسل إلى جفرسون وكيف وصل مع زوجه الشابة فنزل من القطار في حالة من الاستشارة على نحو مسبق ، وهو يتكلم ويبلغ الشيوخ من الرجال او النساء الذين هم اعمدة الكنيسة كيف قرر ان تأتي إلى جفرسون منذ البداية ، منذ ان قرر للمرة الأولى ان يصبح كاهناً وحكى لهم بنوع من الطرب عن الرسائل التي كتبها والقلق الذي عاناه و « الواسطة » التي استخدمها حتى يُعيّن هنا وقد بدا ذلك لسكان البلدة كأنه طرب تاجر جياد بصفقة رابحة ربما بدت الأمور هكذا للشيوخ فهم قد اصغوا إليه ببرود ودهشة وشك نوعاً ما ، لأنه بدا كأن البلدة هي التي كان يرغب ان يعيش فيها

(١) سبق أن شرحنا أنها تعني « دكتور في اللاهوت » ولكن الناس هنا كانوا يفسرونها على نحو تهكمي كما يلي « محكوم عليه باللعنة »

(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

وانه لا يريد ان يخدم لا الكنيسة ولا الرعية التي تؤلف الكنيسة كأنه لم يكن يهتمّ بالناس ، الناس الأحياء ، سواء ارادوه هنا ام لا وكونه شاباً ايضاً ، وكون الشيوخ من الرجال والنساء قد حاولوا ان يخففوا من استثارته الجذلة بالحديث عن مسائل جدية عن الكنيسة ومسؤولياتها ومسؤولياته هو وقد قالوا لبايرون كيف ان الكاهن الشاب كان لا يزال مستثاراً حتى بعد مرور ستة اشهر ، وانه كان لا يزال يتحدث عن « الحرب الأهلية » وجدّه ، وهو من الفرسان وقد قتل في الحرب ، وعن مستودعات « الجنرال غرانت » المحترقة في جفرسون حتى لم يعد هناك مغزى من كلامه كما حكوا لبايرون كيف بدا انه كان يحكي بالطريقة نفسها على منبر الكنيسة ايضاً ؛ كان متطرفاً حتى على المنبر مستخدماً الدين كأنما هو حلم ليس كابوساً ، ولكن شيئاً ما اسرع من الكلمات في الكتاب المقدس ، نوعاً من الاعصار لا حاجة به حتى إلى لمس الأرض الفعلية ولم يعجب ذلك الشيوخ من الرجال والنساء

وقد بدا وكأنه ما كان قادراً على فكّ تشابك الدين وأولئك الفرسان المسرعين وجدّه المتوفى الذي قتل وهو على جواده المسرع ، الواحد عن الآخر ، حتى على المنبر وكان غير قادر على فكّ تشابكها في حياته الخاصة ، وفي البيت أيضاً ، على الأرجح وربما لم يحاول ذلك حتى في بيته ، هكذا فكّر بايرون وهو يتأمّل في ذهنه كيف أن ذلك هو النوع من الأمور الذي يفعله الرجال بالنساء التابعات لهم ، وفكر في أنّ هذا هو السبب في أنه يتوجب على النساء أن يكنّ قويات وألاّ يقع عليهن اللوم تجاه ما يفعلنه بالرجال أو بسبب الرجال ،

www.ibtesama.com/vb

حيث أن الله يعرف أن المرأة ، كونها زوج شخص ما ، مسألة دقيقة تتطلب الحذر وقد حكوا له كيف أن الزوج كانت فتاة ضئيلة الحجم هادئة المظهر ظنتها البلدة في بادىء الأمر امرأة لا شأن لها ولكن البلدة قالت انه لو كان هايتاور من نوع من الرجال أكثر جدارة بالثقة ، أي ذلك النوع من الرجال الذي يجب أن يكونه القس بدلاً عن أن يكون قد ولد بعد ثلاثين عاماً من اليوم الوحيد الذي بدا أنه قد عاشه فعلاً — أي يوم قتل جَدُّه بالرصاص وسقط عن جواده المسرع — لكانت زوجه في حال جيدة هي أيضاً ولكنه لم يكن كذلك ، وكان الجيران يسمعونها تبكي في بيت القس في أوقات العصر أو في وقت متأخر من الليل ، وكان الجيران على علم بأن الزوج لن يعرف ما يفعله حيال ذلك لأنه لم يكن يعرف ما الخطب ويحكون كيف أنها لم تكن تأتي إلى الكنيسة أحياناً ، حيث يلقي زوجها موعظته ولا حتى في أيام الأحد.وكانوا ينظرون إليه ويتساءلون ان كان يدري حتى أنها لم تكن هناك ، أو ان لم يكن قد نسي أن له زوجةً على الاطلاق وهو هناك على المنبر ويداه تتطايران من حوله والعقيدة المفترض فيه أن يعظ فيها مليئة بالفرسان المسرعين والهزيمة والمجد كما حدث حين حاول أن يحكي لهم في الشارع عن الجياد المسرعة ، فان هذه الحكاية كانت تختلط أيضاً بالغفران وجوقات « السورافيم » (١) العسكرية ، حتى كان طبيعياً أن يصدق الشيوخ من الرجال والنساء أن ما كان يعظ فيه في بيت الرب كان أقرب إلى تدنيس المقدّسات

---

(١) ملائكة الطبقة الأولى الحارسون عرش الله حسب المعتقد اليهودي القديم (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

وقد حكوا لبايرون كيف أن الزوج بعد أن عاشت حوالي السنة في جفرسون بدأت تلبس على وجهها تلك النظرة الجامدة ، وحين كانت سيدات الكنيسة يذهبن لزيارة هايتاور كان هذا يستقبلهم لوحده ، في قميصه دون أية ياقة ، وفي اضطراب واهتياج عصبيين ، ولفترة ما كان يبدو عليه أنه لا يستطيع حتى أن يفكر فيما جئن من أجله أو ما عليه أن يفعله .ثم كان يدعوهن إلى الدخول ويعتذر ويخرج. وما كنّ ليسمعن أي صوت في أي مكان من المنزل ، ويجلسن هناك في ملابس يوم الأحد ، ينظرن الواحدة إلى الأخرى ثم في أرجاء الغرفة ، ويصغين دون أن يسمعن أي صوت ثم كان يعود بمعطفه وياقته ويجلس ويتحدث إليهن عن الكنيسة والمرضى ، وهن يجبنه بذكاء وهدوء ومازلن يصغين وربما يرقبن الباب وربما يتساءلن ان كان يعرف ما كنّ يعتقدن أنهن يعرفنه مسبقا

تخلت السيدات عن الذهاب لزيارته وسرعان ما أصبحن لا يشاهدن زوج القس في الشارع وكان لا يزال يتصرف كأنما لم يكن هناك شيء على غير ما يرام ثم كانت تغيب مدة يوم أو يومين ، كن يرينها تستقل القطار الباكر ، ووجهها قد بدأ يميل إلى النحول والضنى وكأنها لم تكن تأكل بما فيه الكفاية ، وتلك النظرة المتجمدة على وجهها كأنها لم تكن ترى ما كانت تنظر إليه وكان يقول إنها تذهب لزيارة أسرتها في مكان ما من الولاية حتى رأتها في أحد أيام غيابها امرأة من جفرسون كانت تتسوق في ممفيس ، رأتها تدخل بسرعة إلى أحد الفنادق هناك كان ذلك يوم سبت حين عادت المرأة إلى البلدة وحكت عن ذلك ولكن في اليوم التالي كان هايتاور

www.ibtesama.com/vb

على المنبر والدين والفرسان المسرعون مختلطين معاً ، والزوج عادت يوم الأثنين وفي يوم الأحد التالي قدمت إلى الكنيسة مرة أخرى ، لأول مرة منذ ستة أو سبعة أشهر ، وجلست في مؤخرة الكنيسة راحت تأتي كل أحد بعد ذلك ثم غادرت مرة أخرى ، في منتصف الأسبوع هذه المرة ، (كان الشهر هو تموز والطقس حاراً) وقال هايتاور انها ذهبت لتزور أسرتها مرة أخرى في الريف حيث الطقس لطيف وكان الرجال كبار السن ، الشيوخ والنساء العجائز يراقبونه ، دون أن يعرفوا ان كان يصدق ما يحكيه أم لا ، والشباب يتحدثون من خلف ظهره

ولكنهم ما كانوا قادرين على معرفة ان كان هو نفسه يصدق أم لا ما كان يحكيه لهم ، إن كان يهتم أم لا ، والدين وجده الذي قتل وسقط من على ظهر جواده ممتزجان معاً ، وكأن البذرة التي نقلها جده إليه كانت على الجواد أيضاً تلك الليلة وقد قُتِلَتْ أيضاً وتوقف الزمن آنذاك بالنسبة إلى البذرة ولم يحدث أي شيء منذ ذلك الحين ولا هو (أي القس) حدث أيضاً

عادت الزوجة قبل يوم الأحد كان الطقس حاراً ، وقال كبار السن انها كانت أقوى موجة حر عرفتها البلدة جاءت إلى الكنيسة في يوم الأحد ذاك وجلست على مقعد في المؤخرة ، لوحدها وفي منتصف الموعظة قفزت من على مقعدها وبدأت تزعق ، وتصيح بشيء ما تجاه المنبر ، وتهز يديها ملوحة بهما نحو المنبر حيث كان زوجها قد توقف عن الكلام ، وانحنى نحو الأمام ويداه مرفوعتان وساكنتان وقد حاول بعض الناس القريبين الامساك بها ولكنها

www.ibtesama.com/vb

قاومتهم ، وقد حكوا لبايرون كيف وقفت هناك ، في الممر الآن، وهي تزعق وتلّوح بيديها باتجاه المنبر حيث كان زوجها ينحني ويده لاتزال مرفوعة ووجهه الثائر متجمداً على شكل الجملة العاصفة الرمزية التي لم يكملها ولم يعرفوا ان كانت تهز يديها باتجاهه أو باتجاه الرب ثم نزل واقترب منها وتوقفت عن المقاومة عندها. ثم قادها إلى الخارج والرؤوس تلتفت وهما يمران ، حتى طلب المراقب من عازف الأرغن أن يعزف وفي عصر ذلك اليوم ، عقد الشيوخ اجتماعاً خلف أبواب موصدة لا يعرف الناس ما جرى خلفها ، الا أن هايتاور عاد ودخل غرفة الاجتماعات في الكنيسة وأغلق الباب وراءه أيضاً

ولكن الناس لم يعرفوا ما الذي حدث بل عرفوا أن الكنيسة قد جمعت مبلغاً من المال لإرسال الزوج إلى مؤسسة أو مصح وأن هايتاور أخذها إلى هناك وعاد وألقى موعظة في الأحد التالي كالعادة والنساء والجيران ، وبعضهم لم يكونوا قد دخلوا إلى بيت القس منذ شهور ، كانوا كريمين معه ، فراحوا يأخذون له أطباق الطعام ويحكون الواحد للآخر وللأزواج عن الحالة الفوضوية التي كان عليها بيت القس ، وكيف أن القس يأكل كحيوان ، كاما جاع ، ومهما وجد أمامه من طعام كان يذهب مرة كل أسبوعين لزيارة زوجه في المصح ، ولكنه كان يعود دائماً بعد يوم أو نحوه ، وفي يوم الأحد ، على المنبر ، كان يبدو وكأن شيئاً لم يحدث كان الناس يسألون عن صحتها ، بفضول ولطف ، وكان يشكرهم ثم يظهر مرة أخرى على المنبر يوم الأحد بيديه المجنونتين وصوته التوّاق الهائج السابح في عالم آخر والذي يهدر فيه كالأشباح الله والناس والخلاص والجياد

www.ibtesama.com/vb

المسرعة وجدّه القتيل ، بينما يجلس إلى الأسفل منه الشيوخ والمصلون حيارى وغاضبين وفي الخريف عادت الزوج إلى البيت وبدت في حال أفضل لقد ازداد وزنها قليلاً بل لقد تغيرت أكثر من ذلك حتى ربما بدت الآن كأنها تطهرت ، وأنها متيقظة على أية حال وعلى كل ، بدت الآن كما تريدها السيدات أن تبدو طوال الوقت ، وكما اعتقدن أن زوج القس يجب أن تبدو راحت تزور الكنيسة وتحضر الصلوات بانتظام ، وراحت السيدات يزرنها وهي تزورهن ، تجلس بهدوء وتواضع حتى في بيتها ، بينما كانوا يحكون لها كيف تدير البيت وما الذي عليها أن ترتديه وماذا تطبخ لزوجها

وقد نقول انهن سامحنها لم تكن هناك جريمة أو خطيئة قد تم تحديدها فعلاً ولم تحدد كفارة معينة أيضاً ولكن البلدة لم تصدق أن السيدات قد نسين تلك الرحلات السابقة الغامضة ، والتي كانت ممفيس غايتها ، والتي كان لدى الجميع القناعة نفسها تجاهها ، رغم أنه لم يلفظها أحد بصراحة أو بصوت مرتفع اذ كانت البلدة تؤمن بأن النساء الصالحات لا ينسين الأمور بسهولة ،سواء كانت صالحة أم طالحة ، والا فإن مذاق الغفران ونكهته كانا سيموتان على لسان الضمير كانت البلدة تؤمن بأن السيدات يعرفن الحقيقة ، طالما أنها كانت تؤمن بأن النساء الطالحات يمكن أن يُخدعن بالأمور السيئة ، وطالما أنهن مضطرات إلى انفاق بعض وقتهن دون أن يكنّ شكّاكات ولكن ليست هناك امرأة صالحة يمكن أن تُخدع بذلك لأن تلك المرأة ، كونها صالحة ، لا تحتاج إلى أن تشغل فكرها بصلاحها أو صلاح غيرها ، وبالتالي سيكون لديها الوقت الكافي لتشمّم الإثم ولذلك

www.ibtesama.com/vb

كانوا يعتقدون أن الصلاح يمكن أن يخدعها في أي وقت فيجعلها تؤمن بأنه شرّ ، ولكن الشر نفسه لا يمكنه أن يخدعها لذلك حين رحلت الزوج مجدّداً بعد أربعة أو خمسة أشهر في زيارة وقال الزوج مجدداً انها ذهبت لتزور أسرتها ، اعتقدت البلدة هذه المرة أنه حتى الزوج لم يكن مخدوعاً هذه المرة وعلى أية حال ، عادت هي واستمر هو في الوعظ كل يوم أحد كأن شيئاً لم يكن ، وظلّ يزور الناس ويعود المرضى ويتحدث عن الكنيسة ولكن الزوج لم تعد تزور الكنيسة وسرعان ما توقفت النساء عن زيارتها ، وعن الذهاب إلى بيت القس على الاطلاق وحتى الجيران على كلا الجانبين ما عادوا يروها في أرجاء المنزل وسرعان ما أصبح الأمر وكأنها لم تعد هناك ، وكأن الجميع اتفقوا على أنها ليست هناك ، وأن القس ليست له زوج حتى وهو يعظهم كل أحد ، دون أن يقول لهم الآن انها ذهبت لزيارة أسرتها وربما كان مسروراً بذلك ، هكذا فكرت البلدة ربما كان سعيداً لأنه ما عاد مضطراً إلى الكذب

لذلك لم يرها أحد حين استقلت القطار في يوم الجمعة ذاك ؛ وربما كان يوم السبت ، أي اليوم ذاته وكانت جريدة صباح الأحد هي التي رأوها ، والتي روت كيف قفزت أو سقطت من نافذة فندق في ممفيس ليلة السبت ، وماتت كان هناك رجل معها في الغرفة وقد ألقي عليه القبض كان ثملاً كانا قد سجلا نفسيهما كزوجين تحت اسمين مستعارين وقد اكتشفت الشرطة اسمها الحقيقي حيث كانت قد كتبته بنفسها على قطعة ورق ثم مزقتها ورمت بها إلى سلة المهملات وقد طبعت الصحف الاسم مع الحكاية زوج القس غيل

www.ibtesama.com/vb

هايتاور من جفرسون ، ميسيسبي وحكت الصحيفة كيف أنهم اتصلوا بالزوج في الثانية صباحاً وكيف قال انه لا شيء لديه يقوله وحين وصلوا الكنيسة في صبيحة يوم الأحد ذاك كانت باحتها مليئة بصحفيي ممفيس وهم يصورون الكنيسة وبيت القس ثم وصل هايتاور حاول الصحفيون ايقافه ولكنه مرّ عبرهم نحو الكنيسة ثم نحو المنبر كانت بعض النساء العجائز وبعض الرجال المسنين قد سبق لهم ودخلوا الكنيسة ، وقد أصابهم الرعب والغضب ، ليس بسبب ما حدث في ممفيس بل بسبب وجود كل أولئك الصحفيين ولكن حين دخل هايتاور وصعد إلى المنبر نسوا حتى وجود الصحفيين نهضت النساء أوّلاً وبد أن بالمغادرة ثم نهض الرجال أيضاً وهكذا فرغت الكنيسة إلاّ من القس على المنبر ، وهو منحن نحو الأمام والكتاب المقدس مفتوح ويداه مستندتان على جانبيه ورأسه ليست محنية والصحفيون من ممفيس (كانوا قد لحقوا به إلى الكنيسة) جالسون في صف واحد في المقاعد الخلفية . قالوا انه لم يكن يراقب أفراد رعيته وهم يغادرون ، لم يكن ينظر إلى أي شيء

لقد حكوا لبايرون عن ذلك ، كيف أغلق القس الكتاب أخيراً ، بعناية ، ونزل إلى الكنيسة الفارغة وسار عبر الممشى دون أن ينظر مرة واحدة إلى صف الصحفيين ، كما فعلت الرعية ، ثم خرج من الباب كان هناك بعض المصورين ينتظرون في الخارج عند المدخل والكاميرات جاهزة ورؤوسهم تحت الأقمشة السوداء كان القس قد توقع ذلك على ما يبدو ، فقد خرج من الكنيسة وكتاب صلوات مفتوح مرفوع أمام وجهه ولكن المصورين كانوا قد توقعوا ذلك

www.ibtesama.com/vb

أيضاً ، لأنهم خدعوه ومن المحتمل جداً أنه لم يكن معتاداً على ذلك ولذا خدعوه بسهولة ، هكذا حكوا لبايرون كان أحد المصورين قد وضع آلته في مكان جانبي ، ولم ير القس تلك الآلة اطلاقاً ، أورآها متأخراً كان يخفي وجهه عن المصورين الذين كانوا في المقدمة ، وفي اليوم التالي حين خرجت الصورة في الصحيفة وكانت صورة جانبية ، والقس ينزل احدى الدرجات وكتاب الصلوات أمام وجهه وخلف الكتاب كانت شفتاه مزمومتين كأنه يبتسم ولكن أسنانه كانت مطبقة ووجهه يبدو كوجه الشيطان في الصور القديمة وفي اليوم التالي أعاد زوجه إلى البيت ودفنها حضرت البلدة الطقوس ولم تكن تلك جنازة لم يأخذ الجثمان إلى الكنيسة اطلاقاً بل أخذه إلى المقبرة مباشرة وكان يحضر نفسه لقراءة شيء من الكتاب المقدس حين تقدم قس آخر وأخذه من يده وقد بقي كثير من الناس ، وخاصة الصغار منهم ، بعد أن رحل هو والآخرون وهم ينظرون إلى القبر

ثم عرف حتى أتباع الكنائس الأخرى أن كنيسته قد طلبت منه أن يستقيل ، وأنه رفض وفي يوم الأحد التالي وصل بشر كثيرون من الكنائس الأخرى إلى كنيسته ليروا ما سيجري وقد وصل ودخل إلى الكنيسة نهضت الرعية كلها وخرجت تاركة القس وأولئك القادمين من الكنائس الأخرى الذين جاؤوا كأنما ليتفرجوا على عرض مسرحي وهكذا وعظ فيهم ، كما كان يعظ دائماً بذلك الغضب المنتشي الذي يعتبرونه تدنيساً للمقدسات وكان أولئك القادمون من الكنائس الأخرى يعتبرونه جنوناً صرفاً

www.ibtesama.com/vb

رفض أن يستقيل.. وقد طلب شيوخ البلدة من هيئة الكنيسة استدعاؤه ولكن بعد نشر الحكاية والصور في الصحف وكل ما جرى رفضت أي بلدة أخرى استقباله لقد أصرّ الجميع على أنه لم يكن لديهم أي اعتراض عليه هو شخصياً لكن حظه كان سيئاً منذ ولد وهكذا تخلى الناس عن القدوم إلى الكنيسة على الإطلاق، حتى أولئك التابعين لكنائس أخرى والذين كانوا يأتون بسبب الفضول لم يعد حتى استعراضاً مسرحياً الآن، بل أصبح انتهاكاً للحرمات فحسب ولكنه ظل يصل إلى الكنيسة في الساعة المعهودة من صباح كل يوم أحد ويذهب إلى المنبر، وكانت الرعية تنهض وتغادر، والمتسكعون وأشباههم كانوا يتجمعون على امتداد الشارع في الخارج ويصغون إليه وهو يعظ ويصلي في الكنيسة الفارغة وفي يوم الأحد التالي وصل فوجد باب الكنيسة مقفلاً، وراقبه المتسكعون وهو يحاول فتح الباب ثم يكف عن المحاولة ويقف ورأسه لم تطأطأ بعد، والشارع ممتلىء بالرجال الذين لم يسبق لهم أن دخلوا إلى الكنيسة، وأولاد صغار لم يكونوا يعرفون بما يجري ولكنهم يعرفون بوجود أمر ما، فيتوقفون وينظرون بعيون ساكنة مستديرة إلى الرجل الواقف دون حراك أمام الباب المقفل وفي اليوم التالي سمعت البلدة كيف أنه ذهب لمقابلة الشيوخ وتخلى عن منبره لصالح الكنيسة

ثم شعرت البلدة بالحزن لأنها سعيدة، كما يحدث أن يحزن الناس على شخص أجبروه في النهاية على أن يفعل ما أجبروه على فعله ظنوا طبعاً أنه سيرحل الآن، وجمعت له الكنيسة مبلغاً من المال يساعده على الانتقال والاستقرار في مكان آخر ولكنه رفض مغادرة البلدة

www.ibtesama.com/vb

وقد حكوا لبايرون عن الرعب وما هو أشد من الغضب اللذين سادا البلدة حين عرفت أنه اشترى ذلك المنزل الصغير في الشارع الخلفي حيث يعيش الآن ومنذ ذلك الحين وقد اجتمع الشيوخ مرة أخرى لأنهم قالوا انهم أعطوه المبلغ ليرحل به ، وحين أنفقه على شيء آخر فانه يكون قد قبله على وعد باطل . وقد ذهبوا إليه وقالوا له هذا الكلام ، وقد طلب منهم أن يعذروه للحظة ثم عاد إلى الغرفة بالمبلغ الذي نقدوه اياه بكامله عدا ونقدا وأصر على أن يستردوه ولكنهم رفضوا ذلك ورفض هو أن يقول من أين جاء بالمال الذي اشترى به المنزل وهكذا حدث في اليوم التالي ، كما حكوا لبايرون ، أن قال البعض إنه قد أمّن على حياة زوجه ثم دفع شخصاً ما لقتلها ولكن الجميع كانوا يعلمون أن الأمر لم يكن كذلك ، بمن فيهم أولئك الذين تلفظوا بذلك وكرّروه وأولئك الذين كانوا يصغون إليهم

ولكنه رفض مغادرة البلدة ثم رأوا في أحد الأيام اللافتة الصغيرة التي صنعها وطلاها بنفسه ونصبها في الباحة الأمامية لمنزله ، وعرفوا أنه ينوي البقاء لقد كان لا يزال يحتفظ بالطباخة وهي امرأة زنجية كانت معه منذ البداية ولكنهم حكوا لبايرون كيف أنه ما إن ماتت زوجه حتى أدرك الناس فوراً أن الزنجية كانت امرأة ، وأنه مع تلك المرأة الزنجية لوحدهما في المنزل طوال اليوم وحكوا كيف أن الزوج لم يكن قد برد جثمانها بعد في قبرها المجلّل بالخزي حتى بدأ الهمس. وكيف أنه جعل زوجه تأثم وتنتحر لأنه لم يكن زوجاً طبيعياً، رجلاً طبيعياً ، وأن السبب كان المرأة الزنجية وكان هذا كل ما يلزم ، كل ما كان ناقصاً أصغى بايرون بهدوء ، مفكراً في نفسه

www.ibtesama.com/vb

كيف أن الناس متشابهون في كل مكان ، ولكن بدا له أنه يحدث في بلدة صغيرة ، حيث ارتكاب الشر أصعب ، وحيث فرص الاختلاء أندر ، حيث يمكن أن يخترع الناس المزيد من الشر نيابة عن الناس الآخرين لأن هذا كان كل ما تتطلبه المسألة تلك الفكرة ، تلك الكلمة الواحدة التافهة التي تنفخ من ذهن إلى آخر وفي أحد الأيام تركته الطباخة وقد سمعوا كيف حدث في احدى الليالي أن دخلت مجموعة من الرجال المقنعين على نحو غير متقن إلى منزل القس وأمروه بطردها ثم سمعوا كيف أن المرأة حكت في اليوم التالي أنها تركته من تلقاء نفسها لأن مستخدمها طلب منها أن تفعل شيئاً قالت انه مناف لتعاليم الرب وللطبيعة كما قيل إن بعض الرجال المقنعين قد أرغموها على تركه لأنها كانت ما يعرف بـ « السمراء جداً » وكان معروفاً أن هناك رجلان أو ثلاثة في البلدة كانوا يعارضون أن تقوم بما تعتبره هي منافياً لتعاليم الرب وللطبيعة ، حيث أن ما تعتبره المرأة الزنجية منافياً للرب والطبيعة كما قال بعض الشبان ، لا بد أن يكون شريراً جداً وعلى أية حال ، فان القس لم يستطع أن يجلب طباخة أخرى ، أو لنقل انه لم يفعل ذلك ربما أخاف الرجال كل الزنجيات الأخريات في البلدة في تلك الليلة بالذات اذن راح يطبخ لنفسه فترة من الزمن ، حتى سمعوا في أحد الأيام أنه يستخدم رجلاً زنجياً كطباخ وكانت تلك هي المحاولة الأخيرة ، ففي ذلك المساء جاء بعض الرجال دون أقنعة أيضاً ، واقتادوا الزنجي خارجاً وساطوه وحين استيقظ هايتاور في اليوم التالي وجد زجاج نافذته مكسوراً وعلى الأرض قطعة من الآجر عليها ملاحظة مربوطة بها تأمره بالخروج من البلدة عند الغروب

www.ibtesama.com/vb

بتوقيع « ك . ك . ك » (١) ولكنه لم يرحل ، وفي صباح اليوم التالي وجده أحد الرجال في الغابات على مسافة ميل من البلدة كان قد قيّد إلى شجرة وضرب حتّى غاب عن الوعي

رفض أن يفصح عمّن ضربه وقد عرفت البلدة أن ذلك كان خطأً منه هذا وقد زاره بعض الرجال وحاولوا مرة أخرى إقناعه بمغادرة جفرسون ، حيث أن ذلك في صالحه ، وقالوا انه قد يقتل في المرة القادمة ولكنه رفض المغادرة بل انه كان يرفض الحديث عن حادثة ضربه ، حتّى حين عرضوا عليه مقاضاة الرجال الذين ضربوه ولكنه رفض ذلك أيضاً كان يرفض الافصاح ويرفض المغادرة ثم حدث فجأة أن انتهى الأمر كله كريح شريرة كأنما أدركت البلدة أخيراً أنه سيكون جزءاً من حياتها حتّى يموت ، وأنه حرّي بهم أن يتركوه في حال سبيله وكأنما ، كما فكّر بايرون ، كان الأمر كله أشبه بقيام الكثير من الناس بتمثيل مسرحية ما ، حتّى أنجزوا أخيراً كل الأدوار المرسومة لهم وأصبحوا الآن قادرين على أن يعيشوا بسلام واحدهم مع الآخر لقد تركوا القس وشأنه كانوا يرونه يعمل في باحة البيت أو الحديقة ، أو في الشارع وفي المتاجر وسلّة صغيرة على ذراعه ، وكانوا يتحدثون إليه كانوا يعرفون أنه يطبخ لنفسه بنفسه ويؤدي بنفسه الأعمال المنزلية بعد فترة بدأ الجيران يرسلون إليه بأطباق الطعام مجدداً رغم أنها كانت من ذلك النوع من الأطباق الذي من شأنهم ارساله إلى أسرة عامل ورشة فقير ولكنه كان طعاماً على أية حال ، وكان يُرسل بحسن نية لأن الناس ، كما فكّر بايرون ، ينسون الكثير خلال عشرين عاماً يفكّر قائلاً

---

(١) كوكلاكس كلان . (المترجم)

« عجباً ، لا أعتقد أن هناك في جفرسون من يعرف أنه يجلس في النافذة من غروب الشمس حتى حلول الظلام الكامل كل يوم ، باستثنائي أنا أو يعرف كيف يبدو ذلك المنزل من الداخل وهم لا يعرفون حتى اني أعرف ، والاّ لكانوا قد أخرجونا كلينا ربما وساطونا مجدداً ، حيث لا يبدو أن الناس ينسون فترة أطول بكثير مما يتذكرون » ولأن هناك شيئاً واحداً آخر ، وقد عرفه بايرون وراقبه خلال فترة وجوده في جفرسون منذ وصل إليها ليعيش فيها

كان هايتاور يقرأ كثيراً جداً أي أن بايرون كان يتأمل بنوع من التأمل والارتياع المترع بالاحترام الكتب التي كانت مصفوفة على امتداد جدران غرفة المكتب كتب في الدين والتاريخ والعلوم والتي لم يكن بايرون قد سبق له وسمع حتى بوجودها وفي أحد الأيام منذ سنوات أربع خلت وصل زنجي وهو يعدو إلى منزل القس ، وذلك من كوخه الواقع عند أطراف البلدة وخلفها مباشرة ، وقال ان زوجه كانت في المخاض لم يكن لدى هايتاور هاتف فقال للزنجي أن يسرع نحو أوّل جار له ويطلب منه استدعاء الطبيب وقد راقب الزنجي يذهب إلى بوابة الجيران ولكنه بدلاً عن أن يدخل ، وقف الزنجي هناك لفترة ثم استأنف السير على امتداد الشارع نحو البلدة عرف هايتاور أن الرجل سيمشي تلك المسافة كلها حتى البلدة ثم ينفق حوالي ثلاثين دقيقة على الأرجح حتى يجد طبيباً ، وذلك بأسلوبه الزنجي المرتبك غير المكترث بالوقت ، بدلاً عن أن يطلب من امرأة بيضاء أن تتصل له بالطبيب هاتفياً ثم ذهب إلى باب مطبخه واستطاع أن يسمع المرأة في الكوخ غير البعيد وهي تعول لم يعد يستطيع الانتظار هرع إلى الكوخ ورأى أن المرأة قد غادرت السرير لسبب

www.ibtesama.com/vb

لم يعرفه قط ، وكانت الآن على يديها وركبتيها محاولة العودة إلى السرير ، وهي تصرخ وتعول أعادها إلى السرير وطلب منها أن تتمدد دون حراك ، وأخافها حتى أطاعته ، ثم أسرع إلى بيته وأخذ أحد كتبه من مكتبته وموساه وبعض القيطان وعاد مسرعاً إلى الكوخ وساعدها على وضع الطفل ولكن كان قد سبق له ومات وقد قال الطبيب حين وصل انها لا شك قد آذت الجنين حين غادرت السرير حيث وجدها هايتاور كما أنه صادق على عمل هايتاور وقنع الزوج بذلك أيضاً

فكّر بايرون « ولكنه كان شبيهاً جداً بتلك المسألة الأخرى رغم وجود خمسة عشر عاماً بينهما » لأنه خلال يومين راح بعض الناس يقولون ان هايتاور كان هو الأب وانه ترك الطفل يموت عن عمد ولكن بايرون كان يؤمن بأنه حتى أولئك الذين يقولون مثل هذا الكلام لا يؤمنون به كان يعتقد أن البلدة قد اكتسبت عادة أن تقول أشياء حول القس المجلّل بالعار لم يكونوا يصدقونها هم أنفسهم ، وأن هذه العادة استمرت فترة طويلة حتى أنهم ما عادوا قادرين على تحرير أنفسهم منها يفكّر « لأنه يحدث دائماً أنه حين يتحول أي شيء إلى عادة فانه يستطيع أيضاً أن يبتعد لمسافة جيدة بعيداً عن الحقيقة والواقع » وهو يتذكر احدى الأمسيات التي يتحدث فيها هو وهايتاور معاً ، وقال له هذا « انهم أناس طيبون عليهم أن يؤمنوا بما عليهم أن يؤمنوا به ، خاصة وأني كنت مرة سيد وخادم ايمانهم في آن معاً وبالتالي ليس عليّ أن أنتهك حرمة ايمانهم وليس على بايرون بنتش أن يقول انهم على خطأ لأن كل ما يمكن أن يطمح

www.ibtesama.com/vb

إليه أي إنسان هو أن يسمح له بالعيش في سلام بين أقرانه ». وقد حدث هذا بعد فترة وجيزة من سماع بايرون للحكاية ، وبعد أن بدأت الزيارات المسائية لهايتاور بفترة قصيرة وكان بايرون لا يزال يتساءل لماذا بقي الآخر في جفرسون ، تحت أنظار وسمع الكنيسة التي أنكرته وطردته وفي احدى الأمسيات سأله بايرون هذا السؤال فأجابه هايتاور

ـ ألم تكن أنت تقضي فترة بعد الظهر من أيام السبت وأنت تعمل في الورشة ، بينما يستمتع العمال الآخرون في البلدة بأوقاتهم ؟

قال بايرون

ـ لا أعرف أعتقد أن هذه حياتي وحسب

قال الآخر

ـ وأعتقد أن هذه حياتي أنا وحسب أيضاً ولكني أعرف السبب لأن المرء يكون أكثر خوفاً من المشاكل القادمة من خوفه من المشاكل التي سبق له وعاني منها إنه ميّال إلى الالتصاق بالمشاكل التي اعتاد عليها قبل أن يخاطر بتغيير ما أجل وقد يتحدث المرء عن رغبته في الهرب من الناس الأحياء ولكن الأموات هم الذين يسببون له الأذى الموتى فحسب هم الذين يتمددون بسلام في مكان واحد ولا يحاولون أن يمسكوا به ، وهو لا يستطيع النجاة منهم

لقد مرّوا الآن بضجيجهم وتلاشوا في الغسق ، كان الليل قد حلّ ومع ذلك فهو لا يزال يجلس في نافذة غرفة مكتبته ، والغرفة معتمة من خلفه نور الشارع عند الزاوية يومض ويتوهج ، فتبدو

www.ibtesama.com/vb

الظلال الممزقة لأشجار القيقب وهي تتأرجح بضعف على ظلمة شهر آب ومن مسافة ، يستطيع هو أن يسمع الأمواج الرنانة والضعيفة انما الواضحة تماماً ، للأصوات المحتشدة في الكنيسة صوت متقشّف وغني ، مذلّ وفخور ، متعاظم ومتناقص في ظلمة الصيف الهادئة كتيار ايقاعي

ثم يرى رجلاً يقترب على امتداد الشارع لو كانت تلك ليلة أخرى من ليالي الأسبوع لاستطاع معرفة الشخص من شكله ومشيته وطريقته في السير ولكن في مساء يوم الأحد وصدى حوافر الشبح تتردّد في صمت في غرفة المكتبة التي ملأها الغسق ، يروح يراقب بهدوء الشكل الضعيف غير المتطي لصهوة حصان وهو يتحرك بتلك البراعة الخطرة الخادعة التي تتميز بها الحيوانات المتوازنة على ساقيها الخلفيتين ؛ تلك البراعة التي يفتخر بها الحيوان البشري بحماقة والتي تخونه باستمرار بالقوانين الطبيعية كالجاذبية والجليد ، وبالأشياء الدخيلة التي اخترعها هو بنفسه ، كالسيارات والأثاث في العتمة ، ونفايات طعامه بالذات التي تترك على الأرض أو الرصيف ؛ ويفكر بهدوء كم كان القدماء على حق حين جعلوا من الحصان صفة ورمزاً للمحاربين والملوك ، وذلك حين يرى الرجل في الشارع يمرّ باللافتة الواطئة ويتوقف عند بوابته ويقترب من المنزل يقترب في جلسته نحو الأمام وهو يراقب الرجل يسير على امتداد الممشى نحو الباب المعتم ؛ ويسمع الرجل يتعثر بقوة عند الدرجة الأخيرة المعتمة يقول « بايرون بنتش في البلدة في ليلة الأحد بايرون بنتش في البلدة يوم الأحد »

www.ibtesama.com/vb

الفصل الرابع

جلسا متواجهين عبر الظلمة غرفة المكتبة منارة الآن بمصباح قراءة ذي كمة خضراء اللون قابع فوق المكتب الخشبي يجلس هايتاور خلفه، في كرسي دوّار عتيق ، بينما يجلس أمامه بايرون على كرسي مستقيم كلا الوجهين ليسا تحت الدائرة المباشرة من النور النازلة من المصباح المظلّل عبر النافذة المفتوحة يصل صوت الغناء من الكنيسة البعيدة يتكلم بايرون بصوت خفيض هادىء

— كان ذلك أمراً غريباً كنت أظنّ أنه لو وجد على الاطلاق مكان يمكن لرجل أن يتواجد فيه دون أن يطاله الأذى لكان ذلك المكان الورشة مساء يوم السبت ومع ذلك المنزل يحترق أيضاً ، أمام وجهي ، كما يمكنك أن تقول كنت طوال الوقت أتناول طعامي وأنظر بين الفينة والأخرى وأرى ذلك الدخان وأفكر « جسناً ، لن أرى أحداً هنا هذا المساء على أية حال لن أُقاطع هذا المساء على الأقل » ثم رفعت نظري فرأيتها هناك ، ووجهها كله على وشك الابتسام وفمها على وشك التلفّظ باسمه ، حين لاحظت أني لم أكن هو ولم أعرف أبداً كيف أتصرف فرحت أثرثر فاضحاً الأمر كله

www.ibtesama.com/vb

يكشّر قليلاً انها ليست ابتسامة بل ترتفع شفته العليا للحظة والحركة ، وحتى السطح المجعّد ، لا تمضي بعيداً وتختفي على الفور تقريباً

– ولكني لم أكن أشكّ حتى في ذلك الحين بأني ما كنت أجهله لم يكن أسوأ ما في الأمر

يقول هايتاور

– لا شكّ أنه أمر غريب جعل بايرون بنتش يبقى في جفرسون يوم الأحد ولكنها كانت تبحث عنه وأنت ساعدتها على أن تجده ألم يكن ما فعلته هو ما كانت تريده هي ، هو ما قطعت كل تلك الطريق من ألاباما إلى هنا لتجده ؟

– أعتقد أني قلت لها ذلك أعتقد أنه لا شكّ في ذلك فقد كانت تراقبني وهي جالسة هناك ببطنها المنتفخ ، تراقبني بتينك العينين اللتين لا يستطيع الرجل أن يكذب عليهما حتى لو أراد وأنا كنت أثرثر وأثرثر ، وذلك الدخان هناك في البعيد أمامي وكأنه وضع هناك ليحذرني ، ليجعلني أراقب فمي ولكن لم يكن لديّ الحسّ الكافي لأراه

يقول هايتاور

– أوه ، ذلك المنزل الذي احترق البارحة ، ولكني لا أرى أية علاقة بين منزل من كان ؟ لقد رأيت الدخان أنا أيضاً وقد سألت زنجياً عابراً ولكنه لم يكن يعرف

www.ibtesama.com/vb

يقول بايرون

– انه منزل بيردن القديم ذاك

ينظر إلى الآخر ينظران كل إلى صاحبه هايتاور شخص طويل القامة ، وكان نحيلاً في يوم من الأيام ولكنه ليس نحيلاً الآن بشرته لها لون كيس الطحين المصنوع من الخيش والقسم العلوي من جسده يشبه في شكله كيساً غير مليء تماماً يتهاوى من كتفيه الهزيلتين ، بسبب ثقله ، نحو حضنه ثم يقول بايرون

– أنت لم تسمع بعد

يراقبه الآخر يقول بصوت متأمل :

– عليّ فعل ذلك أيضاً أن أحكي في يومين لشخصين شيئاً لا يريدان سماعه وليس عليهما سماعه اطلاقاً

– وما هو ذاك الذي تعتقد أني لا أريد سماعه ؟ وما هو الذي لم أسمعه ؟

يقول بايرون

– ليس الحريق فقد خرجوا منه سالمين

– هم ؟ فهمت أن الآنسة بيردن تعيش هناك وحيدة

ينظر بايرون مرة أخرى إلى الآخر لبرهة وجيزة ولكن وجه هايتاور جدّي ومهتم يقول بايرون

– براون وكريسماس

لا يزال وجه هايتاور دون تغيّر في التعبير

www.ibtesama.com/vb

يقول بايرون

ـ أنت لم تسمع ذلك كانا يعيشان هناك

ـ يعيشان هناك ؟ يقيمان في المنزل ؟

ـ لا في كوخ زنجي عتيق ، في الخلف لقد أصلحه كريسماس منذ ثلاث سنوات وهو يعيش هناك منذ ذلك الحين ، والناس تتساءل أين كان ينام في الليل وحين عمل هو وبراون معاً ، أقام براون معه في الكوخ

قال هايتاور

ـ أوه ، ولكني لا أفهم ان كانا مرتاحين والآنسة بيردن لم

ـ أعتقد أنهما كانا متفاهمين كانا يبيعان الويسكي ، مستخدمين ذلك المنزل القديم كمركز لهما ، كستار لا أعتقد أنها كانت تعرف ذلك ، أي عن أمر الويسكي على الأقل لا يعرف الناس إن كانت تعرف أم لا يقولون إن كريسماس بدأ ذلك بنفسه قبل ثلاث سنوات ، وراح يبيع لبضع زبائن دائمين لم يكن واحد هم يعرف الآخر ولكنه حين شارك براون أراد هذا أن يتوسع في التجارة وقد راح يبيعه بنصف الباينت (١) من تحت صدر قميصه في أية حارة ولأي شخص أي كان يبيع ما لم يكن يشربه وأعتقد أن الطريقة التي كانا يحصلان بها على الويسكي الذي كانا يبيعانه ما كانت تستحق انعام النظر فيها لأنه بعد ترك براون العمل في الورشة بحوالي أسبوعين

---

(١) الباينت ويعادل ١/٨ من الغالون (المترجم).

www.ibtesama.com/vb

وراح يركب السيارة الجديدة ويتجول بها لأجل العمل، سكر ذات مرة في ليلة من ليالي السبت وراح يتفاخر أمام جمهرة في دكان الحلاق بشيء عما فعلاه هو وكريسماس في ممفيس في احدى الليالي، أو على طريق قريبة من ممفيس لقد حكى عن شيء ما يخصهما ويخص تلك السيارة الجديدة التي كانت مخبأة في الدغل وأن كريسماس يحمل مسدساً، وأشياء أخرى كثيرة عن شاحنة ومئة غالون من شيء ما، حتى وصل كريسماس مسرعاً وسار نحوه ورفعه عن كرسيه وقد قال كريسماس بذلك الصوت الهادىء غير السار وغير المجنون أيضاً «عليك أن تحذر من شرب الكثير من مستحضر الشعر الجفرسوني ذاك لقد صعد إلى رأسك فوراً سرعان ما سيكون لك سقف حلق» كان يمسك ببراون بيد واحدة ويصفعه على وجهه بالأخرى لم تبد تلك كضربات قوية ولكن الناس كانوا قادرين على رؤية اللون الأحمر بين سالفي براون حين كانت يد كريسماس تبتعد بين الضربات «اخرج وتنفس بعض الهواء النقي» هذا ما قاله كريسماس ثم تابع «أنت تلهي هؤلاء الناس عن أعمالهم»

يفكر بايرون ثم يتابع

– وهناك كانت، جالسة هناك على الأخشاب، تراقبني وأنا أثرثر بالمسألة كلها، وهي تراقبني ثم تقول «هل له ندبة صغيرة هنا قرب فمه؟»

يقول هايتاور

– اذن براون هو رجلها

www.ibtesama.com/vb

يجلس دون حراك وهو يراقب بايرون بنوع من الدهشة الهاذئة التي ليس فيها نضال ولا أخلاقيات منتهكة كأنما كان يصغي إلى أفعال أشخاص من عرق مختلف

– زوجها بائع مسكرات محظورة حسناً ، حسناً ، حسناً

ومع ذلك فان براون يستطيع أن يرى في وجه الآخر شيئاً كامناً ، على وشك الاستيقاظ ، وهايتاور نفسه غير مدرك له ، كأنما هو شيء ضمن هذا الرجل يحاول أن يحذّره أو يهيّئه ولكن بايرون يعتقد أن هذا مجرد انعكاس لما يعرفه هو مسبقاً ويكاد يقوله

– وهكذا أنباتُها حتى قبل أن أعرف ذلك وكنت مستعداً لقضم لساني قطعتين حتى آنذاك ، وحتى حين فكرت أن هذا كان كل ما في الأمر

انه لا ينظر إلى الآخر الآن عبر النافذة ، كان صوت الأرغن الممزوج بالأصوات البشرية يأتي ضعيفاً وان يكن واضحاً ، عبر المساء الساكن **أتساءل إن كان يسمعه هو أيضاً هكذا يفكر بايرون أو ربما أصغى هو كثيراً إليه ولفترة طويلة جداً حتى أنه لم يعد يسمعه أبداً ولا حاجة به حتى إلى أن يسمعه**

– وقد جلست هناك طوال المساء بينما كنت أعمل ، والدخان يتلاشى أخيراً ، وأنا أحاول التفكير فيما سأقوله لها وما سأفعله لقد أرادت أن تذهب إلى هناك مباشرة وطلبت مني أن أدلّها على الطريق وحين قلت لها انه يبعد مسافة ميلين ابتسمت نوعاً ما كأني طفل أمامها أو شيء ما قالت « لقد قطعت الطريق كلها من

www.ibtesama.com/vb

ألاباما إلى هنا ، وأعتقد أني لن أكترث بميلين آخرين » وعندها قلت لها

هنا سكن صوته بدا كأنه يتأمّل في الأرضية تحت قدميه يرفع نظره

– لقد كذبتُ ، على ما أعتقد ولكنها لم تكن كذبة نوعاً ما كان ذلك لأني عرفت أنه سيكون هناك أشخاص يتفرجون على الحريق ومجيئها هكذا فجأة محاولة البحث عنه لم أكن أعرف آنذاك البقية أسوأ ما في الأمر لذا قلت لها انه مشغول في عمل ما وإن أفضل وقت لرؤيته سيكون بعد الساعة السادسة وكانت تلك هي الحقيقة لأني أعتقد أنه يدعوه بالعمل انه يحملها ، أعني كل تلك الزجاجات الصغيرة الباردة ، على لحم صدره مباشرة ، ولو ابتعد عن الساحة لكان ذلك بسبب تخلّفه قليلاً في العودة أو أنه دخل احدى الحانات لدقيقة من الزمن وهكذا أقنعتها بأن تنتظر وتجلس هناك وتابعت العمل ، وأنا أحاول أن أقرر ما سأفعله وحين أفكّر الآن كم كنت قلقاً بسبب ما كنت أعرفه ، الآن وأنا أعرف بقية الأمر لا يبدو أنه كان هناك ما يقلقني أبداً كنت أفكر طوال النهار في مدى سهولة التخلّي عن البارحة وألاّ أقلق نفسي أبداً أكثر مما كنت قلقاً عندها

يقول هايتاور

– ما زلت لا أستطيع أن أرى ما يقلقك ليس الذنب ذنبك أن الرجل هو على ما هو عليه وأنها على ما هي عليه لقد فعلت ما بوسعك كل ما هو متوقّع من غريب أن يفعله ما لم

www.ibtesama.com/vb

سكت صوته هو أيضاً ثم انتهى كلامه عند بداية تلك الجملة كأنما التفكير البطيء قد تحوّل إلى تأمّل ثم إلى شيء أشبه بالقلق أمامه كان بايرون جالساً دون حراك ، وجهه إلى الأسفل وعليه سيماء الجدية . وقبالة بايرون لا يفكّر هايتاور بعد بـ الحب انه يتذكر فحسب أن بايرون لا يزال شاباً وأنه عاش حياة التبتّل والعمل الشاق ، وأنه وفقاً لما يرويه بايرون فان المرأة التي لم يرها هو بعد تتمتع بصفة تدعو إلى القلق ، حتّى لو كان بايرون لا يزال يعتقد أنها الشفقة ولا شيء آخر وهكذا يراقب بايرون الآن بدقة معينة ، لا هي بالباردة ولا بالدافئة ، بينما يستمر بايرون بالتكلم بذلك الصوت الخفيض كيف أنه حتّى السادسة لم يستطع أن يقرر أي شيء ، وأنه حين وصل مع لينا إلى الساحة كان لا يزال دون قرار بعد والآن بدأ يظهر على تعبير هايتاور المرتبك شيء من الانكماش والنذير بينما يتابع بايرون كلامه بهدوء ، ويخبره كيف أنه قرر بعد أن وصلا إلى الساحة أن يأخذ لينا إلى منزل السيدة بيرد وبايرون يتكلم بهدوء ، مفكراً ، متذكراً كان أشبه بشيء تغلغل في الهواء والمساء ، جاعلاً الوجوه المألوفة للرجال تبدو غريبة ، وهو ، الذي لم يسمع بعد ، ودون أن يضطر إلى أن يعرف أن شيئاً ما قد حدث ، والذي جعل المعضلة السابقة لبراءته مسألة من مسائل الأطفال ، أدرك قبل أن يعرف ما حدث أنه لا يجب أن تعرف لينا بما حدث ما كان ضرورياً حتّى أن يقال له بالكلمات أنه وجد بالتأكيد لوكاس بيرتش المفقود ، فقد بدا له الآن أن الحماقة والغباء الشديدين هما فحسب اللتان أبقيتاه دون علم لقد بدا له أن القدر والظروف قد وضعا تحذيراً في السماء

www.ibtesama.com/vb

طوال النهار في شكل عمود الدخان الأصفر ذاك ، وكان هو أيضاً غبياً إلى حد ادراكه اذن لن يتركهم يقولون ـــ الرجال الذين مرا بهم ، والهواء الذي كان يهبّ عليهما مترعاً به ـــ حتى لا تسمع هي أيضاً ربما كان يدري في ذلك الحين أنها ستعلم لابدّ ، وتسمع بذلك إن عاجلاً أو آجلاً ؛ وأنه من حقها أن تعرف لقد بدا له أنه لو استطاع فحسب أن يعبر بها الساحة إلى أحد المنازل فان مسؤوليته ستنتهي ليس المسؤولية عن الشر الذي اعتبر نفسه مسؤولاً عنه لا لسبب سوى أنه أنفق فترة بعد الظهر معها والأمر يجري ، حيث اختاره الظرف ليمثّل جفرسون أمامها وهي التي سارت مشياً على الأقدام ودونما نقود مدة ثلاثين يوماً لتصل إلى هنا لم يكن يأمل ولا ينوي تجنب المسؤولية بل ليمنح نفسه ويمنحها هي وقتاً كافياً للشعور بالصدمة والدهشة انه يحكي ذلك بهدوء ، مرتبكاً ، وجهه نحو الأسفل ، بصوته الخفيض ، بينما يراقبه عبر المكتب هايتاور بذلك التعبير الذي يدّل على الانقباض والانكار

لقد وصلا إلى المنزل أخيراً ودخلاه وكأنما انتابها هاجس الشر هي أيضاً ، وهي تراقبه وهما واقفان في البهو وهي تتكلم لأول مرة « ما الذي كان الرجال يحاولون أن يقولوه لك ؟ ماذا عن ذلك المنزل المحترق ؟ »

وقد قال لها بصوت جاف وضعيف

ـــ لا شيء يقولون ان الآنسة بيردن قد أصيبت في الحريق

ـــ كيف أصيبت ؟ هل كانت اصابتها خطيرة ؟

ـــ ليست خطيرة على ما أعتقد ، وربما لم تصب بأي أذى الناس يتكلمون فحسب كما يفعلون عادة

www.ibtesama.com/vb

لم يكن قادراً على أن ينظر إليها ويجعل عينيه تواجه عينيها ولكنه كان قادراً على أن يشعر أنها تراقبه ، وبدا أنه كان يسمع أصواتاً عديدة ، الأصوات المكتومة المتوترة في أرجاء البلدة في الساحة التي جعلها تمرّ بها مسرعة ، حيث الرجال يلتقون بين الأنوار الآمنة المألوفة ، ويحكون عمّا حدث والمنزل بدا أيضاً مترعاً بالأصوات المألوفة ، وبالجمود في الغالب ، بتسويف رهيب وهو يحدق عبر البهو خافت الانارة ، مفكراً لم لا تأتي. لم لا تأتي

ثم تأتي السيدة بيرد فعلاً امرأة مريحة ، بذراعين حمراوين وشعر رمادي أشعث قال « هذه هي السيدة بيرتش » تعبيره كان حملقة تقريباً ملحّاً ولجوجاً « لقد وصلت إلى البلدة للتوّ من ألاباما انها تأمل في أن تقابل زوجها هنا لم يصل هو بعد لذلك جلبتها إلى هنا ، حتى تستريح بعض الشيء قبل أن تختلط بالبلدة وما فيها من اهتياج لم تكن في البلدة سابقاً ولا تحدثت إلى أحد بعد ، لذا ظننت أنك قد تؤوينها حتى ترتاح قبل أن تسمع بما يجري من كلام و » صوته توقف ، مات مختصراً ، ملحّاً لجوجاً ثم أعتقد أنها فهمت ما يعنيه وقد عرف لاحقاً أنها لم تمتنع عن قول ما كان يعرف أنها قد سمعته أيضاً لأنه طلب ذلك ، بل لأنها سبق لها ولاحظت أن المرأة حامل ، وكانت ستبقي الأمر سراً على أية حال نظرت إلى لينا ، مرة واحدة ، نظرة كاملة ، كما كان دأب النساء الغريبات معها خلال الأسابيع الأربعة الماضية.

سألت السيدة بيرد

— وكم تنوي المكوث ؟

www.ibtesama.com/vb

يقول بايرون

– ليلة أو ليلتين ، وربما الليلة فقط . انها تأمل في أن تقابل زوجها هنا . لقد وصلت للتو ولم يكن لديها الوقت لتسأل أو تستعلم

كان صوته لا يزال مختصراً هادفاً . راقبته السيدة بيرد الآن . ظنّ أنها لا تزال تحاول الوصول إلى ما يعنيه . ولكن ما كانت تفعله هو مراقبته يتلمّس طريقه معتقداً (أو على وشك أن يعتقد) بأنّ لتلمّسه سبباً ومعنى مختلفين . ثم نظرت إلى لينا مرة أخرى . لم تكن عيناها باردتين بالضبط ، وان لم تكونا دافئتين

– أعتقد أنه ليس من شأنها أن تحاول الذهاب إلى أي مكان الآن

قال بايرون بسرعة ولهفة

– هذا ما ظننته أنا أيضاً ، مع كل ذلك الكلام والأمور المثيرة التي قد تسمعها ، بعد فترة من عدم الاستماع إلى كلام أو أمور مثيرة . اذا كان المكان مزدحماً هذه الليلة يمكن أن أعطيها غرفتي

قالت السيدة بيرد فوراً

– أجل . أنت ستخرج خلال دقائق على أية حال . أتريدها أن تبقى في غرفتك حتى عودتك صباح يوم الأثنين ؟

قال بايرون

– لن أرحل الليلة

لم يشح بنظره جانباً

– لن أرحل هذه المرة

نظر مباشرة إلى العينين الباردتين اللتين سبق وارتسمت عليهما سمة

www.ibtesama.com/vb

اللاتصديق ، وراح يراقبها بدوره محاولاً أن يقرأ ما في عينيه معتقداً أنها فهمت ما كان هناك بدلاً عن أن تصدق ما كان هناك يقولون ان الكذّاب المتمرّس هو الذي يستطيع أن يخدع ولكن غالباً ما يخدع الكذاب المتمرس والمدمن نفسه فحسب ؛ أما الشخص الذي كان طوال حياته متهماً بالصدق فهو الذي تجد كذباته أسرع تصديق

قالت السيدة بيرد

– أوه !

ثم نظرت ثانية إلى لينا واستأنفت

– أليس لديها أي معارف في جفرسون ؟

قال بايرون

– لا تعرف أحداً هنا ليس في هذه الناحية من آلاباما ربما سيظهر السيد بيرتش في الصباح

قالت السيدة بيرد

– أوه ، وأين ستنام أنت ؟

ولكنها لم تنتظر جواباً فاستأنفت تقول

– أعتقد أني أستطيع تدبير سرير نقّال في غرفتي لهذه الليلة هذا اذا لم يكن لديها اعتراض

قال بايرون :

– حسن ، حسن

وحين دقّ جرس العشاء ، كان مستعداً تماماً لقد أتيحت له فرصة للتكلم مع السيدة بيرد كان قد أنفق مزيداً من الوقت في اختراع تلك الكذبة أكثر مما أنفقه في أي واحدة أخرى ثم لم يعد

www.ibtesama.com/vb

ذلك ضرورياً ، فالشيء الذي كان يحاول اخفاءه كان حماية في حد ذاته لهذا الشيء قالت السيدة بيرد « هؤلاء الرجال سيتحدثون عن ذلك على المائدة أعتقد امرأة في مثل حالتها (**ومضطرة لإيجاد زوج يسمى بيرتش في الوقت نفسه** هكذا فكرت بسخرية مريرة) لا داعي أن تستمع إلى المزيد عن أعمال الرجال الشيطانية أحضرها لاحقاً ، بعد أن يكون الجميع قد تناولوا طعامهم » وهكذا فعل بايرون أكلت لينا بشهية مرة أخرى ، بتلك اللياقة والجدية التي تدل على العافية ، وكادت تنام على طبق الطعام قبل أن تنهي عشاءها

عللت ذلك قائلة

– لأنه أمر متعب ذاك السفر

قالت السيدة بيرد

– اذهبي واجلسي في البهو وسأهيىء لك سريرك

قالت لينا

– أودّ أن أساعدك

ولكن حتى بايرون كان قادراً على أن يرى أنها لن تفعل ، وأنها كانت وسنانة إلى آخر حد

قالت السيدة بيرد

– اذهبي واجلسي في البهو أعتقد أن السيد بنتش لن يمانع في مرافقتك لدقيقة أو اثنتين

يقول بايرون

– ما كنت لأجرؤ على تركها وحيدة

خلف المكتب لم يكن هايتاور قد تحرك استأنف بايرون كلامه

www.ibtesama.com/vb

ـ وبينما كنا جالسين ، في ذلك الوقت نفسه حين كان كل شيء يتم الافصاح عنه في مكتب المأمور ، في ذلك الوقت نفسه كان براون يروي كل شيء ، عن نفسه وعن كريسماس والويسكي وكل شيء الويسكي فقط هو الذي لم يكن خبراً جديداً ، فهو لم يعد كذلك منذ أن أشرك كريسماس براون في تجارته تلك وأعتقد أن الشيء الوحيد الذي كان الناس يتساءلون عنه هو لماذا عاشر كريسماس براون ربما كان السبب هو أن الطيور على أشكالها تقع ، ولا يمكنها حتى أن تتهرب من ذلك حتى لو كان التشابه بينها هو في أمر واحد ، لأنه حتى المتشابهين في شيء واحد يكونان مختلفين لقد تحدى كريسماس القانون ليكسب النقود ، وتحدى براون القانون لأنه لم يكن لديه وعي كاف لإدراك ما كان يمارسه كتلك الليلة في دكان الحلاق حين كان ثملاً وراح يتكلم بصوت مرتفع حتى هرع كريسماس وجره خارجاً وقال السيد ماكسي « ما الذي تعتقدون أنه كاد يفشي به عن نفسه وعن ذلك الآخر ؟ » فأجابه الكابتن ماكلندون « لا أفكر بهذه المسألة أبداً » فرد السيد ماكسي : « هل تعتقدون أنهما سلبا شاحنة خمور ؟ » فقال ماكلندون « أيدهشك أن تسمع أن ذلك الشخص كريسماس لم يفعل إلا ما هو أسوأ من ذلك خلال حياته ؟ »

هذا ما كان براون يحكيه في الليلة الماضية ولكن كان الجميع على علم به كانوا يقولون منذ مده طويلة ان على أي شخص أن يبلغ الآنسة بيردن ولكني أعتقد أنه لم يكن هناك أي شخص على استعداد للذهاب إلى هناك وابلاغها ، لأنه لم يكن هناك من يعرف ما

www.ibtesama.com/vb

الذي سيحدث عندها وأعتقد أن هناك أشخاصاً ولدوا هنا ولم يروها أبداً ولا أعتقد أني كنت على إستعداد للذهاب إلى هناك إلى ذلك المنزل العتيق حيث لم يسبق لأحد أن رآها ما عدا الهم أولئك الذين كانوا مارين في عربة فرأوها تقف في الباحة في ثوب وقبعة شمسية ما كانت أي امرأة زنجية ممن أعرفهن مستعدة أن ترتديها نظراً لشكلها والمظهر الذي تجعلها تبدو به وربما كانت تعرف ذلك مسبقاً وربما ما كانت لتكترث كونها من « اليانكي » وعلى أية حال ماكان ممكناً لأي شخص أن يعرف ما الذي سيحدث

ـ وهكذا لم أجرؤ على تركها لوحدها حتى أوت إلى الفراش وكنت أنوي الخروج الليلة الماضية لأراك وأحكي لك كل شيء ولكني لم أجرؤ على مغادرتها كان النزلاء الآخرون يذرعون البهو ولا أحد يدري متى يمكن أن يخطر لأحدهم أن يدخل ويبدأ بالحديث عن الموضوع ويحكي كل شيء كان قد سبق لي وسمعتهم يتحدثون عن ذلك في الرواق وهي لا تزال تراقبني بوجهها الموشك على أن يسألني مرة أخرى عن ذلك الحريق وهكذا لم أجرؤ على مغادرتها وكنا نجلس هناك في البهو وكانت لا تكاد تقوى على ابقاء عينيها مفتوحتين وأنا أخبرها كيف أني سأجده لها بالتأكيد ، ولكني أريد أن أذهب لأتحدث مع واعظ كنت أعرفه ويستطيع مساعدتها على الاتصال به وهي جالسة هناك وعيناها مغمضتان وأنا أحكي لها ، دون أن أعرف أنها وذلك الشخص لم يكونا قد تزوجا بعد كانت تظن أنها قد خدعت الجميع وقد سألتني أي نوع من الرجال هو ذاك الذي كنت أنوي أن أحكي له عنها فأجبتها وهي لا تزال جالسة

www.ibtesama.com/vb

هناك وعيناها مغمضتان حتّى قلت أخيراً « لم تسمعي كلمة واحدة مما كنت أقوله » وقد استيقظت نوعاً ما ولكن دون أن تفتح عينيها وقالت « ألا يزال قادراً على تزويج الناس ؟ » فقلت « ماذا ؟ قادراً على ماذا ؟ » فقالت « أما يزال فيه من الواعظ ما يكفي لتزويج الناس ؟ »

لم يكن هايتاور قد تحرك كان جالساً على نحو منتصب خلف المكتب وذراعاه على موازاة ذراعي الكرسي انه لا يرتدي قبة أو معطفاً وجهه نحيل ومترهل في الآن ذاته ؛ كأنما كان له وجهان ، الواحد منهما متوضع فوق الآخر ، يبرزان من تحت الجمجمة الصلعاء الشاحبة المحاطة بهدب من الشعر الرمادي ، من خلف التحديقتين التوأمين الساكنتين لنظارتيه ذلك الجزء من جذعه الظاهر فوق المكتب لا شكل له ، يكاد يكون وحشياً ، مع بدانة رخوة جلوسية يجلس متصلباً ؛ وعلى وجهه الآن كان تعبير الانكار والهروب واضحاً محدداً يقول

— يا بايرون ، ما هذا الذي تحكيه لي ؟

يتوقف بايرون عن الكلام ينظر إلى الآخر بتعبير يدّل على الرثاء والشفقة

— كنت على علم بأنك لم تسمع بعد عرفت أنه سيكون عني أنا إبلاغك

ينظران واحدهما إلى الآخر

— ما هو الذي لم أسمعه بعد ؟

www.ibtesama.com/vb

– عن كريسماس عما حدث البارحة وكريسماس كريسماس جزئياً زنجي أما عن البارحة وعنهما هو وبراون

يقول هايتاور

– جزئياً زنجي

يبدو صوته خفيفاً مبتذلاً ، كزهرة الشوك التي تسقط في الصمت دون أن تصدر أي صوت ، دون أي وزن لا يتحرك وللحظة أخرى لا يتحرك ثم يبدو وكأنما يعتري جسده كله وكأن أجزاءه كانت قابلة للحركة كملامح الوجه – ذلك الانكماش والانكار ، ويرى بايرون الوجه الكبير الساكن المترهل قد التمع بالعرق ولكن صوته خفيف وهادىء يقول

– ماذا عن كريسماس وبراون والبارحة ؟

* * *

كان صوت الموسيقى القادم من الكنيسة البعيدة قد صمت منذ زمن والآن لا صوت في الغرفة سوى طنين الحشرات وصوت بايرون الرتيب خلف المكتب يجلس هايتاور منتصباً وبين كفيه المتوازيين المقلوبين نحو الأسفل وجزئه السفلي المختفي خلف المكتب تبدو وضعيته أشبه بوضعية اله شرقي

– حدث ذلك صباح أمس كان هناك شخص ريفي قادم إلى البلدة في عربة مع أسرته وكان هذا هو الذي اكتشف الحريق لا كان الشخص الثاني الذي وصل إلى هناك ، لأنه حكى كيف أنه وجد شخصاً آخر هناك حين اقتحم الباب لقد حكى كيف أنه أصبح على مرأى من المنزل وقال لزوجته ان دخاناً كثيراً كان خارجاً

www.ibtesama.com/vb

من ذلك المطبخ وكيف أن العربة تقدمت ثم قالت زوجته « ذلك المنزل يحترق » وأعتقد أنه أوقف العربة ربما وجلسا هناك فيها لفترة وهما ينظران إلى الدخان ، وأعتقد أنه قال بعد فترة « يبدو أن الأمر كذلك . » وأعتقد أن زوجته هي التي جعلته ينزل ويذهب ليرى . قالت على ما أعتقد « انهم لا يعرفون أن المنزل يحترق اذهب وقل لهم » وقد نزل من العربة وذهب إلى الرواق ووقف هناك وهو يصيح « هالو ، هالو » لفترة من الزمن وقد حكى كيف أنه كان قادراً على سماع النار عندئذ من داخل المنزل ، ثم كيف ضرب الباب بكتفه ودخل ووجد ذلك الشخص الذي اكتشف الحريق أولاً كان ذاك هو براون . ولكن الريفيّ لم يكن يعرف ذلك . قال فحسب انه رأى رجلاً ثملاً في البهو بدا وكأنه قد أنهى للتو سقوطه من درج الطبق العلوي ، وقال له الريفي « بيتك يحترق يا سيد » ، وذلك قبل أن يدرك إلى أي حد كان الرجل ثملاً وقد روى كيف أن الرجل الثمل ظلّ يقول إنه لا أحد في الطابق العلوي وأن النار قد شبت في الطابق العلوي كله على أية حال ولا فائدة ترجى من محاولة انقاذ أي شيء من هناك

ولكن الريفي أدرك أنه ما كان معقولاً وجود كل تلك النيران في الطابق العلوي لأن النار كانت كلها هناك عند المطبخ وزيادة عليه فان الرجل كان ثملاً إلى حد لا يمكنه معه أن يدرك الوضع تماماً على أية حال وقد روى كيف أنه شك بوجود شيء مريب وذلك بسبب الطريقة التي كان الرجل الثمل يحاول أن يمنعه من الصعود إلى الطابق العلوي وهكذا بدأ يصعد الدرج والرجل الثمل يحاول أن

www.ibtesama.com/vb

يمنعه ولكنه دفع بالرجل الثمل بعيداً عنه وتابع صعود الدرج وقد حكى كيف أن الرجل الثمل حاول اللحاق به وهو لا يزال يقول انه لا شيء في الأعلى ، وقال انه حين عاد إلى الطابق الأسفل مرة أخرى وفكر بالرجل الثمل ، كان هذا قد اختفى . ولكني أعتقد أن بعض الوقت قد مرّ قبل أن يتذكر التفكير في براون مرة أخرى لأنه صعد الدرج مرة أخرى وراح يصيح مجدداً ويفتح الأبواب ، ثم فتح الباب الأيمن ووجدها

يتوقف عن الكلام ثم لا صوت هناك في الغرفة غدا صوت الحشرات وراء النافذة المفتوحة كانت الحشرات المواظبة تنبض وتخفق ، وسنانة ووافرة العدد يقول هايتاور

– وجدها

– وجد الآنسة بيرون

لا يتحرك لا ينظر بايرون إليه ، فقد يكون آخذا بتأمّل يديه اللتين هما فوق حضنه وهو يتكلم

– كانت ممددة على الأرض وكانت رأسها مذبوحة حتّى لتكاد تنفصل عن جذعها ، سيدة ذات شعر بدأ الشيب يخطه روى الرجل كيف أنه وقف هناك وكان قادراً على سماع صوت الحريق وكان هناك دخان في الغرفة نفسها الآن ، كأنما لحق به وكيف أنه كان يخشى من رفع المرأة وحملها خارجاً لأنه كان من شأن رأسها أن تنفصل تماماً عن جسدها ثم حكى كيف أنه نزل الدرج مسرعاً وخرج من الباب الأمامي دون أن يلحظ حتّى أن الرجل الثمل قد

www.ibtesama.com/vb

رحل ، ثم اندفع نحو الطريق وقال لزوجته إن عليها أن تسرع بالعربة حتى أقرب هاتف وتبلغ المأمور أيضاً وكيف أنه أسرع فعاد إلى المنزل ودار من حوله نحو حوض الماء وقال انه كان قد سبق له وعبأ داو ماء حين أدرك كم كانت تلك حماقة منه والقسم الخلفي كله من المنزل قد شبت النار فيه جيداً الآن لذا أسرع مرة أخرى ودخل المنزل وصعد الدرج ثانية ودخل الغرفة وسحب غطاء من على السرير ولفها به وأمسك بالزوايا ورفعها على ظهرة ككيس من الدقيق وخرج بها من المنزل ووضعها تحت شجرة وقال ان ما كان يخشاه قد حدث لأن الغطاء انفتح وكانت ممددة هناك على جنبها باتجاه معين بينما رأسها تلتفت باتجاه آخر كأنها تنظر إلى الخلف وقال انها لو كانت قادرة على فعل ذلك وهي حيّة لما كانت على هذه الحال الآن

يتوقف بايرون ويلقي نظرة واحدة إلى الرجل الجالس خلف المكتب لم يكن هايتاور قد تحرك وجهه من حول التحديقتين الفارغتين التوأمين للنظارتين يتعرّق بهدوء وثبات

– ثم وصل المأمور وقسم الاطفاء أيضاً ولكن ما كان ممكناً فعل أي شيء لأنه لم يكن هناك ماء للخرطوم وقد ظلّ ذلك المنزل العتيق يحترق طوال المساء وكنت قادراً على رؤية الدخان من الورشة وأريتها اياه حين جاءت لعندي لأني لم أكن أعلم آنئذ وقد جلبوا الآنسة بيردن إلى البلدة ، وكانت هناك وثيقة في المصرف وضعت فيها ما عليهم فعله بها حين تموت وقد نصت الوثيقة أنه لها ابن أخ (١) في الشمال من حيث أتت أصلاً وأتي ذووها وقد ارسلوا

(١) (nephew) سنعرف لا حقاً أنه ليس لديها ابن أخ أو ابن أخت لأن أخاها الوحيد قتل قبل أن تولد الآنسة بيردن (المترجم).

www.ibtesama.com/vb

برقية إلى ابن الأخ الذي أجاب خلال ساعتين أنه مستعد أن يدفع ألف دولار مكافأة لمن يلقي القبض على القاتل

كان كريسماس وبراون قد رحلا كلاهما وقد اكتشف المأمور أن شخصاً ما كان يعيش في ذلك الكوخ ، ثم بدأ الجميع مباشرة يحكون كيف أن كريسماس وبراون ، قد أبقيا المسألة سراً لفترة كافية ليتمكن أحدهما أو كلاهما من قتل تلك السيدة ولكن لم يستطع أحد أن يجد أيا منهما حتى الليلة الماضية لم يكن الريفي يدري أن من وجده ثملاً في البيت كان براون وقد ظن الناس أنه هرب هو وكريسماس ، على الأرجح ثم ظهر براون في الليلة الماضية كان صاحياً عندها وقد وصل إلى الساحة حوالي الثامنة ثائراً يصرخ بأن كريسماس هو الذي قتلها ويطالب بالألف دولار ، وقد جاءت الشرطة وأخذته إلى مكتب المأمور وقالوا له ان المكافأة ستكون له ما أن يتم القبض على كريسماس ويتبين أنه هو الذي فعلها وهكذا حكى براون ما حدث قال ان كريسماس كان يعيش مع الآنسة بيردن كزوج وزوجة منذ ثلاث سنوات ، حتى شاركه براون في البداية حين انتقل ليعيش في الكوخ مع كريسماس قال براون ان كريسماس أنبأه بأنه كان ينام في الكوخ طوال الوقت ثم قال انه في احدى الليالي لم يكن قد نام وقد سمع كريسماس ينهض من السرير ويقف عند سرير براون لفترة كأنما كان يصغي ، ثم سار على رؤوس أصابعه حتى الباب وفتحه بهدوء وخرج وروى براون كيف أنه نهض من فراشه ولحق بكريسماس ورآه يتجه نحو المنزل الكبير ويدخل من الباب الخلفي ، كأنما كان هذا قد ترك مفتوحاً

www.ibtesama.com/vb

لأجله أو كان معه مفتاح له ثم عاد براون إلى الكوج واندس في الفراش ولكنه حكى أنه لم يستطع أن ينام من الضحك ، لأنه راح يفكر كم هو ماكر كريسماس ذاك وكان يتمدد هناك حين عاد كريسماس بعد حوالي الساعة ثم حكى كيف أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك فقال كريسماس « يا ابن العتيقة ! » ثم حكى أن كريسماس جمد في الظلام وكيف ظلّ هو ممدداً على الفراش وهو يضحك ويقول كريسماس انه ليس شخصياً بالماكر جداً وراح يمزح مع كريسماس حول الشعر الأشيب وكيف أنه لو طلب منه كريسماس لكان سيحلّ محلّه حوالي أسبوع ويدفع أجرة البيت بنفسه.

ثم حكى كيف أنه اكتشف في تلك الليلة أن كريسماس سيقوم عاجلاً أو آجلاً بقتلها قال انه كان متمدداً هناك ، يضحك ، مفكراً في أن كريسماس سيعود إلى فراشه مرة أخرى ، حين أشعل هذا عود كبريت ثم قال براون انه توقف عن الضحك وظل متمدداً هناك يراقب كريسماس يضيء المصباح ويضعه على الصندوق قرب سرير براون ثم حكى براون كيف أنه لم يكن يضحك وبقي متمدداً هناك وكريسماس واقف قرب السرير ينظر إليه قال له كريسماس « لديك نكتة جيدة الآن يمكنك أن تضحك جيداً وترويها في دكان الحلاق غداً مساء » وقال براون انه لم يكن يعرف أن كريسماس مجنون وأنه رد عليه بجواب ما دون أن يقصد اثارة جنونه فقال كريسماس بذلك الصوت الهادىء الذي يميّزه « أنت لا تنام بما فيه الكفاية بل تبقى مستيقظاً لفترات طويلة عليك أن تنام أكثر من ذلك » فسأله براون « كم أكثر ؟ » وأجابه كريسماس

www.ibtesama.com/vb

« ربما من الآن فصاعداً » وروى براون كيف أنه أدرك عند ذلك أن كريسماس مجنون وأن الوقت لم يكن مناسباً للتنكيت وقال « ألسنا صديقين ؟ لماذا أفشي بشيء ليس من شأني ؟ هل يمكنك الوثوق بي ؟ » فقال كريسماس « لاأعرف لا أكترث أيضاً ولكنك تستطيع الوثوق بي » ثم نظر إلى براون وقال « ألا يمكنك الوثوق بي ؟ » فأجابه براون « أجل »

ثم حكى كيف أنه كان يخشى أن يقتل كريسماس الآنسة بيردن في ليلة من الليالي ، فسأله المأمور لماذا لم يبلغه بمخاوفه هذه فأجاب براون أنه فكّر أنه اذا لم يفش بشيء فقد يستطيع البقاء هناك ومنع حدوث ذلك دون أن يزعج السلطات بالمسألة وقد نخر المأمور وقال ان ذلك يدلّ على مدى عمق التفكير لدى براون وان الآنسة بيردن كانت ستثمّن ذلك لو علمت به ثم بدأ براون يظنّ — على ما أعتقد — أن الفأر يلعب في عبّه هو أيضاً فقد بدأ يحكي أن الآنسة بيردن هي التي اشترت لكريسماس تلك السيارة وكيف أنه حاول أن يقنع كريسماس بالتخلّي عن بيع الويسكي قبل أن يورطهما كليهما كان رجال الشرطة يراقبونه وهو يتحدث على نحو أسرع وأسرع ثم أكثر فأكثر حكى كيف أنه كان مستيقظاً صباح السبت الباكر ورأى كريسماس ينهض من فراشه حوالي الفجر ويخرج وكان براون يعرف أين سيذهب كريسماس وفي حوالي السابعة عاد كريسماس إلى الكوخ ووقف هناك وهو ينظر إلى براون . قال كريسماس : « لقد فعلتها » فسأله براون « فعلت ماذا ؟ » فقال له كريسماس « اذهب إلى المنزل تر بنفسك » وحكى براون

www.ibtesama.com/vb

كيف أنه كان خائفاً عندها ، ولكن لم يخامره شعور بحقيقة ما حدث قال انه من المظهر الخارجي كان يتوقع أن يكون كريسماس قد ضربها بعض الشيء ثم حكى كيف خرج كريسماس مرة أخرى فنهض وارتدى ملابسه وكان يشعل ناراً ليجهز طعام الأفطار حين حدث أن نظر نحو الباب فرأى مطبخ المنزل يحترق

سأله المأمور « كم كانت الساعة عندئذ ؟ »

قال براون : « حوالي الثامنة على ما أعتقد حين ينهض المرء على نحو طبيعي ما لم يكن غنياً والله يعلم أني لست كذلك »

قال المأمور « وذلك الحريق لم يبلغ عنه حتى الحادية عشرة ، وذلك المنزل كان لا يزال يحترق في الثالثة بعد الظهر وأنت تعني أن تقول إن منزلاً خشبياً عتيقاً ، حتى لو كان كبيراً ، يحتاج إلى ست ساعات حتى يحترق بأكمله ؟ »

وكان براون يجلس هناك ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، وأولئك الأشخاص يراقبونه وقد شكلوا دائرة من حوله ، انهم يحاصرونه يقول براون « أنا أقول الحقيقة فحسب هذا ما طلبتم » كان ينظر ذات اليمين وذات الشمال ويهز برأسه ثم صاح « وكيف أعرف كم كانت الساعة ؟ هل تتوقعون من رجل يقوم بعمل رقيق زنجي في ورشة نشر أن يكون غنياً إلى حد أن يمتلك ساعة ؟ ».

قال له مساعد المأمور « لم تكن تعمل في أية ورشة نشر ولا ما شابه منذ ستة أسابيع والرجل الذي يستطيع أن يتجول في سيارة

www.ibtesama.com/vb

جديدة طوال النهار يمكنه أن يمرّ بمبنى المحكمة عدة مرات ويستطيع رؤية الساعة ويعرف الوقت »

قال براون « لم تكن تلك سيارتي ، وهذا ما أبلغكم به ! كانت سيارته هو لقد اشترتها هي وأعطتها له المرأة المقتولة أعطتها له .»

قال المأمور « لا علاقة لهذا بالموضوع دعوه يروي بقية الحكاية »

وهكذا تابع براون الحكاية وراح يتكلم بصوت أعلى فأعلى وأسرع فأسرع كأنه يحاول أن يخفي جو براون خلف ما كان يرويه عن كريسماس حتى يستطيع براون أن ينال فرصة كسب الألف دولار تلك انه لأمر محير كيف يظن بعض الناس أن كسب النقود أو الحصول عليها نوع من المباريات التي لا قواعد لها اطلاقاً وقد حكى كيف أنه حين رأى الحريق ، فانه لم يكن حتى ليحلم بأنها كانت لا تزال في المنزل ، فكيف أنها ميتة بل لقد حكى كيف أنه لم يفكر في البحث عنها في المنزل اطلاقاً ، بل كان يفكر في طريقة لاطفاء النار

قال المأمور « وكان ذلك حوالي الثامنة صباحاً ، أو هذا ما تدعيه. ولكن زوجة هامب وولر لم تبلغ عن ذلك الحريق حتى الحادية عشرة تقريباً لقد استغرق منك اكتشاف أن الحريق لا يمكن اطفاؤه بيديك العاريتين فترة طويلة جداً » وكان براون جالساً هناك في الوسط بينهم (كانوا قد أقفلوا الباب ولكن كانت وراء النوافذ صفوف من وجوه البشر تحدق من وراء الزجاج (وعيناه تتحركان جيئة

www.ibtesama.com/vb

وذهابا وشفته مكشرة كاشفة عن أسنانه يقول المأمور « يقول هامب إنه بعد أن اقتحم المنزل عبر الباب اكتشف أن هناك رجلاً في المنزل وأن ذلك الرجل حاول منعه من صعود الدرج » وهو لا يزال جالساً هناك في وسطهم وعيناه تتحركان وتتحركان

أعتقد أنه كان يائساً آنذاك وأعتقد أنه لم يكن قادراً فحسب على رؤية الألف دولار تبتعد عنه تدريجياً ، بل أنه كان قادراً على أنيبدأ برؤية شخص آخر يحصل عليها وأعتقد أنه كأنما استطاع أن يرى نفسه مع تلك الدولارات الألف في يده وأن شخصاً آخر يقوم بانفاقها لأنهم قالوا انه بدا وكأنه يخبىء ما قاله لاحقاً لمثل هذه المناسبة كأنه عرف أن الأمور لو وصلت به إلى حالة من الضيق ، فسوف ينقذه ذلك ، حتى لو كان أسوأ على الرجل الأبيض أن يقرّ بما عليه هو أن يقرّ به على أن يهتم بالجريمة ذاتها . قال « هذا صحيح هيا افهموني اتهموا الرجل الأبيض الذي يحاول مساعدتكم بما يعرفه اتهموا الرجل الأبيض ودعوا الزنجي حراً طليقاً اتهموا الأبيض واتركوا الزنجي يهرب »

سأل المأمور « زنجي ؟ زنجي ؟ »

وكأنه كان يعرف أنه سيطر عليهم وكأنه لا شيء يمكن أن يصدقوا أنه قد ارتكبه سيكون سيئاً بالقدر نفسه لو ارتكبه شخص آخر يقول « أنتم أذكياء جداً الناس في هذه البلدة أذكياء جداً لقد خدعوا ثلاث سنوات كانوا يدعونه بالأجنبي ثلاث سنوات ، ولكني ما أن راقبته ثلاثة أيام حتى عرفت أنه لم يكن أجنبياً الا بقدر ما أنا أجنبي عرفت قبل أن يقول لي ذلك بلسانه » وهم يراقبونه الآن وينظرون واحدهم إلى الآخر

www.ibtesama.com/vb

يقول مساعد المأمور « الأجدر بك أن تكون حذراً فيما تقوله ، اذا كنت تتحدث عن شخص أبيض ، ولا أكترث سواء كان قاتلاً أم لا »

يقول براون « أنا أتكلم عن كريسماس الرجل الذي قتل تلك المرأة البيضاء بعد أن عاش معها بالفعل تحت أنظار البلدة كلها ، وأنتم جميعاً تتيحون له فرصة الابتعاد والهرب بينما تتهمون الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يجده لكم ، الذي يعرف ما ارتكبه انه يحمل دماً زنجياً لقد عرفت ذلك لحظة أن رأيته ولكن أنتم يا معشر الناس ، يا أيها المأمورون الأذكياء وما شابه لقد اعترف بذلك مرة ، قال انه نصف زنجي ربما كان ثملاً حين قال ذلك لا أعرف وعلى أية حال ففي صباح اليوم التالي جاء الي وقال (كان براون يتكلم بسرعة الآن وعيناه وأسنانه تومضان وهو يدور بهما على الوجوه ، من واحد إلى آخر) ، قال لي « لقد ارتكبت خطأ في الليلة الماضية لا ترتكب الخطأ نفسه » ، فقلت له « ماذا تعني بالخطأ ؟ » فقال « فكّر للحظة » ، وقد فكرت في شيء ما فعله في الليلة الماضية حين كنا معاً في ممفيس وعرفت أن حياتي لن تساوي شيئاً إذا ما خنته فقلت « أعتقد أني أفهم ما تعنيه لن أتدخل فيما لا يعنيني لم أفعل ذلك سابقاً وهذا ما أنا واثق منه »

ثم قال براون « وكنتم أنتم ستقولون ما قلته ، لو كنتم لوحدكم في ذلك الكوخ معه ولا أحد يسمعكم لو صرختم كنتم ستخافون أنتم أيضاً ، حتى يأتي الناس الذين تحاول مساعدتهم فيتهمونك بجريمة

قتل لم ترتكبها » وهناك ظل جالساً ، وعيناه تتحركان وتتحركان ، وهم في الغرفة يراقبونه والوجوه مضغوطة على النافذه من الخارج

قال المأمور « زنجي كنت أفكر على الدوام في أن هناك شيئاً مضحكاً في ذلك الشخص »

ثم تحدث المأمور إلى براون مرة أخرى « ولذلك لم تفش بما كان يحدث هناك حتى هذه الليلة »

وبراون جالس هناك في وسطهم وشفتاه متراجعتان إلى الخلف وتلك الندبة الصغيرة قرب فمه الأبيض كالبوشار يقول « أروني فحسب أين هو الرجل الذي كان سيتصرف على نحو مختلف هذا كل ما أريده أروني فحسب الرجل الذي هو على استعداد للعيش معه فترة كافية حتى يعرفه كما عرفته ، ثم يتصرف على نحو مختلف »

يقول المأمور « حسناً ، أعتقد أنك تقول الحقيقة أخيراً هيا اذهب مع « بك » الآن ونم جيداً سأهتم أنا بشأن كريسماس »

يقول براون « أعتقد أن هذا يعني السجن . أعتقد أنك ستحبسني في السجن بينما تنال أنت المكافأة »

يقول المأمور دون استثارة « أغلق فمك ان كانت المكافأة لك فسأبذل جهدي لتنالها خذه يا « بك » »

تقدم مساعد المأمور ولمس كتف براون فنهض هذا وحين خرجا من الباب تجمهر أولئك الذين كانوا يراقبون عبر النافذة « هل نلت منه يا « بك » ؟ هل هو الذي فعلها ؟ »

يقول « بك » « لا اذهبوا إلى بيوتكم ياشباب هيا إلى السرير الآن »

www.ibtesama.com/vb

يتوقف صوت بايرون يصمت شعره الرتيب الريفي ينظر الآن إلى هايتاور بتلك النظرة المتعاطفة والقلقة والهادئة ، مراقباً عبر المكتب الرجل الجالس. هناك بعينين مغمضتين والعرق ينساب فوق وجهه كالدموع يتكلم هايتاور

ـ هل تبيّن على نحو أكيد أن فيه دماً زنجياً ؟ فكّر بايرون ، ماذا سيعني ذلك حين يمسك الناس ، اذا حدث ذلك ، بالرجل المسكين يا للبشرية المسكينة

يقول براون بلهجة هادئة عنيدة ومقتنعة

ـ هذا ما يقوله براون وحتّى الكاذب يمكن أن تتم اخافته حتّى يحكي الحقيقة ، كما يمكن تعذيب الشخص الصادق حتّى يكذب

يقول هايتاور

ـ أجل

يجلس بعينين مغمضتين ، منتصباً يستأنف قائلاً

ـ ولكنهم لم يمسكوا به بعد لم يمسكو به بعد يا بايرون

بايرون لا ينظر أيضاً إلى الآخر يقول

ـ ليس بعد لم أسمع بذلك بعد لقد اصطحبوا معهم كلاب أثر ضخمة ولكنهم لم يمسكوا به بعد حسب ما سمعته حتّى الآن

ـ وبراون ؟

يقول بايرون

ـ براون ذاك لقد ذهب معهم ربما ساعد كريسماس على ارتكابها ولكني لا أعتقد ذلك أعتقد أن احراق المنزل كان حدّه الأقصى ولم فعل ذلك يا ترى ، هذا ان كان هو الفاعل ؟ هو نفسه

www.ibtesama.com/vb

لا يعرف حسب رأيي ما لم يكن أنه فكّر — ربما — أنه لو احترق كل شيء فكأنه لم يكن هناك أي شيء اطلاقاً ، ثم يستطيع هو ، وكريسماس أن يستمرا في ركوب تلك السيارة الجديدة أعتقد أنه فكر في أنّ ما ارتكبه كريسماس لم يكن خطيئة بقدر ما هو مجرد خطأ

وجهه يبدو عليه التأمّل ، ينظر نحو الأسفل ومن جديد يتشقق قليلاً بنوع من التعب التهكمّي

— أعتقد أنه آمن بما فيه الكفاية أعتقد أنها تستطيع أن تجده الآن في أي وقت تريده ، شريطة ألا يكون هو والمأمور قد ذهبا مع الكلاب. انه لا يحاول أن يسرع ، لن يفعل ذلك وتلك الدولارات الألف معلّقة فوق رأسه ، كما يمكنك أن تقول أعتقد أنه يريد أن يمسك بكريسماس أكثر من أي واحد منهم لقد ذهب معهم أخرجوه من السجن وذهب معهم ، ثم عادوا جميعاً إلى البلدة وحبسوا براون مرة أخرى هذا عجيب تماماً نوع من القتلة يحاول أن يجعل الشرطة تمسك به ليحصل على مكافأته ولكن لا يبدو أنه يكترث بذلك حتى ، ولكنه يضنّ بالوقت الذي لا يطاردون به ، الوقت الذي يضيع في الجلوس أجل ، سأخبرها غداً سأقول لها انه في السجن مؤقتاً ، هو وذانك الكلبان ربما سأصطحبها إلى البلدة حيث يمكنها أن تراهم ، ثلاثتهم جميعاً وقد شدوا ثلاثتهم إلى الرجال الآخرين ، متوترين ونابحين

— لم تقل لها بعد

— لم أقل لها ولا هو لأنه قد يهرب ثانية ، بمكافأة أو دون

www.ibtesama.com/vb

مكافأة وربما لو استطاع أن يمسك بكريسماس ويحصل على تلك المكافأة ، سيتزوجها في الوقت الملائم ولكنها لا تعرف بعد ، لا تعرف أكثر مما كانت تعرفه البارحة حين نزلت من تلك العربة في الساحة بطن منفوخة ، تهبط ببطء من تلك العربة الغريبة ، بين تلك الوجوه الغريبة ، وتقول هي لنفسها بنوع من الدهشة الهادئة ، الا أني لا أعتقد أن هناك أية دهشة في ذلك ، لأنها نزلت ببطء على قدميها ولم يزعجها الكلام أبداً « عجباً ، عجباً لقد وصلت إلى هنا من آلاباما وأنا الآن في جفرسون أخيراً ، وبكل تأكيد »

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل الخامس

كان الوقت بعد منتصف الليل رغم أن كريسماس كان في السرير مدة ساعتين الا أنه لم ينم بعد سمع براون قبل أن يراه لقد سمع براون وهو يقترب من الباب ثم يتخبط داخلاً منه ، ثم رآه صورة ظليلة تسند نفسها منتصبة عند الباب كان براون يتنفس على نحو ثقيل وقف براون هناك بين ذراعيه اللتين كان يستند بهما إلى الباب ، وبدأ يغني بصوت صادح عذب أنفي حتى الطبقة الممطوطة لصوته كانت تفوح منها رائحة الويسكي قال كريسماس « اخرس » لم يتحرك ولم يرفع صوته ومع ذلك صمت براون على الفور وقف للحظة أخرى في الباب وهو يستند إليه ثم ترك الباب وسمعه كريسماس يتعثر داخلا الغرفة ، وبعد لحظة تخبط بشيء ما كانت هناك فترة صمت مليئة بتنفس ثقيل غير طبيعي ثم سقط براون على الأرض بضجة هائلة ضارباً السرير الذي يتمدد عليه كريسماس ومالئا الغرفة بضحك أحمق مرتفع

نهض كريسماس من سريره كان براون متمدداً على الأرض غير مرئي ، وكان يضحك دون أن يبذل أي جهد للنهوض قال

www.ibtesama.com/vb

كريسماس « اخرس » ولكن براون ظلّ يضحك . خطا كريسماس من فوق براون ومدّ يده نحو صندوق خشبي عليه القنديل والكبريت ولكنه لم يستطع أن يجد الصندوق وتذكر صوت القنديل المحطم حين سقط براون انحنى مفرشخاً فوق براون ، ووجد قبته ورفعه من تحت السرير ثم رفع رأس براون وبدأ يضربه بيده المفتوحة ضربات قصيرة لئيمة وقاسية حتى توقف براون عن الضحك

كان براون منهكاً رفع كريسماس رأسه وشتمه بصوت أقرب إلى الهمس . ثم جرّ براون إلى السرير الآخر ورماه عليه ووجهه نحو الأعلى بدأ براون يضحك مرة أخرى وضع كريسماس يده منبسطة فوق فم براون وأنفه مغلقاً فكّي براون بيده اليسرى بينما راح يضرب براون بيده اليمنى مجدداً تلك الضربات القاسية البطيئة المقيسة ، وكأنه كان يعدّها توقف براون عن الضحك قاوم بدأ يُصدِرُ من تحت كريسماس صوتاً مخنوقاً مغرغراً أمسك به كريسماس حتى توقف عن الحركة وسكن ثم أرخى كريسماس يده قليلاً وقال « هل لك أن تصمت الآن ؟ هل لك ؟ »

قاوم براون مجدداً قال « أبعد يدك السوداء عني ، أيها الزنجي اللعين » ضغطت اليد عليه مجدداً ومن جديد راح كريسماس يصفعه باليد الأخرى على وجهه همد براون مرة أخرى أرخى كريسماس يده وبعد لحظة نطق براون فقال بصوت ماكر ليس بالمرتفع « أنت زنجي ، أليس كذلك ؟ قلت ذلك بنفسك أنت أخبرتني ولكني أبيض أنا أبـ » ضغطت اليد مجدداً ومن جديد قاوم كريسماس مصدراً صوتاً مخنوقاً متذمراً تحت يده ولعابه يسيل

www.ibtesama.com/vb

بين الأصابع وحين توقف عن المقاومة ارتخت اليد ثم سكن وهو يتنفس بصعوبة

قال كريسماس

– هل لك الآن ؟

قال براون

– أجل

تنفس بصوت مرتفع ثم أضاف

– دعني أتنفس سأصمت دعني أتنفس

أرخى كريسماس يده ولكنه لم يرفعها تحتها كان براون يتنفس بسهولة أكبر ، وأصبح نفسه يدخل ويخرج على نحو أسهل ، مع ضجة أقلّ ولكن كريسماس لم يرفع يده وقف في العتمة فوق الجسد الممدّد ونفس براون يتناوب بين البارد والساخن على أصابعه ، مفكراً بهدوء **سيحدث لي شيء ما سأفعل شيئاً ما** ودون أن يرفع يده اليسرى عن وجه براون كان قادراً على الوصول بيده اليمنى إلى سريره ووسادته التي تقبع تحتها موساه ذات الشفرة التي يبلغ طولها خمس بوصات ولكنه لم يفعل ذلك ربما كان التفكير قد ابتعد به إلى مكان بعيد ومعتم إلى حد يكفي ليقول له **ليس هذا هو الشخص الصحيح** وعلى أية حال لم يمد يده إلى الموسى وبعد فترة من الزمن رفع يده عن وجه براون ولكنه لم يبتعد كان لا يزال واقفاً فوق السرير ، كان تنفسه هادئاً جداً ، بحيث لا يسمعه حتى هو براون كان يتنفس على نحو أهدأ الآن ، وبعد برهة عاد كريسماس وجلس على السرير وراح يبحث عن لفافة وعود كبريت في بنطاله المعلّق على الجدار

www.ibtesama.com/vb

وفي ضوء عود الكبريت كان براون مرئياً وقبل أن يطفىء العود رفعه كريسماس ونظر إلى براون كان براون ممدداً على ظهرة بساقين منفرجتين ، واحدى ذراعيه مدلاة إلى الأرض كان فمه مفتوحاً وبينما كان كريسماس يراقبه بدأ براون يشخر

أشعل كريسماس لفافة ورمى بالعود نحو الباب المفتوح ، مراقباً الشعلة تتلاشى في الهواء قبل أن يسقط العود ثم راح يصغي إلى الصوت الضعيف المبتذل الذي سيخلّفه عود الكبريت حين سيسقط إلى الأرض ، ثم بدا له أنه سمعه ثم بدا له ، وهو جالس على السرير في الغرفة المعتمة ، أنه كان يسمع أصواتاً عديدة جداً ليست ذات جهارة أعظم أصوات همهمات ، همسات صادرة عن الأشجار والعتمة والأرض ؛ والناس صوته هو ؛ أصوات أخرى تثير ذكريات عن أسماء وأزمان وأمكنة ، كان واعياً بها طوال حياته دون أن يعرف ذلك ، كانت هي حياته ، وراح يفكر ربما الرب وأنا **لا نعرف ذلك أيضاً** كان قادراً على رؤيتها كجملة مطبوعة مولودة تماماً وميتة مسبقاً **الرب يحبني أيضاً** كأنها الأحرف الباهتة المهترئة على لوحة اعلانات العام الماضي **الله يحبني أيضاً**

دخّن اللفافة حتى آخرها دون أن يلمسها بيده ولو مرة واحدة ثم رمى بها هي أيضاً نحو الباب ولكنها على عكس عود الكبريت لم تتلاشى خلال طيرانها راقبها تومض وهي تتقلّب عبر الباب تمدد على السرير ويداه تحت رأسه كما يتمدد شخص لا يتوقع أن ينام مفكراً أنا في السرير الآن منذ الساعة العاشرة ولم أنم بعد لا أعرف كم هي الساعة ولكنها تجاوزت منتصف الليل ولم أنم بعد قال

www.ibtesama.com/vb

« ذلك أنها بدأت تتوسّل اليّ » تكلم بصوت مرتفع ، وصوته مفاجىء وصاخب في الغرفة المعتمة ، أعلى من صوت شخير براون الثمل « هذا هو السبب لأنها بدأت تتوسل اليّ »

نهض من السرير لم يصدر أي صوت عن قدميه الحافيتين وقف في العتمة بملابسه الداخليّة على السرير الآخر كان براون يشخر وقف كريسماس لبرهة ورأسه ملتفتة نحو الصوت ثم سار نحو الباب غادر الكوخ بملابسه الداخلية وقدميه الحافيتين كانت العتمة أقل في الخارج في السماء كانت الأبراج السماوية البطيئة تدور ، وكانت نجومها في وعيه منذ ثلاثين عاماً ولكنه لا يعرف اسم أي واحد منها وما كان أي واحد منها يعني أي شيء له شكلاً أو بريقاً أو موضعاً نحو الأمام استطاع أن يرى مدخنة واحدة وجملوناً واحداً من المنزل بارزين من تحت كومة الأشجار المتراصة والمنزل نفسه كان غير مرئي ومعتماً لم يلمع أي نور ولم يصدر أي صوت منه حين اقترب ووقف تحت نافذة الغرفة حيث تنام ، مفكراً **إن كانت هي نائمة أيضاً إن كانت نائمة** لم تكن الأبواب تقفل أبداً ، وقد جرت العادة أن يدخل المنزل ويذهب إلى غرفة نومها عبر العتمة بقدمين واثقتين كلما انتابته الرغبة وفي أي وقت كان بين الغسق والفجر أحياناً تكون مستيقظة منتظرة اياه فتتلفّظ باسمه وفي أحيان أخرى كان يوقظها بيده القاسية الوحشية ويكون قد ضاجعها بكل قسوة ووحشية قبل أن تستيقظ جيداً

كان ذلك منذ عامين ، عامان قد مضيا على ذلك حتى الآن ، مفكراً **ربماتكمن الاهانة هنا.ربما أعتقد أنه قد احتيل عليّ وخُدِعتُ**

www.ibtesama.com/vb

أنها كذبت عليّ فيما يخص سنّها ، فيما يخص ما يحدث للنساء في سن معينة قال بصوت مرتفع متوحّد في العتمة تحت النافذة المعتمة « ما كان عليها أن تبدأ بالتوسل اليّ كانت ستبقى في حال جيدة لو لم تبدأ بالتوسل اليّ لم يكن الذنب ذنبها أنها أصبحت أكبر سناً ممّا هو مطلوب ولكن كان عليها أن تفكّر في حلّ أفضل من التوسّل اليّ » بدأ يشتمها .وقف تحت النافذة المعتمة وهو يشتمها بفحش بطيء محسوب لم يكن ينظر إلى النافذة كان يبدو عليه أنه يراقب جسده في ذلك الأقل من نصف نور يبدو وكأنه يراقبه يضحي بطيئاً وداعراً وهامساً في قذارة الحمأة كجثة غريق في بركة سوداء لزجة راكدة مكوّنة ممّا هو أكثر من ماء . تحسّس جسده بيديه المنبسطتين بقسوة ، وهو يشدّ بيديه بقوة على بطنه وصدره داخل ملابسه الداخلية كانت مثبتة بزر واحد في الأعلى في مرة من المرات كانت لديه ملابس داخلية بأزرار سليمة كانت احدى النساء قد خاطتها له كان ذلك لفترة من الزمن ، خلال فترة من الزمن ثم مرّت تلك الفترة وبعد ذلك كان يختلس ملابسه من غسيل العائلة قبل أن تستطيع الوصول إليها وتخيط أزراراً بدلاً عن تلك الضائعة وحين احتالت عليه حاول أن يعرف ويتذكر بتأنّ أية أزرار كانت مفقودة وأيها تمّ استبداله وبموساه وبالتروّى البارد عديم الشفقة الذي يتميز به الجرّاح كان يقطع الأزرار التي خاطتها للتو

انزلقت يده اليمنى بالسرعة والنعومة المعهودتين لدى استعماله للموسى ، وهي تشق ملابسه الداخلية ثم ضربت الزر الباقي مجانبة وبضربة سريعة رشيقة تنفّس الهواء المعتم فوقه ، تنفس بنعومة بينما

www.ibtesama.com/vb

انزلقت الملابس حتى ساقيه ، الفم البارد للعتمة ، اللسان البارد الطريّ تحرك ثانية فاستطاع أن يشعر بالهواء المعتم كأنه الماء ؛ استطاع أن يشعر بالندى تحت قدميه كما لم يشعر به من قبل مرّ عبر البوابة المكسورة وتوقف قرب الطريق كانت أعشاب شهر آب تصل حتى الفخذين وفوق الأوراق والعيدان كان غبار شهر كامل من العربات المارة امتدّت الطريق أمامه كانت بلون أبهت من لون عتمة الأشجار والأرض وفي أحد الاتجاهات كانت تقع احدى البلدات في الاتجاه الآخر كانت الطريق تصعد جبلاً وبعد فترة بدأ نور ينمو من وراء الجبل محدداً اياه ثم استطاع أن يسمع صوت السيارة لم يتحرك توقف ويداه فوق وركيه ، عارياً ، غاطساً حتى الفخذين في الأعشاب المغبرة بينما نزلت السيارة من الجبل واقتربت وسقطت الأنوار فوقه راقب جسده يتلون بالأبيض خارجاً من العتمة كصورة فوتوغرافية تظهر من السائل نظر مباشرة نحو أنوار السيارة وهي تمرّ مسرعة ومنها سمع صوت امرأة حاد زاعق صاح « أولاد زنا بيض ! ليست هذه أول واحدة من مومساتكم ترى » ولكن السيارة كانت قد ابتعدت لم يكن هناك من يسمع ، من يصغي كانت قد ابتعدت ممتصّة غبارها ونورها معها وخلفها ،وممتصة معها صرخة المرأة البيضاء المتلاشية شعر بالبرد الآن كأنما قدم هو إلى هنا لمجرد أن يكون حاضراً لنهائية ما ، والنهائية قد حدثت الآن وأصبح هو متحرراً من جديد عاد إلى المنزل تحت النافذة المعتمة توقف وبحث ووجد ملابسه الداخلية وارتداها لم يكن قد تبقى أي زر فيها الآن وكان عليه أن يمسكها بيده وهو عائد إلى الكوخ كان شخير براون مسموعاً على نحو مسبق توقف لبرهة عند الباب ،

www.ibtesama.com/vb

ساكناً دون حراك ،مصغياً إلى التنهدات الطويلة المزعجة المتقطعة التي تنتهي بغرغرة مخنوقة . فكّر « لابدّ أني آذيت له أنفه أكثر مما حسبت اللعنة على ابن العاهرة » ودخل وذهب إلى سريره مستعداً للتمدد كان على وشك أن يفعل ذلك حين توقف ، تردّد ، وهو نصف منحن ربما كانت فكرة تمدده هناك حتى الفجر ، والرجل السكران يشخر في العتمة والفترات الفاصلة مترعة بأصوات عديدة ، كانت أكثر مما يستطيع احتماله جلس وتحسّس بهدوء ما تحت سريره ووجد حذاءه فارتداه وأخذ من السرير البطانية الفردية نصف القطنية التي كانت تشكّل فراشه ، وغادر الكوخ وعلى مسافة ثلاثمئة ياردة كان الاصطبل ... كان متهاوياً ولم يكن قد آوى حصاناً منذ ثلاثين عاما ومع ذلك فقد مضى باتجاه الاصطبل كان يمشي بسرعة وكان يفكر الآن ، بصوت مرتفع الآن « لماذا بحق الجحيم أريد أن أشمّ رائحة الجياد ؟ لأنها ليست نساء حتى الفرس نوع من الرجال »

* * *

نام أقل من ساعتين وحين استيقظ كان الفجر قد بدأ للتوّ كان متمدداً على البطانية الفردية فوق الأرض المغطاة بألواح الخشب غير الثابتة للكهف الكبير المتداعي حريف الرائحة ذي الغبار الرقيق الخاص بالقش الراحل ذي الرائحة النشادرية الضعيفة مع ذلك الهجران اللاهث المميز للاصطبلات القديمة ، واستطاع أن يرى من خلال النافذة عديمة المصاريع في الجدار الشرقي السماء ذات اللون الزهري ونجمة الصبح الصيفية العالية الشاحبة

www.ibtesama.com/vb

أحس براحة تامة ، وكأنه نام ثماني ساعات متواصلة كان ذلك هو النوم غير المتوقع ، حيث أنه لم يكن يتوقع أن ينام اطلاقاً وبقدميه ضمن الحذاء غير المربوط مرة أخرى وبالبطانية المطوية تحت ذراعه نزل الدرج العمودي وهو يتحسّس الدرجات المتعفنة غير المرئية بقدمه ، وينزل الدرجة ثم الأخرى في انقضاضات وبيد واحدة وقد خرج إلى الفجر الرمادي والبرودة النظيفة ، وراح يتنفسها بعمق

كان الكوخ ينتصب الآن حاداً أمام الشرق المتصاعد ، ومجموعة الأشجار أيضاً التي كان المنزل مختبئاً ضمنها باستثناء المدخنة الوحيدة كان الندى ثقيلاً في العشب الطويل ابتل حذاؤه فوراً كان الجلد بارداً على قدميه ؛ وأحسّ بأوراق العشب الرطبة على ساقيه العاريتين كضربات الدلاة الجليدية الرشيقة لقد توقف براون عن الشخير وحين دخل كريسماس استطاع أن يرى براون بواسطة النور القادم من النافذة الشرقية كان يتنفس بهدوء الآن فكّر كريسماس « لقد صحا من السكر الآن صحا ولا يعرف ذلك . يا للنغل المسكين » نظر إلى براون « يا للنغل المسكين سيجنّ حين يستيقظ ويكتشف أنه قد صحا مرة أخرى ربما سيحتاج إلى ساعة كاملة ليعود ثملاً كما كان » وضع البطانية على السرير وارتدى ملابسه ، البنطال السيرج ، القميص الأبيض المتسخ قليلاً الآن ، وربطة العنق الفراشية كان يدخن على الجدار كانت قطعة من مرآة قد سمرت وفي تلك الكسرة راقب وجهه الداكن وهو يعقد الربطة كانت القبعة القاسية معلقة على مسمار لم ينزلها بل أخذ عوضاً عنها قبعة قماشية من مسمار آخر ، وأخرج من تحت سريره مجلة من ذلك النوع الذي تحمل أغلفته

www.ibtesama.com/vb

أما صوراً لفتيات شابات في ملابس داخلية أو صوراً لرجال في وضعية تبادل النار بالمسدسات من تحت الوسادة التي على سريره. أخرج موساه وفرشاة وأصبع صابون ووضعها جميعاً في جيبه

حين غادر الكوخ كان النور قوياً كانت الطيور تشدو كلها معاً وفي هذه المرة أدار ظهره إلى المنزل سار حتى مرّ بالأصطبل ودخل المرعى الذي خلفه سرعان ما ابتلّ حذاؤه ونهايات بنطاله بالندى الرمادي توقف وطوى بنطاله بحذر شديد حتى ركبتيه واستأنف السير في نهاية المرعى تبدأ الغابات لم يكن الندى كثيفاً هنا ، فكان أن أنزل ساقي بنطاله وبعد فترة وصل إلى واد صغير فيه نبع وضع المجلة أرضاً وجمع عيداناً وأغصاناً مقطوعة يابسة وأشعل ناراً وجلس وظهره إلى شجرة وقدماه نحو اللهب بدأ حذاؤه المبلّل يخرج بخاراً ثم استطاع أن يشعر بالحرارة تنتقل صاعدة إلى ساقيه ، ثم حدث فجأة أن فتح عينيه فرأى الشمس العالية والنار وقد خبت تماماً ، فعرف أنه كان نائماً فكّر « فلأُلْعَنْ إن لم أكن قد نمت فلألعن ان لم أكن قد نمت مرة أخرى »

كان قد نام أكثر من ساعتين هذه المرة ، لأن الشمس تلتمع فوق النبع نفسه ، تومض وتتلألأ فوق الماء المتدفق نهض ، مطّ ظهره المتشنّج المتيبس ، موقّظاً عضلاته التي كانت تخزه وخزاً خفيفاً ومن جيبه أخرج الموسى والفرشاة والصابون ركع قرب النبع وراح يحلق لحيته مستعملاً سطح الماء كمرآة شاحذاً الموسى اللامعة على حذائه

أخفى أدوات الحلاقة والمجلة ضمن مجموعة من الشجيرات ثم وضع ربطة العنق مجدداً . وحين وصل إلى الطريق كان على مسافة

www.ibtesama.com/vb

نصف ميل وراء المنزل وعلى مسافة قصيرة أخرى كانت دكان صغيرة مع مضخة بنزين أمامها دخل إلى الدكان واشترى من امرأة هناك بسكويتاً رقيقاً هشاً وعلبة لحم محفوظ عاد إلى النبع والنار الميتة

تناول افطاره وظهره إلى الشجرة وهو يقرأ في المجلة خلال الأكل كان قد سبق له وقرأ حكاية واحدة فقط ؛ وها هو يبدأ الآن بالثانية ، وهو يقرأ المجلة من أولها إلى آخرها كأنها رواية بين الحين والآخر كان يرفع عينيه عن الصفحة ، وهو يمضغ ، وينظر إلى أوراق الشجرة التي اخترقتها الشمس وتقوست فوق الحفرة فكّر « ربما سبق لي وفعلتها ربما لم تعد تنتظر الآن أن يقوم أحدبفعلها .» بدا له أنه قادر على أن يرى النهار الأصفر يتفتح بسلام أمامه ، كممر ، كقماش مزركش ، نحو توزّع للنور والظل ساكن دون الحاح بدا له أنه وهو جالس كان النهار الأصفر يفكر فيه بنعاس ، كهرّة صفراء منبطحة وسنانة ثم قرأ مجدداً راح يقلّب الصفحات بتقدم مطرد ، رغم أنه كان يبدو وكأنه يتمهّل عند صفحة أو سطر ما ، وربما كلمة واحدة ما كان يرفع نظره عندها ما كان يتحرك ، ربما كانت كلمة واحدة قد لفتت انتباهه ، وجعلته بلا حراك ، كلمة واحدة لم تترك تأثيرها بعد ، وكيانه كله معلّق بالتركيب المفرد التافه للأحرف في فراغ هادىء ومشمس ، لذا بدأ يراقب التدفق البطىء للزمن من تحته وهو معلّق دون حراك ودون وزن ماديّ ، مفكراً **كل ما ابغيــه هو الطمانينة** مفكراً : « ليس عليها أن تبدأ بالتوسّل اليّ .»

www.ibtesama.com/vb

وحين وصل إلى آخر حكاية توقف عن القراءة وراح يعدّ الصفحات المتبقية   ثم نظر إلى الشمس وراح يقرأ مجدداً   كان يقرأ الآن كما قد يمشي رجل على امتداد شارع وهو يعدّ الشقوق في الرصيف : حتى آخر صفحة وآخر كلمة   ثم نهض وأشعل عود كبريت وأشعل المجلة وراح ينخسها بنفاذ صبر حتى أكلتها تماماً   ثم نزل إلى الحفرة وأدوات الحلاقة في جيبه

بعد فترة توسّعت   أرض ملساء مغطاة برمل أبيض بين جدران متحدرة حادة مسدودة متوجة ومحاطة من الجانبين بالورد البرّي والأغصان المقطوعة   وفوقها كانت الأشجار لا تزال مقوّسة ، وفي تجويف صغير في أحد الجناحين كانت كومة من الأغصان الميتة تملأ التجويف   بدأ يبعد الأغصان إلى جانب ، كاشفاً التجويف ومجرفة ذات يد قصيرة   وبالمجرفة بدأ يحفر في الرمل الذي كانت الأغصان تغطيه ، نابشاً تنكات معدنية ذات أغطية لولبية الواحدة أثر الأخرى   لم يرفع الأغطية   وضع التنكات على جوانبها وراح يثقبها بالطرف الحاد للمجرفة   بدأ الرمل تحتها يعتم مع تدفق الويسكي وانصبابه ، بينما عبق القفر الشمسي والهواء بالكحول   أفرغها نهائياً ، بتمهل ، بوجه بارد تماماً ، أشبه بالقناع تقريباً   وحين فرغت كلها أعادها إلى التجويف ودفنها على نحو عاجل وأعاد الأغصان إلى مكانها وأخفى المجرفة مجدداً   أخفت الأغصان البقعة التي خلفها الويسكي ولكن ليس الأريج ، ليس الرائحة   نظر إلى الشمس مرة أخرى   كان الوقت هو ما بعد الظهر الآن

www.ibtesama.com/vb

في السابعة مساء كان في البلدة ، في مطعم في شارع جانبي ، يتناول عشاءه جالساً على كرسي بلا ظهر إلى نضد خشبي ملس من كثرة الاحتكاك ، يأكل

* * *

في الساعة التاسعة كان يقف خارج دكان الحلاق ، ينظر عبر الواجهة نحو الرجل الذي ظنّه شريكاً كان يقف ساكناً تماماً ويداه في جيبه ودخان اللفافة يتموج عبر وجهه السكن والقبعة القماشية التي يرتديها كأنها قبعة قاسية ، تبدو من تلك الزاوية متجحة ومشؤومة كان بارداً جداً ، مشؤوماً جداً في وقفته هناك ، براون ذاك داخل الدكان ، بين الأضواء ، والجو ثقيل برائحة مستحضر الغسل والصابون الساخن ، كثير الايماء ، غليظ الصوت ، في بنطاله المتسخ المخطط بأقلام حمراء وقميصه الملوّن المتسخ ، ثم رفع نظره خلال الكلام وبعينيه الثملتين نظر إلى عيني الرجل وراء الواجهة كان ساكناً ومشؤوماً حتّى أن أحد الشبان الزنوج الذي كان يدلف عبر الشارع وهو يصفّر رأى الصورة الجانبية لوجه كريسماس فتوقف عن الصفير وابتعد لينزلق من خلفه ، متلفتاً ، ناظراً إلى الخلف من فوق كتفه ولكن كريسماس كان يحرك نفسه الآن كأنما توقف هناك حتّى يراه براون

استمر في طريقه ، ليس بسرعة ، مبتعداً عن الساحة كان الشارع ، وهو شارع هادىء في العادة ، مهجوراً في هذه الساعة كان يمرّ بالحيّ الزنجي المسمى « فريدمان تاون » المؤدي إلى المحطة

www.ibtesama.com/vb

لو كانت الساعة هي السابعة لكان قد مرّ بأشخاص ، بيض وزنوج ، متجهين نحو الشاحة والسينما ؛ أما في التاسعة والنصف فهم يعودون إلى البيوت ولكن الفيلم لم ينته بعد ، وكان الشارع له وحده استمر في طريقه ، هو لا يزال يمرّ بين بيوت أشخاص بيض ، من عمود نور شارع إلى عمود نور آخر ، والظلال الثقيلة لأوراق السنديان والقيقب تنزلق كقصاصات من المخمل الأسود عبر قميصه الأبيض لا يمكن لأي شيء أن يبدو أكثر وحدانية من رجل ضخم يسير على امتداد شارع فارغ ولكن رغم أنه لم يكن ضخماً ولا طويلاً ، الاّ أنه نجح على أية حال في أن يبدو أكثر وحدانية من عمود هاتف وحيد في وسط صحراء في الشارع العريض الفارغ الذي يتناسل الظلال بدا كشبح ، كروح هائمة تاهت عن عالمها ، وضاعت

ثم وجد نفسه فبدون أن يدرك ذلك بدأ الشارع ينحدر وقبل أن يعرف كان قد أصبح في « فريدمان تاون » ، محاطاً برائحة الصيف وأصوات الصيف الخاصة بالزنوج غير المرئيين بدوا وكأنهم يحيطون به كأصوات دون أجساد ، مهمهمة ، متحدثة ، ضاحكة بلغة ليست لغته وكأنما من قاع حفرة سوداء معتمة رأى نفسه محاطاً بأشكال كوخية ، غامضة ، مضاءة بالكيروسين ، حتى بدت مصابيح الشارع نفسها وكأنها أكثر تباعداً ، وكأن الحياة السوداء والتنفس الأسود قد ضاعفا مادة النفس حتى أنه ليس الأصوات فحسب بل الأجسام المتحركة والنور نفسه قد أصبحا سائلين وراحا يلتحمان ببطء من جزيء إلى جزيء من الليل وبالليل الذي أضحى الآن ثقيلاً غير ممكن فصله ، وأصبحا شيئاً واحداً

www.ibtesama.com/vb

كان لا يزال واقفاً بثبات الآن ، يتنفس بصعوبة ، محدقاً إلى هذا الاتجاه وذاك ومن حوله كانت الأكواخ قد اتخذت شكلاً أسود بسبب العتمة وتجسدت بالوهج الضعيف الساخن الرطب لمصابيح الكيروسين على كل الجوانب ، وحتى في داخله كانت الأصوات الرخيّة الولودة للنساء الزنجيات تهمهم كأنما كان هو وكل الحياة التي خلقها الرجل من حوله قد عادت إلى « الأنثى » الأولى الأصلية القاتمة الساخنة الرطبة : بدأ يعدو محملقاً وأسنانه مشهرة أواستنشاقه بارد على أسنانه وشفتيه الجافتين ، حتى وصل إلى مصباح الشارع التالي تحته كان زقاق ضيق كثير الأخاديد ينحني ويصعد نحو الشارع الموازي ، خارجاً من الحفرة السوداء دخل فيه وهو يعدو وارتقى الصعدة الحادة وقلبه يدّق بعنف ، ثم إلى الشارع الأعرض توقف لاهثاً ، محملقاً ، وقلبه يدّق وكأنه لم يعد قادراً أو لن يصدق أن الهواء الآن هو الهواء البارد الخاص بالناس البيض

ثم برد كانت الرائحة الزنجية ، والأصوات الزنجية خلفه وتحته الآن وإلى اليسار كانت الساحة ، والأنوار المحتشدة طيوراً لامعة خفيضة في تعليق ساكن الجناح مرتعد إلى اليمين كانت مصابيح الشارع تتقدم ، متباعدة ، متقطعة بأغصان مقضومة ساكنة استمر في السير ، ببطء مرة أخرى ، وظهره نحو الساحة ، يمرّ ثانية بين بيوت أناس بيض كان هناك أناس على تلك الرواقات أيضاً ، وعلى كراس فوق المرجات أمام البيوت ؛ ولكنه كان قادراً على المشي بهدوء هنا كان يستطيع أن يراهم بين الحين والآخر رؤوساً على شكل صور ظلّية ، شكلاً أبيض غير واضح في رداء على شرفة مضاءة جلس أربعة أشخاص حول طاولة لعب الورق ،

www.ibtesama.com/vb

الوجوه البيضاء مصممة وحادة في النور الخفيض ، والأذرع العاريات للنساء تتوهج ملساء بيضاء فوق أوراق اللعب التافهة . فكّر : « هذا كل ما أردته لا يبدو هذا بالطلب الصعب »

وهذا الشارع بدأ بدوره ينحدر . ولكنه كان ينحدر على نحو آمن كان قميصه الأبيض الراسخ وساقاه الداكنتان الماشيتان قد غرقت جميعها بين ظلال طويلة تبرز مربعة وضخمة أمام نجوم شهر آب مستودع قطن ، صهريج أفقي وأسطواني كأنه جسد مستودون (١) مقطوع الرأس ، وصفّ من سيارات الشحن عبر خط السكة الحديدية ، تتحوّل القضبان آنيا إلى ومضتين توأمين خضراوين من مصباح محوّلة ، تومضان مجدّداً ووراء خط السكة تبدأ الغابات ولكنه وجد الممر دون أن يخطئه كان يصعد بين الأشجار ، وقد بدأت أنوار المدينة بالظهور الآن مجدداً عبر الوادي حيث تمر السكة الحديدية ولكنه لم ينظر إلى الخلف حتى وصل إلى قمة التل ثم استطاع أن يرى المدينة ، الوهج ، الأنوار الفردية حيث تتشعب الشوارع من الساحة كان قادراً على رؤية الشارع من حيث جاء ، والشارع الآخر ، ذاك الذي كاد يفشي سره ؛ وإلى مسافة أبعد وعلى زوايا قائمة ، كان سور البلدة اللامع ، وفي الزاوية بين الحفرة السوداء التي هرب منها بقلب خافق وشفتين غاضبتين لم يكن أي نور يأتي منها ، من هنا لا نفس ولا رائحة كانت تقبع هناك ، سوداء ،

---

(١) حيوان بائد أشبه بالفيل

(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

غير قابلة للاختراق ، في اكليلها ذي الأنوار الأغسطية المرتعشة ، وقد تكون المقلع الأصلي ، الهاوية نفسها

كانت طريقه موثوقة ، رغم الأشجار والظلمة ، لم يضيّع الممر الذي لم يكن قادراً على رؤيته حتى كانت الغابات تمتد مسافة ميل خرج إلى طريق ، والغبار تحت قدميه كان قادراً على أن يرى الآن العالم الغامض المنتشر ، الأفق هنا وهناك كانت نوافذ خافتة تتوهّج ورغم ذلك فان دمه بدأ يهذر ويهذر مجدداً سار بسرعة ، في الوقت المناسب بدا أنه كان مدركاً أن المجموعة كانت مؤلفة من زنوج حتى قبل أن يراها أو يسمعها على الاطلاق ، حتى قبل أن يراها على نحو غير واضح ووراءها الغبار الميت كان هناك خمسة أو ستة منهم ، في غير انتظام وبترتيب ثنائي على نحو غامض ؛ ومن جديد وصلته ، فوق ضجيج دمه ، الهمسات القوية للأصوات النسائية كان يمشي باتجاههم مباشرة ، وبسرعة كانوا قد رأوه واتخذوا جانب الطريق وقد توقفت الأصوات ولكنه غيّر اتجاهه هو أيضاً عابراً باتجاههم وكأنه ينوي أن يصطدم بهم وبحركة واحدة وكأنما بأمر منطوق تراجعت النسوة وكنّ يحاولن الالتفاف من حوله ، متيحات له مسافة واسعة لحق أحد الرجال بهن كأنه يسوقهنّ أمامه ، ونظر من فوق كتفه وهو يمرّ كان الرجلان الآخران قد توقفا في الطريق في مواجهة كريسماس كان كريسماس قد توقّف أيضاً لم يبد على أي منهما أنه يتحرك ، ومع ذلك فقد اقتربا ، يلوّحان وكأنهما على وشك الوقوع ، كظلين منحرفين كان قادراً على شمّ رائحة الزنوج ؛ على شم رائحة الملابس الرخيصة والعرق بدت رأس الزنجي ،

www.ibtesama.com/vb

الأعلى من رأسه ، وكأنها تنحي خارجاً من السماء قبالة السماء قال « انه رجل أبيض » ، دون أن يرفع رأسه ، وبهدوء . « ما تريدون أيها البيض ؟ هل تبحث عن شخص ما ؟ » لم يكن الصوت مهدّداً ولا كان متذلّلاً

قال الرجل الذي لحق بالنساء

— تعال من هنا يا « جوب »

قال الزنجي

— عمّن تبحث يا كابتن ؟

قالت احدى النساء بصوت مرتفع قليلاً

— يا « جوب » ، تعال إلى هنا هيا

للحظة أخرى كانت الرأسان ، الفاتحة والداكنة ، تبدوان وكأنهما معلقتان في الظلمة ، تتنفسان الواحدة منها على الأخرى ثم بدت رأس الزنجي وكأنها تطفو مبتعدة ؛ وريح باردة تهبّ من مكان ما أما كريسماس ، الملتفت ببطء يراقبهم يتلاشون ويضمحلّون في الطريق الباهت ، فقد اكتشف أن الموسى كانت في يده لم تكن مفتوحة لم يكن ذلك بداعي الخوف قال بصوت عال « عاهرات أولاد عاهرات ! »

هبت الريح مظلمة وباردة حتى الغبار الذي دخل حذاءه كان بارداً فكر « ما حكايتي بحق الجحيم ؟ » أعاد الموسى إلى جيبه وتوقف وأشعل لفافة كان قد رطّب شفتيه عدة مرات ليمسك

www.ibtesama.com/vb

بهما اللفافة وفي نور عود الكبريت استطاع أن يرى يديه ترتجفان فكر « كل هذا القلق » ثم قال بصوت مرتفع « كل هذا القلق اللعين » وهو يستأنف المسير نظر إلى النجوم ، والسماء فكر « لا شك أن الساعة تقارب العاشرة الآن » ثم سمع مع هذه الفكرة بالذات صوت ساعة دار المحكمة على بعد ميلين وببطء وبانتظام وصلته الدقات العشر الواضحة عدّها ، توقف مرة أخرى في الطريق الموحشة الفارغة ، فكر « الساعة العاشرة ، لقد سمعت العاشرة تدّق في الليلة الماضية أيضاً والحادية عشرة والثانية عشرة ولكني لم أسمع الواحدة ربما كان اتجاه الريح قد تغيّر »

وحين سمع الحادية عشرة تدق في هذه الليلة كان جالساً وظهره إلى شجرة داخل البوابة المكسورة ، بينما كان المنزل خلفه معتماً من جديد ومختبئاً في بستانه غير المعتنى به لم يكن يفكر ربما هي ليست نائمة أيضاً هذه الليلة لم يكن يفكر اطلاقاً الآن ، لم يكن التفكير قد بدأ بعد ، لم تكن الأصوات قد بدأت أيضاً جلس هناك فحسب ، دون حراك ، حتى سمع بعد فترة الساعة على بعد ميلين تدق الثانية عشرة ثم نهض وتحرك نحو المنزل . لم يتحرك بسرعة لم يكن يفكر حتى آنذاك شيء ما سيحدث . شيء ما سيحدث لي

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل السادس

الذاكرة تعتقد وقبل أن تعرف تتذكر تعتقد أطول مما تتذكر ، أطول مما تعرف بل تتساءل حتى تعرف تتذكر تعتقد بممرّ في بناء كبير طويل ذي جعلون بارد ذي صدى من آجر أحمر معتم جعله السخام الصادر من مداخن غير مداخنه كئيباً ، موجود في مجمع خال من العشب مغطى برماد منثور محاط بجوار من معمل مدخّن ومحاط بحاجز ارتفاعه عشرة أقدام من الفولاذ والأسلاك الشائكة كسجن أو حديقة حيوان ، حيث يقوم أيتام باندفاعات جزافية خاطئة مع غناء طفلي كغناء السنونو ، أيتام في ملابس وبزات متماثلة زرقاء قطنية بالدخول والخروج من التذكّر ولكن في معرفة مطردة كالجدران الجرداء ، النوافذ الجرداء حيث ينزل على شكل أقلام في المطر السخام من المداخن السنوية المجاورة كدموع سوداء

في الممرّ الهادي والفارغ ، خلال الساعة الأولى الهادئة من فترة ما بعد الظهر ، كان أشبه بظلّ ، ضئيلاً حتى على طفل في الخامسة ، رزيناً وهادئاً كظلّ لو كان هناك شخص آخر في الممرّ لما استطاع أن يعرف أين ومتى أختفى ، وفي أي باب دخل ، وأية غرفة ولكن لم يكن هناك شخص آخر في الممر في تلك الساعة

www.ibtesama.com/vb

كان يعرف ذلك كان يمارس ذلك منذ سنة تقريباً منذ ذلك اليوم الذي اكتشف فيه صدفه معجون الأسنان الذي كانت تستعمله المسؤولة عن التغذية

ما أن يكون في الغرفة حتّى يذهب مباشرة على قدميه العاريتين الصامتتين إلى المغسلة ويجد الأنبوب كان يراقب المعجون ورديّ اللون يخرج على شكل دوديّ أملس وبارد وبطيء نحو أصبعه ذي اللون الشبيه بلون الرق الجلدي حين سمع صوت خطوات في الممرّ ثم أصواتاً من وراء الباب وربما ميّز صوت المسؤولة عن التغذية وعلى أية حال لم ينتظر ليرى ان كانوا سيمرّون بالباب أم لا .وبالأنبوب في يده وبصمت أشبه بصمت الظلّ على قدمين العاريتين عَبَر الغرفة وتسلّل تحت ستارة قماشية كانت تحجب احدى زوايا الغرفة وقد جلس هناك بين أحذية رقيقة وملابس نسائية ناعمة معلّقة ثم سمع وهو جاثم المسؤولة عن التغذية تدخل هي و رفيقها إلى الغرفة

لم تكن المسؤولة عن التغذية شيئاً بالنسبة إليه سوى ملحق ميكانيكي للأكل والطعام وغرفة الطعام ،طقوس الطعام عند الأشكال الخشبية التي تلوح أمامه بين الحين والآخر دون أن تترك أي أثر باستثناء تداعٍ ممتع كونها هي ممتعة للنظر فهي شابة وممتلئة الجسم قليلاً ناعمة ، ذات بشرة وردية وبيضاء ، تجعله يفكر بغرفة الطعام ، وتجعل فمه يفكر بشيء ما حلو ودبق خلال الأكل ، وذي لون قرنفلي ومختلس في ذلك اليوم الأول حين اكتشف معجون الأسنان في غرفتها كان قد ذهب مباشرة إلى هناك ولم يكن قد سمع بمعجون الأسنان أيضاً ، وكأنه كان يعرف مسبقاً أنها سوف تمتلك شيئاً له

www.ibtesama.com/vb

مثل هذه الطبيعة وأنه سيجده كما عرفت صوت رفيقها أيضاً كان صوت طبيب شاب مقيم من مستشفى المحافظة وكان يعمل مساعداً لطبيب الأبرشية ، وكان هذا أيضاً شخصاً مألوفاً في الدار وليس عدوّاً بعد

كان آمناً الآن ، خلف الستارة وحين يبتعدان كان سيعيد معجون الأسنان إلى مكانه ثم يغادر لذا جلس خلف الستارة ، سامعاً دون اصغاء صوت المرأة الهامس المتوتر « لا ! لا ! ليس هنا ليس الآن سيمسكون بنا شخص ما قد لا يا تشارلي أرجوك ! » كانت كلمات الرجل غير مفهومة له اطلاقاً وكان هذا الصوت خفيفاً أيضاً . كان صوتاً ذا رنة لا شفقة فيها ، كصوت كل الرجال الذين سمعهم ، حيث كان أصغر سناً بعد على الهروب من عالم النساء لتلك الفترة القصيرة من الراحة قبل أن يعود إليه ليبقى حتى ساعة موته . سمع أصواتاً أخرى لم يكن يعرفها جرجرة كمشي الأقدام ، صليل المفتاح في الباب « لا يا تشارلي ! تشارلي ، أرجوك ! أرجوك يا تشارلي ! » هكذا كانت المرأة تهمس كما سمع أشياء أخرى حفيفاً ، همساً ، وليس أصواتاً بشرية لم يكن يصغي ؛ كان ينتظر فحسب ، مفكراً دون اهتمام معين أو انتباه معين أنها كانت ساعة غير مألوفة للذهاب إلى الفراش للنوم ومن جديد وصلته همسة المرأة الخافتة عبر الستارة الرقيقة « أنا خائفة أسرع ! أسرع ! »

جثم بين الملابس والأحذية الناعمة ذات الرائحة النسائية ورأى بالملمس فحسب الأنبوب الفارغ الآن والذي كان اسطوانياً وبالمذاق

www.ibtesama.com/vb

وليس بالرؤية. تأمّل في الدودة. الباردة غير المرئية وهي تلتفّ على أصابعه وتدبق حادة وآليّة وحلوة ، في فمه في العادة كان يتناول لقيمة واحدة ثم يعيد الأنبوب إلى مكانه ويغادر الغرفة ورغم أنه في الخامسة فحسب ، الاّ أنه كان يعرف أن عليه ألاّ يتناول منه أكثر من ذلك ربما كان الحيوان فيه يحذّره من أنّ المزيد منه يجعله مريضاً وربما كان الكائن البشريّ فيه يحذره من أنه لو تناول المزيد منه فسوف تفتقده صاحبته كانت هذه أول مرة يتناول فيها المزيد وبالملمس استطاع أن يرى أن الأنبوب قد فرغ بدأ يتعرّق ثم وجد أنه كان يتعرّق منذ فترة ، وأنه لم يكن يسمع أي شيء على الاطلاق الآن ربما ما كان سيسمع صوت طلقة من وراء الستارة بدا وكأنه قد انطوى على نفسه ، مراقباً نفسه وهو يتعرق ، مراقباً نفسه يدسّ دودة أخرى من المعجون في فمه لم تكن معدته ترغب بها وها هي ترفض أن تنزل بكل تأكيد ها هو بلا حراك الآن ، يتأمّل على نحو مطلق ، وبدا كأنه ينحني فوق نفسه ككيميائي في مختبر ، منتظراً لم يكن مضطراً إلى الانتظار طويلاً فعلى الفور كان المعجون الذي سبق له وابتلعه قد ارتفع في داخله ، محاولاً العودة إلى الخارج ، إلى الهواء حيث الجو بارد لم يعد حلواً في الظلمة المنتشرة ذات الرائحة النسائية القرنفلية خلف الستارة كان يقعي وقد أرغى فمه برغوة قرنفلية ، مصغياً إلى أحشائه ، منتظراً بجبرية مندهشة ما سيحدث له ثم حدث ما حدث قال لنفسه باستسلام كامل وسابي « حسناً ها أنذا »

حين أرجعت الستارة إلى الخلف لم ينظر نحو الأعلى وحين جرّته أيد عنيفة منتشلة اياه من قيئه لم يقاوم كان معلقاً من يديه ،

www.ibtesama.com/vb

منهكاً ، ناظراً بفكين رخوين وبلاهة كامدة إلى وجه لم يعد أبيض وردياً ناعماً ، وخاطاً الآن بشعر هائج أشعث جعلته يداه الناعمتان يفكر الآن بالحلوى «أيها الجرذ الصغير !». هسهس الصوت النحيل الغاضب «أيها الجرذ الصغير ! تتجسس عليّ ! يا ابن الحرام الزنجي الصغير !»

* * *

كانت المسؤولة عن التغذية في السابعة والعشرين أي في سنّ تضطرها إلى المجازفة قليلاً بمغامرات عاطفية ، ولكنها شابة بما فيه الكفاية لتعطي أهمية كمية ليس إلى الحب ، بل إلى مشكلة أن يتم الامساك بها وهي تمارسه كما كانت غبية بما فيه الكفاية لتصدق أن طفلاً في الخامسة كان قادراً على استنتاج الحقيقة ممّا سمعه ، بل وأنه سيقوم بنقله كما قد يفعل الراشدون لذلك حين لاحظت في اليومين التاليين أنها لا تنظر في اتجاه ما أو تكون في مكان ما الا وتجد الطفل يراقبها باستفهام عميق ومتعمّد وحيواني ، فقد أضفت عليه المزيد من مزايا الشخص الراشد كانت تعتقد أنه لا ينوي أن يخبر عنها فحسب ، بل أنه كان يؤجل ذلك عن عمد كي يجعلها تعاني أكثر لم يخطر لها أنه كان يعتقد أنه الشخص الآثم وأنه يعذّب بالعقوبة المؤجلة ، ولم يخطر لها أنه يضع نفسه في طريقها ليتخلص من الأمر كله ، فينال الضرب وتتم التسوية ويُطوي الأمر كله

ما أن حل اليوم التالي حتى كانت شبه يائسة لم تنم ليلاً ظلت معظم الليل متوترة وأسنانها ويداها مطبقة ، تلهث من الغضب والرعب بل أسوأ من ذلك كله ، الندم ذلك الغضب الأعمى والرغبة ، في

www.ibtesama.com/vb

اعادة الزمن إلى الوراء ولو لساعة أو لثانية وقد أقصت حتى الحب خلال ذلك الوقت كان الطبيب الشاب أقل أهمية حتى من الطفل الآن ، مجرد اداة لنكبتها وليست اداة حتى لخلاصها ما كانت قادرة على معرفة من منهما تكره أكثر وما كانت قادرة على معرفة متى تكون نائمة ومتى تكون مستيقظة لأنه كان هناك باستمرار على جفنيها أو على شبكتيتي عينيها ذلك الوجه الهادىء القاتم غير الممكن الهرب منه وذو اللون الأشبه بلون الرق الذي يراقبها

وفي اليوم الثالث خرجت من حالة الغيبوبة ، حالة النوم اليقظ التي كانت خلالها تحمل وجهها كقناع مؤلم في تكشيرة ثابتة خادعة ما كانت تجرؤ على ارخائها وذلك في ساعات النور والوجوه وفي اليوم الثالث تصرفت لم تجد صعوبة في معرفة مكانه كان في الممر الفارغ خلال الساعة الهادئة بعد الغداء كان هناك ، لا يفعل أي شيء على الاطلاق ربما كان قد تبعها ما كان هناك من يعرف ان كان ينتظرها هناك أم لا ولكنها وجدته دون دهشة وسمع هو والتفت ورآها دون دهشة الوجهان ، أحدهما لم يعد ذا لون وردي — أبيض وناعم ، والآخر قاتم رصين العينين وفارغ تماماً من كل شيء باستثناء الانتظار « الآن سأنتهي من المسألة كلها »

قالت « اسمع » ثم توقفت ونظرت إليه كأنما لم تكن قادرة على التفكير فيما ستقوله لاحقاً وانتظر الطفل ، ساكناً بلا حراك ببطء وبالتدريج كانت عضلات كفليه تصبح مسطحة وقاسية ومتوترة كألواح الخشب قالت

— هل ستحكي لأحد ؟

www.ibtesama.com/vb

لم يجب كان يعتقد أن على أي امرىء أن يعرف أن آخر شيء في العالم يمكن له أن يفعله هو أن يحكي عن معجون الأسنان والقيء لم ينظر إلى وجهها كان يراقب يديها وينتظر كانت إحداهما مطبقة الأصابع داخل جيب تنورتها من خلال القماش كان قادراً على أن يرى أنها كانت مطبقة بقوة لم يكن قد سبق له وضرب بقبضة يد ولكنه لم يسبق له أن انتظر ثلاثة أيام بحالها حتى يعاقب. وحين رأى اليد تبرز من الجيب ظن أنها كانت على وشك أن تضربه ولكنها لم تفعل؛ بل ان اليد انفتحت أمام عينيه كان عليها دولار فضي كان صوتها نحيلاً، ملحاً، هامساً رغم أن الممر كان فارغاً من حولهما

— يمكنك أن تشتري الكثير بهذا دولار بحاله

لم يكن قد رأى دولاراً من قبل، رغم أنه كان يعرفه لم ينظر إليه كان يرغب به كما قد يرغب بالغطاء اللامع لزجاجة جعة ولكنه لم يصدق أنها ستعطيه اياه، لأنه ما كان سيعطيه لها لو كان ملكه لم يعرف ما تريده منه كان ينتظر أن يضرب ثم يطلق سراحه استمر صوتها بالكلام ملحاحاً، متوتراً وعجولاً

— دولار بأكمله أتراه؟ الكم تستطيع أن تشتري به شيء تأكل منه كل يوم لأسبوع كامل وفي الشهر القادم سأعطيك واحداً آخر ربما

لم يتحرك ولم ينطق كأنما هو دمية كبيرة منحوتة ضئيلة الحجم، ساكنة، ذات رأس مدورة وعينين مدورتين، وترتدي الأوفرول كان ساكناً من الدهشة والصدمة والغضب وبينما هو

www.ibtesama.com/vb

ينظر إلى الدولار بدا وكأنه يرى أنابيب معجون الأسنان في صف كأنها الخشب المكدّس ، لا نهاية لها ومرعبة كان كيانه كله ملتفاً حول نفسه في اشمئزاز شديد وانفعالي . قال

— لا أريد المزيد لا أريد المزيد أبداً

ثم لم يجرؤ حتى على النظر إلى وجهها كان قادراً على الاحساس بها ، سماعها ، سماع نفسها الطويل المرتجف **الآن ستضربني** هكذا فكر في لحظة التماع ولكنها لم تهزّه حتى بل أمسكت به فحسب ، بقوة ، دون أن تهزه ، وكأن يدها ما كانت تعرف هي أيضاً ما ستفعله تالياً كان وجهها قريباً جداً حتى أنه استطاع أن يشعر بأنفاسها على وجنته لم يكن في حاجة إلى أن يرفع نظره ليعرف كيف كان شكل وجهها الآن قال

— احك ! احك إذن ! يا ابن الحرام الزنجي الصغير ! يا ابن الحرام الزنجي !

كان ذلك هو اليوم الثالث وفي اليوم الرابع أصبحت هادئة تماماً ومجنونة تماماً لم تعد تخطط أبداً وقد كانت تصرفاتها اللاحقة تتبع نوعاً من الحدس ، كأن الأيام والليالي التي لا تعرف النوم التي خبأت خلالها خلف قناعها الهادىء خوفها وغضبها قد حولت عصمتها النفسية والأنثوية الطبيعية إلى معرفة فطرية بالشرّ

كانت هادئة تماماً الآن فقد كانت قد نجت مؤقتاً من الالحاحية كأنما كان لديها الآن الوقت للنظر فيما حولها والتخطيط وفيما هي تنظر فيما حولها فان نظرتها وعقلها وفكرها قد تركزت كلها مباشرة وعلى الفور على البوّاب الجالس عند باب غرفة الفرن لم يكن هناك

www.ibtesama.com/vb

أي استنتاج منطقي فيها ولا تصميم بدا عليها أنها تنظر إلى خارج نفسها للحظة واحدة كمسافر في سيارة ، ورأت دون أية دهشة اطلاقاً ذلك الرجل القذر ضئيل الحجم جالساً في الكرسي المصنوع من القصب عند مدخل ملطخ بالسخام ، يقرأ عبر نظارتين باطار من الفولاذ في كتاب موضوع على ركبتيه شكل ، شخص تطاول اتصاله بمكان ما تقريباً ، كانت مدركة لوجوده ، منذ خمس سنوات دون أن تنظر إليه مرة واحدة ما كانت لتميّز وجهه لو صادفته في الشارع كانت ستمر به دون أن تعرفه ، رغم أنه كان رجلاً بدت حياتها الآن مستقيمة وبسيطة كممّر يجلس هو في نهايته ذهبت إليه فوراً ، تحركت في الممر القذر قبل أن تدرك أنها قد انطلقت

كان جالساً في كرسيه المصنوع من القصب عند المدخل ، والكتاب المفتوح على ركبتيه وحين اقتربت منه رأت أنه كان « الكتاب المقدس » ولكنها لاحظت ذلك ، كما قد تلاحظ أن هناك ذبابة على ساقه قالت

— أنت تكرهه أيضاً كنت تراقبه أنت أيضاً لقد رأيتك. لا تقل إنك لا تكرهه

رفع نظره إلى وجهها ، والنظارتان مسندتان الآن على حاجبيه لم يكن عجوزاً كانت مهنته الحالية متضاربة مع شخصيته ، فقد كان رجلاً صارماً في أوج عمره ، رجلاً كان يتوجب عليه أن يعيش حياة المثابرة والنشاط ، رجلاً خانه الزمن والظرف ، أو شيء ما ، فانجرف الجسد والفكر المعافيان لرجل في الخامسة والأربعين إلى مستنقع مهجور مناسب لرجل في الستين أو الخامسة والستين

www.ibtesama.com/vb

قالت « أنت تعرف كنت تعرف قبل أن يبدأ الأطفال الآخرون ينادونه بالزنجي لقد جئت إلى هنا في الوقت نفسه لم تكن تعمل هنا سوى لفترة تقل عن الشهر قبل ليلة عيد الميلاد تلك حين وجده تشارلي على الدرج في الأسفل هناك قل لي .» كان وجه البواب مدوراً ، مترهلاً بعض الشيء ، وسخاً تماماً ، مع ذقن غير حليقة وقذرة كانت عيناه صافيتين تماماً ، رماديتين تماماً ، باردتين تماماً وكانتا مجنونتين تماماً أيضاً ولكن المرأة لم تلاحظ ذلك أو ربما لم تبدوا مجنونتين لها وهكذا واجه أحدهما الآخر في المدخل المسخم ، عينان مجنونتان تنظران إلى عينين مجنونتين ، صوت مجنون يتحدث إلى صوت مجنون ، كلاهما هادىء وساكن ومهذب كمتآمرين قالت « أراقبك منذ خمس سنوات » كانت تعتقد أنها تقول الحقيقة « تجلس هنا في هذا الكرسي نفسه ، تراقبه أنت لا تجلس هنا أبداً الا حين يكون الأطفال في الخارج ولكنهم ما أن يدخلوا حتى تجلب هذا الكرسي هنا إلى الباب وتجلس عليه حيث تستطيع مراقبتهم تراقبه وتسمع الأطفال الآخرين ينادونه بالزنجي هذا ما تفعله أعرف ذلك لقد جئت إلى هنا لتفعل ذلك بالضبط ، تراقبه وتكرهه كنت هنا قبل أن يأتي وربما جلبته أنت وتركته على الدرج هناك أنت نفسك ولكن أنت تعرف على أية حال وعلي أنا أن أعرف حين يحكي ما يعرفه سيتم طردي وتشارلي يمكن سوف قل لي قل لي الآن

قال البواب

— آه لقد عرفت أنه سيكون هناك ويمسك بك حين يشاء الرب . عرفت ذلك أعرف من وضعه هناك ، اشارة وإدانة للبغاء

www.ibtesama.com/vb

ـ أجل كان خلف الستارة بالضبط تقريباً كما أنت الآن

قل لي الآن لقد رأيت عينيك وأنت تنظرين إليه راقبتك مدة خمس سنوات

قال

ـ أعرف أعرف الشر أو لم أجعل الشر ينهض ويمشي في عالم الرب ؟ لقد جعلته تلويثاً ماشياً على قدمين في وجه الرب من أفواه الأطفال الصغار لم يخفه « هو » . لقد سمعتهم لم أطلب منهم أن يقولوها أبداً ، أن ينادوه بوصفه الحق ، باسم لعنته لم أطلب منهم أبداً كانوا يعرفون . لقد طلب إليهم ولم أكن أنا من فعل ذلك . لقد انتظرت فحسب ، انتظرت موعد الرب المناسب ، حتى يحين الوقت المناسب له ليكشفه لعالمه الحيّ وقد حان الوقت الآن هذه هي الاشارة ، مكتوبة مرة أخرى في ارتكاب المرأة للاثم والبغاء

ـ أجل ، ولكن ماذا عليّ أن أفعل ؟ قل لي

ـ انتظري كما انتظرت انتظرت خمس سنين حتى تحرك الرب وأظهر ارادته وقد فعلها انتظري أنت أيضاً حين يكون « هو » مستعداً لها سيظهر ارادته لهم أولئك الذين لهم القول الفصل

ـ أجل القول الفصل

حملقا واحدهما في الآخر ، بسكون ، وهما يتنفسان بهدوء

ـ المدام حين يكون مستعداً ، سيكشفه لها

ـ تعني أنه لو عرفت المدام بالأمر فستبعده من هنا ؟ أجل ولكني لا أستطيع الانتظار

www.ibtesama.com/vb

– لا يمكنك أن تعجّلي أمر الرب أو لم أنتظر سنوات خمساً ؟

بدأت تضرب يديها ببعضهما على نحو خفيف .

– ولكن ألا ترى ؟ قد تكون تلك هي طريقة الرب أن تخبرني أنت لأنك تعرف ربما تكون طريقته أن تخبرني أنت وأن أخبر أنا المدام .

كانت عيناها المجنونتان هادئتين تماماً ، وصوتها المجنون صابراً وهادئاً : كانت يداها الخفيفتان فقط هما اللتان لا تتوقفان

قال

– ستنتظرين كما انتظرتُ لقد شعرت بثقل يد الرب المترعة بالندم مدة ثلاثة أيام ربما ولكني أعيش تحتها منذ خمس سنوات ، مراقباً ومنتظراً موعده المناسب ، لأن إثمي أكبر من إثمك بكثير

ورغم أنه كان ينظر مباشرة إلى وجهها الا أنه لم يبد عليه أنه يراها على الاطلاق ، فعيناه لم تكن تراها بدتا كأنهما عمياوان ، ومفتوحتان عن آخر هما ، باردتان كالثلج ، متعصبتان دينياً

– ان ما فعلته وما عانيته للتفكير عنه ، بالمقارنة مع ما فعلته أنت وما تعانينه كامرأة لا يزيد عن حفنة من القذارة المتعفنة لقد احتملت بالفعل سنواتي الخمس ؛ فمن أنت حتى تعجّلي الرب كلّي القدرة بقذارتك النسائية الصغيرة ؟

التفتت فوراً

– حسناً ، ليس عليك أن تخبرني أعرف على أية حال لقد عرفت طوال الوقت أنه جزئياً زنجي

www.ibtesama.com/vb

عادت إلى الدار لم تمش بسرعة وتثاءبت على نحو مروّع فكرت « كل ما عليّ أن أفعله هو التفكير بطريقة ما لجعل المدام نصدق ذلك لن يخبرها هو ، لن يدعمي » تثاءبت مرة أخرى ، على نحو هائل ، وقد فرغ وجهها من كل شيء الآن باستثناء التثاؤب ثم فرغ حتى من التثاؤب كانت قد فكرت للتوّ بشيء آخر لم تكن قد فكرت في ذلك من قبل ، ولكنها كانت تعتقد أنها فعلت ذلك ، وقد عرفت طوال الوقت ، لأنه بدا صحيحاً تماماً لن يُنقل فحسب ، بل سيُعاقب لأنه سبّب لها الرعب والقلق فكرت « سيرسلونه إلى ميتم الزنوج طبعاً سيتوجب عليهم ذلك »

لم تذهب إلى الرئيسة فوراً كانت قد بدأت بالتوجّه نحوها ، ولكنها بدلاً عن أن تلتفت باتجاه باب المكتب ورأت نفسها تتجاوزه ، وتذهب نحو الدرج وتصعد كأنما كانت تلاحق نفسها لترى أين كانت تتجه في الممر ، الهادىء والفارغ الآن ، تثاءبت مرة أخرى ، بارتياح مطلق دخلت غرفتها وأقفلت الباب وخلعت ملابسها ثم اندست في السرير كانت الستائر مسدلة وتمددت ساكنة في نصف الظلمة تلك أو تزيد ، على ظهرها كانت عيناها مغلقتين ووجهها فارغاً وناعماً وبعد فترة بدأت تفتح ساقيها ثم تغلقهما ببطء وهي تشعر بالشراشف تتدفق باردة وناعمة عليهما ، ثم تتدفق دافئة وناعمة مرة أخرى بدا التفكير كأنه معلّق بين النوم الذي لم تنله حتى الآن خلال ليال ثلاث والنوم الذي كانت على وشك استقباله ، جسدها مفتوح لتقبلّ النوم كأنما كان النوم رجلاً فكرت

www.ibtesama.com/vb

« كل ما أنا في حاجة إليه هو أن أجعل المدام تصدّق » ثم فكرت

سيبدو كحبة بازلاء في مقلاة مليئة بحبات البن

كان ذلك في فترة بعد الظهر وفي التاسعة من ذلك المساء كانت تخلع ملابسها مجدداً حين سمعت البواب يقطع الممر نحو بابها لم تعرف .. ولم تكن قادرة على معرفة من كان ، ثم عرفت على نحو ما ، وهي تسمع القدمين الراسختين ثم قرع الباب وبدأ يفتح قبل أن تستطيع القفز نحوه لم تناد بل قفزت نحو الباب واضعة ثقلها عليه ، متشبثة به « أنا أخلع ملابسي » ، هذا ما قالته بصوت نحيل معذّب ، وهي تعرف من كان الطارق لم يجبها ، كان وزنه ثابتاً ومطرداً على الباب الزاحف ، خلف الفتحة الزاحفة صاحت « لا يمكنك الدخول إلى هنا ! » وذلك بصوت لا يعلو عن همسة « ألا تعرف أنهم » كان صوتها لاهثاً ، ضعيفاً ويائساً لم يجبها حاولت ايقاف وكبح الزحف البطيء ، نحو الداخل للباب « دعني ألبس أولاً ثم سأخرج هل لك أن تفعل ذلك ؟ » تكلمت بذلك الهمس الضعيف ، بلهجة خفيفة ، غير منطقية ، كلهجة من يخاطب طفلاً لا يمكن التنبؤ بتصرفاته أو شخصاً مجنوناً لهجة ملطّفة ، متزلّفة « انتظر هل تسمع ؟ هل لك أن تنتظر ؟ » لم يجبها لم يتوقف الزحف البطيء صعب المقاومة للباب وبينما راحت تستند عليه عارية إلاّ من ملابسها الداخلية ، كانت كدمية في كاريكاتير موضوعه السلب واليأس وفي وضع الاتكاء والنظر نحو الأسفل واللاحركة بدت وكأنها في حالة تفكير عميق أشدّ ما يكون العمق ، وكأن الدمية في وسط المشهد المسرحي قد تاهت ضمن نفسها ثم التفتت ، مغلقة الباب ، وقفزت نحو السرير ، مختطفة ، دون أن تنظر إليه ،

www.ibtesama.com/vb

ثوباً ، ثم تلتف على نفسها لتواجه الباب ممسكة بالثوب عند صدرها جامعة اياه باهمال   كان قد سبق له ودخل ؛ من الواضح أنه كان يراقبها وينتظر خلال الفترة العمياء من التلمّس والسرعة اللامتناهية

كان لا يزال يرتدي الأوفرزول ومعه الآن القبعة   لم يخلعها ومن جديد لم تبد عيناه الزماديتان الباردتان المجنونتان كأنهما تريانها ، أو تنظران إليها اطلاقاً   قال

– لو دخل الرب نفسه غرفة احداكن لاعتقدتنّ أنه فعل ذلك من أجل البغاء   هل أخبرتها ؟

جلست المرأة على السرير   بدت وكأنها تغرق فيه ببطء ، متمسكة بالثوب ، مراقبة اياه ، ووجهها قد ابيضّ

– أخبرتها ؟

– ما الذي ستفعله به ؟

– تفعله ؟

راحت تراقبه   تانك العينان اللامعتان الساكنتان اللتان تبدوان وكأنهما لا تنظران إليها بل تطوّقانها   تدلّى فمها مفتوحاً كفم شخص أبله

– إلى أين سيرسلونه ؟

لم تجب

– لا تكذبي عليّ ، على الرب   سيرسلونه إلى ذلك المكان المخصّص للزنوج

انطبق فمها   كأنما اكتشفت أخيراً ما الذي كان يتحدث عنه

www.ibtesama.com/vb

— أجل ، لقد عرفت سيرسلونه إلى ذلك المكان المخصص لأطفال الزنوج

لم تجب ولكنها كانت تراقبه الآن ، وعيناها لا تزالان خائفتين قليلاً ولكنهما غامضتان أيضاً ، وحذرتان والآن كان ينظر إليها ؛ بدت عيناه وكأنهما تقبضان على شكلها وكيانها صرخ

— أجيبي يا فاسقة

قالت

— صه ! أجل سيضطرون إلى ذلك حين يكتشفون

تأوه خبت تحديقته ؛ أطلقت عيناه سراحها ثم طوقتاها مرة أخرى واذ هي تنظر إليهما بدا وكأنها ترى نفسها أقل من لا شيء فيهما ، تافهة كعود يطفو فوق بركة ماء ثم أضحت عيناه انسانيتين تقريباً بدأ يتلفت في أنحاء الغرفة النسائية كأنه لم ير واحدة من قبل الغرفة الضيقة ، الدافئة ، عديمة الترتيب ، التي تفوح منها الرائحة الوردية للمرأة قال « قذارة المرأة أمام وجه الرب » استدار وخرج بعد فترة نهضت المرأة وقفت بعض الوقت ، متشبثة بالثوب ، دون حراك ، بلهاء ، محدقة في الباب الفارغ كأنها لم تستطع أن تفكر فيما تطلب إلى نفسها أن تفعله ثم ركضت قفزت إلى الباب ورمت نفسها عليه ، فانغلق بقوة ثم أقفلته ، مستندة عليه ، لاهثة ، ممسكة بالمفتاح المدار بكلتا يديها

في موعد الافطار في صباح اليوم التالي كان البوّاب والطفل كلاهما مفقودين لم يجدوا لهما أي أثر وتم ابلاغ الشرطة على

www.ibtesama.com/vb

الفور . وقد وجد أحد الأبواب الجانبية مفتوح القفل وكان مع البواب مفتاح له

قالت المسؤولة عن التغذية للرئيسة

ـ هذا لأنه يعرف

ـ يعرف ماذا ؟

ـ أن ذلك الطفل ، ذلك الصبي كريسماس ، زنجي

قالت الرئيسة

ـ ماذا ؟

ثم حدقت في المرأة الأصغر سناً وقد تراجعت في كرسيها

ـ زن لا أصدق ذلك !

ثم صاحت

ـ لا أصدق ذلك !

قالت الأخرى

ـ ليس عليك أن تصدقي ذلك ولكنه يعرف بالأمر لقد سرقه وهرب به بسبب ذلك

كانت الرئيسة قد تجاوزت الخمسين ، ذات وجه مترهل ، وعينين ضعيفتين ، لطيفتين ومحبطتين قالت « لا أصدق ذلك ! » ولكنها في اليوم الثالث أرسلت تطلب المسؤولة عن التغذية كانت تبدو كأنها لم تنم منذ فترة أما المسؤولة عن التغذية ، فعلى العكس من ذلك ، اذ كانت تبدو نضرة ، وهادئة تماماً كانت لا تزال

www.ibtesama.com/vb

متماسكة حين أنبأتها الرئيسة بالخبر : فقد وجد كلاهما الرجل والطفل

– في « ليتل روك » لقد حاول وضع الطفل في أحد دور الأيتام هناك. لقد ظنوه مجنوناً واستبقوه حتى وصلت الشرطة

ثم نظرت إلى المرأة الشابة واستأنفت

– لقد قلت لي قلت لي ذلك اليوم كيف عرفت بذلك ؟

لم تشح المسؤولة عن التغذية بنظرها بعيداً قالت

– لم أفعل لم تكن لدىّ أية فكرة اطلاقاً طبعاً كنت أعرف أنه حين كان الأطفال ينادونه بالزنجي فان ذلك لم يكن له معنى اطلاقاً

قالت الرئيسة

– زنجي ؟ الأطفال الآخرون ؟

– انهم ينادونه بالزنجي منذ سنوات وأعتقد أحياناً أن الأطفال لديهم طريقتهم الخاصة بمعرفة أشياء لا يراها الراشدون الذين هم في مثل سنك وسني الأطفال وكبار السن ، كذلك البواب لذا كان يجلس دائماً عند المدخل هناك وهم يلعبون في الساحة مراقباً ذلك الطفل ربما اكتشف ذلك من سماعه الأطفال الآخرين ينادونه بالزنجي ولكن ربما كان يعرف ذلك مسبقاً وان كنت تتذكرين فقد جاءا كلاهما إلى هنا في الوقت نفسه تقريباً لم يكن قد مضى عليه هنا سوى فترة تقل عن الشهر قبل ليلة عيد الميلاد تلك ألا تذكرين – حين وجدوا كر وجدوا الطفل على الدرج ؟

www.ibtesama.com/vb

كانت تتكلم بسلاسة ، مراقبة العينين الجائرتين المتقلصتين للمرأة الأكبر سناً اللتين تحدقان إلى عينيها هي وكأنها لا تستطيع تحريكهما كانت عينا المسؤولة عن التغذية رقيقتين وبريئتين

– وهكذا حدث في أحد الأيام أن كنا نتحدث وكان يحاول أن يخبرني بشيء ما عن ذلك الطفل كان يريد أن يقول لي شيئاً ما ، أن يحكي لأحد ما ، وأخيراً فقد جرأته ربما واستنكف عن أن يخبرني ، وهكذا تركته لم أكن أفكر في ذلك اطلاقاً كنت قد نسيت الأمر كله حين

توقف صوتها عن الكلام حدقت إلى الرئيسة بينما طغى على وجهها تعبير يدل على التنوّر ، على الفهم المفاجيء ؛ وليس بامكان أحد أن يقول ان كان ذلك مزيفاً أم لا

– عجباً ، هذا هو السبب عجباً ، أفهم ذلك كله الآن ما حدث في اليوم الذي سبق على هروبهما ، كنت في الممر ، ذاهبة إلى غرفتي ؛ كانت ذلك في اليوم نفسه الذي صدف فيه أن تحدثت إليه ورفض أن ينبئني بما كان قد بدأ به ، حين أوقفني فجأة وظننت أن ذلك كان مضحكاً لأني لم أكن قد رأيته داخل الدار سابقاً وقال تكلم كالمجنون ، وكان يبدو كالمجنون كنت خائفة ، كنت أخشى أن أتحرك ، وهو يسدّ الممر قال « هل قلت لها ؟ » وقلت له « قلت لمن ؟ قلت ماذا لمن ؟ » ثم أدركت أنه كان يعنيك ؛ كان يريد أن يعرف ان كنت قد أخبرتك أنه حاول أن ينبئني بشيء عن الطفل ولكني لم أكن أعرف ما كان يريد مني أن أقوله لك وأردت أن أصرخ ثم قال « ما الذي ستفعله لو اكتشفت

www.ibtesama.com/vb

الحقيقة ؟ » ولم أعرف ما أقوله أو كيف أهرب منه ، ثم قلت « ليس عليك أن تخبرني أعرف ما ستفعله ستُرسله إلى دار للزنوج »

— للزنوج ؟

— لا أعرف كيف أننا لم نستطع رؤية ذلك طوال الوقت يمكنك أن تنظري الآن إلى وجهه وعينيه وشعره طبعاً الأمر رهيب ولكن عليه أن يذهب إلى هناك على ما أفترض

خلف نظارتيها كانت للعينين الضعيفتين المضطربتين للرئيسة نظرة منهكة هلامية ، وكأنها تحاول اجبارهما على شيء ما يتجاوز تماسكها المادي

— ولكن لماذا أراد أن يبعد الطفل ؟

— حسناً اذا كنت تريدين أن تعرفي ما أظنه ، فأنا أظنه مجنوناً لو أنك رأيته فحسب في الممّر تلك الليل ذلك اليوم كما رأيته أنا طبعاً سيكون صعباً على ذلك الطفل أن يذهب إلى دار أيتام الزنوج بعد هذا بعد أن تربي مع البيض .ليس الذنب ذنبه أن يكون على ما هو عليه وليس الذنب ذنبنا نحن أيضاً

توقفت عن الكلام وهي تراقب الرئيسة خلف النظارتين كانت عينا المرأة الأكبر سناً لا تزالان منهكتين ، ضعيفتين ويائستين كما كان فمها يرتجف وهي تشكّل الكلام به كانت كلماتها يائسة أيضاً ، ولكنها كانت حاسمة بما فيه الكفاية ، وذات تصميم أيضاً

www.ibtesama.com/vb

ـ علينا أن نضبعه في مكان ما علينا أن نفعل ذلك فوزاً ما الطلبات التي لدينا ؟ هل لك أن تعطيني الملف

حين استيقظ الطفل كان محمولاً كان الظلام شديداً والجو بارداً ؛ وقد حُمِل إلى الطابق الأرضي من قبل شخص ما كان يتحرك بصمت وبعناية شديدين وكان مضغوطاً بينه وبين احدى الذراعين اللتين كانتا تحملانه رزمة عرف أنها ثيابه لم يصدر أية صرخة احتجاج ، أو صوت كان يعرف أين كان بالرائحة والهواء الخاصين بالدرج الخلفي المؤدي إلى الباب الجانبي من الغرفة التي كان سريره فيها بين أربعين سريراً آخر منذ بداية ذاكرته كان يعرف أيضاً بالرائحة أن الشخص الذي كان يحمله رجل ولكنه لم يصدر أي صوت ، بل قبع ساكناً ومسترخياً كأنه نائم ، راكباً على الذراعين غير المرئيين ، متحركاً ، نازلاً ببطء نحو الباب الجانبي المؤدي إلى الملعب

لم يكن يعرف حامله لم يكترث بذلك لأنه كان يعتقد أنه يعرف أين هو ذاهب أو لماذا ، هذا هو الصحيح لم يكن يكترث إلى أي مكان سيذهب أيضاً ، حتى الآن حدث ذلك منذ سنتين ، حين كان في الثالثة من عمره في أحد الأيام فقدت من بينهم فتاة في الثانية عشرة كان اسمها « أليس » كان قد أحبها إلى حد سمح لها معه بأن تعامله كأم قليلاً ؛ ربما بسبب ذلك لقد كانت بالنسبة إليه اذن ناضجة وكبيرة في الحجم تقريباً كالنساء الراشدات اللواتي كن يأمرن بإطعامه وتغسيله ونومه ، مع فرق أنها لم تكن ولن تكون عدوة له وفي احدى الليالي ايقظته كانت تودعه ولكنه لم يدرك

www.ibtesama.com/vb

ذلك. كان يشعر بالنعاس وبالضيق قليلاً ، ولم يستيقظ تماماً ، ولكنه تحملها لأنها تحاول دائماً أن تكون طيبة معه. لم يعرف أنها كانت تبكي لأنه لم يكن يعرف أن الكبار يبكون ، وما أن عرف ذلك ، حتى كانت الذاكرة قد نسيتها. عاد إلى النوم وهو لا يزال يتحملها ، وفي اليوم التالي كانت قد رحلت. اختفتْ ، لم يبق منها أي أثر ، ولا حتى ثوب واحد ، بل ان السرير الذي كانت تنام فيه كان قد سبق له واحتلّ من قبل ولد جديد. لم يعرف أبداً أين رحلت. وفي ذلك اليوم راح يصغي بينما كان عدد من الفتيات الأكبر سناً اللواتي ساعدنها على تحضير أغراضها للرحيل بذلك الصفير المقموع الغامض نفسه الذي كانت تحكي به نصف دزينة من الفتيات الصغيرات ساعدن الفتاة السابعة على تحضير نفسها للزواج ، يحكين عن الثوب الجديد والحذاء والعربة التي مضت بها ، ولا زالت أنفاسهن مبهورة بعد. كان يعرف آنئذ أنها ذهبت دون عودة ، قد تجاوزت البوابات الحديدية ضمن الحاجز الفولاذي. بدا وكأنه يراها آنذاك ، وقد أصبحت بأبعاد بطولية في لحظة الاختفاء خلف البوابات المصفّقة تخبو دون أن تصغر في الحجم متحولة إلى شيء لا اسم له ورائع ، كمنظر الغروب. كان ذلك منذ أكثر من سنة قبل أن يعرف أنها لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة ، وأنه سيكون هناك أكثر من « أليس » واحدة تختفي خلف البوابات المصفقة ، في ثوب جديد أو أوفرول جديد ، مع رزمة صغيرة أنيقة أقل حجماً دائماً من علبة حذاء. ظنّ أن هذا هو ما كان يحدث له الآن. وظنّ أنه عرف الآن كيف كنّ يختفين دون أن يتركن أي أثر خلفهن. ظن

www.ibtesama.com/vb

أنهن كنّ يحملن خارجاً ، كما يحمل هو الآن ، في جوف الليل البهيم

كان قادراً الآن على أن يشعر بالباب كان قريباً جداً الآن عرف بالعدد الصحيح كم درجة غير مرئية قد تبقّت وسيكون على الرجل الذي يحمله أن ينزلها بكل تلك العناية اللانهائية والصامتة خده كان قادراً على أن يشعر بالذراعين المتوترتين الصلبتين ، والرزمة التي كان يعرف أن ملابسه فيها بعد أن التقطت في الظلمة بالتلمس. توقف الرجل وحين توقف تأرجحت قدما الطفل ولمستا الأرض ، وأصابع قدميه تتقوّس مبتعدة عن الألواح الباردة كالحديد نطق الرجل لأول مرة « قف » عندها عرف الطفل من يكون ———

ميّز الرجل فوراً ، دون دهشة كان من شأن الدهشة أن تصيب الرئيسة لو عرفت إلى أي حد كان هو على معرفة بالرجل لم يكن يعرف اسم الرجل ، وفي السنوات الثلاث منذ أن أصبح مخلوقاً واعياً ، لم يتبادلا مئة كلمة ولكن الرجل كان أكثر وضوحاً من أي شخص آخر في حياته ، دون أن نستثني الفتاة « أليس » حتى حين كان في الثالثة من عمره كان الطفل يعرف أن هناك شيئاً بينهما لا حاجة إلى النطق به كان يعرف أنه لم يسبق له أن كان في الملعب للحظة ولم يكن الرجل هناك يراقبه من الكرسي عند مدخل غرفة الفرن ، وأن الرجل يراقبه باهتمام عميق متزايد لو كان الطفل أكبر لفكّر ربما **إنه يكرهني ويخشاني ، إلى حد أنه لا يستطيع إبقائي بعيداً عن نظره** ومع مفردات أوسع وبالسن نفسها كان من الممكن أن يفكر كما يلي **هذا أنا مختلف عن الآخرين لأنه يراقبني**

www.ibtesama.com/vb

طول الوقت وقد قبِل ذلك لذا لم يدهش حين اكتشف من كان ذاك الذي أخذه وهو نائم من سريره وحمله إلى الطابق السفلي ؛ وبينما كان يقف قرب الباب في العتمة الحالكة والرجل يساعده على ارتداء ملابسه ، ربما فكّر إنه يكرهني بما فيه الكفاية ليحاول أن يمنع شيئاً عليّ وشك أن يحدث لي من أن يحصل

ارتدى ملابسه بطاعة ، مرتجفاً ، بأسرع ما يستطيع ، وكلاهما يتلمس الملابس الصغيرة ، ويلبسانه اياها بطريقة ما قال الرجل « حذاؤك » بهمسة مختصرة « هنا » جلس الطفل على الأرض الباردة ، وارتدى حذاءه لم يكن الرجل يلمسه الآن ، ولكن الطفل استطاع أن يسمع ويشعر بأن الرجل توقف أيضاً وشغله بشيء ما فكّر « هو أيضاً يرتدي حذاءه » لمسه الرجل مرة أخرى ، متلمساً ، رافعاً اياه ليقف على قدميه لم يكن حذاؤه مربوطاً لم يكن قد تعلّم أن يفعل ذلك بنفسه بعد لم يقل للرجل انه لم يربط حذاءه لم يصدر عنه أي صوت اطلاقاً بل وقف هناك ثم أحاق به ثوب أكبر تماماً — ومن رائحته عرف أنه يخص الرجل — ثم رُفِع مرة أخرى فتح الباب ، تثاءب نحو الداخل اندفع الهواء البارد المنعش ، ونور من المصابيح على امتداد الشارع ؛ استطاع أن يرى الأنوار وجدران المعمل البيضاء والمداخن العالية غير المدخنة قبالة النجوم وقبالة أنوار الشارع كان الحاجز الفولاذي كاستعراض لجنود مجوّعين وحين عبرا الملعب الفارغ كانت قدماه المدلاّتان تتأرجحان ايقاعياً مع مشية الرجل ، والحذاء غير المربوط يصطفق بكاحليه وصلا البوابة الحديدية ومرّا عبرها

www.ibtesama.com/vb

لم يضطرا إلى الانتظار طويلاً حتى وصول الترام لو كان أكبر سناً لاستطاع أن يلاحظ إلى أي حد كان الرجل قد وقّت مواعيده ولكنه لم يستغرب ولم يلاحظ بل وقف على الزاوية قرب الرجل ، بالحذاء غير المربوط ، مطوقاً حتى الكاحلين بمعطف الرجل ، عيناه مستديرتان وواسعتان ، ووجهه الصغير هادىء ومستيقظ وصل الترام ، صف النوافذ يرتجّ حتى يتوقف ويطنّ وهما يستقلانه كان فارغاً تقريباً ، حيث الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً والآن لاحظ الرجل الحذاء غير المربوط فربطه ، والطفل يراقب هادئاً تماماً على المقعد ، وساقاه ممدودتان باستقامة أمامه كانت المحطة بعيدة وكان قد ركب الترام سابقاً ، لذا كان قد نام حين وصلا المحطة وحين استيقظ كان النهار قد طلع وكانا على القطار منذ فترة لم يكن قد ركب القطار سابقاً ، ولكن لم يكن هناك من يستطيع معرفة ذلك جلس هادئاً تماماً ، كما في الترام ، مطوقاً تماماً في معطف الرجل باستثناء ساقيه الممدودتين ورأسه ، مراقباً الريف — جبال وأشجار وبقرات وما شابه — الذي لم يسبق له أن رآه من قبل ، وهو يمرّ أمامه وحين رأى الرجل أنه كان مستيقظاً أخرج طعاماً من مزقة جريدة كان ذلك خبزاً وفيه لحم فخذ الخنزير قال الرجل « خذ » أخذ الطعام وأكل ، وهو ينظر إلى خارج النافذة

لم يقل كلمة واحدة ، ولم يبد أية دهشة ، ولا حتى حين وصلت الشرطة في اليوم الثالث وأمسكت به وبالرجل كان المكان الذي هما فيه الآن لا يختلف عن ذاك الذي غادراه في الليل الأطفال أنفسهم ، وان تكن لهم أسماء مختلفة ؛ والكبار أنفسهم ، وان تكن

www.ibtesama.com/vb

لهم روائح مختلفة لم ير أي سبب يدعو إلى مغادرة الدار الأولى ولكنه لم يكن مندهشاً حين وصلوا وطلبوا منه مرة أخرى أن ينهض ويرتدي ملابسه دون أن يقولوا له لماذا أو إلى أين كان ذاهباً الآن ربما كان يعرف أنه عائد ؛ وربما عرف ببصيرة الطفل طوال الوقت أن الرجل لن يعود وأن ذلك لن يدوم ولا يمكن أن يدوم وفي القطار مرة أخرى رأى الجبال نفسها والأشجار نفسها والبقرات نفسها ، ولكن من جانب آخر ، واتجاه آخر أعطاه الشرطي طعاماً كان خبزاً فيه لحم فخذ الخنزير ، رغم أنه لم يخرجه من مزقة جريدة لقد لاحظ ذلك ولكنه لم يقل شيئاً وربما لم يفكر بشيء

ثم عاد إلى الدار مجدداً ربما توقع أن يعاقب لدى عودته ، ولكن لماذا ، ولأية جريمة بالذات لم يكن يتوقع أن يعرف ، حيث أنه سبق له وعرف أنه ، رغم أن الأطفال يستطيعون قبول الكبار ككبار ، الا أن الكبار لا يستطيعون أبداً قبول الأطفال الا ككبار أيضاً ولا شيء آخر كان قد سبق له ونسي حكاية معجون الأسنان كان يتجنب المسؤولة عن التغذية الآن كما كان يضع نفسه في طريقها منذ شهر مضى كان مشغولاً جداً يتجنبها إلى درجة أنه نسي منذ زمن طويل سبب ذلك ؛ وسرعان ما كان قد نسي الرحلة أيضاً ، حيث لم يعرف أبداً أنه كانت هناك علاقة بين المسألتين بين الحين والآخر كان يفكر فيها ، على نحو ضبابي وغامض ولكن كان ذلك لا يحدث الا حين ينظر نحو الباب المؤدي إلى غرفة الفرن ويتذكر الرجل الذي اعتاد أن يجلس هناك ويراقبه ، والذي كان قد رحل الآن ، نهائياً ، دون أن يترك أي أثر ، ولا حتى الكرسي في المدخل ، وفقاً للأسلوب

www.ibtesama.com/vb

الذي غادر به كل من غادر هذا المكان أين ذهب يا ترى ؟ لم يفكر الطفل في ذلك ولا تساءل حتى

في احدى الأمسيات دخلوا إلى غرفة الصف وأخرجوه كان ذلك قبل عيد الميلاد بأسبوعين أخذته امرأتان شاباتان — لم تكن المسؤولة عن التغذية واحدة منهما — إلى الحمام وغسلتاه ومشطتا له شعره المبلل وألبستاه أوفرولاً نظيفاً وأوصلتاه إلى مكتب الرئيسة في المكتب كان يجلس رجل ، شخص غريب وقد نظر إلى الرجل وعرف حتى قبل أن تنطق الرئيسة ربما للذاكرة تعرف ، والمعرفة تبدأ بالتذكر ، بل ربما حتى الرغبة ، فخمس سنوات سن صغيرة جداً ليتعلم ما فيه الكفاية من اليأس حتى يأمل ربما تذكر فجأة رحلة القطار والطعام ، حيث أنه حتى الذاكرة لم ترجع أكثر من ذلك قالت الرئيسة « يا جوزيف ، ما رأيك لو تذهب لتعيش مع أناس طيبين في الريف ؟ »

وقف هناك وقد اصطبغت أذناه ووجهه باللون الأحمر وراحت تحرقه من الفرك الشديد بالصابون والمنشفة وقف في أوفروله الجديد الخشن ، مصغياً إلى الرجل الغريب لقد نظر مرة واحدة ورأى رجلاً مكتنزاً له لحية بنية اللون قصيرة ، وشعره مقصوص وقصير رغم أنه لم يجر قصه منذ فترة وجيزة كان لكل من الشعر واللحية صفة قاسية توحي بالقوة ، غير رمادية ، كأنما كان الصبغ منيعاً على السنوات الأربعين ونيف التي كان الوجه يفصح عنها كان للعينين لون فاتح ، بارد وكان يرتدي بذلة ذات لون أسود صارم ومحتشم وعلى ركبته كانت تقبع قبعة سوداء تمسكها يد نظيفة فظة مغلقة ،

www.ibtesama.com/vb

حتّى على اللباد الطري للقبعة ، على شكل قبضة عبر صدرته كانت ساعة فضية ذات سلسلة ثقيلة وكان حذاؤه الأسود الثقيل مزروعاً الفردة إلى جانب الأخرى ؛ كان ملمّعاً باليد حتى ابن الخمس سنوات ، الناظر إليه ، عرف أنه لا يدخّن وأنه لا يحتمل تدخين الآخرين ولكنه لم ينظر إلى الرجل بسبب عينيه

استطاع أن يشعر بأن الرجل ينظر إليه رغم ذلك ؛ بتحديقة باردة ومصمّمة وان لم تكن قاسية على نحو متعمد كانت تلك هي التحديقة نفسها التي يمكن له أن يتفحص بها حصاناً أو محراثاً مستعملاً ، مقتنعاً أنه سيرى عيوباً ، ومقتنعاً سلفاً أنه سيشتري لابدّ كان صوته متعمداً ، متقطعاً ، مملاً صوت رجل يطالب بأن يصغي إليه ليس باهتمام بل بصمت « وأنت إمّا لا تستطيعين أو لن تقولي لي أي شيء آخر عن نسبه »

لم تنظر الرئيسة إليه خلف نظارتيها ترجرجت عيناها على نحو واضح ، مؤقتاً على الأقل قالت على الفور ، أو على الفور جداً تقريباً « لا نقوم بأي جهد للتأكد من نسبهم وكما قلت لك من قبل ، فقد تُرك هنا على الدرج ليلة عيد الميلاد ، أي بعد أسبوعين من الآن سيكون قد مرّ على ذلك خمس سنوات تماماً وإذا كان نسب الطفل هاماً بالنسبة إليك ، فالأجدر بك ألا تتبنّى أي طفل اطلاقاً »

قال الغريب

« كنت أعني ذلك بالضبط

www.ibtesama.com/vb

كانت لهجته أكثر استرضاء بقليل الآن حاول فوراً أن يعتذر دون أن يتخلى عن ذرة واحدة من قناعته

- كنت أفكر في التحادث مع الآنسة آتكينز (كان هذا اسم المسؤولة من التغذية) ، حيث كنت أتراسل معها.

ومن جديد كان صوت الرئيسة بارداً ومباشراً ، وقد نطقت قبل أن ينهي كلامه تقريباً

- يمكنني ربما اعطاؤك من المعلومات ما تستطيعه الآنسة آتكينز حول هذا الطفل أو أي طفل آخر من أطفالنا ، حيث أن علاقتها الرسمية هنا تتعلق بغرفة الطعام والمطبخ فقط ولكن حدث فحسب أنها تكرمت في هذه الحالة وعملت كسكرتيرة في مراسلاتنا معك

قال الغريب

- لا أهمية لذلك لا أهمية لذلك كنت أظن فحسب

- تظن ماذا ؟ نحن لا نجبر أحداً على أخذ أطفالنا ، ولا نجبر أطفالنا على الذهاب ضد ارادتهم ، ان كانت لهم أسبابهم معقولة هذه مسألة يقررها الطرفان بينهما ونحن نقدم النصح فحسب

قال الغريب

- أجل لا أهمية لذلك ، كما قلت لك للتو لا شك عندي أن الطفل مناسب سيجد بيتاً صالحاً له مع السيدة ماك ايتشيرن ومعي لسنا شباباً الآن ، ونحن نحب الهدوء وهو لن يجد طعاماً فاخراً ولا تبطلا كما أنه لن يعمل أكثر مما هو مناسب له لاشك

www.ibtesama.com/vb

عندي أنه سيربي ابدينا على خشية الرب وكره الكسل والتبطّل والغرور رغم منشئه

وهكذا فان الكمبيالة التي وقعها بأنبوب معجون الأسنان في عصر ذلك اليوم قبل شهرين من الآن قد تم استرادادها ، والمنفّذ غير الواعي لها جالس وقد لُفّ في بطانية حصان نظيفة ، صغيراً ، لا شكل له ، دون حراك ، على مقعد عربة خفيفة يرتجّ عبر غسق كانون الأول على امتداد طريق متجمّد ذي أخاديد كانا قد سافرا طوال النهار عند الظهيرة أطعمه الرجل ، اذ أخرج من تحت المقعد علبة من الورق المقوى تحوي طعاماً ريفياً مطبوخاً قبل ثلاثة أيام ولكن الرجل لم يحادثه سوى الآن نطق بكلمة واحدة ، مشيراً إلى الطريق أمامه بقبضة مغلفة بقفاز تمسك بالسوط ، نحو نور منفرد كان ظاهراً في ظلمة أول الليل . قال « البيت » لم يقل الطفل شيئاً نظر الرجل إليه كان الرجل محزّماً أيضاً ضد البرد ، سميناً ، ضخماً ، لا شكل له ، أشبه بصخرة نوعاً ما ، لا يقهر ، ليس غير لطيف إلى ذلك الحد بقدر ما هو قاس لا يرحم « قلت ذاك هو بيتك » ومع ذلك فالطفل لم يجب لم يكن قد رأى بيتاً طوال حياته ، لذا لم يكن لديه ما يقوله عنه ولم يكن كبيراً إلى حد يتكلم معه ويقول لا شيء في الوقت نفسه قال الرجل « ستجد الطعام والمأوى واهتمام أشخاص مسيحيين عن حق ، والعمل الذي يلائم قدراتك والذي سيحفظك من الأذى سأجعلك تتعلم سريعاً أن الرذيلتين هما الكسل والتفكير المتبطّل ، والفضيلتان هما العمل وخشية الرب » ولكن الطفل لم يقل شيئاً بعد . فلم يسبق له أن عمل ولا خشي الله

www.ibtesama.com/vb

كان يعرف عن الرب أقل مما يعرفه عن العمل لقد رأى العمل يستمر على هيئة رجال بمد مّات ومجارف في الملعب ستة أيام في الأسبوع ، ولكن الرب كان يحدث يوم الأحد فقط . وثم ــ باستثناء محنة النظافة المرافقة لذلك ــ كانت الموسيقى هي التي تسرّ الأذن والكلمات لا تزعج الأذن اطلاقاً ــ واجمالاً كان الأمر ممتعاً وإن كان متعباً قليلاً . لم يقل شيئاً على الاطلاق توقفت العربة ، وزوج الجياد الضخم المعتنى به متاهف راغب في أن يأوي إلى البيت والحظيرة

لم يكن هناك أي شيء آخر لم يكن ليتذكره لاحقاً حين لم تعد الذاكرة تقبل وجهه ، بل تقبل سطح التذكر كانا في مكتب الرئيسة هو واقف دون حراك ، دون أن ينظر إلى عيني الرجل الغريب الذي كان يشعر أنهما منصبتان عليه ، منتظراً من الغريب أن يقول ما كانت تفكر به عيناه ثم سمع الصوت يقول « كريسماس هذا اسم وثني انه تدنيس للمقدسات سأغيّره »

قالت الرئيسة

ــ هذا هو حقك الشرعي لسنا مهتمين بأسمائهم بل كيف يعاملون

ولكن الغريب لم يكن يصغي إلى أي أحد ولا يتحدث إلى أي أحد

ــ من الآن فصاعداً سيكون اسمه ماك ايتشيرن

قالت الرئيسة

ــ سيكون هذا مناسباً أن تعطيه اسمك

www.ibtesama.com/vb

– سيأكل من خبزي وسيتبع ديني فلماذا لا يحمل اسمي ؟

لم يكن الطفل يصغي لم يكترث لم يكترث على نحو خاص ، كأنما كان الرجل يقول ان الطقس حار وهو ليس حاراً بل لم يكترث فيقول لنفسه اسمي ليس ماك إيتشيرن اسمي كريسماس لم يكن هناك داع إلى أن يكترث بذلك بعد كان لا يزال هناك متسع من الوقت

قالت الرئيسة

– لم لا بالفعل ؟

* * *

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

الفصل السابع

والذاكرة تعرف هذا ؛ بعد عشرين عاماً لا زالت الذاكرة تعتقد هذا اليوم أصبحت رجلاً

كانت الغرفة النظيفة البسيطة البعيدة عن الترف عابقة برائحة يوم الأحد في النوافذ. كانت الستائر النظيفة المرفوّة تتحرك على نحو لطيف من نسيم يحمل رائحة الأرض المحروثة والتفاح البري على الأرغن المزماري الصغير الزائف الأصفر اللون من خشب السنديان مع دواساته المغطاة بقطع من سجادة منسلّة الخيوط ومهترئة كان طبق فاكهة ممتلىء بنبات العايق جلس الولد في كرسي مستقيم الظهر قرب الطاولة التي كان فوقها مصباح مطلي بالنيكل وكتاب مقدّس ضخم الحجم ذو مشبك نحاسي ومفاصل وقفل نحاسي كان يرتدي قميصاً أبيض نظيفاً دون ياقة بنطاله كان داكن اللون ، خشناً وجديداً أما حذاؤه فكان قد طلي مؤخراً على نحو عاجل ، كما قد يطليه صبي في الثامنة مع بقع غير لامعة هنا وهناك ، خاصة عند الكاحلين ، حيث كان الطلاء غير ملائم على الطاولة ، وبمواجهته كان كتاب تعليم الديانة في قالب السؤال والجواب على المذهب البروتستانتي المشيخي ، وكان الكتاب مفتوحاً

www.ibtesama.com/vb

وقف ماك إيتشيرن قرب الطاولة كان يرتدي قميصاً لامعاً نظيفاً ، والبنطال الأسود نفسه الذي رآه فيه الصبي أول مرة كان شعره الرطب الذي لم يخطه الشيب بعد ، قد مشّط جيداً وعلى نحو كثيف فوق جمجمته المستديرة كما كانت لحيته ممشطة هي أيضاً ولا تزال رطبة كذلك قال :

– لم تحاول أن تحفظه

لم يرفع الصبي نظره لم يتحرك ولكن وجه الرجل لم يتحجّر أكثر

– لقد حاولت فعلاً .

– اذن حاول مرة أخرى سأمنحك ساعة أخرى

ومن جيبه أخرج ماك إيتشيرن ساعة فضية ضخمة ووضعها ووجهها إلى الأعلى على الطاولة وسحب كرسياً ثانياً قاسياً ذا ظهر مستقيم نحو الطاولة وجلس ، ويداه النظيفتان المغسولتان على ركبتيه ، وحذاؤه الثقيل اللامع في وضع مستقيم لم يكن عليه أي بقع حية حيث لم يكن هناك طلاء غير ملائم. كانت هناك بقع عليه في الليلة الماضية وقت العشاء. وفيما بعد تلقى الصبي بعد أن خلع ملابسه لينام في قميصه، جلداً بالسوط ، ثم لمّع الحذاء مرة أخرى جلس الصبي إلى الطاولة. كان وجهه مطأطئاً ، هادئاً ، دون تعبير وفي الغرفة الكئيبة النظيفة كان الهواء المترع بروائح الربيع يهب هبات خفيفة

كانت الساعة هي التاسعة وهما هناك منذ الثامنة إلى القرب من المنزل كانت بعض الكنائس ، ولكن الكنيسة البروتستانتية كانت بعيدة

www.ibtesama.com/vb

مسافة أميال خمسة ، وكانت الطريق إليها تستغرق ساعة كاملة بالعربة في التاسعة والنصف دخلت السيدة ماك إيتشيرن وهي ترتدي كامل ملابس الخروج ذات اللون الأسود ، وعلى رأسها قلنسوة نسائية امرأة ضئيلة الحجم ، تدخل بخجل ، بظهر مقوس قليلاً ووجه مرهق كانت تبدو أكبر بخمسة عشر عاماً من زوجها الحيوي قويّ البنية لم تدخل تماماً إلى الغرفة بل وقفت في الباب للحظة ، في قلنسوتها وثوبها الأسود الصدىء الذي تم تنظيفه كثيراً بالفرشاة ، تحمل مظلة ومروحة على شكل سعفة نخيل ، كان في عينيها شيء ما عجيب ، كأنما كان كل ما تراه أو تسمعه يتم سماعه ورؤيته عبر شكل انساني أكثر مباشرة أو صوت انساني أكثر مباشرة ، كأنها كانت الوسيط وكان زوجها الحيوي عديم الشفقة هو الموجة ربما كان قد سمعها ولكنه لم يرفع نظره ولا تكلّم التفتت وابتعدت

وحين مرت ساعة كاملة تماماً رفع ماك إيتشيرن رأسه قال

— هل حفظته الآن ؟

لم يتحرك الصبي قال

— لا

نهض ماك إيتشيرن ببطء متعمَّد دون سرعة رفع الساعة وأغلق غطاءها وأعادها إلى جيبه ، معلقاً السلسلة مرة أخرى بحمالة بنطاله قال « تعال » لم ينظر إلى الخلف لحق به الصبي ، مرّا بالبهو نحو مؤخرة المنزل كان هو يمشي أيضاً منتصباً وفي صمت ، ورأسه مرفوعة إلى الأعلى ، كانت هناك قرابة بينهما في العناد كأنه تشابه موروث في ظهريهما كانت السيدة ماك إيتشيرن في المطبخ

www.ibtesama.com/vb

كانت لا تزال ترتدي تلك القبعة وتحمل تلك المظلة والمروحة كانت تراقب الباب حين مرّا به قالت « يا بابا » لم ينظر أي منهم إلاّ بالكاد إليها . ربما لم يسمعا ، وقد لا تكون قد نطقت قط تابعا السير ، في صف فردي ثابت ، والظهران في نفيهما الصلب لكل الحلول الوسط ، أكثر تشابهاً من قريبين تربط بينهما صلة الدم عبرا الباحة الخلفية وذهبا نحو الاصطبل ودخلاه فتحت السيدة ماك إيتشيرن باب الزريبة ووقفت جانباً دخل الصبي الزريبة تناول ماك إيتشيرن من الجدار سوط جياد لم يكن جديداً ولا قديماً ، كحذائه . كان نظيفاً كالحذاء وله رائحة الرجل نفسها رائحة الجلد الحيّ النظيف القاسي الرجولي نظر إلى الصبي من عل..

قال

– أين الكتاب ؟

وقف الصبي أمامه ، ساكناً ، بوجه هادىء وشاحب قليلاً تحت البشرة الناعمة ذات اللون الأشبه بلون الرق الجلدي

قال ماك إيتشيرن

– لم تحضره عد وأحضره .

لم يكن صوته غير لطيف لم يكن انسانياً أو ذاتياً على الاطلاق . بل كان مجرد صوت بارد لا يعرف الصفح ، ككلمات منسوخة أو مطبوعة استدار الصبي وخرج

حين وصل إلى المنزل كانت السيدة ماك إيتشيرن في القاعة نادت : « يا جو » لم يجبها لم ينظر إليها ، ولا إلى وجهها ، إلى

www.ibtesama.com/vb

الحركة المتصلبة ليد واحدة نصف مرفوعة في كاريكاتير متصلّب لأنعم حركة يمكن ليد بشرية أن تقوم بها سار بتصلّب ماراً بها ، بوجه صارم بالكبرياء ، وربما باليأس أو ربما كان الغرور ، الغرور الغبي الرجولي أخذ كتاب تعاليم الديانة من على الطاولة وعاد إلى الاصطبل

كان ماك إيتشيرن في انتظاره ، ممسكاً بالسوط قال

– ضع الكتاب من يدك

وضع الصبي الكتاب على الأرض

قال ماك إيتشيرن دون غضب

– ليس هناك هل تعتقد أن أرض الاصطبل ، مكان دوس الدواب ، هو المكان المناسب لكلمة الرب ؟ ولكني سأعلمك ذلك أيضاً

أخذ الكتاب ووضعه على افريز قال

– أنزل بنطالك لن نوسّخه

ثم وقف الصبي ، بنطاله منزل حتّى قدميه ، وساقاه مكشوفتان تحت القميص القصير وقف ، نحيلاً ومنتصباً. وحين نزل عليه السوط لم يجفل ، لم تعبر وجهه رجفة واحدة كان ينظر مباشرة نحو الأمام بتعبير منتش هادىء كراهب في لوحة بدأ ماك إيتشيرن يضرب بانتظام ، بقوة بطيئة ومتعمدة ، دون غضب أو ثورة بعد وربما كان من الصعب أن نحزر أي الوجهين كان الأكثر نشوة والأكثر هدوءاً والأكثر قناعة

www.ibtesama.com/vb

ضرب عشر مرات ثم توقف . قال

ـ خذ الكتاب اترك بنطالك حيث هو

سلّم الكتاب إلى الصبي أخذه منه الصبي . وقف على تلك الحالة ، منتصباً ، وجهه والكتاب مرفوعان ، ووضعه ينبىء بالجذل وباستثناء المدرعة (التي يرتديها الكاهن) كان يمكن له أن يبدو كصبي كورس كاثوليكي ، وصحن الكنيسة هو الزريبة المعتمة ذات الظلال ، والجدار الخشن ذو الألواح الخشبية والذي كانت وراءه الدواب تتحرك بين الحين والآخر في العتمة ذات الروائح النشادرية والجافة ، بصهيل وضربات تدل على الكسل انحنى ماك إيتشيرن بتصلّب نحو أعلى المعلف ، بركبتين منفرجتين يد واحدة على ركبته والساعة الفضية في الكف الأخرى ، ووجهه النظيف الملتحي حازم كحجر منجوت ، وعيناه قاسيتان ، باردتان ولكن ليستا غير لطيفتين

بقيا هكذا مدة ساعة أخرى وقبل أن تنتهي الساعة وصلت السيدة ماك إيتشيرن إلى الباب الخلفي للمنزل ولكنها لم تنطق بل وقفت هناك ، ناظرة إلى الاصطبل ، في القبعة والمظلة والمروحة ثم عادت فدخلت المنزل

ومن جديد وحين مرت ساعة كاملة بالضبط ، بالثانية ، أعاد ماك إيتشيرن الساعة إلى جيبه قال

ـ هل حفظته الآن

لم يجب الصبي ، بل ظل منتصباً ، ممسكاً بالكتاب المفتوح أمام وجهه أخذ ماك إيتشيرن الكتاب من بين يدي الصبي . من ناحية أخرى لم يتحرك الصبي اطلاقاً قال ماك إيتشيرن

www.ibtesama.com/vb

— كرّر درس الديانة

جدّق الصبي إلى الجدار الذي أمامه مباشرة كان وجهه الآن أبيض تماماً رغم الشحوب الناعم الصارخ لبشرته وبحرص وتعمّد وضع ماك إيتشيرن الكتاب على الافريز وتناول السوط ضرب عشر مرات وحين انتهى ، وقف الصبي للحظة أخرى دون حراك . لم يكن قد تناول افطاره بعد ؛ لم يكن أي منهما قد تناول افطاره بعد ثم ترنّح الصبي وكاد يسقط اولا أن الرجل أمسك بذراعه وأسنده قال ماك إيتشيرن وهو يحاول أن يقوده نحو المعلف

— تعال اجلس هنا

قال الصبي

— لا

بدأت ذراعه تهتزّ في قبضة الرجل حرّره ماك إيتشيرن .

— هل أنت على ما يرام ؟ هل تشعر بالدوخة ؟

قال الصبي

— لا

كان صوته ضعيفاً ووجهه أبيض تماماً

قال ماك إيتشيرن وهو يضع الكتاب في يد الصبي

— خذ الكتاب

ظهرت السيدة ماك إيتشيرن عبر نافذة الزريبة ، خارجة من المنزل كانت ترتدي الآن ثوباً نسائياً فضفاضاً باهت اللون وقبعة شمسية ، وكانت تحمل دلواً من خشب الأرز عبرت النافذة دون أن تنظر نحو الزريبة ، ثم اختفت وبعد فترة وصلهما الصرير البطيء لبكرة البئر ،

www.ibtesama.com/vb

قادما إليهما بخاصية مسالمة ومذهلة عبر هواء يوم الأحد ثم ظهرت مرة أخرى في النافذة ، وجسدها متوازن الآن مع وزن الدلو في يدها ، ثم عادت لتدخل المنزل دون أن تنظر نحو الاصطبل .

ومرة أخرى ، وحين أعلن عقربا الساعة مرور ساعة كاملة أخرى رفع ماك إيتشيرن نظره عن الساعة قال

— هل حفظته ؟

لم يجب الصبي ، ولم يتحرك وحين اقترب ماك إيتشيرن رأى أن الصبي لم يكن ينظر إلى الصفحة اطلاقاً ، وكانت عيناه مثبتتين تماماً وفارغتين تماماً وحين وضع يده على الكتاب وجد أن الصبي كان يتشبث به وكأنه حبل أو عمود . وحين انتزع ماك إيتشيرن الكتاب بالقوة من يديه سقط الصبي على طوله على الأرض ولم يتحرك بعدها

حين صحا كان الوقت عصراً وجد نفسه في سريره في غرفة العليّة بسقفها المنحدر كانت الغرفة هادئة ممتلئة مسبقاً بنور الشفق أحس بأنه على ما يرام ، وتمدد لبعض الوقت ناظراً بهدوء إلى السقف المنحدر فوق رأسه ، قبل أن يصبح واعياً بوجود شخص ما جالس قرب السرير كان ذلك هو ماك إيتشيرن . كان يرتدي الآن ملابسه اليومية المعتادة

— ليس الأفرول الذي يذهب به إلى الحقل — بل قميصاً نظيفاً باهتاً دون قبة ، وبنطالاً خاكي اللون نظيفاً حال لونه قال

— أنت مستيقظ

تحركت يده ورفعت الغطاء قال

www.ibtesama.com/vb

— تعال

لم يتحرك الصبي قال

— هل ستضربني بالسوط مرة أخرى ؟

قال ماك إيتشيرن

— تعال انهض

نهض الصبي من السرير ووقف ،نحيلاً في ملابس داخلية قطنية غير متقنة الصنع كان ماك إيتشيرن يتحرك أيضاً،بخشونة، بحركات خرقاء دون مرونة ، كأنما بجهد جهيد ورأى الصبي ، وهو يراقب باهتمام عديم الاندهاش وطفولي الرجل يركع ببطء وتثاقل قرب السرير وقال ماك إيتشيرن

— اركع

ركع الصبي. ركعا كلاهما في الغرفة الضيقة المضاءة بنور الشفق: الجسم الصغير في ملابس داخلية قصيرة ، والرجل القاسي الذي لم يعرف الشفقة ولا الشك قط بدأ ماك إيتشيرن يصلّي صلّى فترة طويلة ، بصوت كسول مخدر ، رتيب طلب المغفرة لانتهاكه حرمة يوم الأحد ولرفعه يده على طفل يتيم عزيز على الرب وطلب من الرب أن يخفّف من عناد الطفل وأن يغفر له خطيئة العصيان أيضاً ، عبر تأييد الرجل الذي هزىء به وعصى أمره ، طالباً أن يكون الرب كليّ القدرة رحب الصدر شأنه هو، وذلك بواسطة ومن خلال وبسبب النعمة الالهية المقصودة

أنهى صلاته ونهض ، متثاقلاً على قدميه كان الصبي لا يزال راكعاً لم يتحرك اطلاقاً ولكن عينيه كانتا مفتوحتين (لم يكن

www.ibtesama.com/vb

وجهه مخفياً أو حتى مطأطئاً) ووجهه كان هادئاً تماماً ؛ هادئاً ومسالماً وغامضاً سمع الرجل يتلمس الطاولة التي كان عليها المصباح. سمع احتكاك عود كبريت ثم صوت اندلاع النار الشعلة رسخت فوق الفتيل ، تحت كرة المصباح والتي بدت يد الرجل أمامها وكأنها مغمسة في الدم دوّمت الظلال ثم سكنت رفع ماك إيتشيرن شيئاً من على الطاولة قرب المصباح كتاب تعليم الديانة نظر إلى الصبي أنف ووجنة ناتئتان ، كأنما هما منحوتان من الغرانيت ، وجه ملتحٍ حتى محجر العين الغائر والمغطى بالنظارتين قال

— خذ الكتاب

* * *

كان الأمر قد بدأ صباح الأحد قبل الافطار لم يكن قد تناول افطاراً ؛ ويبدو أنه لا هو ولا الرجل كانا قد فكّرا في ذلك ولا مرة واحدة لم يكن الرجل نفسه قد تناول افطاره بعد ، رغم أنه كان قد ذهب إلى المائدة وطلب الغفران عن الطعام وضرورة تناوله وعند وجبة الظهر كان نائماً من الاجهاد العصبي وفي وقت العشاء لم يكن أي منهما قد فكّر في الطعام لم يكن الصبي يعرف حتى ما خطبه ، ولم كان يشعر بالضعف والسلام

هكذا كان يشعر وهو مستلق في السرير كان المصباح لا يزال موقداً ، وكان الظلام مخيماً تماماً الآن في الخارج . ورغم أن بعض الوقت كان قد مرّ الا أنه بدا له أنه لو التفت برأسه لرآهما كليهما ، هو والرجل ، وهما راكعان قرب السرير ، ورأى على أية حال

www.ibtesama.com/vb

في السجادة الانبعاجات التي خلّفها زوج متماثل من الركب دون وجود مادّي ، حتى الهواء بدا وكأنه لا يزال يطرح الصوت الرتيب لشخص ما يتكلّم في حلم ، يتكلم ، يستحلف ، يتجادل مع « طيف » لا يستطيع حتى أن يحدث انبعاجاً شبحياً في سجادة حقيقية

كان مستلقياً على ذلك النحو ، على ظهره ، ويداه متصالبتان فوق صدره كتمثال فوق ضريح ، حين سمع مرة أخرى صوت قدمين على الدرج الضيق لم تكونا قدمي الرجل ؛ لقد سمع ماك إيتشيرن وهو يقود العربة مبتعداً ، راحلا في الشفق ليقطع مسافة ثلاثة أميال إلى كنيسة لم تكن بروتستانتية « مشيخية » ، وذلك ليمارس الكفارة التي ألزم بها نفسه في الصباح

وبدون أن يدير رأسه سمع الصبي السيدة ماك إيتشيرن تصعد الدرج بصعوبة سمعها تقترب عبر الأرضية لم ينظر ، رغم أن ظلها سقط بعد فترة على الجدار حيث كان قادراً على رؤيته ، ورأى أنها كانت تحمل شيئاً ما كان صينية طعام . وضعت الصينية على السرير لم يكن قد نظر إليها لم يكن قد تحرك قالت « جو » ، ولكنه لم يتحرك قالت « جو » كانت تستطيع رؤية عينيه المفتوحتين لم تلمسه

قال

– لست جائعاً

لم تتحرك وقفت ويداها مطويتان في ازارها لم يبد عليها أنها كانت تنظر إليه هي أيضاً بدت وكأنها تتحدث إلى الجدار وراء السرير

www.ibtesama.com/vb

- أعرف ما تفكر به . ليس الأمر كذلك . لم يطلب مني احضاره لك قط . بل أنا هي التي فكرت في ذلك . انه لا يعرف . ليس هذا طعاماً أرسله هو إليك .

لم يتحرك . كان وجهه هادئاً كوجه منحوت ، ينظر نحو الأعلى إلى الانحدار الحاد للسقف المبني من ألواح الخشب .

- لم تأكل اليوم . اجلس وكل . لم يطلب مني أن أجلبه إليك . انه لا يعرف . انتظرته حتى ذهب ، ثم جهزته بنفسي .

عندها جلس . وبينما راحت تراقبه ، نهض من السرير وأخذ الصينية وحملها إلى الزاوية وقلبها عاليها سافلها ، رامياً بالصحون والطعام وكل شيء على الأرض . ثم عاد إلى السرير حاملاً الصينية الفارغة كأنها وعاء القربان المقدس وهو حامله ، ورداؤه الكهنوتي هو الثوب الداخلي القصير الذي اشتري ليرتديه رجل . لم تكن تراقبه الآن ، رغم أنها لم تتحرك . كانت يداها ما تزالان مطويتين في إزارها . عاد إلى السرير واستلقى ثانية على ظهره ، وعيناه مفتوحتان ولا تزالان نحو السقف . كان يستطيع رؤية ظلها الساكن الذي لا شكل له ، والمحدودب قليلاً . ثم رحل هذا مبتعداً . لم ينظر ولكنه كان قادراً على سماعها تركع في الزاوية وتجمع الأطباق المكسورة وتضعها في الصينية . ثم غادرت الغرفة . أصبحت ساكنة تماماً الآن . ظل المصباح يحترق بثبات فوق الفتيل الثابت ؛ على الجدار كانت الظلال المرفرفة لفراشات العث المجوّمة كبيرة كالطيور . من وراء النافذة كان قادراً على أن يشمّ ويحسّ بالعتمة والربيع والأرض .

www.ibtesama.com/vb

كان في الثامنة فقط عندها ولكن بعد سنوات عرفت الذاكرة ما كان هو يتذكره ؛ سنوات بعد تلك الليلة التي نهض فيها من السرير بعد ساعة ، وذهب وركع في الزاوية كما لم يركع حتى على السجادة ، وفوق الطعام موضوع غضبه ، ركع وأكل بيديه كانسان متوحش ، ككلب

* * *

كان الوقت هو الغسق ؛ كان عليه أن يكون قد قطع أميالاً بحالها على طريق العودة نحو البيت ورغم أمسيات السبت كانت حرة ، فهو لم يبتعد قط عن البيت كل هذه المسافة وفي مثل هذا الوقت المتأخر وحين يصل إلى البيت سيُضرب بالسوط ولكن ليس بسبب ما قد يكون قد ارتكب أولا يكون قد ارتكبه خلال غيابه حين يصل إلى البيت سيضربه ماك إيتشيرن بالسوط ، حتى لو لم يكن قد ارتكب أية خطيئة ، وكأنما رآه بعينه وهو يرتكبها

ولكن ربما ما كان يعلم هو نفسه بعد أنه لم يكن على وشك ارتكاب الخطيئة خمستهم مجتمعين بهدوء في الغسق حول البوابة المخلوعة لكوخ منشرة مهجورة حيث كانوا قد راقبوا ، وهم ينتظرون مختبئين على بعد مئة ياردة ، الفتاة الزنجية تدخل وتنظر نحو الخلف لمرة واحدة ثم تختفي كان واحداً من الصبية الأكبر سناً قد رتب الأمر كله وقد مضى أولاً الآخرون ، وهم صبية في أوفرولات متشابهة جداً ، ويعيشون خلال نصف قطر قدره ثلاثة أميال ، والذين هم ، شأنهم شأن الصبي الذي يعرف باسم « جوماك

إيتشيرن » كانوا قادرين في الرابعة عشرة والخامسة عشرة على أن يحرثوا ويحلبوا ويحطبوا كالرجال ، راحوا يسحبون القرعة ليعرف كل دوره ربما لم يكن قد فكر في الأمر كخطيئة حتى فكر في الرجل الذي سيكون في انتظاره في البيت ، حيث أنه بالنسبة لابن الرابعة عشرة فان الخطيئة الأعظم ستكون أن يُدانَ علناً بالعذرية

وصل دوره دخل الكوخ كان معتماً وعلى الفور طغت عليه عجلة رهيبة كان هناك شيء ما فيه يحاول الخروج ، كما يحدث حين كان يفكر في معجون الأسنان ولكنه لم يستطع أن يتحرك على الفور ، وهو واقف هناك يشمّ رائحة المرأة ، يشم رائحة الزنوجة مرة واحدة ؛ ها هو محاصر بالزنوجة الأنثوية والعجلة ، مدفوع ، مضطر إلى أن ينتظر حتى تتكلم هي صوت مرشد لم يكن كلمة معيّنة ، وغير واع على الاطلاق ثم بدا له أنه كان قادراً على رؤيتها كانت شيئاً منبطحاً ، ذليلاً ، عيناها ربما وحين انحنى بدا أنه ينظر في بئر سوداء وفي القاع رأى ومضات أشبه بانعكاس نجوم ميتة كان يتحرك ، لأن قدمه لمستها ثم لمستها مرة أخرى لأنه رفسها رفسها بقوة راح يرفس عويلاً مخنوقاً من الدهشة والخوف بدأت تزعق ، وهو يهزّها ممسكاً بها من ذراعها ويضربها ضربات هائلة وحشية ، يضرب باتجاه الصوت ربما ، وقد راح يحسّ بلحمها على أية حال ، محاطاً بالزنوجة الأنثوية والعجلة

ثم هربت من تحت قبضته ، وهرب هو أيضاً نحو الخلف حين هاجمه الآخرون ، مندفعين متعاركين ، متلمّسين ، وهو يرد على ضرباتهم ، وأنفاسه تهسهس غضباً ويأساً ثم شم رائحة ذكرية ،

www.ibtesama.com/vb

كانت تلك رائحتهم ، في مكان ما تحتها كانت الـ « هي » تعدو وتزعق تخبطوا وتأرجحوا ، وهم يضربون أية يد أو جسم يلمسونه ، حتى تهاووا جميعاً في كومة واحدة ، وهو تحتها ومع ذلك ظلّ يناضل ، ويقاتل ، ويبكي لم تعد الـ « هي » هناك الآن اطلاقاً تصارعوا ، كأنما هبت ريح بينهم ، ريح شديدة ونقية كانوا قد ثبتوه الآن ، لقد أمسكوا به وأضحى بلا حول ولا قوة

– هل ستستسلم الآن ؟ لقد أمسكنا بك عدنا أن تستسلم

قال

– لا

بذل جهداً وهو يتلوّى

– استسلم يا جو لا يمكنك مقاتلتنا كلّنا لا أحد يريد العراك على أية حال

قال وهو يلهث ويناضل

– لا

لم يكن أي منهم قادراً على أن يرى أو يحزر رفيقه كانوا قد نسوا أمر الفتاة تماماً ، ولماذا تعاركوا ، هذا ان كانوا قد عرفوا اطلاقاً بالنسبة إلى الأربعة الآخرين كانت المسألة آلية لا إرادية ذلك الدافع الفطري الذي لا يقاوم الذي يتمتع به الذكر والذي يدفعه إلى القتال مع أو بسبب أو للتنافس على الشريكة التي اتصل بها جنسياً مؤخراً أو كان على وشك أن يفعل ذلك ولكن لم يعرف السبب في قيامه بالتقاتل وما كان قادراً على أن يقول لهم لقد ثبتوه بالأرض وهم يتبادلون الكلام بأصوات هادئة مجهدة

www.ibtesama.com/vb

ـ فليتّراجع بعضكم ثم نطلقه في آن معاً

ـ من هو الممسك به ؟ من ذا الذي أمسك به ؟

ـ هنا أطلقه انتظر ها هو أنا و

ومن جديد اندفعت كومتهم كموجة وهم يجاهدون أمسكوا به مرة أخرى

ـ أمسكنا به هنا أطلقوا سراح بعضكم البعض واخرجوا أفسحوا لنا المجال

نهض اثنان منهم وتراجعا ، نحو الباب ثم بدا الآخران وكأنهما ينفجران نحو الأعلى خارجين من الأرض ، من الكوخ المترع بالغسق ، وقد سبق لهما وراحا يعدوان . وجّه جو إليهم ضربة لحظة أن تحرر ، ولكن كان قد سبق لهما وابتعدا وبينما كان متمدّداً على ظهره راقب أربعتهم وهم يعدون في الغسق ، ثم يبطئون ويلتفتون لينظروا إلى الخلف نهض وخرج من الكوخ وقف في الباب ، وهو ينفض ثيابه على نحو آليّ جداً ، بينما تجمعوا بهدوء دون أن يبتعدوا كثيراً وراحوا ينظرون إليه لم ينظر إليهم تابع السير وقد اكتسى أوفروله بلون الغسق بفعل الغسق كان الوقت متأخراً الآن ، وها هو نجم المساء قويّ وثقيل كزهرة ياسمين متفتحة لم ينظر إلى الخلف مرة واحدة تابع السير ، وقد أخذ يتلاشى كالشبح ؛ والأولاد الأربعة يراقبونه وقد تجمعوا بهدوء ، وجوههم صغيرة وشاحبة بفعل الغسق. ومن المجموعة نطق صوت فجأة ، عالياً « ياه ! » ولكنه لم ينظر إلى الخلف قال صوت آخر بهدوء ، متثاقلاً بهدوء ووضوح « نراك غداً في الكنيسة يا جو » لم يجب استمر في السير بين الحين والآخر كان ينفض الغبار عن ملابسه ، على نحو آليّ ، بيديه

www.ibtesama.com/vb

حين أصبح البيت تحت مرمى نظره كان النور كله قد رحل عن الغرب . في المرعى خلف الحظيرة كان نبع أجمة صغيرة من أشجار الصفصاف في العتمة لها رائحة اشتمها وصوت سمعه ولكنه لم يرها وحين اقترب كان عزف الضفادع الصغيرة على الناي قد توقف كأنما هو عدد كبير من الأوتار قصّ بالمقص دفعة واحدة ركع ؛ كان الظلام شديداً بحيث لم يستطع أن يميّز حتى رأسه المظلّلة غسل وجهه وعينه المنتفخة استمر في السير وهو يعبر المرعى نحو نور المطبخ بدا له كأنه يراقبه ، منتظراً ومهدداً ؛ كأنه عيّن

حين وصل إلى حاجز الأرض المحيطة بالبيت ، وهو ينظر إلى النور في نافذة المطبخ ، وقف هناك لفترة وهو يستند على الحاجز كان العشب جهاراً حياً بالجداجد على الأرض الرمادية من الندى والعصابات الداكنة من الأشجار كانت اليراعات تندفع وتخبو ، ضالة وعشوائية عصفور ساخر كان يغني على شجرة قرب المنزل خلفه ، في الغابات وراء النبع كانت العصافير الغريدة تصفّر خلفهما كأنما وراء أفق مطلق للصيف ، راح كلب يعوي ثم عبر الحاجز ورأى شخصاً ما يجلس دون حراك في الباب المؤدي إلى الاصطبل الذي كانت تنتظر فيه البقرتان اللتان لم يحلبهما بعد

بدا كأنه ميّز السيد ماك إيتشيرن دون دهشة ، كأن الوضع كلّه كان منطقياً ومعقولاً تماماً وغير ممكن الهروب منه أيضاً ربما كان يفكر آنئذ كيف أنه كان قادراً هو والرجل على أن يعتمد كل واحد منهما ويشكل على الآخر كذلك ؛ وأن المرأة وحدها كانت من النوع الذي لا يمكن التنبؤ بتصرفاته ربما لم ير أي تناقض

www.ibtesama.com/vb

اطلاقاً في حقيقة أنه كان على وشك أن يُعاقب ، وهو الذي أحجم عما كان يعتقد ماك إيتشيرن أنه الخطيئة الأصلية التي يمكنه أن يرتكبها ، كأنما هو قد ارتكبها لم ينهض ماك إيتشيرن كان لا يزال جالساً ، متبلّد الحس ومتحجراً ، قميصه كلطخة بيضاء في تثاؤبة الباب السوداء

– لقد حلَبْتُ وعلَفْتُ

ثم نهض بتمهل ربما عرف الصبي أنه قد سبق له وأمسك بالسوط بيده ارتفع وسقط ، بتعمّد ، بضربات معدودة متعمدة خفيضة قد يكون جسم الصبي من الخشب أو الحجر ؛ مَوْقِعاً أو بُرْجاً كان يفكر بهما الجزء الخفير منه كما يفكر الناسك : على نحو تأمّلي ومنعزل ، مع نشوة وصلب للذات

ومع اقترابهما من المطبخ سارا جنباً إلى جنب وحين سقط النور الآتي من النافذة عليهما توقف الرجل والتفت وهو يحني ويحدق قال

– مشاجرة بسبب ماذا ؟

لم يجب الصبي كان وجهه هادئاً تماماً ، رابط الجأش بعد فترة أجاب كان صوته هادئاً وبارداً

– بسبب لا شيء

وقفا هناك

– هل تعني أنك لا تستطيع أن تذكر السبب أو أنك لا تريد ذلك ؟

www.ibtesama.com/vb

لم يجب الصبي   لم يكن ينظر إلى الأسفل   لم يكن ينظر إلى أي شيء

– اذن ، اذا كنت لا تعرف فأنت أحمق   واذا كنت لا تريد فأنت وغد   هل كنت لدى امرأة ؟

قال الصبي

– لا

نظر الرجل إليه   حين تكلم كان صوته متأملاً

– لم يسبق لك أن كذبت علي قط   هذا ما أعرفه

نظر إلى الصبي ، إلى الصورة الجانبية الهادئة للوجه

– مع من كنت تتشاجر ؟

– كان هناك أكثر من واحد

قال الرجل

– هاهه   لا شك أنك تركت علامتك عليهم ، على ما أعتقد ؟

– لا أعرف   أعتقد ذلك

قال الرجل

– هاهه   اذهب واغتسل   العشاء جاهز

حين ذهب إلى فراشه في تلك الليلة كان قد قرّر في ذهنه أن يهرب   أحس كما النسر   شديداً ، مكتفياً ، قادراً ، عديم الرحمة ، قوياً   ولكن التجربة مرت به ، رغم أنه لم يكن يعرف ذلك آنئذ ، كما قد تمرّ بالنسر ، الاّ أن لحمه وكذلك الفضاء كله كان لا يزال قفصاً

* * *

www.ibtesama.com/vb

لم يفتقد ماك إيتشيرن وجود العِجْلة الاّ بعد يومين . ثم وجد البذلة الجديدة حيث كانت مخبأة في الحظيرة ولدى فحصها تبين له أنها لم تكن قد ارتُديت قط وجد البذلة في صدر النهار ولكنه لم يقل شيئاً حول الموضوع وفي ذلك المساء دخل الحظيرة حيث كان جو يحلب احدى البقرات كان جالساً على الكرسي الواطىء ورأسه مسندة إلى خاصرتها ، وكان جسم الصبي الآن من حيث الطول بطول رجل على الأقل ولكن ماك إيتشيرن لم ير ذلك ولو رأي أي شيء على الاطلاق لكان ذلك طفلاً يتيماً في الخامسة يجلس بالسلبية الهادئة المتنبهة اللامبالية الحيوانية على مقعد عربته في مساء كانون الأول ذاك ، قبل اثنتي عشرة سنة

قال ماك إيتشيرن

– لا أرى عِجْلتك

لم يرد جو كان ينحني فوق الدلو ، فوق الهسهسة المتواصلة للحليب وقف ماك إيتشيرن خلفه وفوقه وهو ينظر إليه من عل

– قلت ان عجلتك لم تظهر

قال جو

– أعرف ذلك أعتقد أنها عند النهر هناك سأعتني بها فهي ملكي

قال ماك إيتشيرن دون أن يرفع صوته

– هاهه ولكن النهر في الليل ليس مكاناً مناسباً لبقرة ثمنها خمسون دولاراً

www.ibtesama.com/vb

قال جو

– سأكون أنا الخاسر كانت تلك بقرتي أنا

قال ماك إيتشيرن

– كانت ؟ هل قلت « كانت » بقرتي ؟

لم يرفع جو نظره بين أصابعه كان الحليب يهسهس بثبات نحو الدلو سمع خلفه حركة ماك إيتشيرن ولكن جو لم يلتفت من حوله حتّى توقف الحليب ثم التفت كان ماك إيتشيرن جالساً على قطعة كبيرة من الخشب عند الباب قال

– الأجدر بك أن تأخذ الحليب إلى البيت أوّلاً

نهض جو واقفاً ، والدلو يتأرجح في يده كان صوته عنيداً رغم أنه هادىء

– سأجدها في الصباح

قال ماك إيتشيرن

– خذ الحليب إلى البيت سأنتظرك هنا

وقف جو للحظة أخرى هناك ثم تحرك خرج وسار نحو المطبخ دخلت السيدة ماك إيتشيرن وهو يضع الدلو فوق الطاولة قالت

– العشاء جاهز هل عاد السيد ماك إيتشيرن إلى البيت ؟

كان جو يلتفت وظهره نحو الباب قال

– سيكون هنا قريباً

استطاع أن يشعر بالمرأة تراقبه قالت بلهجة متردّدة قلقة

– لديك من الوقت ما يكفي لتغتسل فحسب

www.ibtesama.com/vb

ـ سنعود قريباً

عاد إلى الحظيرة جاءت السيدة ماك إيتشيرن إلى الباب وتابعته بنظرها لم يكن الظلام مخيّماً تماماً بعد واستطاعت أن ترى زوجها يقف في باب الحظيرة لم تتباد وقفت هناك فحسب وراقبت الرجلين يتقابلان لم تستطع أن تسمع ما قالاه

قال ماك إيتشيرن

ـ تقول انها هناك عند النهر ؟

ـ قلت ربما هذا مرعى واسع

قال ماك إيتشيرن

ـ هاهه

كان صوتاهما هادئين كلاهما

ـ وأين هي الآن حسب اعتقادك ؟

ـ لا أعرف لست بقرة لا أعرف أين يمكن أن تكون

تحرك ماك إيتشيرن قال

ـ سنذهب لنفتش عنها

دخلا المرعى الواحد في إثر الآخر كان النهر على مسافة تبلغ ربع ميل وفوق المجموعة الداكنة من الأشجار حيث كان النهر يتدفق كانت اليراعات تغمز وتتلاشى وصلا إلى هذه الأشجار كانت جذوعها مختنقة بالنباتات المستنقعية صعبة الاختراق حتى نهاراً

قال ماك إيتشيرن

ـ ناد عليها

www.ibtesama.com/vb

لم يرد جو لم يتحرك واجها واحدهما الآخر

قال جو

– انها بقرتي أنت وهبتها لي . لقد ربيتها منذ البداية لأنك وهبتها لي لتكون ملكي

– أجل وهبتها لك حتى أعلّمك مسؤولية الامتلاك ، التملّك مسؤولية المالك تجاه ما يملك تحت نعمة الله لأعلّمك الحكمة والتبجيل ناد عليها

لفترة أخرى راحا يواجهان أحدهما الآخر ربما كانا ينظران الواحد إلى الآخر ثم التفت جو وسار بموازاة المستنقع وماك إيتشيرن يلحق به قال

– لماذا لا تنادي عليها ؟

لم يجب جو لم يبد عليه أنه يراقب المستنقع أو النهر اطلاقاً بل كان يراقب على العكس من ذلك النور الوحيد الذي كان يدلّ على مكان المنزل ، وهو ينظر إلى الخلف بين الحين والآخر وكأنه يقيس المسافة التي تفصله عنه لم يسيرا بسرعة ، ولكنهما وصلا أخيراً إلى الحاجز الذي هو علامة على نهاية المرعى كان الظلام مخيّماً تماماً الآن وحين وصل إلى الحاجز التفت جو وتوقف والآن نظر إلى الآخر ومن جديد تواجها ثم قال ماك إيتشيرن

– ما الذي فعلته بتلك العجلة ؟

قال جو

– لقد بعتُها

www.ibtesama.com/vb

لم يعد أي منهما قادراً على تمييز وجه الآخر الآن كانا مجرد شكلين ، ولهما الطول نفسه ، وان كان ماك إيتشيرن الأكثر اكتنازاً فوق اللطخة البيضاء التي هي قميصه كانت رأس ماك إيتشيرن تماثل واحدة من قنابل المدافع الرخامية التي نراها على النصب التذكارية الخاصة بالحرب الأهلية (الأمريكية)

قال جو

– كانت تلك بقرتي وان لم تكن بقرتي فلماذا قلت لي انها كذلك ؟ لم أعطيتها لي ؟

– أنت على حق تماماً كانت ملكاً لك لم أقرّعك بعد لأنك بعتها ، شريطة أن تكون قد بعتها بسعر جيد وحتى لو غُلبت في الصفقة ، وهذا أمر أكثر من محتمل بالنسبة إلى صبي في الثامنة عشرة ، الاّ أنني لن أقرعك بسبب ذلك رغم أنه كان أجدر بك أن تستشير شخصاً أكبر سناً وخبرة في شؤون هذه الدنيا ولكن عليك أن تتعلم كما فعلت أنا وما أسألك أن تجيبني عليه هو أين حفظت المال ؟

لم يجب جو تواجهها

– ربما أعطيته إلى أمك بالتبنّي لتحفظه لك ؟

قال جو

– أجل

قالها فمه ، تلفظ بالكذبة لم يكن ينوي الاجابة اطلاقاً سمع فمه يتلفظ بالكلمة بنوع من الدهشة المشوبة بالصدمة ثم كان قد سبق السيف العذل قال

www.ibtesama.com/vb

– أعطيتها اياه كي تدخره

قال ماك إيتشيرن

– هاهه

ثم تنهد كان صوتاً مرتاحاً يدلّ على الرضا والنصر

– وأنت تقول دون شك إن أمك بالتبني هي التي اشترت البذلة الجديدة التي وجدتها مخبأة في مخزن التبن لقد تكشفت عن كل خطيئة يمكن ارتكابها الكسل ونكران الجميل ، عدم الاحترام والتجديف على الله والآن أمسكت بك وأنت ترتكب الخطيئتين المتبقيتين الكذب والفسق فما الذي تريده من بذلة جديدة ان لم يكن الزنا ؟

وعندها اعترف أن الطفل الذي تبناه منذ اثنتي عشرة سنة قد أصبح رجلاً وبينما كان واقفاً قبالته ، وأصابع أقدامهما متقابلة تقريباً ، ضرب جو بقبضته

تلقى جو أوّل ضربتين ؛ ربما بحكم العادة ، وربما من المفاجأة ولكنه تلقاهما وهو يشعر مرتين بقبضة الرجل القاسية تنزل على وجهه ثم قفز نحو الخلف وجثم على الأرض وهو يلعق دمه ويلهث تواجها قال

– اياك أن تضربني ثانية

وفيما بعد ، وبينما كان متمدداً على سريره في العلية متبلد الأحاسيس متيبس الجسم ، سمع صوتيهما يصعدان الدرجات الضيقة من الغرفة في الأسفل

www.ibtesama.com/vb

قالت السيدة ماك إيتشيرن

– لقد اشتريتها له ! فعلت ذلك ! اشتريتها بالمال الذي ادخرته من بيع الزبدة قلت اني أستطيع أستطيع انفافة يا سايمون ! يا سايمون !

– أنت أسوأ جنى منه هو ككاذبة

وصل صوته مدروساً وقاسياً دون غضب ، صاعداً الدرج الضيق إلى حيث كان جو متمدداً في فراشه لم يكن يصغي إليه

– إركعي اركعي . اركعي يا امرأة . اطلبي الرحمة والعفو من الرب ، وليس مني

* * *

لقد حاولت دائماً أن تكون لطيفة معه ، من مساء ذلك اليوم من أيام كانون الأول منذ اثنتي عشرة سنة خلت كانت تنتظر عند الرواق – مخلوق صبور هزيم دون تمييزات جنسية اطلاقاً باستثناء الجديلة الناعمة من الشعر الذي وخطه الشيب ، والتنورة – وذلك حين وصلت العزبة كأنما بدلاً أن تكون قد ذُبحت ثم تُركت لتفسد بحدة من قبل الرجل القاسي المتعصب لدينه متحوّلة إلى شيء ما أبعد من قصده ومن معرفتها ، فانها قد طُرقت بعناد حتى رقّت ورقّت كمعدن سلبي مطواع على نحو غير رنان ، متحولة إلى وهن من الآمال العجماء والرغبات المحبطة التي أضحت الآن باهتة وشاحبة كالرماد الميت

www.ibtesama.com/vb

حين توقفت العربة كأنما قد سبق لها وخططت لذلك ومارسته كيف سترفعه من المقعد وتحمله إلى المنزل لم يسبق له أن حُمِل من قبل امرأة منذ أن كبر إلى حد القدرة على المشي لوحده تلوّى نازلاً من العربة ودخل المنزل على قدميه ، وسار إلى الداخل ، ضئيل الحجم ، عديم الشكل في أغطيته لحقت به وهي تحوّم من حوله جعلته يجلس ، كأنما كانت تحوّم بنوع من اليقظة المتوترة ، بأسلوب متوتر ومتنبه ، منتظرة أن يفلت مرة أخرى ويحاول أن يجعل نفسه يتصرف ويجعلها هي تتصرف كما خططت لهما أن يتصرفا كانت تركع أمامه محاولة أن تخلع عنه حذاءه ، حتى أدرك ما تريده أبعد يديها وخلع حذاءه بنفسه ، ولكنه لم يضعه على الأرض تمسّك به خلعت عنه جاربيه ثم جلبت حوضاً من الماء الساخن ، وقد جلبته على الفور إلى حد أن أي شخص إلاّ الأطفال كان سيدرك أنها كانت قد جهّزته وتركته ينتظر طوال النهار ربما تكلّم للمرة الأولى عندئذ قال

– لقد اغتسلت البارحة فحسب

لم تجب ركعت أمامه بينما راح هو يراقب قمة رأسها ويديها وهما تتلمسّان قدميه ببعض الاضطراب لم يحاول أن يساعدها لم يكن يعرف ما كانت تحاول عمله ، ولا حتّى حين كان يجلس وقدماه الباردتان في الماء الدافىء لم يكن يعرف أن ذلك كان كل ما في الأمر ، لأن ذلك كان قد أشعره براحة كبيرة كان ينتظر أن تبدأ البقية ؛ الجزء غير السار ، مهما يكن ذلك لم يكن ذلك قد حدث له في السابق أيضاً

www.ibtesama.com/vb

وفيما بعد وضعته في السرير منذ عامين تقريباً كان يلبس ثيابه ويخلعها بنفسه ، دون أن يلاحظه أحد أو يساعده أحد باستثناء « أليس » ومثيلاتها أحياناً كان قد سبق له وشعر بالتعب الشديد إلى حد لم يستطع معه أن ينام على الفور ، وكان الآن محتاراً وعصبياً بالتالي ، منتظراً حتى تخرج ليستطيع أن ينام ثم لم تخرج هي بل جلبت بدلاً عن كرسياً حتى السرير وجلست لم تكن هناك مدفأة في الغرفة ، كانت غرفة باردة كانت تضع شالاً الآن فوق كتفيها وتربض ضمن ذلك الشال ، وأنفاسها تتبخر كأنها تدخن التبغ ثم أصبح مستيقظاً تماماً الآن كان ينتظر أن يبدأ الدور الذي لا يحبه ، مهما يكن ذلك ، ومهما كان ما ارتكبه. لم يكن يعرف أن ذلك كان كل ما في الأمر لم يكن قد حدث له ذلك في السابق أيضاً

بدأ ذلك في تلك الليلة وقد اعتقد أنه سيستمر بقية حياته في السابعة عشرة استطاع وهو يتطلع إلى الماضي أن يرى الآن السلسلة الطويلة من الجهود التافهة ، المتعثرة ، العبثية ، الناتجة عن الاحباط التلمس المرتبك والغريزة البكماء الأطباق التي كانت تجهزها له سراً ثم تصر على قبولها وأكلها سراً وهو الذي لا يريدها وكان يعرف أن ماك إيتشيرن ما كان ليهتم بذلك على أية حالى وتلك المرات التي كانت تحاول بها — كما الليلة — أن تحول بينه وبين العقاب الذي سواء كان يستحقه أم لا ، سواء كان عادلاً أم لا ، كان عقاباً غير شخصي ، وكان كلا الرجل والصبي يقبلان به على أنه حقيقة طبيعية لا مجال للهرب منها حتى تعطيها هي — بتدخلها — رائحة وتلطيفاً ومذاقاً متخلقاً

www.ibtesama.com/vb

أحياناً كان يفكر في أن يسرّ لها على انفراد ، في أن يجعلها هي التي لا تستطيع بعجزها لا أن تغيّر شيئاً ولا تتجاهله ، يجعلها تعرف السر وتحتاج إلى أن تخفيه عن الرجل الذي كان من شأنه لو عرف به أن يكون ردّ فعله المباشر والممكن التنبؤ به أن يمحوه كعامل في علاقاتهما بحيث لا يعود إلى الظهور ثانية كان يريد أن يقول لها سرّاً ، أن يدفع لها سراً لقاء الأطباق السرية التي لم يكن يريدها « اسمعي يقول إنه ربّى مجدّفاً على الله وجاحداً بالجميل وأنا أتحداك أن تقولي له من هو الذي يربيه فعلاً انه قد ربّى زنجياً تحت سقف بيته ، وأطعمه من طعامه على مائدته »

لأنها كانت طيبة على الدوام معه والرجل ، الرجل القاسي الصارم عديم الشفقة ، كان يتكل عليه في أن يتصرف بأسلوب معين وأن يتلقى مكافأة معينة أو عقوبة معينة ، كما كان هو يتكل على الرجل في أن يكون ردّ فعله بأسلوب معين على بعض أفعاله وسوء تصرفاته كانت المرأة بإلفتها الأنثوية وغريزة التكتّم ، هي التي تلقي بوصمة خفيفة من الشر على أكثر التصرفات تفاهة وبراءة خلف لوح متخلخل في جدار غرفته التي هي في العلية ، كانت قد خبأت مؤونة صغيرة من المال في تنكة من الصفيح كان المبلغ تافهاً وكان من الواضح أنه لم يكن سرّاً على أحد سوى زوجها واعتقد الصبي أنه لن يكترث ولكنه لم يكن سراً بالنسبة إليه هو وحتى حين كان لا يزال طفلاً بعد ، كانت تأخذه معها حين كانت ، بكل الحذر الشديد الغامض الذي يميّز الطفل الآخذ باللعب ، تزحف إلى العلية وتضيف إلى المؤونة قطع الخمسات والعشرات الرهيبة من

www.ibtesama.com/vb

السنتات القليلة النادرة (ثمرة تلك الحيل وأعمال الخداع الصغيرة التي لم يكن هناك من يقول انه لا يعرفها) ، تضع في علبة الصفيح تحت نظر عينيه المدورتين الكثيبتين نقوداً لم يكن يدرك قيمتها كانت هي التي وثقت به ، والتي أصرت على الوثوق به كما أصرت على أن يأكل بالتآمر ، بالسرّ ، صانعة سراً من تلك الحقيقة بالذات التي كان من المفترض في الثقة نفسها أن تمثّلها

لم يكن يكره العمل الشاق ، ولا العقاب أو الظلم كان قد اعتاد على ذلك قبل أن يراهما كليهما لأول مرة لم يكن يتوقع أقل من ذلك ، لذا لم يكن غاضباً ولا مندهشاً كانت المرأة ذلك اللطف الحاني الذي اعتقد أنه سيبقى إلى الأبد ضحية له ، والذي كان يكرهه على نحو أشدّ ممّا كان يكره العدالة الصارمة التي لا تعرف الشفقة التي يمارسها الرجال فكّر « انها تحاول أن تجعلني أبكي » ، وهو مستلق متبلد الأحاسيس متيبس الجسم على سريره ، ويداه تحت رأسه ونور القمر يسقط فوق جسده ، وهو يسمع الهمهمة المتواصلة لصوت الرجل وهو يصعد الدرجات في أولى مراحله نحو السماء « كانت تحاول أن تجعلني أبكي عندها ستظنّ أنهم قد نالوا مني »

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثامن

أخرج الحبل من مخبئه وهو يتحرك بهدوء كان أحد طرفيه قد سبق له وتم تجهيزه كي يثبت داخل النافذة كان النزول إلى الأرض والعودة لا يستغرقان منه أي وقت ، فالآن ، بعد سنة من التدريب ، كان قادراً على تسلق الحبل بيديه دون أن يضطر ولو مرة واحدة إلى لمس جدار المنزل وبخفة أشبه بخفة الظلال تلك التي تميز القطط وبينما كان ينحني من النافذة ترك الطرف الحر من الحبل ينزل هامساً في نور القمر بدا أوهى من خيط العنكبوت ثم قام ، وفردتا حذائه مربوطتان معاً ومعلقتان بخيط من حزامه من الخلف بالانزلاق على الحبل ، ومرّ بسرعة الظل عبر النافذة حيث كان العجوزان نائمين كان الحبل مدلّى أمام النافذة مباشرة شدّه باحكام إلى جانب ، بموازاة المنزل ثم عقده ثم سار في نور القمر نحو الاصطبل وصعد إلى مخزن التبن وأخذ البذلة الجديدة من مخبئها كانت ملفوفة بالورق ، بعناية وقبل أن يفكه تحسس بيديه طيات الورق فكّر « لقد وجدها » ثم قال بصوت مرتفع « انه يعرف » ثم همس « النغل ابن الزانية »

ارتداها في الظلام ، بسرعة كان قد سبق له وتأخر ، وذلك لأنه اضطر إلى أن يمنحهما بعض الوقت حتى يناما بعد كل تلك الضجة

www.ibtesama.com/vb

حول العجلة ، تلك الضجة التي سببتها المرأة بالتدخل في المسألة بعد أن كانت قد انقضت وهجعت لتنام على أية حال كانت الرزمة مؤلفة من قميص أبيض وربطة عنق وضع ربطة العنق في جيبه ولكنه ارتدى الجاكيت حتى لا يكون القميص شديد الوضوح تحت نور القمر نزل وخرج من الاصطبل كان الاحساس بالقماش الجديد ، بعد ذلك الأوفرول الطري المغسول مرات عديدة ، احساساً مترفاً وخشناً كان المنزل جاثماً تحت نور القمر ، معتماً ، عميقاً ، وغادرا إلى حد قليل كأنما كان المنزل تحت نور القمر قد اكتسب شخصية ما شخصية مهددة خادعة مرّ به ودخل الدرب أخرج من جيبه ساعة يد من النوع الذي يباع بدولار واحد لقد اشتراها منذ ثلاثة أيام وكان قد نسي أن يملأها ولكنه لم يكن في حاجة إلى الساعة لتنبئه بأنه قد سبق له وتأخر

كان الدرب يسير باستقامة تحت القمر ، تحيط به من كلا الجانبين أشجار كانت أغصانها المظللة تنعكس ثخينة وحادة كالطلاء الأسود على الغبار الرقيق سار بسرعة ، أصبح المنزل خلفه ، وقد صار هو الآن غير مرئي من المنزل كانت الطريق الرئيسية تعبر الدرب على مسافة قصيرة إلى الأمام كان يتوقع أن يرى في أية لحظة السيارة وهي تندفع مارة من هناك ، حيث كان قد أخبرها أنه ان لم يكن ينتظر هناك عند مدخل الدرب ، فسوف يقابلها عند المدرسة حيث تقام حفلة الرقص ولكن لم تمر أية سيارة وحين وصل إلى الطريق الرئيسية لم يسمع شيئاً كانت الطريق والليل فارغين فكر « ربما سبق لها ومرّت » ثم أخرج الساعة المتوقفة مرة أخرى ونظر

www.ibtesama.com/vb

إليها   كانت الساعة متوقفة لأنه لم تسنح له الفرصة ليملأها   لقد أخّراه هما اللذان لم يمنحاه فرصة لملئها حتى يستطيع أن يعرف ان كان متأخراً أم لا   على امتداد الدرب المعتم ، في المنزل غير المرئي الآن ، تنام المرأة الآن ، بعد أن بذلت كل ما بوسعها لتؤخره   نظر في ذلك الاتجاه ، على امتداد الدرب   توقف خلال قيامه بالنظر والتفكير ، عقله وجسده كأنما لهما مفتاح كهربائي واحد ، معتقداً أنه رأى حركة بين الظلال في الدرب   ثم فكر أنه لم يرشيئاً ، وأن ذلك كان على الأرجح شيء ما في ذهنه انعكس كظلّ على جدار فكر « ولكني آمل أنه هو   أتمنى لو كان هو   أتمنى لو يلحق بي ويراني أركب السيارة   أتمنى لو يحاول اللحاق بنا   أتمنى لو يحاول أن يوقفني   » ولكنه لم يستطع أن يرى شيئاً على الدرب   كان فارغاً ، تقطّعه الظلال الغادرة   ثم سمع ، من مسافة بعيدة على امتداد الطريق باتجاه البلدة صوت سيارة   نظر فرأى الآن وهج الأنوار

* * *

كانت تعمل نادلة في مطعم صغير قذر يقع في أحد الشوارع الخلفية في البلدة   ولو نظر إليها أي راشد نظرة عابرة لاستطاع أن يدرك أنها لن ترى الثلاثين مرة أخرى ولكن عمرها في نظر جو لم يكن أكثر من سبعة عشر عاماً ، وذلك بسبب ضآلة حجمها   لم تكن قصيرة فحسب ، بل كانت هزيلة بل أشبه بالأطفال تقريباً ولكن نظرة الراشد إليها كانت سترى أن الضآلة لم تكن بسبب أي نحول طبيعي بل بسبب فساد داخلي للروح نفسها   نحول لم يسبق له أن كان فتياً ولم يعش أو تمهّل في أي من منحنياته أي شيء فتي كان شعرها داكناً   وكان وجهه بارز العظام ، وينظر نحو الأسفل

www.ibtesama.com/vb

باستمرار ، كأنما ركبت رأسها دون اتساق نوعاً ما على عنقها على هذا النحو وكانت عيناها كعيني دمية تمثل حيواناً ، مجرّد زرّين وهي صفة تتجاوز حتى القسوة دون أن تكون قاسية

وبسبب ضآلة حجمها بالذات حاول هو التقرب منها ، وكأن هذه الضآلة كان من شأنها أن تحميها أو هي قد حمتها من العيون الجوّالة المفترسة لمعظم الرجال ، جاعلة حظه أوفر .لو كانت امرأة ضخمة لما كان سيحاول لكان قد فكر « ليس هناك فائدة لا بد أن لها رفيقاً ، رجلاً »

بدأ ذلك في الخريف حين أصبح في السابعة عشرة وكان ذلك يوماً من أيام منتصف الأسبوع في العادة ، وحين كانا يأتيان إلى البلدة يكون ذلك في أيام السبت وكانا يجلبان طعامهما معهما — غداء بارد في سلة اشتريت واحتفظ بها لهذا الغرض — بهدف انفاق اليوم هناك في هذه المرة جاء ماك إيتشيرن ليرى محامياً وكان ينوي أن ينهي عمله ويعود إلى البيت في وقت الغداء ولكن الساعة كانت تقارب الثانية عشرة حين خرج إلى الشارع حيث كان جو في انتظاره تراءى له وهو ينظر إلى ساعته ثم نظر إلى ساعة البلدية على برج مبنى المحكمة ثم إلى الشمس ، بتعبير يدل على السخط والغضب نظر إلى جو بذلك التعبير ، والساعة المفتوحة في يده ، وعيناه باردتان مغضّنتان بدا وكأنه يتفحص ويزن للمرة الأولى الشاب الذي رباه منذ صغره . ثم التفت وقال

— تعال لا يمكن فعل أي شيء الآن

www.ibtesama.com/vb

كانت البلدة عبارة عن نقطة التقاء لخطوط السكة الحديدية وحتى في منتصف الأسبوع كنت ترى الكثير من الرجال في الشوارع كان جو المكان كله ذكريا ، يوحي بالاقامة المؤقتة مجموعة سكانية لا يبقى الأزواج فيها في البيت الا في فترات متقطعة وفي العطل ؛ مجموعة سكانية من الرجال الذين يعيشون حياة العزلة عن النساء والذين كانت مشاهد حياتهم الفعلية منعزلة ووجودهم المتقطع أشبه بحياة أصحاب المسرح في المسرح

لم يكن جو قد سبق له ورأى المكان الذي اصطحبه إليه ماك إيتشيرن كان مطعماً في شارع خلفي .بوابة ضيقة قذرة بين نافذتين قذرتين لم يعرف أنه مطعم في البداية لم تكن هناك لافتة في الخارج ولم يستطع أن يشم أو يسمع طبيخاً ما رآه كان نضدا خشبيا طويلاً صفت إلى جانبه كراسي لا ظهر لها ، وامرأة شقراء ضخمة خلف صندوق سيجار قرب المقدمة ومجموعة من الرجال في الطرف البعيد من النضد ، ولم يكونوا يأكلون وقد التفتوا جميعاً كشخص واحد ونظروا إليه وإلى ماك إيتشيرن حين دخلا ، وذلك عبر دخان اللفافات. لم يقل أحد أي شيء اطلاقاً نظروا إلى ماك إيتشيرن وجو فحسب كأنما توقف النفس مع الكلام ، وكأنما توقف حتى دخان اللفافات وراح يندفع دون هدف من تلقاء ذاته لم يكن الرجال يرتدون الأوفرولات وكانوا يرتدون القبعات ، وكانت وجوههم متشابهة كلها ليست بالشابة ولا العجوز ؛ لم يكونوا مزارعين ولا هم من سكان المدن أيضاً بدوا كأشخاص نزلوا للتو من قطار وسيرحلون غداً وليس لهم أي عنوان

www.ibtesama.com/vb

جلس ماك إيتشيرن وجو على اثنين من الكراسي التي لا ظهر لها وراحا يأكلان أكل جو بسرعة لأنّ ماك إيتشيرن كان يأكل بسرعة. وإلى جانبه كان الرجل الذي يبدو حتى وهو يأكل كأنه جالس بنوع من الغضب وبظهر متيبس كان الطعام الذي طلبه ماك إيتشيرن بسيطاً سريع التحضير وسريع الأكل ولكن جو كان يعرف أن البخل لا شأن له بهذا كله ربما جلبهما البخل إلى هذا المكان تفضيلاً له عن مكان آخر ، ولكنه كان يعرف أنها الرغبة في الرحيل السريع هي التي جعلته يختار هذا النوع من الطعام وما أن وضع السكين والشوكة منهياً طعامه حتى قال ماك إيتشيرن « تعال » ، وهو ينزل عن كرسيه عند صندوق السيجار دفع ماك إيتشيرن للمرأة نحاسية الشعر كانت لها خاصية منيعة على الزمن احترام مولع بالشجار وله صلابة الألماس لم تنظر إليهما الا بالكاد ، حتى حين دخلا وحتى حين أعطاها ماك إيتشيرن النقود وبدون أن تنظر إليهما أعادت الفكّة على نحو صحيح و سريع ، مزحلقة قطع النقود على النضد الزجاجي حتى قبل أن يعرض ماك إيتشيرن الفاتورة ؛ وهي نفسها متميزة على نحو ما خلف اللمعان المزيف للشعر المعتنى به ، والوجه المعتنى به ، كلبوة منحوتة تحرس مدخل قصر ، ممثلة الاحترام كترس يستطيع من خلفه الرجال متبلدو الشعور والكسالى والمريبون أن يحرفوا قبعاتهم ولفافاتهم التي تجعل وجوههم موروبة مجعّدة عدّ ماك إيتشيرن الفكّة وخرجا إلى الشارع كان ينظر إلى جو مجدداً قال « سأجعلك تتذكّر هذا المكان هناك أمكنة في هذا العالم يمكن لرجل أن يدخلها ، ولكن لا يتوجّب على صبي ، على على شاب في مثل سنك أن يدخلها وهذا أحد هذه الأماكن ربما

www.ibtesama.com/vb

لم يكن يتوجب أن تدخل هذا المكان قط ولكن عليك أن ترى مثل هذه الأمكنة حتى تعرف ما عليك تجنبه وأن تنأى بنفسك عنه ربما كان من حسن الحظ أن أكون معك هنا لأشرح لك وأحذرك كما أن الغذاء هناك رخيص الثمن

قال جو

– وما خطبه ؟

– هذا شأن من شؤون البلدة وليس من شؤونك أنت عليك فقط أن تنتبه إلى كلامي لن أسمح لك بالدخول إلى ذلك المكان مرة أخرى ما لم أكن معك ولكن هذا لن يحدث مرة أخرى سنجلب غداءنا معنا في المرة القادمة ، سواء كنا مبكرين أم لا

كان ذلك هو ما رآه في ذلك اليوم وهو يأكل بسرعة قرب الرجل العنيد الغاضب على نحو هادىء ، وكلاهما منعزلان تماماً في وسط النضد الطويل وفي أحد جانبيه المرأة نحاسية الشعر وفي الآخر مجموعة الرجال ، والنادلة بوجهها الرزين المطأطىء ويديها الكبيرتين ، الكبيرتين جداً ، تضعان الأطباق والفناجين ، ورأسها لا ترتفع فوق النضد الا بقدر ما ترتفع رأس طفل طويل القامة ثم غادر هو وماك إيتشيرن لم يكن يتوقع أن يعود أبداً إلى ذلك المكان لم يكن السبب هوأن ماك إيتشيرن قد حظر عليه ذلك ولكنه لم يكن يصدق أن حياته يمكن أن تكون لها علاقة بهذا المكان كأنما قال لنفسه « ليس هؤلاء خاصتي أستطيع أن أراهم ولكني لا أعرف ما ، يفعلونه أو لماذا يفعلونه أستطيع سماعهم ولكني لا أعرف ما يقولونه ولا لماذا ولا لمن أعرف أن هناك شيئاً ما هناك اضافة إلى الطعام والأكل ولكني لا أعرف ما هو ولن أعرف أبداً .. »

www.ibtesama.com/vb

اذن تجاوز الأمر سطح التفكير وبين الفينة والأخرى خلال الأشهر الستة التي تلت كان يعود إلى البلدة ، ولكنه لم ير المطعم ولا حتى مرّ به كان يستطيع ذلك ولكنه لم يفكّر به ربما لم يكن في حاجة إلى ذلك وفي مرات عديدة كان يعرف ربما أن التفكير كان يتدفق فجأة متحولاً إلى صورة ، متشكّلاً ، متخذاً شكلاً ما النضد الطويل الفارغ غير المحدّد نوعاً ما مع المرأة الهادئة ، باردة الوجه ، عنيفة الشعر في أحد طرفيه كأنها تحرسه ، وفي الطرف الآخر الرجال الآخرون ذوو الرؤوس المنحنية نحو الداخل ، الذين يدخنون باستمرار ، والذين يشعلون لفافاتهم المتواصلة ويرمونها ، والنادلة ، المرأة التي لا يزيد حجمها كثيراً عن حجم طفل ، وهي تروح وتجيء من المطبخ وإليه بذراعيها المحمليّن بالأطباق والتي تضطر في كل مرة إلى المرور ضمن مسافة قريبة من الرجال الذين كانوا يميلون بقبعاتهم الموروبة ويتحدثون إليها من خلال دخان لفافاتهم ، ويهمهمون بشيء هو بين المزح والابتهاج ، ووجهها في حالة من التفكير ، رزين ، مطأطىء ، وكأنها لم تسمع فكّر « ولا أعرف حتّى ما يقولونه لها » ، مفكّراً ولا أعرف حتى إن كان ما يقولونه لها هو شيء لا يقوله الرجال لطفل عابر مصدقاً لا أعرف بعد أنه في لحظة النوم يسجن هدب العين المنغلق ضمن العين وجهها الرزين المتأمّل ؛ التراجيدي الحزين والشاب ؛ المنتظر ، الملوّن بكل سحر الرغبة الشابة الغامضة عديمة الشكل . وأن هناك على نحو مسبق شيء يتغذى عليه الحب ذلك النوم . أعرف الآن لماذا ضربت تلك الفتاة الزنجية محجماً عنها منذ ثلاث سنوات وأن عليها أن تعرف ذلك أيضاً وتفخر به ، بانتظار وفخر

www.ibtesama.com/vb

اذن لم يكن يتوقع أن يراها ثانية ، حيث أن الحب لدى الشباب يتطلب من الأمل ذلك القدر الضئيل نفسه الذي يتطلبه من الرغبة ليعيش وربما كان مندهشاً جداً من تصرفه وما دلّ عليه وكشفه بقدر ما كان ماك إيتشيرن بسيندهش هو أيضاً هذه المرة كان اليوم هو السبت ، وكان الفصل ربيعاً الآن كان قد أصبح في الثامنة عشرة وكان على ماك إيتشيرن أن يزور المحامي مرة أخرى الاّ أنه كان مستعداً هذه المرة قال

– سأغيب مدة ساعة يمكنك أن تتجوّل وترى البلدة

وقد نظر إلى جو مرة أخرى ، بقسوة ، وحذر ، مغتاظاً بعض الشيء مرة أخرى ، كرجل عادل أجبر على أن يسوّي بين العدالة والحكم قال

– خذ

فتح محفظة نقوده وأخرج قطعة نقود منها كانت من فئة العشرة سنتات

– يمكنك أن تحاول ألاّ ترمي بها حالماً تستطيع أن تجد شخصاً يأخذها هذا أمر غريب

هذا ما قاله بغيظ وهو ينظر إلى جو ثم استأنف قائلاً

– ولكن يبدو مستحيلاً أن يعرف الرجل قيمة المال دون أن يضطر أوّلاً إلى أن يتعلّم كيف يبدّده عليك أن تعود إلى هنا خلال ساعة

أخذ قطعة النقود تلك وذهب مباشرة إلى المطعم لم يضع قطعة النقود في جيبه فعل ذلك دون قصد أو تصميم ، ودون ارادة تقريباً وكأن قدميه كانتا توجهان الأوامر إلى تصرفاته وليس رأسه قبض

www.ibtesama.com/vb

على السنتات العشرة الساخنة والصغيرة في كفه كما يفعل الأطفال دخل من الباب ذي الشريط المنخلي ، مضطرباً ، متعثراً ، إلى حد قليل راحت المرأة الشقراء خلف صندوق السيجار تراقبه (كأنما لم تتحرك من هناك خلال الأشهر الستة الماضية ولم تتغير ولا جديلة واحدة من شعرها النحاسي اللامع الخشن أو حتى ثوبها) في الطرف البعيد من النضد كانت مجموعة الرجال بقبعاتهم الموروبة ولفافاتهم وروائح دكاكين الحلاقة تراقبه أيضاً كان صاحب المطعم بينهم لاحظ ، رأى صاحب المطعم لأول مرة وكالرجال الآخرين كان هذا يرتدي قبعة ويدخن أيضاً لم يكن رجلاً ضخماً ، ليس أضخم من جو نفسه بكثير ، ولفافة مشتعلة في زاوية فمه كأنه يجد صعوبة في الكلام ومن ذلك الوجه المنحرف والهادىء خلف الدخان المتموج الصاعد من اللفافة التي لم تكن تلمس ولو مرة واحدة باليد حتى تحترق عن آخرها ثم تبصق وتهرس تحت الكعب ، من ذلك كله كان جو سيستمد واحدة من أساليبه المتميزة في التصرف ولكن ذلك لم يكن قد حدث بعد كان ذلك سيأتي لاحقاً حين راحت الحياة تمضي بسرعة هائلة إلى حد أن القبول حل محل المعرفة والتصديق والآن نظر فحسب إلى الذي الرجل كان يتكىء على النضد من الداخل ، في مريلة قذرة كان يرتديها كما قد يرتدي قاطع طريق لحية مزيفة للتو واللحظة كان القبول سيأتي لاحقاً ، مع كل ذلك الازدراء الكامل لسرعةالتصديق هذان الشخصان كزوج وزوجة ، المؤسسة كمهنة للأكل مع النادلات بالتتابع والأطباق الرخيصة من الطعام البسيط كمهنة مبررة ؛ وهو نفسه يقبل ويأخذ خلال عطلته الموجزة

www.ibtesama.com/vb

العنيفة كفحل صغير السنّ في حالة من عدم التصديق والدهشة المنتشية في مرعى خفيّ مليء بالأفراس المتعبة والمحترفة ، وهو بدوره ضحية لرجال مجهولين لا يعدّون ولا يحصون

ولكن ذلك لم يكن قد حان بعد ذهب إلى النضد وهو يقبض على السنتات العشرة اعتقد أن الرجال قد توقفوا جميعاً عن الكلام ليراقبوه ، لأنه لم يكن يستطيع سماع شيء الآن باستثناء صوت قلبي شرير من وراء باب المطبخ ، مفكراً **إنها هناك في الخلف . لذلك لا أراها** انزلق جالساً فوق كرسي اعتقد أنهم يراقبونه جميعاً ظنّ أن المرأة الشقراء خلف صندوق السيجار كانت تنظر إليه ، وصاحب المطعم أيضاً ، والذي كان دخان اللفافة قد أصبح ساكناً على وجهه في تبختره الكسول ثم نطق صاحب المطعم بكلمة واحدة وعرف جو أنه لم يتحرك ولم يلمس اللفافة قال

— بوني

انه اسم رجل لم يكن ذلك تفكيراً كان شيئاً سريعاً ، كاملاً تماماً : **لقد رحلت . استخدموا رجلاً مكانها لقد ضيّعتُ السنتات العشرة ، كما قال** اعتقد أنه لم يعد قادراً على المغادرة الآن ، وأنه لو حاول الخروج فان المرأة الشقراء ستمنعه اعتقد أن الرجال في الخلف كانوا يعرفون ذلك ويضحكون عليه لذا جلس بهدوء تام على الكرسي ، وهو ينظر إلى الأسفل ويقبض بشدة على السنتات العشرة بيده لم ير النادلة حتى ظهرت اليدان الكبيرتان جداً فوق النضد مقابله وأمام نظره استطاع أن يرى النموذج المزين بالصور الخاص بثوبها والجزء الأعلى من مئزرها واليدين ببراجمهما الضخمة

www.ibtesama.com/vb

ممددتين فوق حافة النضد وساكنتين تماماً كأنهما شيء ما جلبته من المطبخ قال

– قهوة وفطيرة

كان صوتها خفيضاً وفارغاً تماماً :

– ليمون جوز الهند شوكولاته

بالتناسب مع الارتفاع الذي كان يصدر عنه صوتها ، فان اليدين ما كان ممكناً أن تكونا يديها اطلاقاً

قال جو

– أجل

لم تتحرك اليدان والصوت لم يتحرك

– ليمون جوز الهند شوكولاته أي نوع ؟

بالنسبة إلى الآخرين كانا يبدوان غريبين تماماً ، فبينما كان واحدهما يواجه الآخر عبر النضد المعتم المبقع المكسو بالشحم والذي ملس من كثرة الاحتكاك ، لابد وأنهما ظهرا كأنهما يصليان على نحو ما الشاب ذو الوجه الريفي في ملابس نظيفة وبسيطة ، وباضطراب منحه صفة روحية وبريئة ؛ والمرأة التي تقف في مقابله ، قصيرة القامة ، هادئة ومنتظرة والتي كانت بسبب ضآلة حجمها تشاركه أيضاً في صفته تلك ، بشيء يقع إلى ما وراء الجسد كان وجهها ذا عظام بارزة ، هزيلاً وكان اللحم مشدوداً فوق عظام وجنتيها ، ولها دوائر سوداء حول عينيها ؛ وتحت الأهداب المسدلة كانت عيناها تبدوان دون عمق ، كأنهما غير قادرتين حتى على أن تعكسا

www.ibtesama.com/vb

شيئاً وكان فكها السفلي ضيقاً جداً بحيث لا يمكن أن يحتوي صفين من الأسنان

قال جو

ـ جوز الهند

قالها فمه لأنه أراد على الفور ألا يقولها كانت معه السنتات العشرة فقط وكان يمسك بها بشدة وإلى حد أنه لم يدرك بعد أنها مجرد عشرة سنتات كانت يده تتعرّق عليها ، فوقها وكان يعتقد أن الرجال كانوا يراقبونه ويضحكون مجدداً لم يستطع أن يسمعهم كما أنه لم ينظر إليهم ولكنه كان يعتقد أنهم يفعلون ذلك كانت اليدان قد رحلتا ثم عادتا ، ووضعتا طبقاً وفنجاناً أمامه نظر إليها الآن ، إلى وجهها وقال

ـ كم تكلف الفطيرة ؟

ـ الفطيرة بعشرة سنتات

كانت تقف هناك أمامه ، خلف النضد ، ويداها الكبيرتان قابعتان مجدداً فوق الخشب قاتم اللون ، بتلك الصفة المنهكة المنتظرة لم تنظر إليه قط قال بصوت ضعيف يائس

ـ أعتقد أني لا أريد القهوة

لم تتحرك لبرهة ثم تحركت احدى اليدين الكبيرتين وأخذت فنجان القهوة ، واختفت اليد والفنجان جلس هادئاً ناظراً إلى أسفل ثم حصل ما حصل لم يكن ذلك هو صاحب المطعم بل المرأة خلف صندوق السيجار . قالت

www.ibtesama.com/vb

ما الأمر ؟

قال النادلة

– انه لا يريد القهوة

انتقل صوتها ، وهي تتحدث ، وكأنها لم تتوقف عند السؤال كان صوتها خفيضاً هادئاً وكان صوت المرأة الأخرى هادئاً أيضاً

قالت

– ألم يطلب القهوة أيضاً ؟

قالت النادلة بذلك الصوت الخفيض الذي كان لا يزال يتحرك مبتعداً :

– لا أسأت الفهم

حين خرج ، وحين مرت روحه وهي تتلوى معذبة بالذل والندم ، وتتوق إلى الاختفاء ، مرت عبر الوجه البارد للمرأة خلف صندوق السيجار ، اعتقد أنه عرف أن لن يراها مرة أخرى لم يكن يعتقد أنه قادر على تحمّل رؤيتها مرة أخرى ، أو حتى أن ينظر إلى الشارع ، الى البوابة القذرة ، حتى ولو من مسافة ، مرة أخرى ، دون أن إفكر بعد **أن تكون شاباً شيء رهيب إنه لرهيب . رهيب** وحين مرت أيام السبت وجد واخترع أسباباً لتجنب الذهاب إلى البلدة وماك إيتشيرن يراقبه ، وان يكن دون شك فعلي بعد كان يقضي الأيام بالكدح ، بالكدح الشديد ؛ وتأمل ماك إيتشيرن هذا بريبة ولكن لم يكن هناك شيء ما يستطيع الرجل أن يعرفه ، أو يستنتجه كان مسموحاً له بالعمل ثم استطاع أن يجعل الليالي تمر طالما أنه كان

www.ibtesama.com/vb

متعباً إلى حد أنه لا يستطيع أن يتمدّد مستيقظاً وفي الوقت المناسب تضاءل اليأس والندم والعار لم يتوقف ليتذكر أو ليقوم بردة فعل تجاه ذلك ولكنه اهترأ كأسطوانة أصبح مألوفاً بسبب الخطوط اللولبية التي تجعل الأصوات باهتة وبعد فترة قبل حتى ماك إيتشيرن الحقيقة قال

– كنت أراقبك مؤخراً والآن لا شيء هناك سوى أن أضطر إلى أن أشكّ في عينيّ أو أن أصدق اذن أنك قد بدأت أخيراً تقبل بما كتبه الله عليك ولكني لن أسمح لك بأن تصبح مزهواً لأني مدحتك سيتاح لك الوقت والفرصة (والرغبة أيضاً ، ولا أشك في ذلك) كي تجعلني أندم على أني تكلمت الوقوع في براثن الكسل والتبطل وعلى أية حال فان الجزاء خلق للانسان شأنه شأن العقاب هل ترى تلك العجلة هناك ؟ من اليوم فصاعداً هي لك واحرص على ألاّ أندم على ذلك لاحقاً

شكره جو ثم استطاع أن ينظر إلى العجلة ويقول بصوت مرتفع

– تلك ملكي

ثم نظر إليها ، وكان الأمر سريعاً جداً وكاملاً جداً بحيث يصعب أن يكون تفكيراً **إنها ليست هدية . انها ليست وعداً حتى إنها تهديد** مفكراً « لم أطلبها أعطاها اليّ لم أطلبها » مصدقاً **الله يدري . أني قد استحققتها**

حدث ذلك بعد شهر حدث صباح يوم سبت قال ماك إيتشيرن

www.ibtesama.com/vb

– ظننت أنك لم تعد تحب البلدة

قال جو

– أعتقد أن رحلة واحدة أخرى لن تضرني

كان معه نصف دولار في جيبه منحته إياه السيدة ماك إيتشيرن. كان قد طلب خمسة سنتات ولكنها أصرت أن يأخذ نصف الدولار أخذه وأمسك به في يده ببرود واحتقار

قال ماك إيتشيرن

– لا أفترض ذلك لقد عملت بجد أيضاً ولكن التردد على البلدة ليس بالعادة الصالحة لرجل ما زال عليه بعد أن يختط طريقه

لم يكن في حاجة إلى الهروب ، رغم أنه كان سيفعل ذلك حتى بالعنف ربما ولكن ماك إيتشيرن سهّل عليه الأمر ذهب إلى المطعم ، بسرعة دخل دون تعثّر هذه المرة لم تكن النادلة هناك ربما رأى ، لاحظ أنها لم تكن هناك . وقف عند نضد السيجار ، الذي كانت المرأة تجلس خلفه ، ووضع نصف الدولار على النضد

– أنا مدين لكم بخمسة سنتات مقابل فنجان قهوة قالت فطيرة وقهوة قبل أن أعرف أن الفطيرة بعشرة سنتات أنا مدين لكم بخمسة سنتات

لم ينظر نحو المؤخرة كان الرجال هناك ، في قبعاتهم المورو بة ولفافاتهم كان صاحب المطعم هناك ، ينتظر ، سمعه جو أخيراً كان في مئزره القذر يتحدث عبر اللفافة

www.ibtesama.com/vb

— ما الأمر ؟ ما الذي يريده ؟

قالت المرأة

— يقول انه مدين لبوني بخمسة سنتات يريد أن يعطي بوني خمسة سنتات

كان صوتها هادئاً وكان صوت صاحب المطعم هادئاً

قال

— حسناً بحق المسيح

بالنسبة إلى جو كان المطعم مترعاً بالاصغاء سمع دون أن يسمع رأى دون أن ينظر كان يسير الآن باتجاه الباب ، وكان نصف الدولار قابعاً فوق النضد الزجاجي وحتى من مؤخرة المطعم كان صاحبه قادراً على رؤيته ، اذ قال

— وهذا لأيّ شيء ؟

تقول المرأة

— يقول انه مدين بفنجان قهوة

كان جو قد وصل إلى الباب تقريباً قال الرجل

— يا جاك

لم يتوقف جو

قال الرجل بصوت خفيض دون أن يتحرك بعد

— أعطيه نقوده

www.ibtesama.com/vb

كان دخان اللفافة لا يزال يلتفّ على نحو لولبي عبر وجهه ؛ وينفلّت لدى أية حركة قال الرجل

ــ أعيدي النقود إليه . لا أعرف ما غرضه . ولكنه لا يستطيع أن يقضيه هنا أعيدي النقود إليه عد إلى المزرعة يا حيرام . (١) ربما تستطيع أن تتدبر فتاة هناك بخمسة سنتات

كان الآن في الشارع يتعرق على نصف الدولار ، وقطعة النقود تعرّق يده ، يحسّ بها كأنها دولاب عربة سار ضمن الضحك لقد مرّ عبر الباب خلال الضحك ، ضحك الرجال لقد اجتاحه وحمله على امتداد الشارع ؛ ثم بدأ يتدفق عبره ، محتضراً ، تاركاً اياه للأرض ، للرصيف ، كان هو والنادلة يواجهان أحدهما الآخر. لم تره على الفور ، وهي تسير مسرعة ، تنظر نحو الأسفل ، في ثوب داكن وقبعة ومن جديد توقف لم تنظر هي إليه حتى ، رغم أنه سبق لها ونظرت إليه ، ورأته تماماً ، كما فعلت حين وضعت القهوة والفطيرة على النضد قالت

ــ أوه وأنت عدت لتعطيها لي أمامهم وهم ضحكوا منك حسناً ، قل ماذا تريد

ــ ظننت أنك قد تكونين اضطررت إلى دفعها بنفسك ظننت

ــ حسناً ، قل هل يمكنك أن تعطيني موعداً ؟ هل يمكنك الآن ؟

---

(١) في العهد القديم حيرام هو ملك صور الذي أرسل هدايا إلى المعبد أيام داوود وسليمان (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

لم يكونا ينظران أحدهما إلى الآخر ، وهما يقفان وجهاً لوجه بالنسبة إلى شخص آخر لابدّ أنهما كانا يبدوان كراهبين تقابلا خلال ساعة التأمّل في ممرّ حديقة

— ظننت فحسب أني

قالت

— أين تسكن ؟ في الريف ؟ حسناً ، قل ما اسمك ؟

— انه ليس ماك إيتشيرن انه كريسماس

— كريسماس ؟ هل هذا هو اسمك ؟ كريسماس ؟ حسناً قل

* * *

في فترات بعد الظهر من أيام السبت خلال وبعد المراهقة كان هو والأولاد الأربعة أو الخمسة يمارسون صيد الطيور والسمك كان يرى الفتيات في الكنيسة في أيام الأحد فقط لذا لم يكن قادراً على ملاحظة وجودهن وأن يفعل ذلك كان سيعني حتى بالنسبة إليه تراجعاً لبغضه الديني ولكن هو والأولاد الآخرون كانوا يتحدثون عن البنات ربما كان بعضهم — ذلك رتّب الموعد مع الفتاة الزنجية في عصر ذلك اليوم على سبيل المثال — يعرفهنّ قال للآخرين « جميعهن راغبات ولكنهن لا يستطعن أحياناً » والآخرون لم يكونوا يعرفون ذلك لم يكونوا يعرفون أن كل الفتيات راغبات ، هذا بغض النظر عن أنه توجد أوقات لا يستطعن فيها ممارسة ذلك كانوا يفكرون على نحو مختلف ولكن أن يعترفوا بأنهم لم يكونوا يعرفون الحقيقة الثانية يعني الاقرار بأنهم لم يكتشفوا الأولى

www.ibtesama.com/vb

لذا راحوا يضحكون بينما كان الصبي يحكي لهم « إنه شيء يحدث لهن مرة كل شهر » ثم وصف فكرته عن الطقوس الجسدية ربما كان يعرف وعلى أية حال فقد كان تصويره حيّاً بما فيه الكفاية ومُقْنعاً بما فيه الكفاية ولو حاول أن يصف ذلك كحالة ذهنية ، كشيء كان يعتقد به فحسب ، لما كانوا سيصغون إليه ولكنه رسم صورة حسية فعلية يمكن تمييزها بحاسة الشم وحتّى بالبصر .وقد أثارهم ذلك العجز المؤقت والمذلّ لذاك الذي يعذّب الرغبةويخبطها ؛ الشكل الناعم والمتفوّق الذي كانت الارادة تسكنه ، كان محتماً عليه في فترات محددة لا مفرّ منها أن يكون ضحية لقذارة دورية هكذا حكاها الصبي ،-والخمسة الآخرون يصغون بهدوء ،-ينظر واحدهم إلى الآخر ، متسائلين ومتكتّمين وفي يوم السبت التالي لم يذهب إلى الصيد معهم فكّر ماك إيتشيرن في أنه سبق له ورحل ، حيث لم تكن البندقية في مكانها ولكن جو كان مختبئاً في الحظيرة بقي هناك طوال ذلك اليوم . وفي يوم السبت التالي ذهب فعلاً ، ولكن لوحده ، في وقت باكر ، قبل أن يناديه الأولاد ولكنه لم يمارس الصيد لم يكن قد ابتعد عن البيت ثلاثة أميال حين أطلق النار على نعجة لقد وجد القطيع في واد خفيّ وقد طارده خلسة واصطاد نعجة ثم ركع ويداه مغموستان في الدم الدافىء للحيوان المحتضر ، وكان يرتجف ، وفمه جاف ، محملقاً نحو الخلف ثم تجاوز ذلك واستعاد نفسه لم ينس ما كان الصبي قد حكاه له لقد قبل ذلك فحسب وقد وجد أنه يستطيع التعايش معه ، إلى جانبه كأنما قال بهدوء غير منطقي ويائس حسناً . الأمر كذلك إذن ، ولكن ليس بالنسبة

www.ibtesama.com/vb

إليّ . ليس في حياتي وحتى كان ذلك منذ ثلاث أو أربع سنوات خلت وكان قد نسيه ، بمعنى أن واقعة ما قد تُنسى اذا ما خضعت لاصرار العقل على أنها ليست صحيحة ولا مزيفة

قابل النادلة في يوم الاثنين التالي بعد ذلك السبت الذي حاول فيه أن يدفع ثمن فنجان القهوة لم يكن الحبل معه آنذاك تسلّق من نافذته وقفز مسافة الأقدام العشرة نحو الأرض وسار مسافة الأميال الخمسة إلى البلدة لم يفكر اطلاقاً كيف سيتمكن من العودة إلى غرفته

وصل البلدة وذهب إلى الزاوية حيث طلبت منه الانتظار كانت زاوية هادئة وكان قد وصل مبكراً تماماً ، مفكراً **سيكون عليّ أن أتذكر . أن أدعها تريني ما أفعله وكيف أفعله ومتى .ألاّ أدعها تكتشف أني لا أعرف . أني سأضطر إلى الاكتشاف بواسطتها**

كان ينتظر منذ أكثر من ساعة حين ظهرت كان قد وصل مبكراً ساعة كاملة وصلت مشياً على الأقدام جاءت ووقفت أمامه ، ضئيلة الحجم ، بذلك المظهر الراسخ المنتظر الناظر نحو الأسفل الخارج من العتمة قالت

— هذا أنت

— وصلت إلى هنا بأسرع ما استطعت كان عليّ أن أنظر حتى يناما كنت أخشى أن أتأخر

— هل أنت هنا منذ زمن طويل ؟ منذ كم ؟

www.ibtesama.com/vb

— لا أعرف لقد عدوت معظم الطريق كنت أخشى أن أتأخر

— عدوت ؟ كل الأميال الثلاثة ؟

— انها خمسة أميال ليست ثلاثة..

— حسناً قل

ثم لم يتكلما وقفا هناك ، ظلان يواجهان أحدهما الآخر وبعد أكثر من عام قال وهو يتذكر تلك الليلة مدركاً فجأة كأنما **كانت تنتظر مني أن أضربها** قالت

— حسناً

كان قد بدأ يرتجف قليلاً كان قادراً على شم رائحتها ، على شم الانتظار هادئاً ، عاقلاً ، منهكاً قليلاً ؛ مفكراً **إنها تنتظر مني أبداً** ولا **أعرف** كيف حتّى بالنسبة إليه بدا صوته أحمق

— أعتقد أن الوقت متأخر

— متأخر ؟

— ظننت أنهما كانا ينتظرانك ينتظران حتّى

— ينتظران ينتظران

مات صوتها ، توقف نطقت دون أن تتحرك وقفا كظلين

— أعيش مع المدام وماكس أنت تعرف المطعم أنت تتذكرهما لا شكّ ، حين حاولت دفع السنتات الخمسة

بدأت تضحك كان هناك مرح في ضحكتها ، ولا أي شيء فيها

www.ibtesama.com/vb

ـ حين أفكر في ذلك حين أفكر بك قادماً إلى هناك بتلك السنتات الخمسة

ثم توقفت عن الضحك لم يكن هناك أي توقف للمرح في ذلك أيضاً كان الصوت الهادىء المذل الناظر إلى أسفل يصله

ـ لقد ارتكبت خطأ الليلة نسيت شيئاً ما

ربما كانت تنتظر منه أن يسألها عما كان ذلك ولكنه لم يفعل وقف هناك فحسب ، وصوت هادىء خفيض يحتضر في مكان ما بالقرب من أذنيه كان قد نسي أمر النعجة القتيل لقد عاش مع الحقيقة التي حكاها له الصبي الأكبر سناً منذ فترة طويلة جداً وبالنعجة الذبيح كان قد اكتسب حصانة ضد تلك الحقيقة ولفترة طويلة ما عاد ممكناً معها لتلك أن تبقى على قيد الحياة لذا لم يستطع أن يفهم أولاً ما الذي كانت تحاول هي ابلاغه وقفا عند الزاوية كانت عند طرف البلدة ، حيث يتحول الشارع إلى طريق تسير إلى ما وراء مرجات المنازل المنظمة والمرتبة ، بين منازل صغيرة متناثرة وحقول جرداء المنازل الصغيرة الرخيصة التي تشكل تخوم مثل هذه البلدات قالت

ـ إسمع ، أنا مريضة الليلة

لم يفهم لم يقل شيئاً ربما لم يكن في حاجة إلى أن يفهم ربما كان قد توقع على نحو مسبق سوء حظ مشؤوم ما ، مفكراً « كان الأمر جيداً جداً بحيث لا يمكن أن يكون حقيقياً ، على أية حال » مفكراً بسرعة كبيرة أسرع حتى من التفكير **في لحظة ستختفي**

www.ibtesama.com/vb

لن تبقى هنا . ثم سأعود إلى البيت ، إلى السرير ، كأني ما غادرته أبداً تابع صوتها الكلام

– نسيت ما هو موقع يوم الاثنين من الشهر حين قلت لك مساء الاثنين لقد فاجأتني على ما أعتقد في الشارع هناك يوم السبت لقد نسيت ما هو تاريخ اليوم على أية حال ولم أتذكر حتى غادرت

كان صوته هادئاً كصوتها

– وكيف مريضة ؟ أليس لديك دواء في المنزل يمكنك تناوله ؟

– أليس لدي

مات صوتها قالت

– حسناً

ثم قالت فجأة

– الوقت متأخر ، ولديك أربعة أميال تمشيها

– لقد سبق لي ومشيتها أنا هنا الآن

كان صوته هادئاً ، يائساً ، ساكناً قال

– أعتقد أن الوقت أصبح متأخراً

ثم تغير شيء ما ودون أن تنظر إليه ، أحست بشيء ما قبل أن تسمعه في صوته الخشن

– ما نوع المرض الذي تعانين منه ؟

لم تجبه على الفور ثم قالت وهي لا زالت تنظر إلى أسفل

– لم يسبق أن كانت لك حبيبة من قبل أراهن على ذلك .

لم يجب

www.ibtesama.com/vb

ـ هل سبق لك ؟

لم يجب

تحركت لمسته لأول مرة اقتربت وأخذت ذراعه ، بخفة ، بكلتا يديها نظر إلى الأسفل فاستطاع أن يرى الشكل الداكن لرأسها المطأطئة التي بدت كأنها قد أزيحت عن العنق قليلاً لدى ولادتها قالت له متوقفة باضطراب ، مستخدمة الكلمات الوحيدة التي كانت تعرفها ربما ولكنه كان قد سبق له وسمعها سابقاً كان قد سبق له وتراجع نحو الخلف ، عبر النعجة الذبيح ، الثمن الذي دُفع لقاء الحصانة ، إلى عصر ذلك اليوم الذي لم يصب فيه بأذى أو بدهشة بمقدار ما أصيب بالغضب ، وذلك وهو جالس على ضفة نهر كانت الذراع التي أمسكتها قد تحررت منها لم تصدق أنه كان ينوي أن يضربها ؛ كانت تعتقد العكس في الواقع ولكن النتيجة كانت هي نفسها وحين تلاشى على الطريق ، الشكل ، الظل ، اعتقدت أنه كان يعدو استطاعت أن تسمع قدميه لفترة ما بعد أن ما عادت قادرة على رؤيته لم تتحرك فوراً وقفت كما تركها ، دون حراك ، تنظر إلى أسفل ، كأنما تنتظر الضربة التي سبق لها وتلقتها

لم يكن يعدو ، ولكنه يمشي مسرعاً وباتجاه كان يأخذه بعيداً عن البيت ، عن المنزل الذي يبعد خمسة أميال والذي تركه بعد أن هبط من النافذة ولم يخطط بعد كيفية الدخول منها مرة أخرى سار على الطريق مسرعاً والتفّ خارجاً منها وقفز فوق حاجز نحو أرض مفلوحة كان شيء ما ينمو في الأخاديد إلى الوراء كانت غابات وأشجار وصل إلى الغابات ودخل ، بين الجذوع القاسية ، الهدوء

www.ibtesama.com/vb

المظلّل بالأغصان ، ذات الملمس الخشن والرائحة القوية اللامرئية وفي اللارؤية وصعوبة التعرّف ، كما في كهف ، بدا كأنه يرى صفاً متلاشياً من الجرار ذات الشكل الرقيق تحت نور القمر ، وقد ابيضّت ولم تكن أية واحدة منها كاملة كانت كلها مشققة ومن كل شق كان يصدر شيء سائل ، بلون التراب ، وقذر . لمس شجرة ، وهو يسند ذراعيه المسندتين إليها ، ويرى الجرار المصفوفة والمضاءة بنور القمر تقيأ

في يوم الاثنين التالي كان الحبل معه كان ينتظر عند الزاوية نفسها ؛ وكان مبكراً جداً مرة أخرى ثم رآها وصلت إلى حيث كان يقف قالت

— ظننت أنك قد لا تكون هنا

— حقاً ؟

أمسك بذراعها ، وجرّها على امتداد الشارع قالت

— إلى أين ذاهب أنت ؟

لم يجب ، بل راح يجرها نحو الأمام . كان عليها أن تخبّ لتجاريه كانت تخبّ باضطراب حيوان يعيقه ذاك الذي يميّزها عن الحيوانات: الكعب العالي والملابس وضآلة حجمها جرّها من الطريق نحو الحاجز الذي قد تجاوزه منذ أسبوع قالت

— انتظر

كانت الكلمات تقفز من فمها

— الحاجز لا أستطيع

www.ibtesama.com/vb

وبينما كانت تنحني لتمرّ بين اسلاك التي كان هو قد خطا من فوقها ، علق ثوبها انحنى وحرّره مع صوت تمزيق

قال

— سأشتري لك واحداً آخر

لم تقل شيئاً تركت نفسها تُجرُّ وهي نصف محمولة نصف مجرورة بين النباتات النامية وخطوط الفلاحة نحو الغابات والأشجار

* * *

أبقى الحبل معه ، ملفوفاً بعناية ، خلف اللوح الفالت نفسه في غرفته التي في العلية حيث كانت السيدة ماك إيتشيرن تبقي فيها مؤونتها من النقود من فئة الخمسة والعشرة سنتات ، مع فارق واحد هو أنه دفع بالحبل بعيداً في الحفرة بحيث لا تستطيع السيدة ماك إيتشيرن أن تصل إليه كان قد استوحى الفكرة منها وأحياناً ، وبينما يكون الزوجان العجوزان يشخران في الغرفة السفلية ، وحين يرفع الحبل الصامت كان يفكر بالمفارقة كان يفكر أحياناً في أن يحكي لها ؛ أن يريها أين يخفي أداة خطيئته ، بعد أن دخلت الفكرة رأسه ، وتعلم كيف وأين يخبئها عنها هي ولكنه كان يعرف أنها تريد أن تساعده فحسب على اخفائها وأنها ستريده أن يأثم حتى تستطيع مساعدته على اخفائها ؛ وأنها ستحدث لغطاً كبيراً من الهمسات المترعة بالمعاني والاشارات بحيث سيرتاب ماك إيتشيرن بوجود شيء ما رغما عن أنفه.

وهكذا بدأ يسرق ، يأخذ نقوداً من المؤونة ومن المحتمل جداً أن المرأة لم توح له بذلك ، ولم تذكر له النقود اطلاقاً . ومن الممكن

www.ibtesama.com/vb

أنها لم تعرف حتى أنه كان يدفع النقود مقابل اللذة كان الأمر وما فيه أنه راقب السيدة ماك إيتشيرن سنوات بحالها وهي تخبىء النقود في مكان معين ثم أصبح لديه شيء وجد ضرورة لاخفائه وقد وضعه في أسلم مكان يعرفه وفي كل مرة كان يخفي فيه الحبل أو يخرجه ، كان يرى علبة الصفيح التي تحوي النقود

في المرة الأولى أخذ خمسين سنتاً وقد فكر لبعض الوقت هل يأخذ خمسين سنتاً أم ربع دولار ثم أخذ السنتات الخمسين لأنها كانت هي المبلغ الذي يريده بالضبط وبذلك المبلغ اشترى صندوق حلوى فاقد النكهة عليه آثار الذباب من رجل ربحه مقابل عشرة سنتات في دكان لقاء لكمة قوية وجهها إلى آلة اللكم ثم أعطاه إلى النادلة كان ذلك أول شيء يعطيها اياه على الاطلاق وقد أعطاها اياه كأنما لم يكن هناك من فكّر قط في اعطائها أي شيء من قبل كان تعبيرها غريباً على نحو ما حين تناولت منه بابتذال الصندوق الصندوق الرديء المبهرج بيديها الكبيرتين كان يجلس في ذلك الحين على سريرها في غرفة نومها في المنزل الصغير حيث كانت تعيش مع الرجل والمرأة المسميين ماكس ومام وفي احدى الليالي قبل حوالي أسبوع من دخول الرجل غرفتها كانت تخلع ملابسها جالسة على السرير ، وها هي تخلع جواربها الآن دخل واستند على الخزانة الواطئة ذات المرآة وهو يدخن قال

– مزارع غني جون جاكوب أستور من حظيرة البقر

كانت قد غطت نفسها ، جالسة على السرير ، بهدوء ، وهي تنظر إلى أسفل .

www.ibtesama.com/vb

– انه يدفع لي

– بماذا ؟ أو لم يستنفد تلك السنات الخمس بعد ؟

نظر إليها

– لم أجلبك من ممفيس إلى هنا لتعلقي بشخص ريفي أخرق وربما كان الأجدر بي أن أبدأ بتوزيع الطعام أيضاً

– لا أفعل ذلك خلال الوقت المخصص لك

– بكل تأكيد لا أستطيع منعك أكره أن أراك تفعلين ذلك طفل لم ير في حياته دولاراً كاملاً ولو مرة واحدة بينما تمتلىء المدينة برجال يكسبون نقوداً كثيرة ويمكنهم أن يعاملوك حسب ما تستحقين

– ربما أحبه ربما لم تفكر أنت في ذلك

نظر إليها ، إلى قمة رأسها الساكنة المطأطئة وهي جالسة على السرير ، ويداها في حجرها انحنى على الخزانة وهو يدخن قال

– مام !

بعد فترة قال مرة أخرى

– مام ! تعالي إلى هنا

كانت الجدران رقيقة بعد برهة دخلت المرأة الشقراء الضخمة عبر البهو دون عجلة كانا كلاهما قادرين على سماعها دخلت قال الرجل

– هل عرفت ؟ تقول ربما تحبه أكثر من أي رجل آخر انها حكاية روميو وجولييت يا للمسيح الجميل !

نظرت المرأة الشقراء إلى قمة رأس النادلة الداكنة

www.ibtesama.com/vb

– ما رأيك بهذا ؟

– لا شيء كل شيء على ما يرام. ماكس كونفري يقدم الآنسة بوني آلن ، رفيقة الشاب

قالت المرأة

– اخرج

– بكل تأكيد لقد جلبتُ لها فكّة السنتات الخمسة

ثم خرج لم تكن النادلة قد تحركت ذهبت المرأة الشقراء إلى الخزانة واستندت عليها ، وهي تنظر إلى الرأس المطأطئة للمرأة الأخرى . قالت :

– هل يدفع لك ؟

لم تتحرك النادلة

– أجل يدفع لي

نظرت المرأة الشقراء إليها وهي تستند على الخزانة كما فعل ماكس .

– لقد قطعت كل تلك المسافة من ممفيس إلى هنا هل فعلت ذلك لتتخلّي عن كل شيء ؟

لم تتحرك النادلة

– أنا لا أضرّ بماكس

نظرت المرأة الشقراء إلى الرأس المطأطئة للمرأة الأخرى ثم التفتت وذهبت نحو الباب قالت

– احرصي على ألاّ تفعلي ذلك . هذا لن يدوم إلى الأبد هذه البلدات الصغيرة لن تستمر طوال تلك المدة أعرف ذلك لقد جئت من احداها .

www.ibtesama.com/vb

كانت جالسة على السرير ، ممسكة بعلبة الحلوى الرخيصة المبهرجة بيديها ، وظلت جالسة كما هي خلال حديث المرأة إليها ولكن كان جو الآن هو الذي يستند على الخزانة وينظر إليها بدأت تضحك. ضحكت وهي ممسكة بالعلبة المبهرجة بيديها وبراجمهما الكبيرة. كان جو يراقبها راقبها وهي تنهض وتمر به ، ووجهها مطأطىء . مرّت عبر الباب ونادت ماكس بالاسم لم يكن جو قد رأى ماكس الا في المطعم ، بقبعته ومئزره القذر وحين دخل ماكس لم يكن يدخّن دفع يده نحو الأمام وقال

— كيف حالك يا روميو ؟

كان جو يصافحه حتى قبل أن يميّز من هو قال

— اسمي جو ماك إيتشيرن

كانت المرأة الشقراء قد دخلت هي أيضاً وكانت تلك هي المرة الأولى أيضاً التي يراها فيها خارج المطعم رآها تدخل وهي تراقبها ، تراقب النادلة تفتح العلبة قدمتها إليهما قالت

— جلبها جو لي

نظرت المرأة الشقراء إلى العلبة لمرة واحدة لم تحرّك يدها قالت

— شكراً

كما نظر الرجل إلى العلبة دون أن يحرك يده

قال

— حسناً حسناً حسناً أحياناً يستمر كريسماس فترة طويلة(١) أليس كذلك يا روميو ؟

---

(١) يقصد هنا أن يتلاعب بالمعنى ما بين كريسماس كاسم وكريسماس بمعنى عيد ميلاد المسيح (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

كان جو قد ابتعد قليلاً عن الخزانة لم يكن قد سبق له ودخل المنزل من قبل كان ينظر إلى الرجل ، وعلى وجهه تعبير استرضائي حائر رغم أنه لا يدلّ على الانزعاج ، مراقباً وجه الرجل الغامض الأشبه بوجوه الرهبان ولكنه لم يقل شيئاً كانت النادلة هي التي نطقت

– اذا كنتم لا تحبونها فلا داعي إلى أن تأكلوا منها

كان يراقب ماكس ، يراقب وجهه ، ويسمع صوت النادلة ؛ الصوت الناظر إلى أسفل

– لا أسبّب لكم ولا لأي شخص آخر أي ضرر ليس في هذه المرة

لم يكن يراقبها ولا المرأة الشقراء أيضاً كان يراقب ماكس ، بذلك التعبير الحائر الاسترضائي غير الخائف نطقت المرأة الشقراء الآن ، وكان الأمر كأنهما يخاطبانه وفي حضوره بلسان يعرفان أنه لا يعرفه

قالت المرأة الشقراء

– اخرج من هنا

قال ماكس

– لأجل المسيح الجميل كنت سأقدم لروميو كأساً على حساب المحل

قالت المرأة الشقراء

– وهل يريد واحدة ؟

www.ibtesama.com/vb

– لا تتركيه في حالة من الترقب القلق بسبب سلوكه السابق
قولي له انها على حساب المحل

قال جو

– لا أعرف لم يسبق لي أن جربتها

قال ماكس

– لم يسبق له أن جرّب شيئاً على حساب المحل ، كرمى للمسيح الجميل

لم يكن قد نظر إلى جو مرة أخرى بعد أن دخل الغرفة ومن جديد كانا يخاطبانه ويتكلمان بسببه بلغة لم يكن يفهمها

قالت المرأة الشقراء

– هيا تعال الآن

خرجا المرأة الشقراء لم تنظر إليه قط ، والرجل لم يتوقف لينظر إليه . ثم كانا قد رحلا وقف جو قرب الخزانة في منتصف الغرفة كانت تقف النادلة ، تنظر إلى أسفل ، وعلبة الحلوى المفتوحة في يدها كانت الغرفة صغيرة ، فيها رائحة قديمة راكدة لم يكن جو قد رآها مسبقاً لم يكن يصدق أنه سيتاح له ذلك أبداً كانت الستائر مسدلة أما المصباح الكهربائي الوحيد فكان مضاء عند نهاية السلك ، مظلّلاً بصفحة من مجلة ثبتّت من حوله بالدبابيس وقد أصبح لونها أميل إلى اللون البنّي من شده الحرارة قال

– كل شيء على ما يرام كل شيء على ما يرام

لم تجبه ولم تتحرك فكّر بالعتمة في الخارج ، وبالليل الذي كانا فيه لوحدهما سابقاً قال

www.ibtesama.com/vb

– لنذهب

قالت

– نذهب ؟

ثم نظر إليها قالت

– إلى أين ؟ لماذا ؟

لا زال غير قادر على فهمها راقبها تأتي إلى الخزانة وتضع علبة الحلوى عليها وبينما راح يراقبها بدأت تخلع ملابسها بعنف وتقذفها بقوة

قال

– هنا ؟ هنا ؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها امرأة عارية ، رغم أنه كان عشيقها منذ شهر ولكنه حتى ذلك الحين لم يكن يعرف ما يتوقع رؤيته

تحادثا في تلك الليلة تمددا في السرير ، في الظلام وراحا يتحادثان أو هو الذي تحدث بالأحرى كان يفكر طوال الوقت « يا للمسيح ، يا للمسيح هذا هو الأمر اذن »

تمدد عارياً هو أيضاً ، إلى القرب منها ، يلمسها بيده ويتحدث عنها ليس عن المكان الذي قدمت منه وما الذي كانت تفعله ، بل عن جسدها كأنما لم يفعل ذلك بها أو بأية امرأة أخرى أي رجل من قبل كأنما كان يدرس بالكلام أجساد النساء ، بفضول طفل حكت له عن مرضها في الليلة الأولى لم يصدمه ذلك الآن وكالعري والشكل الجسدي ، كان ذلك أشبه بشيء ما لم يسبق له أن حدث

www.ibtesama.com/vb

أو وجد من قبل لذا قال لها بدوره ما كان يعرف أن يحكيه حكى عن الفتاة الزنجية في مبنى المطحنة في عصر ذلك اليوم قبل سنوات ثلاث حكى لها بهدوء وسلام ، متمدداً إلى القرب منها ، يلمسها ربما لم يستطيع حتى أن يعرف ان كانت تصغي أم لا ثم قال

— لقد لاحظت لون بشرتي وشعري

وانتظر جوابها ويده تمرّ ببطء على جسدها

همست هي أيضاً

— أجل ظننتك أجنبياً أنك لست من هذه المناطق

— الأمر مختلف عن ذلك أكثر من مجرد أجنبي لا يمكنك أن تحزري

— ماذا ؟ كيف تكون مختلفاً أكثر ؟

— احزري

كان صوتاهما هادئين كان كل شيء ساكناً ، والليل أصبح معروفاً الآن ، ولم يعد مرغوباً ولا من يتوق له

— لا أعرف ما أنت ؟

كانت يدها بطيئة وهادئة على خاصرتها غير المرئية لم يجب على الفور لم يكن يحاول تعذيبها ، بل كان الأمر أشبه بأنه لم يكن قد فكر بالاستمرار بالكلام .سألته مرة أخرى ثم قال

— في عروقي بعض من الدم الزنجي

عندها تمددت بسكون تام ولكنه سكون مختلف الاّ أنه لم يبد عليه أنه لاحظ ذلك . كان يتمدد بسلام هو أيضاً ويده تمرّ ببطء على خاصرتها صاعدة نازلة قالت

— أنت ماذا ؟

www.ibtesama.com/vb

– أعتقد أن في عروقي دماً زنجياً
كانت عيناه مغلقتين ، ويده بطيئة لا تتوقف
– لا أعرف   أظنّ ذلك
لم تتحرك   قالت على الفور
– أنت تكذب
قال دون أن يتحرك ويده لم تتوقف
– حسناً
قال صوتها في العتمة
– لا أصدق ذلك
قال ويده لا تتوقف
– حسناً

وفي يوم السبت التالي أخذ نصف دولار آخر من مخبأ السيدة ماك إيتشيرن وأعطاه إلى النادلة   وبعد يوم أو يومين كان لديه سبب كان يدعوه إلى الاعتقاد بأن السيدة ماك إيتشيرن قد افتقدت النقود وأنها كانت تشكّ في أنه قد أخذها   فقد قبعت تنتظره حتى أدرك أنها عرفت أن ماك إيتشيرن لن يقاطعهما   ثم قالت

– يا جو

توقف ونظر إليها ، وهو يعرف أنها لن تنظر إليه   قالت دون أن تنظر إليه وصوتها خفيض صريح

– أعرف أن الشاب الآخذ بالنمو يحتاج إلى النقود   أكثر مما يعطيك اياه با   السيد ماك إيتشيرن

نظر إليها حتى توقف صوتها وسكت تماماً   ومن الواضح أنه كان ينتظر منها أن تتوقف   ثم قال

www.ibtesama.com/vb

– نقود ؟ ما الذي أريده من النقود ؟

وفي يوم السبت التالي كسب دولارين من تقطيع الحطب لأحد الجيران وقد كذب على ماك إيتشيرن حين سأله عن مكان توجهه وأين كان وما فعله هناك أعطى النقود إلى النادلة ثم عرف ماك إيتشيرن عن العمل الذي قام به ربما اعتقد أن جو قد خبأ النقود ربما تكون السيدة ماك إيتشيرن قد قالت له ذلك

ربما كان جو والنادلة يذهبان إلى غرفتها مرتين في الأسبوع لم يكن يعرف في البداية أن أي شخص قد فعل ذلك ربما كان يعتقد أن تدبيراً خاصاً قد تمّ لصالحه ، لأجله ومن المحتمل جداً أنه ظلّ يعتقد حتّى النهاية أن ماكس ومام يجب أن يتم استرضاؤهما ، ليس بسبب الواقعة الفعلية ، بل بسبب وجوده هناك ولكنه لم يرهما مرة أخرى في المنزل ، رغم أنه كان يعرف أنهما كانا هناك ولكنه لم يكن يعرف بالتأكيد ان كانا يعرفان بوجوده أو إن كانا قد عادا بعد ليلة الحلوى تلك

كانا يتقابلان في الخارج عادة ، يذهبان إلى مكان ما آخر أو يتسكعان على الطريق إلى مسكنها ربما كان يعتقد حتّى النهاية أنه هو الذي أوحى بذلك ثم حدث في احدى الليالي أنها لم تقابله حيث كان ينتظرها انتظر حتّى أعلنت ساعة دار المحكمة الثانية عشرة ثم سار إلى مسكنها لم يكن قد فعل ذلك من قبل ، رغم أنه حتّى ذلك الحين ما كان يمكنه أن يقول انها قد حظرت عليه القدوم إلى هناك ما لم تكن هي معه ولكنه ذهب إلى هناك تلك الليلة متوقعاً أن يجد المنزل معتماً يخيم عليه النوم كان المنزل معتماً ولكن النوم لم يكن مخيماً عليه

www.ibtesama.com/vb

كان يعرف ذلك ، أنه وراء الستائر المعتمة لغرفتها لم يكن هناك أناس نائمون وأنها لم تكن وحيدة هناك كيف أدرك ذلك ؟ ما كان قادراً على أن يعرف ولا هو كان مستعداً لأن يُقرّ بما كان يعرفه فكّر « ربما يكون ذاك ماكس ولا أحد غيره » ولكنه كان يعرف أكثر من ذلك كان يعرف أن رجلاً كان معها في الغرفة . لم يرها منذ أسبوعين ، رغم أنه يعرف أنها كانت في انتظاره ثم حدث في احدى الليالي أن كان عند الزاوية حين ظهرت له ضربها ، دون تحذير مسبق ، وأحسّ بلحمها عرف عند ذاك ما كان لم يصدقه حتى ذلك الحين صرخت متألمة . ضربها مرة أخرى . همست

– ليس هنا ! ليس هنا !

ثم اكتشف أنها كانت تبكي لم تكن ذاكرته تحفظ أنه بكى صرخ وشتمها وهو يضربها ثم أمسكت به حتى سبب الضرب كان قد ولّى الآن قالت

– اهدأ ، اهدأ اهدأ ، اهدأ

لم يغادرا الزاوية في تلك الليلة لم يتمشّيا متسكعين ولم يتركا الطريق جلسا على ضفة معشوشبة منحدرة وراحا يتحدثان تكلّمتْ هذه المرة ، أنبأتْه لم يكن هناك داع للكثير من الكلام كان قادراً الآن على رؤية ما اكتشفه وكان يعرفه طوال الوقت الرجال المتبطّلون في المطعم بلفافاتهم المتراقصة وهم يكلمونها أثناء مرورها بهم ، وهي تروح وتجيء ، بثبات ، ناظرة إلى أسفل وذليلة وبينما راح يصغي إلى صوتها بدا أنه يشمّ الروائح الكريهة لكل الرجال مجهولي الأسماء

www.ibtesama.com/vb

فوق قذاراتهم   كانت رأسها مطأطئة بعض الشيء وهي تتكلم ، واليدان الكبيرتان لا زالتا في حجرها   لم يستطع أن يرى طبعاً   لم يكن مضطراً إلى أن يرى   قالت

– ظننت أنك كنت تعرف

قال

– لا   أعتقد أني لم أكن أعرف

– ظننت أنك كنت تعرف

قال

– لا   لا أعتقد أني كنت أعرف

وبعد أسبوعين كان قد بدأ يدخّن ، وكان يغمض عينيه نصف اغماضة بسبب الدخان ، وبدأ يشرب المسكرات أيضاً   كان يشرب في الليل مع ماكس ومام وأحياناً مع ثلاثة أو أربعة رجال ، وفي العادة مع امرأة أو امرأتين من البلدة نفسها ، وأحياناً مع الغريبات اللواتي يفدن من ممفيس ويبقين في البلدة أسبوعاً أو شهراً ، ويعملن كنادلات خلف نضد المطعم حيث يجتمع الرجال المتبطلون طوال النهار   لم يكن يعرف أسماءهم دائماً   ولكنه كان قادراً على أن يرفع حافة قبعته إلى الأعلى كما يفعلون   وخلال الأمسيات خلف الستائر المسدلة لغرفة الطعام في منزل ماكس كان يرفع حافتها أيضاً هكذا ويتحدث عن النادلة إلى الآخرين ، حتى في حضورها ، بصوته الشاب المرتفع الثمل اليائس ، مسمّياً إياها بعاهرته   وفي بعض الأحيان كان يأخذها بسيارة ماكس إلى حفلات رقص في الريف ، ويحرص دائماً على ألاّ يعرف ماك إيتشيرن بذلك   قال لها

www.ibtesama.com/vb

– لا أعرف أيا من هاتين ستثير جنونه أكثر من الأخرى ، أنت أو حفلة الرقص

وفي احدى المرات اضطروا إلى جعله ينام ، اذ كان دون حول أو قوة ، في المنزل الذي لم يكن يحلم حتى بدخوله ولو مرة واحدة وفي صباح اليوم التالي أخذته النادلة بالسيارة إلى بيته قبل الفجر حتى يدخل إلى المنزل قبل أن يمسك به أحد وخلال النهار راح ماك إيتشيرن يراقبه باستحسان صارم وحاقد

قال ماك إيتشيرن

– ولكن لا يزال لديك الكثير من الوقت لتجعلني أندم على تلك العجلة

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل التاسع

كان ماك إيتشيرن متمدداً في فراشه الغرفة كانت معتمة ، ولكنه لم يكن نائماً كان يتمدد إلى القرب من السيدة ماك إيتشيرن ، التي -كان يعتقد أنها-فعلاً-نائمة-،-مفكراً : «لقد تم ارتداء البذلة ولكن متى ؟ لم يكن ممكناً ارتداؤها خلال النهار لأنه تحت نظري باستثناء عصر أيام السبت ولكنه يستطيع في عصر أي يوم سبت أن يذهب إلى الحظيرة ، فيخلع ويخبيء الملابس اللائقة التي أطالب منه ارتداؤها ، ثم يرتدي الملابس التي يريدها ولا يحتاج الآن إلى مساعد ليرتكب الاثم » كأنما كان يعرف عندئذ ، كأنما قيل له وهذا يعني أن الملابس كانت ترتدى سراً ، وبالتالي في الليل على الأرجح . وان كان الأمر كذلك فقد رفض أن يعتقد أن الصبي كان لديه أكثر من مجرد هدف واحد الفسق لم يحدث أن ارتكب هو الفسق قط ولم يسمح لنفسه ولو مرة واحدة أن يستمع إلى شخص يتحدث عنه ومع ذلك فخلال ثلاثين دقيقة من التفكير المكثف عرف من أفعال جو بقدر ما كان ممكناً لجو أن يحكيه تقريباً ، باستثناء الأسماء والأماكن ومن المحتمل جداً أنه لن يصدق ذلك كله لو نطق به فم جو ، حيث

www.ibtesama.com/vb

أن الرجال من نوعه يتحلّون عادة بقناعات شديدة الثبات حول ميكانيكا الشر ومَسْرَحَتِه بقدر ما يتحلّون به من قناعات عن الخير وهكذا فان التعصب الأعمى والاستبصار كانا الشيء نفسه عملياً ، ولكن التعصب كان بطيئاً إلى حد ما ، فهذا جو النازل على حبله ، كان ينزلق كظلّ سريع عبر النافذة المفتوحة التي يديرها بدر كامل والتي كان ماك إيتشيرن يتمدد خلفها ولم يميزه ماك إيتشيرن على الفور أو ربما لم يصدق ما رآه ، حتى لو أنه كان قادراً على رؤية الحبل نفسه.. وحين وصل إلى النافذة كان جو قد سحب الحبل وعقده وأضحى في طريقه الآن إلى الحظيرة وبينما راح ماك إيتشيرن يراقبه من النافذة أحس بذلك الغضب غير الشخصي الذي يشعر به القاضي لو رأى رجلاً يُحاكم بتهمة قد تُسبّب له الاعدام ينحني ويبصق على كمّ حاجب المحكمة

وبينما راح يختبىء في ظلال الدرب في منتصف المسافة بين المنزل والطريق ، استطاع أن يرى جو عند بداية الدرب ثم سمع أيضاً السيارة ورآها تأتي وتتوقف ويصعد جو إليها ربما لم يكترث جو بمن كان فيها ربما كان يعرف مسبقاً وكان هدفه هو أن يرى في أي اتجاه ذهبت السيارة ربما اعتقد أنه كان يعرف ذلك أيضاً حيث أن السيارة كان يمكنها أن تذهب إلى أي مكان تقريباً في ريف مليء بالاتجاهات المحتملة وله طرق تؤدي إليها .ولأنه التفت عائداً الآن نحو المنزل ، وهو يسير بسرعة ، بذلك الغضب الصافي غير الشخصي نفسه كأنما كان يعتقد أنه سيتم ارشاده بواسطة غضب أعظم وأصفى بحيث لن يحتاج حتى إلى أن يشك في القدرات الشخصية وفي الخف

www.ibtesama.com/vb

المنزلي وبدون قبعة وبقميصه الليلي المحشور في بنطاله وبحمالتي بنطاله المدلاتين ، ذهب مباشرة كالسهم إلى الاسطبل وأسرج حصانه العجوز الضخم القوي الأبيض وعاد إلى الدرب وإلى الطريق يعدو به عدواً ثقيلاً ، رغم أن السيدة ماك إيتشيرن نادته باسمه من باب المطبخ وهو يخرج من الأرض المحيطة بالمنزل انعطف نحو الطريق بذلك العدو البطيء والثقيل ، وهما كلاهما ، الرجل والحيوان ، يميلان نحو الأمام بتيبّس كأنما هما في تظاهر قويّ وماحقٍ بالسرعة الهائلة رغم أن السرعة الفعلية نفسها كانت غائبة ، كأنما تلك القناعة العنيدة غير الزائفة بالقدرة الكلية والاستبصار كليهما واللذين كانا كلاهما يفيدان بأن الوجهة المعروفة والسرعة غير ضروريتين

سار بالسرعة نفسها مباشرة إلى المكان الذي كان ينشده والذي اكتشفه عبر ليلة كاملة ونصف مقاطعة ، رغم أنه لم يكن على مسافة بعيدة جداً ما كان قد قطع أربعة أميال الاّ وسمع صوت موسيقى من مكان متقدم ثم رأى قرب الطريق أنوار الطريق الخاصة ببناء احدى المدارس ، وهو بناء من غرفة واحدة كان يعرف على نحو مسبق مكان البناء ، ولكن لم يكن لديه سبب ولا أسلوب يعرف من خلاله أنه سيقام هناك حفل راقص الاّ أنه سار مباشرة إليه ونحو الظلال العشوائية للسيارات والعربات المصطفّة والجياد والبغال المسرجة التي تملأ البستان المحيط بالمدرسة ، وترجّل عن حصانه قبل أن يتوقف هذا لم يربطه إلى شجرة حتى نزل وهرع بالخف المنزلي وبحمالتي بنطاله المدلاتين ، وبرأسة المدورة ولحيته القصيرة الفظة الغاضبة نحو

www.ibtesama.com/vb

الباب المفتوح والنافذة المفتوحة من حيث تأتي الموسيقى وحيث كانت ظلال مضاءة بالكيروسين تمر عابرة بزمجرة منتظمة

ربما كان يعتقد ، هذا لو كان يفكر اطلاقاً ، أنه كان موجهاً ومدفوعاً من قبل ميكائيل (١) المقاتل نفسه وهو يدخل تلك الغرفة من الواضح أن عينيه لم تكونا حتى مخطئتين آنياً بسبب النور المفاجىء والحركة حين اندفع بين أجسام ذات رؤوس ملتفتة بينما هرع هو نحو الشاب ، تتبعه موجة من الدهشة وهرج أولي ، الشاب الذي تبناه بارادته وحاول أن ينشئه حسب إيمانه بما هو صحيح كان جو والنادلة يرقصان وجو لم يره بعد لم تكن المرأة قد شاهدته من قبل سوى مرة واحدة ، ولكن ربما تذكرته ، أو أن شكله الآن كان كافياً ولأنها توقفت عن الرقص واعترى وجهها تعبير أشبه بالذعر ، فقد رآه جو والتفت وحين التفت كان ماك إيتشيرن قد انقض عليه لم يكن ماك إيتشيرن قد سبق له ورأى المرأة سوى مرة واحدة ، ومن المحتمل جداً عندها أنه لم ينظر إليها ، كما كان يرفض الاستماع حين يتحدث الرجال عن الزنا ومع ذلك مضى مباشرة نحوها ، متجاهلاً جو آنياً قال « ابتعدي يا فاسقة ! » انقض صوته كالرعد على الصمت الملجوم بالصدمة ، والوجوه المحيطة التي جمدتها الصدمة تحت المصابيح الكازية (الكيروسين) والموسيقى التي توقفت والليل الهادىء المقمر لصيف شاب « ابتعدي يا مومس ! »

ربما لم يبد عليه أنه كان يتحرك بسرعة ولا أن صوته كان مرتفعاً ومن المحتمل جداً أنه بدا لنفسه وكأنه واقف باعتدال

---

(١) كبير الملائكة (المترجم)

وكالصخرة وبدون سرعة ولا غضب بينما كان فسوق البشر الضعيفين يغلي في تنهيدة طويلة من الرعب أمام الممثل الحقيقي للعرش السماوي الغاضب المعاقب ربما لم تكن حتّى يديه هما اللتان صفعتا وجه الشاب الذي ربّاه وآواه وكساه منذ أن كان طفلاً ، وربما حين انحنى الوجه ليتجنّب الصفعة وارتفع ثانية لم يكن ذاك هو وجه الطفل ولكن ما كان ممكناً له أن يندهش بسبب ذلك ، حيث لم يكن وجه الطفل هو ما كان مهتماً به بل كان وجه الشيطان الذي كان يعرفه أيضاً وحين سار بثبات نحو الوجه ، محدقاً إليه ، ويده لا تزال مرفوعة ، ربما كان من المحتمل جداً أنه سار باتجاهه في النشوة الغاضبة الحالمة التي لقديس سبق أن غُفِرَ له، سار نحو الكرسي النازل الذي لوّح به جو باتجاه رأسه ، نحو اللاشيء ربما أدهشه اللاشيء قليلاً ، ولكن ليس كثيراً وليس لفترة طويلة

* * *

ثم اندفع كل شيء بعيداً بالنسبة إلى جو ، مزمجراً ، محتضراً ، تاركاً اياه في مركز الباحة ، والكرسي المحطم لا زال يقبض عليه بيده ، وهو ينظر إلى أبيه بالتبنّي الممدد على الأرض كان ماك إيتشيرن ممدداً على ظهره وكان يبدو هادئاً تماماً الآن بدا كأنه نائم برأس فظة ، غير مغلوبة حتّى في الرقاد ، وحتى الدم على جبهته كان مسالماً وهادئاً

كان جو يتنفس بصعوبة كان قادراً على سماع تنفسه ، وشيء آخر نحيل وحاد وبعيد بدا وكأنه يصغي إليه فترة طويلة قبل أن يميّز أنه صوت امرأة نظر ورأى رجلين يمسكان بها وهي تتلوّى

www.ibtesama.com/vb

وتناضل ، وشعرها قد انهال نحو الأمام ؛ ووجهها الشاحب ملتو وقبيح تحت بقع الطلاء الوحشي ، وفمها ثقب صغير مثلم ممتلىء صراخاً صرخت وهي تحاول الافلات من الرجلين اللذين أمسكا بها

ـ يدعوني بالمومس ! ابن القحبة العجوز ذاك ! أفلتوني ! أفلتوني !

ثم توقف صوتها عن صنع الكلمات وراحت تصرخ فحسب تلوّت وكافحت محاولة أن تعض أيدي الرجلين اللذين كانا يقاومانها

سار جو نحوهما وهو لا يزال يحمل الكرسي المحطم وعند الجدران راقبه الآخرون وهم محتشدون ، متكتلون الفتيات في ملابس غير محتشمة وجوارب واردة بالبريد وأحذية ذات كعوب عالية ؛ والرجال ، شبان في مقتبل العمر في ملابس سيئة الخياطة أشبه بالكرتون ، واردة بالبريد أيضاً ، ولهم أيد خشنة متعبة وعيون سبق لها وكشفت عن ارث من التفكير الطويل الصبور في أثلام الأرض التي لا نهاية لها والأكفال البطيئة للبغال بدأ جو يعدو ، وهو يلوح بالكرسي قال « أفلتوها ! » وعلى الفور توقفت هي عن العراك وصبّت جام غضبها وصراخها عليه ، كأنما رأته للتو ، وأدركت أنه هناك أيضاً

ـ وأنت ! أنت جلبتني إلى هنا أيها الريفي الأخرق ابن الحرام الملعون من الله يا ابن الحرام أنت ! يا ابن القحبة أنت وهو أيضاً تضعه هو وتضعني أنا التي لم يسبق لها أن رأت ...

لم يبد على جو أنه يهاجم أي شخص معين ، وكان وجهه هادئاً تماماً تحت الكرسي المرفوع تراجع الآخرون من حول المرأة ، محررين اياها ، رغم أنها استمرت في ليّ ذراعيها كأنها لم تدرك ذلك

www.ibtesama.com/vb

صرخ جو

– اخرجي من هنا

دوّم مؤرجحاً الكرسي ، ولكن وجهه كان لا يزال هادئاً قال « تراجعوا » رغم أن أحداً لم يتحرك نحوه اطلاقاً كانوا جميعاً هادئين وصامتين كالرجل الذي على الأرض . لوّح بالكرسي متجهاً إلى الباب بظهره

– تراجعوا ! قلت اني سأقتله في يوم من الأيام ! لقد قلت له ذلك !

لوّح بالكرسي من حوله ، بوجه هادىء ، متجهاً بظهره نحو الباب

– لا يتحركنّ أحد منكم الآن

قال ذلك وهو ينظر بثبات ودون توقف إلى وجوه كان يمكن أن تكون أقنعة ثم رمى بالكرسي أرضاً وانعطف فجأة وقفز خارجاً من الباب ، نحو نور القمر الناعم الأرقش لحق بالنادلة وهي تصعد إلى السيارة التي جاءا بها كان يلهث ، ومع ذلك كان صوته هادئاً أيضاً صوت نائم يتنفس بصعوبة انما على نحو يكفي ليصدر أصواتاً قال

– عودي إلى البلدة سأكون هناك حالما

من الواضح أنه لم يكن واعياً لما يقوله ولا بما يحدث وحين التفتت المرأة فجأة في باب السيارة وبدأت تضربه في الوجه لم يتحرك ولم يتغير صوته

– أجل هذا صحيح سأكون هناك حالما

www.ibtesama.com/vb

ثم التفت وراح يغدو بينما كانت لا تزال توجّه ضرباتها إليه

ما كان يمكن أن يعرف أين كان ماك إيتشيرن قد وضع حصانه ، ولا حتى إن كان الحصان هناك ومع ذلك ركض مباشرة نحوه ، بشيء من ايمان أبيه بالتبي ، ايمانه الكامل بنهاية ناجحة مؤكدة للأحداث امتطاه وذار به نحو الطريق كانت السيارة قد سبق لها وانعطفت إلى الطريق رأى النور الخلفي يتضاءل ثم يختفي

عاد الحصان العجوز القوي الذي نشأ في المزرعة إلى البيت بخببه البطيء الثابت كان الشاب خفيفاً على ظهره ، متوازناً على نحو خفيف ، منحنياً على نحو جيد إلى الأمام ، منتشياً ربما بتلك اللحظة التي قال عنها « فاوستوس » انها لحظة وضع « أنت لن » خلفه الآن وإلى الأبد ، لحظة التحرر أخيراً من الشرف والقانون خلال الحركة كانت رائحة العرق الحلوة الحادة للحصان تهب عليه ، كبريتية ، والريح غير المرئية تطير عبره صرخ بصوت مرتفع

— لقد فعلتها ! فعلتها ! قلت لهم اني سأفعلها !

دخل الدرب وركب عبر نور القمر حتى المنزل دون ابطاء كان قد فكّر في أن الظلام سيكون سائداً ولكنه لم يكن كذلك لم يتوقف ؛ كان الحبل المخفي والملفوف بدقة وحذر جزءاً من حياته الميتة بقدر ما هو الشرف والأمل ، وكانت المرأة العجوز المتعبة واحدة من أعدائه مدة ثلاثة عشر عاماً وكانت مستيقظة الآن ، تنتظره كان النور مضاء في غرفة نومها هي والسيد ماك إيتشيرن وكانت تقف في الباب وتضع شالاً فوق قميص نومها قالت « جو ؟ » عند

www.ibtesama.com/vb

البهو أولاً كان وجهه لا يزال كما رآه ماك إيتشيرن حين نزل الكرسي عليه ربما لم تستطع أن تراه جيداً بعد قالت

– ما الذي حدث ؟ رحل بابا على الجواد سمعت

ثم رأت وجهه ولكنه لم تتح لها الفرصة لتتراجع خطوة إلى الخلف لم يضربها كانت يده على ذراعها لطيفة تماماً كانت مستعجلة ، وتزيحها عن طريقه ، بعيداً عن الباب أزاحها كما يزيح المرء ستارة عبر الباب قال

– انه في حفل راقص ابتعدي أيتها المرأة العجوز

التفتت ، ممسكة بالشال بيد وبالأخرى استندت بها إلى وجه الباب وهي تتراجع ، وتراقبه وهو يعبر الغرفة ويبدأ بصعود الدرج مسرعاً ، الدرج المؤدي إلى غرفته في العلية ودون أن يتوقف نظر إلى الخلف ثم استطاعت أن ترى أسنانه تلمع تحت نور المصباح

– انه في حفل راقص ، هل سمعت ؟ ولكنه لا يرقص على أية حال

ضحك ثانية تحت نور المصباح التفت برأسه وكان ضحكه ، المسرع في صعوده الدرج ، يتلاشى وهو يسرع ، يتلاشى نحو الأعلى من الرأس فنازلا كأنه يعدو ورأسه في المقدمة وهو يضحك نحو شيء كان يزيله كصورة رسمت بالحوار ويجري محوها عن اللوح الأسود

لحقت به ، صاعدة الدرج بجهد بدأت تلاحقه لحظة أن مرّ بها ، وكأن تلك الالحاحية العنيدة التي حملت زوجها بعيداً قد عادت كغباءة على كتفي الصبي وانتقلت منه إليها جرّت نفسها صاعدة

www.ibtesama.com/vb

الدرج المتهاوي ، ممسكة بالدرابزون بيد والشال بالأخرى لم تكن تتكلم ، لم تكن تناديه كأنما كانت شبحاً يطيع الأمر المعاد من قبل السيد الغائب لم يكن جو قد أضاء مصباحه ولكن الغرفة كانت مترعة بوهج قمريّ منكسر ، وحتّى دون هذا كانت قادرة على الأغلب على أن تعرف ما يفعله استندت باستقامة إلى الجدار ، وراحت تتحسس الجدار حتّى وصلت السرير وغاصت فيه ؛ جالسة عليه لقد استغرق ذلك منها بعض الوقت ، لأنها حين نظرت إلى اللوح الخشبي الفالت كان هو قد سبق له وراح يقترب من السرير ، حيث كان نور القمر يسقط مباشرة ، وراقبته وهو يفرغ العلبة الصفيحية على السرير ويجرف الكومة الصغيرة من النقود المعدنية والورقية بيده ثم يحشر يده في جيبه . عندها فحسب نظر إليها وهي جالسة هناك ، وهي ساقطة على ظهرها قليلاً الآن ، مستندة إلى ذراع واحدة وممسكة بالشال بالأخرى قال

– لم أطلبها منك تذكري ذلك لم أطلب لأني كنت أخشى أن تعطيها اليّ لقد أخذتها فحسب لا تنسي ذلك

التفت حتّى قبل أن يتوقف صوته عن الكلام راقبته وهو يلتفت في نور المصباح الذي كان يسقط على الدرج ، وراح ينزل لم تعد تراه ولكنها ظلت قادرة على سماعه سمعته في البهو مرة أخرى ، مسرعاً ، وبعد برهة سمعت صوت الحصان مرة أخرى وهو يعدو ؛ وبعد فترة لم يعد صوت الحصان مسموعاً

* * *

كانت هناك ساعة تدقّ في مكان ما حين حثّ جو الحصان العجوز الذي أنهكه التعب الآن عبر الشارع الرئيسي للبلدة كان

www.ibtesama.com/vb

الحصان يتنفس بصعوبة منذ بعض الوقت ، ولكن جو كان لا يزال يسير به خبباً إنما بتعثر ، وبعصا غليظة كانت تنزل ايقاعياً على كفل الحصان لم يكن ذلك سوطاً كان جزءاً من يد مكنسة زرعت في حوض زهور السيدة ماك إيتشيرن أمام المنزل ليتساق عليها نبات ما ورغم أن الحصان كان لا يزال يمارس حركة العدو ، الا أن سرعته لم تكن تتجاوز سرعة رجل يمشي وكانت العصا ترتفع وتنزل أيضاً بالبطء المستنفد والرائع نفسه والشاب على ظهر الحصان ينحني نحو الأمام كأنه لم يكن يعرف أن الحصان قد فترت سرعته ، أو كأنه يريد أن يرفع نحو الأمام والمقدمة الحيوان الواهن الذي راحت حوافره البطيئة تضرب بصوت أجوف موزون عبر الشارع الفارغ الذي رقّشه ضوء القمر كان لهما ــ الحصان والفارس ــ تأثير غريب حالم ، كلقطة سينمائية ذات حركة بطيئة والحصان يعدو بثبات ووهن على امتداد الشارع ونحو الزاوية القديمة حيث اعتاد هو الانتظار ، بملحاحية أقل ربما ولكن ليس بتوق أقل ، وأكثر شباباً

لم يكن الحصان يسير حتّى خبباً الآن ، على قوائم متيبسة ، وتنفسه أضحى عميقاً ومجهداً وخشناً وكل نفس أنين كانت العصا لا تزال تنزل ؛ ومع تباطىء تقدم الحصان زادت سرعة العصا بالنسبة نفسها بالضبط ولكن الحصان أبطأ ، وانحرف نحو افريز الطريق شده جو من رأسه وهو يضربه ، ولكنه أبطأ عند الافريز وتوقف ، وقد رقشته الظلال ، رأسه مطأطئة ، يرتجف ، وتنفسه أشبه بالصوت الانساني تقريباً ومع ذلك كان الفارس لا يزال ، ينحني نحو الأمام في السرج المتوقف ، في وضعية السرعة الهائلة ،

www.ibtesama.com/vb

وهو يضرب الحصان على كفله بالعصا ولولا ارتفاع ونزول العصا والأنفاس شديدة الأنين للحيوان ، لكانا أشبه بتمثال فروسي هرب من قاعدته وجاء ليرتاح في وضعية الانهاك الكامل في شارع هادىء فارغ مرقش ومبقع بظلال القمر

ترجل جو ذهب إلى رأس الحصان وبدأ يجذبها ، وكأنه يريد أن يجذبه إلى الحركة بالقوة البدنية ثم يقفز إلى ظهره لم يتحرك الحصان كفّ عن الحركة تماماً ، وبدا على جو أنه يميل قليلاً نحو الحصان ومن جديد أصبحا دون حراك الحيوان المستهلك والشاب ، الواحد منهما يواجه الآخر ، ورأساهما متقاربتان تماماً ، كأنهما منحوتان في وضعية الاصغاء أو الصلاة أو التشاور .. ثم رفع جو العصا وراح يضرب الحصان على رأسه عديمة الحركة ضربه بثبات حتى انكسرت العصا استمر في الضرب بالجزء المتبقي من العصا وهو ليس أطول من يده ولكنه أدرك على الأرجح أنه لم يكن يسبب أي ألم ، أو ربما كانت ذراعه قد تعبت أخيراً ، لأنه رمى بالعصا بعيداً والتفت ، دائخاً ، وقد سبق له وراح يمشي بخطوات طويلة لم ينظر إلى الخلف وبينما كان قميصه الأبيض المتلاشي يخفق ويضمحل في ظلال القمر ، راح يعدو خارجاً تماماً من حياة الحصان كأنه لم يسبق له أن وجد

مرّ بالزاوية التي اعتاد الانتظار فيها ولو أنه لاحظ أو فكّر اطلاقاً لكان عليه أن يقول **ياإلهي كم مر من زمن . كم مضى على ذلك من زمن** كان الشارع ينعطف نحو طريق مرصوفة بالحصا ، وأمامه مسافة ميل آخر يقطعها ، لذا راح يعدو ليس بسرعة بل باهتمام ، بثبات ، ووجهه مطأطىء قليلاً وهو يتأمل الطريق التي يدوسها تحت

www.ibtesama.com/vb

قدميه ، ومرفقاه عند جنبيه كعدّاء مدرب كانت الطريق تنعطف وتنعطف ، وقد بيّضها نور القمر محاطة على مراحل واسعة بالمنازل الصغيرة المتناثرة الجديدة الرهيبة التي يسكنها الناس الذين قدموا البارحة من اللامكان وغداً سيرحلون إلى لا مكان ، الذين يسكنون على حواف المدن كانت المنازل كلها معتمة بأستثناء واحد راح يعدو هو باتجاهه

وصل إلى المنزل وانعطف مبتعداً عن الطريق ، وهو يعدو ، كانت قدماه موزونتين ولهما وقع صاخب في صمت الليل المتأخر ربما كان قادراً على رؤية النادلة على نحو مسبق ، في ثوب داكن مناسب للسفر ، وقبعتها فوق رأسها وحقيبتها محزومة تنتظر (كيف كانا سيذهبان إلى أي مكان ، وبأية وسيلة سيرحلان ، ربما لم يفكر بذلك اطلاقاً) وربما ماكس ومام أيضاً ، ربما قد خلعا ملابسهما — ماكس دون معطف أو ربما في قميصه الداخلي ومام في كيمونو أزرق خفيف — وكلاهما منهمكان بأسلوب التوديع الصاخب المرح ولكنه لم يفكر قط ، حيث أنه لم يسبق له أن قال للنادلة أن تحضرّ نفسها للرحيل اطلاقاً ربما كان يعتقد أنه طلب منها ذلك ، أو أن عليها أن تعرف ، حيث أن تصرفاته الأخيرة ومخططاته المستقبلية لابدّ وأنها بدت بسيطة بما فيه الكفاية بحيث يفهمها أي شخص وربما اعتقد حتى أنه لم يبلّغها بأنه ذاهب إلى البيت للحصول على النقود حين دخلت السيارة

ركض نحو الرواق حتى الآن ، وحتى خلال ذروة مجده في المنزل ، كان دافعه دائماً هو أن ينزلق من الطريق إلى ظل الرواق

www.ibtesama.com/vb

ثم إلى داخل المنزل نفسه حيث يكون وصوله متوقعاً ، وبسرعة وسرية ما أمكن دقّ على الباب كان هناك نور في غرفتها ، وآخر عند نهاية البهو ، كما توقّع ؛ وكانت هناك أصوات تأتي من وراء النوافذ ذات الستائر المسدلة أيضاً ، أصوات عديدة استطاع تمييزها على أنها مصمّمة وليس مرحة بالأحرى وقد توقع ذلك أيضاً ، مفكراً **ربما يظنون أني لست قادماً . ذلك الحصان اللعين . ذلك الحصان اللعين** دقّ الباب مرة أخرى بقوة أكبر ، واضعاً يده على المقبض ، يهزّه ، يضغط بوجهه على الزجاج الذي في الباب الأمامي وله ستارة من الداخل توقفت الأصوات ثم لم يعد يأتي أي صوت اطلاقاً من داخل المنزل كان النوران ، الظل المنار في غرفتها والستارة المعتمة في الباب ، يشعّان بوهج ثابت لا يتذبذب ، كأن كل الناس في المنزل قد ماتوا فجأة حين لمس هو مقبض الباب دقّ مرة أخرى ، دون فاصل يذكر بين الدقة والأخرى ؛ كان لا يزال يدق حين تلاشى الباب فجأة (لم يكن أي ظل قد سقط على الستارة ولم يسمع أي خطوة وراءه) بصمت ، من تحت يده التي تدق كان قد سبق له وتجاوز العتبة كأنما كان مربوطاً إلى الباب ، حين ظهر ماكس من خلفه وسدّ الطريق أمامه كان يرتدي كامل ملابسه ، حتى القبعة قال « حسناً ، حسناً ، حسناً » لم يكن صوته مرتفعاً وكان أن جرّ جو بسرعة إلى داخل البهو وأغلق الباب وأوصده بالمفتاح قبل أن يعرف جو أنه أصبح في الداخل ومع ذلك فان صوته حمل مرة أخرى تلك الخاصية الغامضة ، تلك الخاصية الودية والفارغة تماماً والخالية تماماً من السرور أو المرح ، كَصَدَفَة ، كشيء يحمله

www.ibtesama.com/vb

أمام وجهه ويراقب جو من خلاله ، ممّا كان يسبب لجو في الماضي أن ينظر إلى ماكس بشيء يتراوح بين الحيرة والغضب قال « ها هو روميو أخيراً بلاي بوي شارع بيل » ثم تكلم بصوت أعلى قليلاً وهو يقول كلمة روميو بصوت مرتفع تماماً « ادخل وتعرف على الناس »

كان قد سبق لجو وراح يتحرك نحو الباب الذي كان يعرفه ، وهو يكاد يعدو مجدداً ، هذا لو أنه توقف فعلياً لم يكن يصغي إلى ماكس . لم يكن قد سبق له وسمع بشارع بيل ، تلك الصفوف الثلاثة أو الأربعة من البنايات في مدينة ممفيس والتي يبدو أمامها حي هارلم كديكور سينمائي لم يكن جو قد نظر إلى أي شيء لأنه رأى فجأة المرأة الشقراء واقفة في البهو عند المؤخرة لم يكن قد رآها تخرج إلى البهو اطلاقاً ، ومع ذلك فقد كان فارغاً حين دخل ثم رآها فجأة تقف هناك كانت مرتدية ملابسها ، تنورة داكنة اللون ، وقد أمسكت بقبعة في يدها ووراء باب معتم مفتوح مباشرة كانت كومة من الأمتعة ، عدة حقائب ربما لم يرها أو ربما رأى مرة وهو ينظر ، على نحو أسرع من التفكير لم **أظن أن لديها كل هذه الحقائب** ربما فكر عندها لأول مرة أنه لم تكن لديهم وسيلة يسافرون بها ، مفكراً **كيف أستطيع أن أحملها كلها** ولكنه لم يتوقف ، بل كان قد سبق له والتفت نحو الباب الذي كان يعرفه ولكنه لم يدرك وجود صمت شامل خلف الباب الا بعد أن وضع يده عليه ، صمت كان يعرف وهو في الثامنة عشرة الآن أنه يتطلب أكثر من شخص واحد ليضعه ولكنه لم يتوقف ؟ ربما لم يكن مدركاً حتى أن البهو

www.ibtesama.com/vb

كان فارغاً مرة أخرى، وأن المرأة الشقراء قد اختفت مجدداً دون أن يراها أو يسمعها وهي تتحرك

فتح الباب كان يعدو الآن ، أي كما قد يعدو رجل متقدماً على نفسه ومعرفته خلال فعل التوقف تماماً كانت النادلة جالسة على السرير كما رآها تجلس مرات عديدة وكانت ترتدي الثوب الداكن والقبعة ، كما توقع كانت جالسة ووجهها مطأطىء ولم تنظر حتى إلى الباب حين فتح ، ولفافة تحترق في يد ساكنة واحدة بدت رهيبة تقريباً في سكونها قبالة الثوب الداكن وفي اللحظة نفسها رأى الرجل الثاني لم يكن قد رأى الرجل سابقاً ولكنه لم يدرك ذلك الآن لقد أدرك لاحقاً فحسب أنه تذكر ذلك ، ثم تذكر الحقائب المكومة في الغرفة المعتمة التي نظر إليها للحظة بينما مضى التفكير أسرع من الرؤية

كان الغريب جالساً على السرير أيضاً ، وهو يدخن بدوره ، وكانت قبعته ممالة نحو الأمام بحيث سقط ظل الحافة على فمه لم يكن مسناً ، ولكنه لم يبد شاباً أيضاً ربما كان هو وماكس أخوين ، أعني أخوين كما قد يبدو رجلان أبيضان تاها في قرية أفريقية كأخوين لسكانها كان وجهه ، وذقنه حيث يسقط النور عليها ، هادئاً ولم يعرف جو ان كان الغريب ينظر إليه أم لا كما لم يكن يعرف أن ماكس كان يقف خلفه تماماً ثم سمع أصواتهم الفعلية دون أن يعرف ما قالوا ، دون أن يصغي **اسأله**

كيف له أن يعرف ربما سمع الكلمات ومن المحتمل ألا يكون ذلك قد حدث ربما كانت لا تزال أقل أهمية من صريف الحشرات

www.ibtesama.com/vb

وراء النافذة المغلقة ، أو الحقائب الجاهزة التي نظر إليها، ولم يرها بعد
لقد انصرف بعد ذلك مباشرة ، قالت بوبي .

ربما يعرف . لنكتشف إن كنا نقدر على ما نهرب منه ، على الأقل ،

ورغم أن جو لم يتحرك منذ أن دخل ، الا أنه كان لا يزال يعدو . وحين لمس ماكس كتفه التفت كأنما تم ايقافه في منتصف التيار لم يكن مدركاً حتى أن ماكس كان في الغرفة نظر إلى ماكس من فوق كتفه بنوع من الضيق الجنوني قال ماكس « هيا يا ولد ، ما الحكاية ؟ »

قال هو

— ما حكاية ماذا ؟

— الرجل العجوز هل تعتقد أنك قتلته ؟ هيا قل بصراحة أنت لا تريد توريط بوبي

قال جو

— بوبي

مفكراً بوبي بوبي التفت ، وهو يعدو ثانية ؛ وهذه المرة أمسك ماكس بكتفه ، رغم أنه لم يمسكه بشدة

قال ماكس

— هيا ألسنا كلنا أصدقاء هنا ؟ هل قتلته ؟

قال جو بلهجة مغتاظة تدل على عدم الصبر وكبح النفس وكأنه يتم ايقافه واستجوابه من قبل طفل

— قتلته ؟

www.ibtesama.com/vb

تكلم الغريب

– ذاك الذي توجت رأسه بالكرسي هل مات ؟

قال جو

– مات ؟

نظر إلى الغريب . وحين رأى فعلاً شاهد النادلة مرة أخرى وكان أن عدا مرة أخرى تحرك فعلاً الآن كان قد صرف الرجلين نهائياً من ذهنه ذهب إلى السرير وهو يشد جيبه وعلى وجهه تعبير النشوة والنصر معاً لم تنظر النادلة اليه لم تكن قد نظرت اليه ولا مرة واحدة منذ أن دخل ، رغم أنه من المحتمل أن يكون قد نسي ذلك تماماً لم تكن قد تحركت ، وكانت اللفافة لا تزال تحترق في يدها بدت يدها الساكنة كبيرة وميتة وشاحبة كقطعة لحم محضرة للطبخ ومن جديد أمسك به شخص ما من الكتف كان ذلك هو الغريب كان الغريب وماكس يقفان كتفاً إلى كتف وهما ينظران إلى جو

قال الغريب

– كفاك مواربة اذا كنت قد قتلت الشخص فقل ذلك لا يمكن أن يبقى ذلك سراً الآن وسيسمع به الجميع في الشهر التالي في الخارج

قال جو

– لا أعرف ، هذا ما أقوله لكم !

نظر من الواحد إلى الآخر ، اغتاظ ولكنه لم يحملق مغضباً بعد

– لقد ضربته وقد سقط أرضاً لقد قلت له اني سأفعلها ذات يوم

www.ibtesama.com/vb

نظر من أحدهما إلى الآخر ، إلى الوجهين الهادئين المتطابقين تقريباً ثم بدأ يهز كتفه تحت يد الغريب

تكلم ماكس

– لم أتيت إلى هنا اذن ؟

قال جو بلهجة الدهشة المترددة وهو يحملق من وجه إلى آخر بنوع من اليأس الغاضب انما الصابر حتى الآن

– لم أتيت ... لم أتيت لم أتيت إلى هنا ؟ أتيت من أجل بوبي هل تعتقد أني ... وأنا الذي قطعت كل الطريق إلى البيت لأجلب المال لأتزوجها

ومن جديد نسيهما تماماً ؛ صرفهما تحرر من يد الرجل والتفت إلى المرأة – مرة أخرى بذلك التعبير الغافل المنتشي والمعتز بنفسه من المحتمل جداً أن يكون الرجلان كلاهما قد خرجا تماماً في تلك اللحظة من حياته كقصاصتين من الورق ومن المحتمل جداً أنه لم يكن حتى واعياً حين ذهب ماكس نحو الباب ونادى وبعد لحظة دخلت المرأة الشقراء كان ينحني فوق السرير الذي كانت تجلس عليه النادلة الساكنة الحركة والناظرة إلى أسفل ، كان جسده محدودباً فوقها ، وكان يخرج الكومة الملفوفة من النقود والأوراق النقدية من جيبه ويضعها في جحرها وعلى السرير إلى قربها

– هيا ! انظري اليها انظري . لدى مال أترين ؟

ثم هبت الريح عليه مرة أخرى ، كما في مبنى المدرسة قبل ثلاث ساعات بين الوجوه المحدقة الفاغرة أفواهها هناك والتي كان قد نسيها في هذه الأثناء وقف في حالة من الهدوء الأشبه بالحلم ، منتصب

www.ibtesama.com/vb

القامة الآن في المكان الذي جعلته فيه الوقفة الفجائية للنادلة الجالسة ينتصب فيه،ورآها، على قدميها، تجمع النقود الملفوفة والمتناثرة وترميها بعيداً رأى بهدوء وجهها المتوتر ، الفم الصارخ ، العينين الصارختين أيضاً هو الوحيد بينهم جميعاً بدا أمام نفسه هادئاً ، ساكناً ؛ بصوته لوحده كان هادئاً بما فيه الكفاية ليسجل على الأذن قال

– أتعنين أنك لن تتزوجيني ؟ تعنين أنك لن تتزوجيني ؟

كان الأمر أشبه بما كان عليه في مبنى المدرسة أحد ما يمسك بها وهي تقاوم وتزعق ، وشعرها جامح من شدة هزها وتحريكها لرأسها ؛ ووجهها ، وحتى فمها ، في تناقض مع الشعر ، ساكنان كفم ميت في وجه ميت « يا ابن الزنا ! يا ابن القحبة ! تورطني وأنا التي عاملتك دائماً كأنك رجل أبيض رجل أبيض ! »

ولكن من المحتمل جداً حتى الآن أن ذلك كان مجرد ضجيج ، ضجيج لا يسجل أبداً مجرد جزء من الريح الطويلة حدق اليها فحسب ، إلى وجهها الذي لم يره من قبل قط ، وهو يقول بهدوء (سواء كان ذلك بصوت مرتفع أم لا ، لم يستطع معرفة ذلك) بدهشة بطيئة عجباً ، **لقد ارتكبت جريمة قتل من أجلها . حتى لقد سرقت من أجلها** كأنه قد سمع بذلك الآن فحسب ، فكر فيه ، وتم إبلاغه بأنه قد فعلها

ثم بدت هي أيضاً وكأنها تطير من حياته على الريح الطويلة كقصاصة ثالثة من الورق بدأ يؤرجح ذراعه كأن اليد لا زالت تمسك بالكرسي المحطم كانت المرأة الشقراء في الغرفة منذ بعض الوقت رآها للمرة الأولى ، دون دهشة ، بعد أن تجسدت بوضوح عبر هواء

www.ibtesama.com/vb

رقيق ، دون حراك ، بذلك الهدوء ماسي السطح الذي كان يكسبها احتراماً لا سبيل إلى تغييره وهادئاً كقفاز الشرطي الأبيض المرفوع ، والذي هو في مكانه تماماً كانت ترتدي الآن الكيمونو الأزرق فاتح اللون فوق ثياب السفر الداكنة قالت بهدوء

— خذاه . لنخرج من هنا . سرعان ما ستأتي الشرطة لى هنا وسيعرفون أين يبحثون عنه

ربما لم يسمع جو اطلاقاً ، ولا حتى صوت النادلة الزاعق

— لقد قال لي هو بنفسه انه زنجي ! ابن قحبة ! أنا أعاشر زنجياً ابن قحبة يورطني مع شرطة ريفية خرقاء في حقل راقص ريفي أخرق !

ربما سمع الريح الطويلة فحسب ، لأنه راح يؤرجح يده كأنما لا تزال تمسك بالكرسي ، وقفز على الرجلين ومن المحتمل جداً أنه لم يعرف حتى أنهما كانا قد سبق لهما وتحركا نحوه لأنه بشيء من الشعور غير السوي بالقوة والأهمية الذي أخذه عن أبيه بالتبني قفز بكامل قوته ومن تلقاء نفسه على قبضة الرجل الغريب ربما لم يشعر بالضربة أيضاً ، رغم أن الغريب ضربه مرتين عه الوجه قبل أن يصل الأرض ، حيث تمدد على ظهره كالرجل الذي تركه ممدداً في المدرسة ، وقد تمدد بسكون كامل ولكنه لم يغب عن الوعي لأن عينيه كانتا لا تزالان مفتوحتين ، وكانتا تنظران اليهم بهدوء لم يكن في عينيه أي شيء اطلاقاً ، لا الألم ولا الدهشة ولكنه لم يكن قادراً على الحركة وكان ذلك واضحاً ، بل تمدد هناك فحسب بتعبير تأملي عميق ، ينظر بهدوء إلى الرجلين ، والمرأة الشقراء لا زالت دون حراك

www.ibtesama.com/vb

ومصقولة ومطلية كتمثال ربما لم يستطع أن يسمع الأصوات أيضاً ،
أو ربما سمعها وما عادت لها أهمية بعد الآن أكثر من أهمية الأزيز
الجاف للحشرات المثابرة خلف النافذة

مخترعاً حيلة صغيرة حلوة كما كنت أريدها

كان عليه أن يبتعد عن المومسات

لا يمكنه أن يغالب نفسه . لقد ولد قريباً جداً من مومس

هل هو فعلاً زنجي ؟ لا يبدو كأحدهم

هذا ما قاله لبوبي في احدى الليلي . ولكني أظن أنها لا تعرف بعد عنه أكثر مما يعرف هو . أولاد الزنا هؤلاء مستعدون لأي شيء

سنكتشف ذلك . سنرى إن كان دمه أسود وبينما هو متمدد
بسلام وهدوء راح جو يراقب الغريب ينحني ويرفع رأسه عن الأرض
ويضربه في الوجه مرة أخرى ، وهذه المرة كانت الضربة قصيرة
لاذعة وبعد لحظة لعق شفته قليلاً كما يلعق طفل ملعقة الطبخ
راقب يد الغريب تعود ولكنها لم تسقط

هذا يكفي . لنذهب إلى ممفيس

واحدة أخرى فقط جو كان متمدداً بهدوء وهو يراقب اليد
ثم رأى ماكس قرب الغريب وهو ينحني أيضاً سنحتاج إلى القليل
من الدم لنتأكد بكل تأكيد . لا حاجة به إلى أن يشعر بالقلق . هذه أيضاً على حساب المحل .

لم تسقط اليد ثم كانت المرأة الشقراء هناك أيضاً كانت تمسك
بذراع الغريب من الرسغ **قلت هذا يكفي**

www.ibtesama.com/vb

الفصل العاشر

المعرفة دون حزن تتذكر ألف شارع همجي ووحيد وهي تبدأ من تلك الليلة حين تمدد على الأرض وسمع وقع الأقدام الأخير ثم الباب الأخير (حتى النور لم يطفئوه) ثم بقي متمدداً على ظهره ، بعينين مفتوحتين بينما راح المصباح الدائري المعلق فوقه يحترق بتوهج مؤلم ثابت كأنما هو في المنزل الذي مات فيه الناس كلهم لم يعرف كم بقي ممدداً هناك لم يكن يفكر اطلاقاً ، ولم يكن يعاني ربما كان واعياً بوجود نهايتي سلك مفصولتين تتبعان الارادة والوعي الأولي في مكان ما من داخله ، وكانتا كامنتين ، لا تتلامسان الآن ، تنتظران أن تتلامسا ، أن تتشابكا من جديد حتى يستطيع الحركة وبينما كانوا ينهون تحضيراتهم كانوا يخطون من فوقه بين الحين والآخر ، كأناس يستعدون لإخلاء منزل ما إلى الأبد فيخطون فوق شيء ينوون هجره في المنزل . **هنا يا بوبي هنا يا طفلتي ها هو مشطك نسيته ها هي نقود روميو الخاصة بعلف الدجاج أيضاً يا للمسيح لا شك أنه أخذ مال مدرسة يوم الأحد حتى أضيحى لبوبي الآن ألم تروه يعطيها النقود ألم تروا صاحب القلب الكبير العجوز يلتقطه يا طفلتي تمكنك أن تحتفظي به كقسط من دين أو كذكرى أو كشيء ما حتى**

www.ibtesama.com/vb

آخر ماذا هي لا تريده حسناً هذا سيء جداً هذا قاس لا نستطيع تركه هنا على الأرض فسوف يترك حفرة في الأرض فقد سبق وساعد على حفر حفرة كبيرة جداً بالمقارنة مع حجم كبير جداً لأي حجم هاي يا بوبي هاي ياطفلتي بالتأكيد سأحتفظ به لأجل بوبي وسوف تفعلين ذلك بحق الجحيم أعني سأحتفظ بنصفه لبوبي اتركوه هنا يا أولاد الزنا ما الذي تريدونه من ذلك المال إنه له حسناً بحق المسيح الجميل ما الذي يريده هو من المال إنه لايستخدم المال إنه لا يحتاج إليه اسألوا بوبي إن كان يحتاج هو إلى المال إنهم يعطونه المال حتى تضطر بقيتنا إلى أن تدفعه اتركوه هنا كما أقول ليس لي بحق الجحيم أتركه إنه لبوبي وهو ليس لك أيضاً ما لم يا للمسيح الجميل ستقولين لي إنه مدين لك بالمال أيضاً لأنه كان يعاشرك من خلف ظهري على الحساب قلت اتركوه يرحل طارد نفسك كله لايبلغ خمسة أو ستة دولارات لكل شخص ثم وقفت المرأة الشقراء فوقه وانحنت ، وهو يراقب بهدوء ، رفعت تنورتها وأخذت من أعلى جوربها رزمة مطوية رقيقة من النقود الورقية وأخذت واحدة منها وتوقفت وحشرتها في جيب الساعة الخاص ببنطاله ثم رحلت هيا اخرجي من هنا لست مستعدة بعد أنت نفسك عليك أن تضعي ذلك الكيمونو في الحقيبة وتغلقيها وتضعي البودرة على وجهك مرة أخرى اجلبي حقيبتك وقبعتك إلى هنا هيا الآن وأنت خذ بوبي وتلك الحقائب الأخرى وادخل السيارة وانتظرني وأنت يا ماكس هل تظنه سيترك أياً منكم لوحده ليسرق تلك أيضاً منه هيا الآن اخرجوا من هنا

ثم رحلوا جميعاً القدم الأخيرة ، الباب الأخير ثم سمع صوت السيارة يغطي على ضجة الحشرات ، ثم ارتفع صوتها أكثر ،

www.ibtesama.com/vb

ثم خفت صوتها حسب المستوى حتى عاد لا يسمع إلاّ الحشرات فقط ظل متمدداً هناك تحت النور لم يكن قادراً على الحركة بعد ، حيث كان يستطيع النظر دون أن يرى فعلاً ، وأن يسمع دون أن يعرف ؛ فنهايتا السلك لم تتشابكا بعد وهو ممدد هناك بسلام ، يلعق شفتيه بين الحين والآخر شأن الأطفال

ثم تشابكت النهايتان واتصلتا لم يعرف في أية لحظة بالذات ، الاّ أنه وعى فجأة برأسه وهي تطنّ ، وقد جلس ببطء ، وراح يكتشف نفسه مجدداً ، ثم نهض على قدميه كان يشعر بالدوار ؛ الغرفة راحت تدور به ، ببطء وسلاسة كالتفكير ، حتى قال التفكير ليس بعد ولكنه لم يكن يشعر بالألم بعد ، ولا حتى حين تمسّك بالخزانة وراح يفحص في المرآة وجهه المنتفخ الدامي ويتلمسه قال « يا للمسيح الجميل لقد ضربوني بالفعل » لم يكن يفكر بعد ؛ لم يكن التفكير قد استيقظ إلى ذلك الحد **أعتقد أنه من الأفضل لي أن أخرج من هنا أعتقد أنه من الأفضل لي أن أخرج من هنا** ذهب باتجاه الباب ، ويداه أمامه كالضرير أو كمن يمشي في نومه وصل إلى البهو دون أن يتذكر أنه مرّ عبر الباب ، ووجد نفسه في غرفة نوم أخرى بينما كان لا يزال يأمل أو ربما لم يصدق أنه كان يتجه نحو الباب الأمامي كانت غرفة صغيرة أيضاً . ومع ذلك كانت لا تزال ممتلئة بوجود المرأة الشقراء ، وبجدرانها الخشنة الضيقة كانت تنتفخ نحو الخارج بذلك الاحترام المكافح ذي السطح الماسي وعلى الخزانة الواطئة العارية كانت زجاجة ممتلئة بالويسكي تقريباً شربها ، ببطء ، دون أن يشعر بنارها إطلاقاً ، وتمسك بالخزانة ليبقى منتصباً . نزل الويسكي في حلقه بارداً كدبس السكر ، دون مذاق وضع الزجاجة وانحنى على الخزانة ، برأسه

www.ibtesama.com/vb

مطأطئة ، دون تفكير ، منتظراً ربما دون أن يعرف ذلك ، ربما دون أن ينتظر حتى ثم بدأ الويسكي يحترق في داخله وبدأ يهز رأسه ببطء من جانب إلى آخر ، بينما راح التفكير يتحد مع التفاف وانفكاك أحشائه البطيء الساخن « عليّ أن أخرج من هنا » دخل البهو كانت رأسه الآن هي الصافية ولكن جسده لا يريد التحرك كان عليه أن يتملقه على امتداد البهو ، مزلجا إياه على امتداد جدار واحد نحو المقدمة ، مفكراً « هيا الآن ، تماسك عليّ أن أخرج » مفكراً لو أني أستطيع فحسب جعله يخرج ، نحو الهواء ، الهواء البارد ، العتمة الباردة راقب يديه تتلمسان الباب ، حاول مساعدتهما ، استرضاءهما والسيطرة عليهما « على أية حال لم يقفلوا الباب عليّ » هكذا فكر « يا للمسيح الجميل ، ما كنت سأستطيع الخروج حتى الصباح لو فعلوا ذلك ما كنت لأستطيع فتح نافذة والنزول منها » فتح الباب أخيراً وخرج منه وأغلقه وراءه ، مجادلاً جسده مرة أخرى وهو الذي لم يكن يريد أن يغلق الباب ، واضطر إلى أن يغلقه على المنزل الفارغ حيث كان المصباحان يحترقان بتوهجهما الميت غير المرتعش ، دون أن يعرفا أن المنزل كان فارغاً ، غير مكترثين ، غير مكترثين بعد ذلك بالصمت والإقفار أكثر مما كانا قد اكترثا بالليالي الرخيصة الوحشية ، ليالي الكؤوس فاقدة المذاق المستخدمة مرات عديدة والأسرة فاقدة المذاق المستخدمة مرات عديدة كان جسده يذعن على نحو أفضل ويصبح طيّعاً نزل من الرواق المعتم إلى نور القمر ، ورأسه الدامية ومعدته الفارغة حارتان ، متوحشتان ، وشجاعتان بالويسكي ، ودخل الشارع الذي كان سيمتد به خمسة عشر عاماً

www.ibtesama.com/vb

زال أثر الويسكي مع مرور الوقت وتمّ تجديده. ثم زال مرة أخرى ، ولكن الشارع كان يمتّد ويمتدّ منذ تلك الليلة امتدت به الشوارع الألف كشارع واحد ، بزوايا وتعديلات على المشهد غير مُدْركَة بالحس ، تقطعها فترات من السفر بالسيارات عن طريق التوسل أو السرقة ، وبالقطارات والشاحنات ، وغربات ريفية ، وهو في العشرين والخامسة والعشرين والثلاثين جالسا على المقعد بوجهه الساكن القاسي والملابس (حتّى حين تكون قذرة ومهترّئة) الخاصة بسكان المدن وسائق العربة لا يعرف من هو أو ما هو المسافر ولا يجرؤ على السؤال امتدّ به الشارع إلى أوكلاهوما والميسوري وجنوباً حتّى المكسيك ثم عودة إلى الشمال حتّى تشيكاغو وديترويت ثم نحو الجنوب مرة أخرى وأخيراً إلى الميسيسبي امتد به ذلك خمسة عشر عاماً بين الحدود الوميضة المتوحشة والزائفة لمدن النفط حيث كان ، بملابسه المصنوعة من الجوخ المقلّم والحذاء الخفيف المسود من الطين الذي لا قعر له ، يتناول طعاماً فجاً من أطباق الصفيح التي تكلفه بين عشرة وخمسة عشر دولاراً للوجبة الواحدة ، وكان يدفعها من رزمة من الأوراق المالية بحجم الضفدع الأمريكي وملطخة بالطين الغزير الذي بدا دون قعر كالذهب الذي كان يفرزه كما امتد به الشارع عبر حقول قمح صفراء ملوّحا تحت الأيام الصفراء الشديدة من العمل والنوم الصعب في أكوام القش تحت القمر البارد المجنون لشهر أيلول ، والنجوم سريعة الزوال كان بدوره عاملاً ومعدّناً ومنقّباً عن الذهب ومُخْبِراً في لعب القمار ؛ كما تطوّع في الجيش وخدم فيه أربعة أشهر ثم فرّ من الخدمة ولم يقبض عليه قط ودائماً ، كان الشارع ، ان عاجلاً أم آجلاً ، يمتد به عبر مدن ، عبر أقسام من

www.ibtesama.com/vb

مدن متماثلة ومتقاربة وقابلة للتبادل دون أسماء لها يتذكرها بها ، وحيث كان تحت القنطرة المعتمة المريبة الرمزية لمنتصف الليل ينام مع النساء ويدفع لهن حين يكون لديه المال ، وحين لا يملكه كان ينام معهن على أية حال ثم يقول إنه زنجي . ولفترة من الزمن نجح في ذلك حين كان لا يزال في الجنوب كان الأمر بسيطاً جداً وسهلاً جداً في العادة كان يخاطر بتلقّي شتيمة من المرأة وقوّادة المنزل ، رغم أنه كان يضرب أحياناً حتى يفقد وعيه من قبل القوّادين الآخرين ، ليستيقظ لاحقاً في الشارع أو في السجن

حدث ذلك حين كان لا يزال (نسبيا) في الجنوب لأن اللعبة لم تنجح معه في احدى الليالي لقد نهض من الفراش وقال للمرأة انه زنجي قالت « أأنت كذلك حقاً ؟ ظننت أنك ربما مجرد لاتيني قذر آخر أو شيء ما آخر » نظرت إليه دون اهتمام معين ؛ ثم رأت بجلاء شيئاً ما في وجهه قالت « وماذا عن ذلك ؟ تبدو على ما يرام كان عليك أن ترى الزنجي الذي طردته قبل أن يحلّ دورك مباشرة » كانت تنظر إليه وهي هادئة تماماً الآن « قل لي أي مكان هو مقلب النفايات هذا (الذي نحن فيه) في رأيك ؟ فندق ريتز ؟ » ثم توقفت عن الكلام كانت تراقب وجهه وبدأت تتحرك نحو الخلف ببطء أمامه ، محدقة إليه ، وجهها يشحب ، وفمها مفتوح استعداداً للصراخ ثم صرخت فعلاً وقد تطلب الأمر حضور شرطيين لاخضاعه في البداية ظنوا أن المرأة قد ماتت

مرض بعد ذلك لم يكن يعرف أن هناك نساء بيضاوات ومستعدات للنوم مع ذوي البشرات السوداء بقي مريضاً مدة عامين كان

www.ibtesama.com/vb

يتذكر أحياناً كيف كان يخدع أو يغيظ البيض كي ينادوه الزنجي فيتشاجر معهم ، يضربهم أو يضرب هو بدوره والآن كان يتشاجر مع الزنجي الذي يدعوه بالأبيض كان يعيش مع الزنوج ، متحاشياً البيض كان يأكل معهم ، ينام معهم ، كان مولعاً بالقتال ، لايمكن التنبؤ بما يمكن أن يفعله ، غير ممكن التواصل معه كان يعيش الآن كزوج وزوجة مع امرأة تشبه تمثالاً من الأبنوس كان يتمدد في الليل إلى القرب منها في السرير ، أرقاً ، ويبدأ بالتنفس بصعوبة ومشقة كان يفعلها بتعمد ، وهو يشعر ، بل ويراقب ، صدره الأبيض يتقوس على نحو أعمق وأعمق داخل قفصه الصدري ، محاولاً أن ينفخ إلى جوفه الرائحة الداكنة ، التفكير والكينونة الداكنين والمبهمين للزنوج ، ويحاول مع كل تنهيدة أن يطرد من جسده الدم الأبيض والتفكير والكينونة الأبيضين وخلال ذلك كله كان منخراه يبيضّان ويتوتران على الرائحة التي كان يحاول جعلها رائحته ، وكيانه كله يتلوى ويتوتر بغضب جسدي وانكار روحي

ظنّ أن الوحدة هي ما كان يحاول النجاة منه ، وليس نفسه ولكن الشارع امتد به أكثر وكالقطط ، كان المكان الواحد هو نفسه كأي مكان آخر ولكنه لم يستطع أن يكون في أي من الأمكنة هادئاً الا أن الشارع امتد في أمزجته ومراحله ، وكان دائماً فارغاً ربما رأى نفسه كتجسدات لا عدد لها ، في صمت ، محكوم عليه بالحركة ، تدفعه شجاعة اليأس الواهن المستحثّ ؛ يأس الشجاعة التي كان يتوجب جعل فرصها واهنة ومستحثّة كان في الثالثة والثلاثين من العمر

www.ibtesama.com/vb

في عصر أحد الأيام وصل به الشارع إلى طريق ريفي في ميسيسبي .
كان قد غادر قطار شحن متجه إلى الجنوب قرب بلدة صغيرة لم يكن يعرف اسم البلدة ما كان ليكترث بالاسم الذي تطلقه على نفسها لم يره حتى على أية حال التفت من حولها ، متتبعاً الغابات ، ووصل إلى الطريق ونظر في كلا الاتجاهين لم يكن طريقاً مرصوفاً بالحصى ، رغم أنه بدا كثير الاستعمال إلى حد ما رأى عدداً من أكواخ الزنوج متناثرة هنا وهناك على امتداد الطريق ؛ ثم رأى منزلاً أكبر على مسافة نصف ميل أو نحوه كان منزلاً كبيراً ضمن بستان من الأشجار ، ربما كان مكاناً أوحى بالاعتزاز بالنفس في مرة من المرات ولكن الأشجار كانت في حاجة إلى التشذيب الآن والمنزل لم يعرف الطلاء منذ سنوات الا أنه استطاع أن يعرف أنه مأهول ، ولم يكن قد أكل طعاماً منذ أربع وعشرين ساعة فكر « هذا المكان قد يكون مناسباً »

ولكنه لم يقترب منه على الفور ، رغم أن العصر كان على وشك الانقضاء وبدلاً عن ذلك التفت إليه بظهره وذهب بالاتجاه الآخر ، في قميصه الأبيض المتسخ وبنطاله الجوخ المقلم المهترىء وحذائه المتشقق المغبر المديبي ، وقبعته القماشية التي يضعها بزاوية وقحة فوق لحية عمرها ثلاثة أيام ولكن حتى في ذلك الحين لم يكن يبدو كمتشرد على الأقل لم يبدُ كذلك بالنسبة إلى الصبي الزنجي الذي قابله الآن قادماً عبر الطريق مؤرجحاً دلواً قصديرياً أوقف الصبي وسأله

— من يسكن في ذلك المنزل الكبير هناك ؟

— انه منزل السيدة بيردن

— السيد والسيدة بيردن ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ لا يا سيدي لا يوجد سيد بيردن انها تعيش لوحدها هناك
ـ أوه امرأة عجوز على ما اعتقد
ـ لا يا سيدي ـ السيدة بيردن ليست عجوزاً وليست شابةأيضاً.
ـ وهي تعيش هناك لوحدها ألا تشعر بالخوف ؟
ـ ومن سيؤذيها في البلدة هنا ؟ الملونون في هذه الأنحاء يعتنون بها.
ـ الملوّنون يعتنون بها ؟

وعلى الفور كأنما حدث أن أغلق الصبي بابا بينه وبين الرجل الذي طرح عليه الأسئلة

ـ أعتقد أنه لا يوجد أحد في هذه الأنحاء من يمكن أن يسبب لها الأذى ، فهي لم تؤذ أحداً

قال كريسماس

ـ لا أعتقد ذلك كم تبعد البلدة التالية من هنا على امتداد هذه الطريق ؟

ـ حوالي الثلاثين ميلاً كما يقولون أنت لا تنوي أن تقطعها مشياً على الأقدام ، أليس كذلك ؟

قال كريسماس

ـ لا

ثم التفت وتابع سيره تابعه الصبي بنظره ثم التفت هو أيضاً وسار مجدداً والدلو الصفيحي يتأرجح على خاصرته المتلاشية وبعد خطوات قليلة أخرى نظر إلى الخلف كان الذي طرح عليه الأسئلة يتابع السير ، بثبات انما ليس بسرعة استأنف الصبي السير مرة أخرى ، في أوفروله القصير المرقّع باهت اللون كان حافي القدمين بدأ الآن يبطىء السير وهو لا يزال يتحرك نحو الأمام ، والغبار الأحمر

www.ibtesama.com/vb

يثور من حول الرجلين النحيلتين بلون الشوكولاته والساقين المهترئتين للأوفرول القصير جداً ؛ بدأ يغني دون لحن أو ايقاع وان يكن على نحو موسيقي وعلى نوتة واحدة

قل لا تفعل لم تفعل

لم تفعل لا تفعل من

أريد تلك الفتاة الصفراء

أيتها الفتاة الصفراء لا تختبئي

وبينما كان يتمدد ضمن شبكة من الشجيرات على مسافة مئة ياردة من المنزل ، سمع كريسماس ساعة بعيدة تدق التاسعة ثم العاشرة أمامه كان المنزل يتجسد مربعاً و ضخماً من حيث كان عند الأشجار كان هناك نور في احدى النوافذ في الطابق العلوي لم تكن الستائر مسدلة واستطاع أن يرى أن النور كان صادراً عن مصباح كازي ، وكان يرى بين الحين والآخر من خلال النافذة ظلّ شخص يتحرك عبر الجدار البعيد ولكنه لم ير اطلاقاً الشخص نفسه وبعد فترة أطفىء النور

كان المنزل معتماً الآن ؛ تخلّى عن المراقبة عندها تمدد في الغيضة على بطنه فوق الأرض الداكنة في الغيضة كانت العتمة غير قابلة للنفاذ ؛ ومن خلال قميصه وبنطاله أحسّ بها باردة قليلاً ، قريبة ، رطبة قليلاً ، كأن الشمس لم تصل أبداً إلى الهواء الذي كانت تحويه الغيضة استطاع أن يشعر بالأرض التي لم تتشمّس أبداً تضربه ، بطيئة ومتفتحة ، عبر ملابسه أصل الفخذ ، الكفل ، البطن ،

www.ibtesama.com/vb

الصدر ، الساعدان كانت ذراعاه متشابكتين وجبينه يرتاح عليهما ، وفي منخزيه كانت الرائحة الرطبة القوية للأرض الداكنة والخصبة

لم ينظر مرة أخرى نحو المنزل المعتم تمدد بسكون تام في الغيضة لأكثر من ساعة قبل أن ينهض ويخرج لم يتسلل . لم يكن في طريقة اقترابه من المنزل أي توارٍ أو حتى حذر خاص لقد مضى بهدوء فحسب كأن ذلك هو أسلوبه الطبيعي في التحرك والتفّ من حول كتلة المنزل التي لم يعد لها أبعاد الآن ، نحو المؤخرة ، حيث المطبخ لم يصدر أي ضجة الا بمقدار ما تثيره القطط حين توقف ثم انتظر لحظة تحت النافذة حيث كان النور في العشب من حول قدميه كانت الجداجد ، التي صمتت مع تحركه ، تحتفظ بجزيرة صغيرة من الصمت من حوله كظل رقيق أصفر من أصواتها الضئيلة ، وها هي تنطاق مرة أخرى ، ثم تصمت ثانية حين يتحرك بتلك الفجائية الصغيرة اليقظة من مؤخرة المنزل كان يبرز جناح ذو طابق واحد فكّر « سيكون هذا هو المطبخ أجل هذا هو » سار دون صوت ، متحركاً ضمن جزيرته الصغيرة من الحشرات التي تصمت على نحو فجائي استطاع أن يميّز بابا في جدار المطبخ كان سيجده غير مقفل لو حاول فتحه ولكنه لم يحاول مرّ به وتوقف تحت نافذة وقبل أن يجربه تذكّر أنه لم ير أي شريط منخليّ في النافذة المضاءة في الطابق العلوي

كانت النافذة مفتوحة أيضاً ، وكانت هناك عصا وضعت لتبقيها مفتوحة فكّر « ما رأيك بذلك ؟ » وقف إلى جانب النافذة ويداه على عتبتها ، متنفساً بهدوء ، دون اصغاء ، دون استراع ، كأنما لا حاجة

www.ibtesama.com/vb

إلى العجلة في أي مكان تحت الشمس « حسناً حسناً حسناً ما الذي تعرفه عن ذلك . حسناً حسناً حسناً » ثم تسلق النافذة بدا كأنه يتدفق نحو المطبخ المعتم ظل يعود دون صوت ودون حركة إلى الأم الكلية للقتام والعتمة ربما فكّر بتلك النافذة الأخرى التي اعتاد استخدامها والحبل الذي كان يعتمد عليه ، وربما لم يفكر

من المحتمل جداً أن ذلك لم يحدث ، كما من شأنه ألاّ يحدث أن تتذكر قطة نافذة أخرى وكالقطة ، بدا عليه أنه يرى في الظلام وهو ينتقل نحو الطعام دون أن يخطىء ، وكان في حاجة إليه وكأنه يعرف أين يجده ذلك أو أنّ عاملاً ما لا يعرفه كان يحركه أكل شيئاً من طبق غير مرئي بأصابع غير مرئية طعاماً غير مرئي لم يكترث بنوعية الطعام ولم يعرف ان كان قد تساءل أو تذوّق حتى توقف حنكه فجأة في منتصف عملية المضغ ومضى التفكير مسافة خمس وعشرين سنة إلى الوراء إلى الشارع ؛ عبر كل الزوايا غير المدركة للهزائم المرة والمزيد من الانتصارات المرة ، وخمسة أميال حتى إلى ما وراء زاوية اعتاد أن ينتظر فيها في زمن الحب الأول الرهيب ، ينتظر شخصاً نسي حتى اسمه ، مضى خمسة أميال حتى إلى ما وراء ذلك **سأعرفه خلال دقيقة لقد أكلته سابقاً ، في مكان ما . خلال دقيقة سأعرف** الذاكرة تدقّ **تعرف أرى أرى بل هو أشد من الرؤية والسماع أرى رأسي مطاطئة أسمع الصوت الرتيب الحازم الذي أعتقد أنه لن يتوقف عن الاستمرار إلى الأبد والتلصص أرى الرأس التي لا تقهر الأشبه بالرصاصة أرى اللحية النظيفة الفظة وكانتا هما أيضاً مطاطئتين وأنا أفكر كيف يمكنه أن يكون غير جائع إلى ذلك الحد وأنا أشم**

www.ibtesama.com/vb

فمي ولساني يبكيان الملح الحار للانتظار وعيناي تذوقان البخار الحار للانتظار وعيناي تذوقان البخار الحار من الطبق « انها البازلاء » هذا ما قاله بصوت مرتفع « بحق المسيح الجميل بازلاء حقل مطبوخة مع دبس السكر »

ربما كان الغائب منه أكثر من التفكير ربما كان قد سمع الصوت قبل أن يسمعه ، حيث أن الذي كان يصدره لم يكن يحاول الصمت والحذر مما كان يفعله هو ربما لم يسمعه ولكنه لم يتحرك اطلاقاً مع اقتراب صوت الأقدام المرتدية للخف المنزلي من المطبخ من داخل المنزل ، وحين تحرك أخيراً التفت فجأة ، وعيناه تتوهجان فجأة ، فرأى تحت الباب على نحو مسبق ، الباب الذي كان يوصل إلى المنزل نفسه ، النور المقترب الخافت كانت النافذة المفتوحة تحت مرمى يده كان في استطاعته أن يقفز منها في خطوة واحدة تقريباً ولكنه لم يتحرك لم يضع الطبق مكانه حتى بل أنه لم يتوقف حتى عن المضغ وهكذا كان يقف في الغرفة ، ممسكاً بالطبق ويمضغ ، حين فتح الباب ودخلت المرأة كانت ترتدي « روب دو شامبر » باهت اللون وتحمل شمعة ، ممسكة بها عالياً ، بحيث سقط نورها على وجهها : وجه هادىء ، جدّي ، غير منزعج اطلاقاً في النور الناعم للشمعة بدت كأنها لا تتجاوز الثلاثين بكثير وقفت في الباب نظر الواحد منهما إلى الآخر لأكثر من دقيقة ، بالوضعية نفسها تقريباً هو مع الطبق وهي مع الشمعة كان قد توقف عن المضغ الآن

قالت بصوت هادىء ، عميق قليلاً ، وبارد تماماً

ــ اذا كنت تريد الطعام فحسب ستجد هذا

www.ibtesama.com/vb

الفصل الحادي عشر

على ضوء الشمعة لم يبد عليها أنها تجاوزت الثلاثين بكثير ، تحت النور الساقط على الحضور الرقيق — غير المتأهب لا مرأة استعدت للنوم وحين رآها في ضوء النهار عرف أنها تجاوزت الخامسة والثلاثين وقد أبلغته لاحقاً أنها في الأربعين فكّر « وهذا يعني اما الواحدة والأربعين أو التاسعة والأربعين من الطريقة التي تلفظت بها » ولكنها لم تبلغه بهذا لا في الليلة الأولى ولا في الليالي اللاحقة

لقد أبلغته بالقليل جداً على أية حال كانا يتحادثان قليلاً ، وكان هذا يحدث عرضاً ، وحتى بعد أن أصبح عاشق سريرها ، سرير العنوسة في بعض الأحيان استطاع أن يصدق تقريباً أنهما لم يتحدثا اطلاقاً ، وأنه لم يعرفها اطلاقاً كأنما كان هناك شخصان ذاك الذي يراه بين الحين والآخر في النهار وينظر إليه حين يتخاطبان بحديث لا يفيد بشيء حيث أنه لا يحاول ولا ينوي ذلك ؛ والآخر هو الذي ينام معه ليلاً ولا يراه ولا يخاطبه اطلاقاً

وحتى بعد مرور عام (كان يعمل في ورشة النشر الآن) حين كان يراها نهاراً إذا ما حدث ذلك ، يكون ذلك عصر السبت أو الأحد

www.ibtesama.com/vb

أو حين يأتي إلى المنزل ليتناول الطعام الذي كانت تحضره له وتتركه على منضدة المطبخ بين الحين والآخر كانت تأتي إلى المطبخ ، رغم أنها ما كانت تبقى قط وهو يأكل ، وفي بعض الأحيان كانت تقابله في الرواق الخلفي ، حيث كانا ، خلال الأربعة أو الخمسة شهور الأولى من اقامته في الكوخ أسفل المنزل ، يقفان لفترة ويتحادثان كغريبين تقريباً كانا يقفان دائماً هي في واحد من السلسلة التي لا نهاية لها من الأثواب المنزلية القطنية النظيفة وأحياناً قلنسوة قماشية للشمس كامرأة ريفية ، وهو في قميص أبيض نظيف الآن والبنطال الجوخ المقلم الذي يكوى كل أسبوع في هذه الأيام لم يرها جالسة أبداً الا مرة واحدة حين نظر عبر نافذة في الطابق السفلي فرآها تكتب على مكتب في الغرفة وكان ذلك بعد مرور سنة على ملاحظته دون فضول حجم البريد الذي كانت تستلمه وترسله ، وأنها كانت تجلس عصر كل يوم إلى المكتب البالي المليء بالندوب من النوع ذي الغطاء اللفاف في احدى غرف الطابق السفلي نادرة الاستعمال قليلة الأثاث ، وتكتب بثبات ، قبل أن يعرف أن ما كانت تتلقاه كان وثائق عمل ووثائق خاصة عليها خمسون علامة بريد مختلفة وأن ما كانت ترسله كان عبارة عن اجابات نصائح ، تجارة وشؤون مالية ودينية ، إلى رؤساء كليات وأمناء ، ونصائح شخصية وعملية إلى طالبات شابات وحتى إلى خريجات من اثنتي عشرة مدرسة وكلية زنجية عبر الجنوب كله بين الحين والآخر كانت تغيب عن المنزل ثلاثة أو أربعة أيام في المرة الواحدة ، رغم أنه كان قادراً على رؤيتها الآن متى أراد في أية ليلة ، الا أنه مرت سنة كاملة قبل أن يعرف أنها في غياباتها كانت تزور المدارس شخصياً وتتحدث إلى المعلمات والطالبات.

www.ibtesama.com/vb

كانت مسائلها التجارية تدار من قبل محام زنجي في ممفيس كان قيّما على احدى المدارس ، وكان في خزانته الحديدية ، اضافة إلى وصيتها التعليمات الخطية (بخط يدها) حول كيفية التصرف بجسدها بعد الموت وحين علم بذلك فهم موقف البلدة تجاهها ، رغم أنه كان يعرف أن البلدة لم تكن تعرف بقدر ما يعرف هو قال في نفسه « إذن لن يزعجني أحد هنا »

وفي أحد الأيام أدرك أنها لم تدعه ولا مرة واحدة للدخول إلى المنزل الأصلي الحقيقي فهو لم يدخل إلى ما هو أبعد من المطبخ ، الذي سبق له ودخله من تلقاء نفسه ، مفكراً وقد رفع شفته « لم تستطع أن تبقيني خارج هنا أظنّ أنها تعرف ذلك » وهو لم يسبق له أن دخل المنزل نهاراً الاّ حين يأتي ليحصل على الطعام الذي تحضره له وتتركه على المنضدة حين كان يدخل المنزل ليلاً كان ذلك كما دخله في أول ليلة ؛ كان يشعر أنه أشبه بسارق ، بلصّ ، حتى وهو يصعد إلى غرفة النوم حيث تكون في انتظاره وحتى بعد عام كان يشعر أنه يدخل خلسة ليسلب عذريتها مجدداً في كل مرة كأنما كانت كل زاوية من زوايا العتمة تراه يواجه مرة أخرى ضرورة أن يسلب مجدداً ما سبق له وسلبه ، أو ما لم يكن قد سلبه ولن يسلبه

وأحياناً كان يفكر بالموضوع بتلك الطريقة ، متذكراً ذلك الاستسلام الصعب غير الدامع وغير المشفق على الذات وحتى المتصف بالخضوع الرجولي عزلة روحية ظلت سليمة فترة طويلة حتى لقد ضحّت غريزة حفظ الذات لديها بهذه العزلة ، وأضحى لشكل هذه العزلة الجسديّ قوة وصلابة الرجال شخصية مزدوجة الأولى هي

www.ibtesama.com/vb

التي فتحتها أمامه المرأة من النظرة الأولى تحت الشمعة المرفوعة (أو ربما صوت الأقدام المقتربة المرتدية للخفّ المنزلي) ، وكانت فورية كمنظر طبيعي تحت نور البرق ، أفق من الأمان والزنا الجسديين ان لم يكن من العتمة ؛ والثانية هي العضلات النامية لرجل وعادة التفكير الرجولية المتوارثة عن الأجداد والبيئة التي كان عليه أن يواجهها في آخر لحظة لم يكن هناك أي تردّد أنثوي ، ولا خجل فيما يخص الرغبة الواضحة والنية في الاستسلام أخيراً كأنما كان يتنازع جسدياً مع رجل آخر على شيء لا قيمة فعلية له بالنسبة إلى الرجلين كليهما ، ولكنهما يتنازعان عليه بسبب المبدأ فحسب

حين رآها في المرة التالية ، فكر في نفسه « يا إلهي لكم هو قليل ما أعرفه عن النساء ، وأنا الذي كنت أظن أني أعرف الكثير » ولكن في اليوم التالي مباشرة ، وبينما ينظر إليها ، وهي تخاطبه ، كأنما كانت ما تعرفه الذاكرة منذ أقل من اثنتي عشرة ساعة على أنه صحيح ما كان يمكن أن يحدث أبداً ، مفكراً **تحت ملابسها لا يمكنها حتى أن تكون بحيث يكون ما حدث قد حدث** لم يكن قد بدأ بالعمل في ورشة النشر بعد وقد أنفق معظم ذلك اليوم متمدداً على ظهره على السرير الذي أعارته اياه ، في الكوخ الذي أعطته اياه ليعيش فيه ، مدخّناً ، ويداه تحت رأسه فكر « يا إلهي ، كأنما أنا المرأة وهي الرجل » ولكن هذا لم يكن صحيحاً أيضاً لأنها قاومت حتى النهاية ولكن تلك لم تكن مقاومة المرأة ، تلك المقاومة التي — ان كانت تعنيها المرأة فعلاً — لا يمكن التغلّب عليها من قبل أي رجل بسبب أن المرأة لا تحترم أيّا من قواعد القتال الجسدي ولكنها قاومت

www.ibtesama.com/vb

على نحو متفق مع القواعد ، بالأحكام التي تنص على أنه في حال وجود أزمة معينة يمكن للمرء أن يُهزم ، سواء حانت المقاومة أم لا في تلك الليلة انتظر حتى رأى النور يحبو في المطبخ ويلتمع في غرفتها ذهب إلى المنزل لم يذهب في توق بل في غضب هادىء قال بصوت مرتفع « سأريها » لم يحاول أن يكون هادئاً دخل المنزل بجرأة وصعد الدرج ؛ سمعته فوراً قالت « من هذا ؟ » ولكن لم يكن هناك انزعاج في لهجتها لم يجب صعد الدرج ودخل الغرفة كانت لا تزال في ملابسها ، وكانت قد التفتت وراحت تراقب الباب وهو يدخل ولكنها لم تخاطبه بل راقبته فحسب وهو يذهب نحو الطاولة ويطفىء المصباح ، مفكراً « والآن ستهرب » وهكذا قفز نحو الأمام ، نحو الباب ليعترضها ولكنها لم تهرب وجدها في العتمة في المكان نفسه بالضبط الذي كانت فيه حين ضيعّها النور ، في الوضعية نفسها بدأ يخلع عنها ملابسها بعنف كان يحادثها بصوت متوتر ، قاس وخفيض « سأريك ! سأري العاهرة ! » لم تقاوم اطلاقاً كأنما كانت تساعده تقريباً ، مع تغييرات صغيرة في وضع الأعضاء حين دعت الحاجة القصوى إلى المساعدة ولكن تحت يديه كان يمكن للجسد أن يكون جسد امرأة ميتة ولم يتيبّس بعد ولكنه لم يكف عن الاستمرار ؛ ورغم أن يديه كانتا قاسيتين وملحّتين إلاّ أن ذلك كان بسبب الغضب وحده فكر « أخيراً صنعتُ امرأة منها والآن هي تكرهني لقد علمتُها ذلك على الأقل »

وفي اليوم التالي تمدد ثانية طوال النهار على سريره في الكوخ لم يأكل شيئاً ؛ ولم يذهب حتى إلى المطبخ حتى يرى ان كانت قد تركت له طعاماً هناك كان ينتظر غروب الشمس ، الغسق فكر

www.ibtesama.com/vb

« عندها سأضرب .. » لم يتوقع حتى أن يراها مرة أخرى فكر « الأفضل أن أضرب ضربتي لن أعطيها الفرصة لطردي من الكوخ أيضاً هذا كثير على أية حال لم يسبق لامرأة بيضاء أن فعلت ذلك امرأة زنجية هي التي طردتني » وهكذا تمدد على السرير ، وهو يدخن .، وينتظر غروب الشمس من خلال الباب المفتوح راح يراقب الشمس تنحدر وتطول وتتحول إلى نحاس ثم بهت النحاس متحولاً إلى ليلك ، ثم إلى لون الليلك الآخذ بالتلاشي لون الغسق الكامل استطاع عندها سماع نقيق الضفادع ، وبدأت اليراعات تجري عبر الاطار المفتوح للباب ؛ وراحت تلتمع أكثر فأكثر مع اضمحلال الغسق ثم نهض لم يكن يمتلك سوى الموسى ؛ وحين وضع تلك في جيبه ، كان مستعداً للسفر ميلاً أو ألف ميل ، إلى حيثما كان يشاء شارع الزوايا غير المدركة أن يمتد ومع ذلك فانه حين تحرك ، فقد تحرك نحو المنزل وكأنما ما أن وجد قدميه تنويان الذهاب إلى هناك حتى تركهما تذهبان ، وبدا عليه أنه يطفو ، مستسلماً ، مفكراً حسناً حسناً طافياً ، راكباً فوق الغسق ، حتى المنزل ثم نحو الرواق الخلفي وإلى الباب الذي سيدخل منه ، والذي لم يقفل أبداً ولكنه حين وضع يده عليه لم يفتح . ربما في اللحظة ذاتها لم تكن لا اليد تصدق والتصديق يصدق ؛ بدا أنه يقف هناك ، هادئاً ، غير مفكر بعد ، مراقباً يده تهز الباب ، سامعاً صوت المزلاج من الداخل انصرف بهدوء لم يكن الغضب قد ركبه بعد ذهب نحو باب المطبخ وتوقع أن يكون ذلك مرتجاً أيضاً ولكنه لم يدرك ، حتى وجده مفتوحاً ، أنه كان يريده كذلك وحين وجد أنه لم يكن مقفلاً كانت تلك أشبه باهانة كأنما وقف أمامه عدو ما مارس عليه أقصى

www.ibtesama.com/vb

العنف ، بازدراء ، سالماً دون أذى ودون ندوب ، وراح يتأمله باحتقار تأملي لا يطاق . حين دخل المطبخ لم يقترب من الباب المؤدي إلى المنزل الأصلي ، الباب الذي ظهرت منه مع الشمعة في الليلة التي رآها فيها للمرة الأولى ذهب مباشرة إلى المنضدة حيث وضعت له الطعام . لم يكن في حاجة إلى أن يرى يداه رأتا . كانت الأطباق لا تزال دافئة ، مفكراً مهيئة للزنجي الزنجي

بدأ كأنه يراقب يده كأنما من مسافة . راقبها ترفع طبقاً وتؤرجحه عالياً وإلى الخلف وتبقيه هناك بينما كان يتنفس بعمق وبطء ومتأملاً بشدة . سمع صوته يقول بصوت مرتفع ، كأنه يمارس لعبة ما « لحم خنزير » وراقب يده تؤرجح الطبق ثم ترميه ليتحطم على الجدار الجدار غير المرئي ، منتظراً حتى ينجلي صوت التحطم وحتى يتدفق الصمت عائداً تماماً قبل أن يلتقط طبقاً آخر أمسك بهذا متوازناً وهو يتشمم تطلب هذا بعض الوقت قال « فاصولياء أم خضار ؟ فاصولياء أم سبانخ ؟ حسناً سمعها فاصولياء » رمى به ، بقوة وانتظر حتى توقف صوت التحطم رفع الطبق الثالث قال « شيء ما مع البصل . » مفكراً هذا مسل . لِمَ لَمْ أفكر به مسبقاً ؟ قال « قذارة امرأة » رمى به ، بقوة وبطء سامعاً صوت التحطم ، منتظراً والآن سمع شيئاً آخر انهما قدمان داخل المنزل ، تقتربان من الباب فكر « سيكون معها المصباح هذه المرة . » مفكراً لو كنت سأنظر الآن لرأيت النور من تحت الباب وبينما تأرجحت يده عالياً وإلى الخلف . الآن تكاد تصل إلى الباب قال أخيراً « بطاطا » ، بنهائية قضائية . لم ينظر فيما حوله ، حتى حين سمع المزلاج في الباب

www.ibtesama.com/vb

وسمع الباب يتثاءب نحو الداخل ويسقط النور عليه حيث كان يقف بالطبق المتوازن قال « أجل ، انها بطاطا » وذلك بلهجة الانهماك والنسيان التي قد يتميز بها طفل يلعب وحيداً كان قادراً على أن يرى ويسمع هذا التحطم ثم ابتعد الضوء ومن جديد سمع الباب يتثاءب ، وسمعه مرة أخرى المزلاج لم يكن قد نظر فيما حوله بعد أخذ الطبق التالي . قال « شمندر . لا أحب الشمندر على أية حال »

وفي اليوم التالي ذهب ليعمل في ورشة السحج ذهب ليعمل في يوم جمعة لم يكن قد أكل شيئاً منذ ليل الأربعاء ولم يستلم راتباً حتى مساء السبت ، بعد أن عمل ساعات اضافية بعد ظهر يوم السبت أكل مساء السبت في مطعم في وسط البلدة ، لأول مرة منذ ثلاثة أيام لم يعد إلى المنزل ولفترة من الزمن ما عاد ينظر باتجاهه حتى حين كان يغادر الكوخ أو يدخاه وفي نهاية الأشهر الستة كان قد شق ممراً خاصاً بين الكوخ والورشة كان الممر مستقيماً كالخيط ، يتفادى كل المنازل ، ويدخل الغابات بسرعة ويسير باستقامة وبتحديد ودقة يتزايدان يومياً ، نحو كومة النشارة التي يعمل عندها وحين كانت الصفارة تنفخ في الخامسة والنصف ، كان يعود على الممر نفسه إلى الكوخ ، ليغير ملابسه ويرتدي القميص الأبيض والبنطال الداكن المكوي قبل أن يسير مسافة ميلين عائداً إلى البلدة ليأكل ، كأنه كان يخجل من الأفرول أو ربما لم يكن ذلك احساساً بالخجل ، رغم أنه من المحتمل جداً ألا يكون قد عرف السبب رغم أنه كان قادراً على أن يقول انه الخجل

لم يعد يتجنب النظر بتعمد إلى المنزل ؛ ولا راح ينظر إليه بتعمّد لفترة من الزمن اعتقد أنها سترسل في طلبه فكّر « ستعطي الاشارة

www.ibtesama.com/vb

الأولى » ولكنها لم تفعل ؛ وبعد فترة اعتقد أنه لن يتوقع اطلاقاً ومع ذلك ففي أول مرة نظر فيها بتعمّد إلى المنزل ، أحسّ بموجة صادمة وبأن ضغط دمه قد هبط ثم عرف أنه كان يخشى طوال الوقت أن تقع هي تحت بصره ، أو تكون آخذة بمراقبته طوال تلك المدة بذلك الازدراء الواضح الساكن ؛ أحسّ بالتعرق ، بأنه تغلّب على محنة فكّر « لقد انتهى ذلك لقد فعلته » لذا حين رآها في مرة من المرات فعلاً ، لم تكن هناك أية صدمة . ربما كان على استعداد وعلى أية حال ، لم تكن هناك موجة صادمة وهبوط في الدم حين نظر إلى الأعلى ، بالصدفة تماماً ، ورآها في الساحة الخلفية ، في ثوب رمادي وقلنسوة شمسية لم يستطع أن يعرف ان كانت تراقبه أو أنها شاهدته أو هي تراقبه الآن أم لا فكّر « أنت لا تزعجيني وأنا لا أزعجك » مفكراً **لقد حلمت بذلك . لم يحدث . ليس لديها تحت ثيابها أي شيء وحتى يمكن له أن يحدث**

ذهب إلى العمل في الربيع . وفي احدى أمسيات أيلول عاد إلى البيت ودخل الكوخ وتوقف في منتصف الخطوة ، في دهشة كاملة كانت تجلس على السرير ، وهي تنظر إليه كانت رأسها عارية لم يكن قد رآها هكذا من قبل ، رغم أنه قد تحسّس في العتمة الهجران الحرّ لشعرها ، غير الجامح بعد ، على وسادة معتمة ولكن لم يسبق له أن رأى شعرها من قبل ووقف محدقاً إليه وحيداً بينما راحت هي تراقبه قال فجأة لنفسه في لحظة التحرك مرة أخرى « انها تحاول **توقعت أن يكون فيه بعض الشيب** انها تحاول أن تكون امرأة ولا تعرف كيف » مفكراً ، عارفاً **جاءت لتتحدث إليّ** بعد ساعتين لا تزال تتكلم ، وهما يجلسان جنباً إلى جنب على السرير في الكوخ المعتم الآن

www.ibtesama.com/vb

قالت له انها في الواحدة والأربعين من العمر وأنها ولدت في المنزل هناك وعاشت فيه منذ الحين وأنها لم تبتعد عن جفرسون فترة أطول من ستة أشهر دفعة واحدة في أية مرة من المرات ، وكان ذلك في فترات متباعدة مترعة بالحنين إلى البيت إلى الألواح الخشبية والمسامير بالذات ، إلى الأرض والأشجار والشجيرات التي كانت تؤلف المكان الذي كان أرضاً غريبة بالنسبة إليها وإلى ذويها وحين تحدثت الآن ، بعد أربعين عاماً ، بين الأحرف الساكنة غير الواضحة والأحرف الصوتية شديدة الانخفاض للأرض التي رُميت فيها حياتها ، كانت « نيو انكلند » تتحدث ببساطة ووضوح عبرها كما لو من أفواه أقربائها الذي لم يغادروا أبداً « نيو -هامشر » والذين لم ترهم خلال حياتها سوى ثلاث مرات ربما وذلك خلال الأربعين سنة التي تؤلف حياتها وبينما كان يجلس إلى جانبها على السرير المعتم وقد أخذ النور يبهت وأضحى صوتها أخيراً دون مصدر ، ثابتاً ، لا متناهياً ، عالي النبرة كصوت رجل ، فكّر كريسماس « انها كبقيتهن سواء كنّ في السابعة عشرة أو السابعة والأربعين ، فانهنّ حين يُقْدِمْن على الاستسلام التام ، يفعلن ذلك بالكلمات »

كان « كالفين بيردن » ابناً لقسيس يدعى « ناثانيال بارينغتون » كان أصغر اخوته العشرة ، وقد هرب من البيت في سنّ الثانية عشرة ، قبل أن يكون قادراً على كتابة اسمه (أو قبل أن يرغب في كتابته كما كان يعتقد أبوه) وذلك على ظهر سفينة وقد قام بالرحلة حول « القرن » إلى كاليفورنيا ، وتحول إلى المذهب الكاثوليكي ؛ وعاش عاماً في دير للرهبان وبعد عشرة أعوام وصل إلى « ميسوري » من الغرب وبعد ثلاثة أسابيع من وصوله تزوّج من ابنة عائلة من سلالة

www.ibtesama.com/vb

« الهوغونوه » (١) هاجرت من « كارولاينا » عن طريق « كنتاكي » وفي يوم الزفاف قال « أعتقد أنه من الأجدر بي أن أستقر » وقد بدأ بالاستقرار في ذلك اليوم كانت مراسيم الزفاف لا تزال جارية ، وكانت أولى خطواته أن ينكر رسمياً ولاء ه للكنيسة الكاثولكية وقد فعل ذلك في حانة ، مصراً على أن يصغي إليه كل واحد من الحاضرين وأن يقدموا اعتراضاتهم كان ملحاً بعض الشيء على أن تكون هناك اعتراضات ، رغم أنه لم يكن هناك أي اعتراض ؛ أي لم يكن هناك اعتراض حتى قاده أصدقاءه بعيداً وفي اليوم التالي قال انه كان يعني ما يقول على أية حال ؛ وأنه لن يقبل بالانتماء إلى كنيسة تمتلىء بمالكي رقيق آكلي ضفادع . كان ذلك في مدينة « سانت لويس » .وقد اشترى منزلاً هناك ، وبعد عام أصبح أباً وقد قال آنذاك إنه أنكر الكنيسة الكاثوليكية قبل عام من أجل روح ابنه ؛ وما أن ولد الصبي حتى انطلق يشرب ابنه بدين اسلافه في « نيوانكلند » لم يكن هناك مقر لاجتماعات « مذهب الموحدين »(٢) ، ولم يكن بيردن قادراً على قراءة « الكتاب المقدس » بالانكليزية ، ولكنه كان قد تعلم قراءته بالاسبانية من قساوسة كاليفورنيا ، وما أن استطاع الطفل السير حتى بدأ بيردن (كان يلفظه بيردن (٣) الآن ، حيث أنه لم يكن قادراً على تهجئته اطلاقاً ، وقد علمه القساوسة كيف يكتبه بجهد جهيد هكذا بيد أكثر ملاءمة للحيل أو عقب البندقية أو

---

(١) الهوغونوه وهم البروتستانت الفرنسيون (المترجم)

(٢) الموحدون طائفة مسيحية ترفض التثليث وتقول بالتوحيد ((المترجم)

(٣) بدلا من بارينغتون (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

السكين منها للقلم) يقرأ للطفل بالاسبانية من الكتاب الذي جلبه معه من كاليفورنيا ، مرصّعاً التدفق الجميل الرنان للتأملات الروحانية باللغة الأجنبية بخطبة قاسية مرتجلة مؤلّفة نصفها من المنطق الكئيب الذي تعوزه الرأفة الذي كان يتذكره من أبيه في أيام الأحد المطوّلة المملة في « نيوانكلند » ونصفها الآخر من نار الجحيم والكبريت الفعلي الذي من شأن أي مبشر متجوّل من المذهب « الميثودي » (١) أن يفتخر بهما كان كلاهما يجلسان وحيدين في الغرفة الرجل الطويل النحيل من الأصل الاسكندنافي والطفل ضئيل الحجم ، داكن البشرة ، المليء بالحيوية والذي ورث بنية أمه الجسدية ولونها ، كشخصين من عرقين مختلفين حين أصبح الصبي في الخامسة ، قتل بيردن رجلاً خلال جدال على الرقيق واضطر إلى الانتقال هو واسرته من « سانت لويس » وقد تحرك غرباً « لأبتعد عن أعضاء الحزب الديمقراطي » كما أفاد

كانت المستوطنة التي انتقل إليها مؤلفة من مخزن وورشة حداد وكنيسة وحانتين وكان بيردن ينفق وقته هنا وهو يتحدث بالسياسة ويشتم بصوته الخشن المرتفع الرق وملاّكي الرقيق كانت سمعته قد وصلت معه وكان معروفاً عنه أنه يحمل مسدساً ، وقد كانت تعليقاته تُسمع دون تعليق على الأقل في بعض الأحيان ، وخاصة في ليالي السبت ، كان يعود إلى البيت وهو لا يزال مترعاً بالويسكي الصرف وصخبه وضجيجه ثم كان يوقظ ابنه (الأم كانت قد ماتت الآن وتركت له ثلاث بنات أيضاً ، وكلهن بعيون زرق) بيد قاسية

(١) الميثودي حركة دينية اصلاحية جرت في انكلترا عام (١٧٢٩)
(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

وكان يقول له « سأعلمك كيف تكره شيئين ، أو سأخرج الزفت منك وهذان الشيئان هما الجحيم وملاك الرقيق هل تسمعني ؟ »

كان الولد يقول

– أجل . لا أستطيع مغالبة الاستماع إليك هيا إلى السرير ودعني أنم

لم يكن داعية إلى دين جديد ولا مبشراً وباستثناء حوادث ثانوية عرضية بالمسدسات ، لم ينجم عن أية منها أية وفاة ، فقد قصر تبشيره على أولاده فحسب كان يقول لهم « فليذهبوا جميعاً إلى جحيمهم الجهول ... ولكني سأجعل الله المحب يدخل فيكم أنتم الأربعة طالما كنت قادراً على ذلك » وكان ذلك في أيام الأحد ، كل أحد حين كان الأطفال ، وقد اغتسلوا وأضحوا نظيفين ، وارتدوا الملابس المصنوعة من الخام أو القطن الأزرق ، وكان الأب في سترته الطويلة المنتفخة فوق المسدس على جيب مؤخرته ، وفي قميصه ذي الثنيات ودون قبة الذي كانت أكبر الفتيات سناً تغسله له كل سبت وتكويه بالجودة نفسها التي كانت تجيدها أمها الميتة ، كانوا يجتمعون كلهم في البهو النظيف البسيط بينما يقرأ عليهم بيردن من الكتاب الذي كان مرة مذهّباً ومزركشاً ، بتلك اللغة التي لم يكن أي منهم يفهمها وقد استمر في فعل ذلك حتى فرّ ابنه من البيت

كان اسم الابن ناثانيال وقد هرب وهو في الرابعة عشرة ولم يعد مدة ست عشر عاماً ، رغم أنهم سمعوا عنه مرتين عن طريق رسول شفهي وفي المرة الأولى وصل الخبر من كولورادو ، والمرة الثانية

www.ibtesama.com/vb

من المكسيك القديمة. لم يقل ما كان يفعله في أي من المكانين قال الرسول « كان في أحسن حال حين غادرته » وكان هذا هو الرسول الثاني، وكان ذلك في عام (١٨٦٣) ، وكان الرسول يتناول الفطور في المطبخ ، يزدرد الطعام بسرعة محتشمة. أما الفتيات الثلاث ، وكانت الفتاتان الأكبر سناً قد كبرتا الآن ، تخدمان الرسول ، وتقفان بأطباق معلقة وفمين مفتوحين برقة ، في ملابسهما القطنية الخشنة الكاملة ، حول المائدة البسيطة ، والأب جالس مقابل الرسول عبر المائدة ورأسه متكئة على يده الواحدة اذ كان قد فقد الأخرى قبل عامين حين كان عضواً في مجموعة فرسان فدائية من الأنصار في معارك كنساس ، وكانت رأسه ولحيته قد أصبحتا ضاربتين إلى اللون الرمادي الآن ولكنه كان لا يزال حيوياً ، وسترته الطويلة لا تزال منتفخة من الخلف فوق أخمص مسدسه الثقيل قال الرسول

– لقد تورط في مشكلة صغيرة ولكنه لا يزال في أحسن حال حسب آخر ما سمعته

قال الأب

– مشكلة ؟

– لقد قتل مكسيكياً ادّعى أنه سرق حصانه أنت تعرف كيف يتصرف هؤلاء الاسبان تجاه البيض ، حتّى حين لا يقتلون المكسكيين

شرب الرسول بعض القهوة

– ولكني أعتقد أن عليهم أن يكونوا متشددين نوعاً ما ، والبلد تمتلىء بالوافدين الجدد وما شابه شكراً جزيلاً

هذا ما قاله وكبرى الفتيات تضع كومة جديدة من كعك الذرة في طبقه

www.ibtesama.com/vb

— أجل يا سيدتي ، أستطيع الوصول إلى التحلية على نحو جميل الناس يدعون أن ذلك لم يكن حصان المكسيكي بأية حال من الأحوال ويدعون أن المكسيكي لم يسبق له أن امتلك حصاناً . ولكني أعتقد أنه يجب حتى على أولئك الاسبان أن يكونوا متشددين ، وهؤلاء القادمون من « الشرق » قد سبق لهم وأعطوا « الغرب » تلك السمعة السيئة

نحز الأب وقال

— أنا على ثقة ان كانت هناك مشاكل فأنا على ثقة من أنه متورط فيها

ثم قال بلهجة عنيفة

— قل له انه لو يسمح لأولئك القساوسة الجبناء بأن يخدعوه ، فسوف أقتله بمسدسي بالسرعة التي أقتل بها واحداً من أعضاء الحزب الجمهوري

قالت كبرى البنات

— قل له أن يعود إلى البيت هذا ما عليك أن تقول له

قال الرسول

— نعم يا سيدتي ، سأقول له ذلك بكل تأكيد أنا ذاهب شرقاً إلى « اندياني » لفترة قصيرة ولكني سأراه حالما أعود سأقول له بكل تأكيد أوه ، أجل ، لقد كدت أنسى قال أن أبلغكم أن المرأة والطفل بخير

قال الأب

— امرأة وطفل من ؟

www.ibtesama.com/vb

قال الرسول :

– امرأته وابنه هو أشكركم جزيل الشكر .ووداعاً لكم جميعاً

وقد وصلهم الخبر من الابن للمرة الثالثة قبل أن يروه مرة أخرى سمعوه يصرخ في أحد الأيام أمام المنزل ، رغم أنه كان على مسافة منه . كان ذلك عام (١٨٦٦) ، وكانت العائلة قد انتقلت مرة أخرى ، مسافة مئة ميل إلى الغرب ، وظل الابن يبحث عنهم شهرين حتى وجدهم ، وهو يجوب أرجاء كنساس وميسوزي في عربة ذات أربع عجلات ومعه كيسان جلديان مليئان بتراب الذهب ونقود مصكوكة وجواهر غير مصقولة رمياً تحت المقعد كزوج من الأحذية القديمة قبل أن يجد الكوخ الطيني ، فيصل إليه وهو يصرخ كان هناك رجل يجلس على كرسي أمام الكوخ قال ناثانيال إلى المرأة الجالسة على مقعد العربة إلى القرب منه « ها هو أبي أترينه ؟ » رغم أن الأب كان في أواخر الخمسينات من عمره فحسب ، الا أن بصره كان قد بدأ يخبو لم يميز وجه ابنه حتى توقفت العربة وخرجت الفتيات متدحرجات زاعقات عبر الباب ثم نهض كالفين وصرخ صرخة طويلة مدوية

قال ناثانيال

– حسناً ، ها نحن قد وصلنا

لم يكن كالفين ينطق جملاً على الاطلاق كان يصرخ ويشتم زمجر قائلاً

– سأضربك حتى يخرج الزفت منك ! أيتها البنات ! يا « فانفي » ! يا « بلك » ! يا « سارة » !

www.ibtesama.com/vb

كان قد سبق للأخوات وخرجن بدون وكأنهن يخرجن منتفخات من الباب في تنانيرهن الكاملة أشبه ببالونات على سيل جارف ، وهن يصرخن صرخات حادة ، ولكن صوت الأب كان يعلو على أصواتهن مزمجراً كان معطفه – السترة الطويلة الخاصة بأيام الآحاد أو الموسرين أو المتقاعدين – مفتوحاً الآن ، وكان يجذب شيئاً قريباً من خصره بالايماءة والوضيعة اللتين يسحب بهما مسدساً ولكنه جذب من حول خصره بيد واحدة نطاقاً جلدياً وراح يلوّح به ويضرب ويندفع بين تحويم النساء الحاد الأشبه بتحويم الطيور زمجر قائلاً « سيكون عليّ أن أؤدبك بعد ! سأعلمك كيف تهرب ! » سقط النطاق مرتين على كتفي ناثانيال سقط مرتين قبل أن يتشابك الاثنان .

كان ذلك لعباً بمعنى من المعاني نوعاً من اللعب المميت والجدية الباسمة لعب أسدين يمكنه أن يخلّف أولا يخلّف آثاراً تشابكا والنطاق توقف وقفا وجهاً لوجه وصدراً لصدر العجوز بوجهه النحيل الأشيب وعينيه الفاتحتين النيو انكلنديتين ، والشاب الذي لا يشبهه اطلاقاً ، بأنفه الشبيه بالمنقار وأسنانه البيضاء تبتسم قال ناثانيال « توقف ألا ترى من يراقبنا في العربة هناك ؟ »

لم يكن أي منهم قد نظر إلى العربة حتى الآن كانت هناك امرأة جالسة على المقعد ومعها صبي في حوالي الثانية عشرة نظر الأب نظرة واحدة إلى المرأة ، ولم يكن في حاجة إلى أن يرى الصبي نظر إلى المرأة فقط ، وقد ارتخى حنكه كمن رأى شبحاً قال « ايفانجلين ! » بدت تشبه زوجته المتوفاة حتى لتكاد تكون أختها كان الشاب الذي لا يتذكر أمه الا بالكاد ، قد تزوج امرأة تشبه أمه تماماً

www.ibtesama.com/vb

قال :

ـ هذه جوانا وذاك « كالفين » معها لقد عدنا إلى البيت لنتزوج

بعد العشاء في تلك الليلة ، والمرأة والصبي في السرير ، حكى لهم ناثانيال كل شيء جلسوا حول المصباح الأب والأخوات والابن العائد لم يكن هناك قساوسة بروتستانت في الأماكن التي كان بها ، كما شرح لهم بل مجرد كهنة وكاثوليك

ـ لذلك حين وجدنا أن الطفل كان على الطريق ، بدأت هي تتحدث عن كاهن ولكني ما كنت لاسمح لأي طفل من آل بيردن أن يولد وثنياً لذا بدأت أفتش عن قس لأرضيها فحسب ولكن حدث شيء ما ثم آخر ولم أستطع الابتعاد لألتقي بقس ثم ولد الصبي لذا لم يعد هناك من داعٍ للعجلة ولكنها بقيت قلقة حول مسألة الكهنة وما شابههم ، حتى سمعت خلال عامين عن تواجد قس أبيض في « سانتا في » في يوم معين لذا حزمنا أغراضنا وانطلقنا ووصلنا إلى « سانتا في » في الوقت المناسب لنرى غبار العربة التي كانت تقل القس مبتعدة به لذا انتظرنا هناك ، وخلال عامين أخريين أتيحت لنا فرصة أخرى في تكساس ولكن حدث في تلك المرة أن تورطنا مع شرطة جوالين كانوا يقومون بتطهير منطقة جرت فيها أعمال الفوضى حيث قام بعض الناس بشنق نائب مأمور في قاعة للرقص ، لهذا حين انتهى ذلك كله قررنا أن نأتي إلى البيت ونتزوج على الفور وها نحن قد أتينا

www.ibtesama.com/vb

جلس الأب ، نحيلاً ، أشيب ، صارماً تحت المصباح كان يصغي ، ولكن تعبيره كان يدلّ على التفكير ، مع نوع من التأمل الهاجع بعنف والغضب المتحيّر قال « بيزدن أسود آخر لعين سيظنّ الناس أني تناسلت لصالح نخّاس لعين والآن عليه هو أن يتناسل لواحد منهم أيضاً » أصغى الابن بهدوء ، دون أن يحاول حتى أن يقول لأبيه ان المرأة اسبانية وليست من « الثوار » « اللعنة ، أشخاص سود قصار قصار بسبب ثقل غضب الرب ، وسود لأنّ خطيئة الرق الانساني تلطّخ دمهم ولحمهم » كانت تحديقته غامضة ، متعصبة ومترعة بالاقتناع « ولكننا حررناهم الآن ، السود والبيض على حد سواء . سيبيضون الآن . خلال مئة عام سيعودون بيضاً مرة أخرى عندها قد نسمح لهم بالعودة إلى أمريكا » راح يفكر ، والغضب باد عليه ، دون أن يتحرك قال فجأة « يا للرب ، يبدو أن له بنية رجولية على أية حال رغم مظهره الأسود يا للرب ، سيكون ضخماً شأن جده ، ليس قزماً كأبيه رغم أمه السوداء ومظهره الأسود ، سيصبح ضخماً »

حكت لكريسماس كل هذا بينما هما جالسان على السرير في الكوخ الذي أضحى معتماً لم يكونا قد تحركا منذ أكثر من ساعة لم يعد قادراً على رؤية وجهها اطلاقاً الآن ؛ وبدا كأنه يتأرجح على نحو خفيف ، كأنما هو في زورق مندفع ، وذلك على نبرة صوتها كما لو فوق سكون ناعس لا حد له لا يوحي بشيء في أية لحظة ، وهو لا يصغي الا بالكاد « كان اسمه هو كالفين كاسم جدي ، وكان ضخماً كجدي ، حتى ولو كان أسمر اللون كقوم جدته أم أبيه وأمه

www.ibtesama.com/vb

لم تكن تلك هي أمي كان هو أخي غير الشقيق كان جدي آخر عشرة ، وكان أبي آخر اثنين ، وكان آخر الجميع » ما كان قد بلغ العشرين حين قتل في البلدة على بعد ميلين من قبل نخاس سابق وجندي من الجيش الجنوبي سابقاً اسمه « سارتوريس » حين تجادلا حول حول مسألة تصويت الزنوج في الانتخابات

حكت لكريسماس حول القبور، قبر الأخ والجد والأب وزوجتيه على هضبة صغيرة مدورة مغطاة بأشجار الأرز في المرعى على مسافة نصف ميل من المنزل وقد فكر كريسماس وهو يصغي بهدوء « آه ، ستصطحبني لأراها سيكون عليّ أن أذهب » ولكنها لم تفعل ولم تذكر القبور أمامه مرة أخرى بعد تلك الليلة حين أخبرته عن مكانها وأنه يستطيع الذهاب لرؤيتها بنفسه لو شاء قالت « ربما لن تجدها على أية حال ، لأنهم حين جلبوا جدي وكالفين إلى البيت في ذلك المساء ، انتظر أبي إلى ما بعد الظلام ودفنهما وأخفى القبرين ، وسوّى الأرض فوقهما ووضع أغصاناً وأشياء أخرى »

سأل كريسماس « أخفاهما ؟ »

لم يكن في ما هو صوتها عاطفي أو أنثوي أو باك أو استعادي « حتى لا يجدوهما ، ويخرجوا جثتيهما وربما يذبحونهما » هكذا استأنفت كلامهما وصوتها قد فقد صبره قليلاً ، واتخذ لهجة الشرح « كانوا يكرهوننا هنا كنا من « اليانكي » (١) أجانب بل وأسوأ من الأجانب كنا أعداء كنا من ذوي الأخراج (٢) وكانت الحرب

(١) يانكي من سكان الولايات الشمالية من الولايات المتحدة الامريكية (المترجم)

(٢) أبناء الشمال الأمريكي الذين قدموا إلى الولايات الجنوبية بعد الحرب الأمريكية وليس معهم سوى ما حملوه في اخراجهم وذلك التماسا للربح (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

لا تزال غير بعيدة جداً عن الأذهان حتى بالنسبة إلى أولئك الذين ضُربوا بالسوط ليعود إليهم رشدهم كانوا يدعون ذلك تحريضاً للزنوج على القتل والاغتصاب تهديداً لتفوق الأبيض لذا أفترض أن الكولونيل « سار توريس » كان بطل البلدة لأنه قتل برصاصتين من المسدس نفسه رجلاً عجوزاً بذراع واحدة وفتى لم يكن قد أدلى بصوته ولو مرة واحدة في الانتخابات ربما كانوا على حق لا أدري .»

قال كريسماس « أوه وهل كان ممكناً أن يفعلوا ذلك ؟ أن ينبشوا الجثتين بعد القتل ، بعد أن مات الشخصان ؟ متى سيتوقف الناس من ذوي الدماء المختلفة عن كره واحدهم الآخر ؟ »

« متى سيفعلون ذلك » توقف صوتها ثم استأنفت : « لا أعرف لا أعرف ان كانوا سينبشون الجثتين أم لا لم أكن حية آنذاك لم أكن قد ولدت بعد لم أولد الا بعد أربعة عشر عاماً من مقتل كالفين لا أعرف ما كان ممكناً للناس أن يفعلوه آنذاك ولكن والدي ظن أنهم قد يفعلون ذلك لذا أخفى القبرين ثم ماتت أم كالفين ودفنها هناك ، مع كالفين وجدي لذا تحوّل ذاك إلى نوع من المدفن قبل أن نعرف ذلك ربما لم يكن والدي يخطط لدفنها هناك أتذكر كيف كانت أمي (أرسل أبي إلى نيوها مبشر يطلبها ، حيث كان بعض أقربائنا لا يزالون يعيشون فيها ، وذلك بعد وفاة أم كالفين بقليل كان وحيداً هنا ، كما ترى أعتقد أنه لو لم يكن كالفين وجدّي مدفونين هنا ، لكان سيرحل بعيداً) تحكي لي أن أبي بدأ على الفور بالتحرك حين ماتت أم كالفين ولكنها ماتت في

www.ibtesama.com/vb

الصيف ، وكان الجو حاراً جداً لا يسمح باعادتها إلى المكسيك ، إلى ذويها لذا دفنها هنا . وربما قرر بسبب ذلك البقاء هنا أو ربما لأنه كان قد بدأ يشيخ هو أيضاً آنذاك ، وكان كل الرجال الذين اشتركوا في الحرب قد بدأوا يشيخون والزنوج لم يغتصبوا ولم يقتلوا أحداً يذكر . وعلى أية حال فقد دفنها هنا وكان عليه أن يخفي ذلك القبر أيضاً لأن شخصاً ما قد يراه فيتذكر كالفين وجده لم يستطع أن يغامر رغم أن المسألة كلها كانت قد انقضت وانتهت تماماً آنذاك وفي العام التالي كتب إلى ابن عم لنا في « نيو هامبشر » قال « أنا في الخمسين ولدي كل ما يلزمها على الاطلاق أرسلوا لي امرأة تصلح كزوجة . لا يهمني من هي ، أريدها ربة بيت جيدة وفي الخامسة والثلاثين من العمر على الأقل » وقد أرسل أجرة القطار مع الرسالة وبعد شهرين وصلت أمي إلى هنا وتزوجا في اليوم نفسه كان ذلك زواجاً سريعاً بالنسبة إليه ففي المرة الماضية استغرق الأمر اثنتي عشرة سنة حتى تزوج ، تلك المرة في كنساس حين استطاع هو وكالفين وأم كالفين أن يلحقا بجدّي يومها كانوا قد وصلوا البيت في منتصف الأسبوع ، ولكنهم انتظروا حتى يوم الأحد لاقامة الزفاف وقد أقاموه في الخارج ، عند النهر هناك ، وكان هناك عجل مشويّ وبرميل صغير من الويسكي ، ووصل يومها كل شخص استطاعوا دعوته أو سمع بالزفاف بدأ الناس يفدون يوم السبت صباحاً ، ووصل الواعظ ليلة السبت وطوال ذلك النهار عملت أخوات أبي ، فقمن بخياطة ثوب الزفاف والوشاح لأم كالفين خطن الثوب من أكياس الدقيق والوشاح من ناموسية كان أحد أصحاب الحانات قد سمّرها فوق صورة خلف البار وقد استعاروها منه بل انهن خطن نوعاً

www.ibtesama.com/vb

من البذلة ليرتديها كالفين كان في الثانية عشرة من عمره آنذاك ، وأرادوه أن يكون حامل الخاتم لم يكن راغباً في ذلك وقد اكتشف في الليلة السابقة ما كانوا ينوون له أن يفعل ، وفي اليوم التالي (كانوا ينوون اقامه الزفاف حوالي السادسة أو السابعة من صباح اليوم التالي) وبعد أن نهض الجميع وتناولوا افطارهم ، اضطروا إلى تأجيل الحفل حتى يجدوا كالفين وأخيراً وجدوه وجعلوه يرتدي البذلة وأقيم الزفاف وأم كالفين في الثوب المصنوع في البيت والوشاح المصنوع من الناموسية والأب بشعره المدهون بدهن الدببة والحزمة الاسبانية المنقوشة التي اشترها من المكسيك سابقاً زفّ الجدّ العروس إلى عريسها ولكنه كان يعود إلى برميل الويسكي بين الحين والآخر بينما كانوا يبحثون عن كالفين ، لذا حين آن وقت زفّ العروس ألقى خطبة بدلاً عن ذلك وقد لمّح الى لينكولن والنخاسة وتحدّى أيّ رجل من الموجودين أن ينكر أن لينكولن والزنجي وموسى وذرية اسرائيل هم الشيء نفسه ، وأن البحر الأحمر هو مجرد الدم الذي كان لابدّ من سفكه حتى يستطيع العرق الأسود أن يعبر الى أرض الميعاد وقد تطلب الأمر اهدار بعض الوقت لجعله يتوقف عن الكلام حتى تستمر مراسيم الزفاف وبعد الزفاف مكثوا حوالي الشهر ثم حدث في أحد الأيام أن ذهب أبي وجدي إلى الشرق ، إلى واشنطن ، ثم أخذوا تفويضاً من الحكومة بالنزول إلى هنا لمساعدة الزنوج المحرّرين وقد وصلوا الى جفرسون ، جميعهم ، باستثناء أخوات أبي اذ تزوجت اثنتان منهما وذهبت الصغرى لتعيش مع احدى أختيها وجاء جدّي وأبي وكالفين وأمه إلى هنا واشتروا المنزل ثم حدث ما كانوا يعرفون ربما أنه سيحدث ، وبقي أبي وحيداً حتى وصلت

www.ibtesama.com/vb

أمي من نيوهامبشر . لم يكن أحدهما قد رأى الآخر من قبل ، ولا رأى حتى صورة للآخر وقد تزوجا يوم وصولها الى هناك ، وبعد عامين ولدت أنا وسمّاني أبي « جوانا » على اسم أم كالفين لا أظن حتى أنه كان يريد ابناً آخر اطلاقاً لا أستطيع تذكره جيداً والمرة الوحيدة التي أتذكره فيها كأحد ما ، كشخص ، كانت حين اصطحبني وأراني قبريّ كالفين وجدي كان ذلك يوماً من أيام الربيع أتذكر كيف أني لم أكن أريد الذهاب حتى دون أعرف إلى أين كنا سنذهب لم أكن أريد التوغل بين شجيرات الأرز لا أعرف لماذا لم أكن أريد الذهاب ما كان يمكنني أن أعرف ما كان موجوداً هناك كنت في الرابعة من عمري فحسب وحتى لو عرفتُ ما كان من شأن ذلك أن يخيف طفلاً أعتقد أن شيئاً ما يتعلق بأبي ، شيئاً وصل من أجمة أشجار الأرز اليّ ، من خلاله هو كان شيئاً أحست أنه قد وضعه على أجمة أشجار الأرز ، وأن الأجمة ستضعه عليّ حين أتوغل فيها بحيث لا أنساه أبداً لا أعرف ولكنه جعلني أدخل فيها ، وكنا كلانا نقف هناك ، وقال « تذكري هذا جدّك وأخوك يستريحان هناك ، لم يقتلهما رجل أبيض بل اللعنة التي صبها الله على العرق كله قبل أن يوجد أبوك أو أخوك أو أنا أو أنت عرق محكوم عليه ، بالشؤم واللعنة أن يكون إلى الأبد جزءاً من قدر العرق الأبيض ولعنته بسبب آثامه تذكري ذلك قدره ولعنته إلى أبد الآبدين قدري قدر أمك قدرك ، حتى لو أنك مجرد طفلة لعنة كل طفل أبيض سبق له أن ولد أو سيولد لا يمكن لأحد النجاة منه » وقلت « ولا حتى أنا ؟ » فقال « ولا حتى أنت وأنت بالذات » لقد رأيت وعرفت زنوجاً منذ أول وعيي كنت أنظر إليهم كما أنظر

www.ibtesama.com/vb

إلى المطر أو الأثاث ، أو الطعام أو النوم . ولكن بعد ذلك بدا لي أن أراهم للمرة الأولى ، ليس كبشر ، بل كشيء ، كظل أعيش فيه ، عشنا فيه ، نحن البيض جميعاً ، وكل الناس الآخرين فكرت بكل الأطفال الذين سيلدون من الآن وإلى الأبد في هذا العالم ، البيض منهم ، والظل الأسود قد سبق له وسقط عليهم قبل أن يأخذوا نفساً واحداً من الهواء وبدا لي أني أرى الظل الأسود على شكل صليب ، وبدا لي الأطفال البيض وهم يناضلون ، حتى قبل أن يأخذوا نفساً واحداً ، للنجاة من الظل الذي لم يكن من فوقهم فحسب بل من تحتهم أيضاً ، متمدداً كما هي أذرعتهم ، كأنهم مسمرون على الصليب رأيت كل الأطفال الصغار الذين سيلدون في هذا العالم . وأولئك الذين لم يولدوا بعد صفاً طويلاً منهم بأذرع ممدودة ، على الصلبان السوداء لم أستطع أن أعرف آنئذ فيما اذا رأيت ذلك أو حلمت به ولكنه كان رهيباً بالنسبة الي كنت أبكي ليلاً وأخيراً حكيت لأبي ، حاولت أن أحكي له ما كنت أريد أن أحكيه هو ما علي أن أنجو منه ، أن أهرب من تحت الظل ، وإلا مت قال « لا يمكنك عليك أن تكافحي ، أن ترتفعي إلى مستوى المسؤولية ولكن حتى يحدث ذلك يجب أن ترفعي الظل معك ولكن لا يمكنك أبداً ترفعيه إلى مستواك . أرى ذلك الآن ، وهو الذي لم أره حتى نزلت إلى هنا ولكنك لن تستطيعي النجاة منه ان لعنة العرق الأسود لعنة ربانية ولكن لعنة العرق الأبيض هو الانسان الأسود الذي سيكون إلى الأبد مختاراً من الله لأنه لعنه ذات مرة . » توقف صوتها عن الكلام عبر المستطيل غير الواضح الذي هو الباب المفتوح كانت اليراعات تندفع وأخيراً قال كريسماس

www.ibtesama.com/vb

ـ كان هناك شيء كنت أريد أن أسألك اياه ولكني أعتقد أني أعرف الجواب بنفسي الآن

لم تتحرك كان صوتها هادئاً

ـ ماذا ؟

ـ لماذا لم يقتل أبوك ذلك الشخص ما اسمه ؟ سارتوريس

قالت

ـ أوه

ثم صمتت مرة أخرى عبر الباب كانت اليراعات تندفع وتندفع

ـ كنت ستقتله لو كنت في مكانه أليس كذلك ؟

قال على الفور وعلى نحو مباشر

ـ أجل

ثم عرف أنها كانت تنظر باتجاه صوته كأنها تراه تقريباً : كان صوتها لطيفاً الآن ، تقريباً ، كان هادئاً جداً ، ساكناً جداً :

ـ أليست لديك أية فكرة عمن كان أبواك ؟

لو استطاعت أن ترى وجهه لوجدته كالحاً ، مفكراً

ـ لا أعرف شيئاً باستثناء أن أحدهما كان جزئياً زنجياً. كما قلت لك مـن قبل

كانت لا تزال تنظر إليه ، صوتها أنبأه بذلك كان هادئاً ، موضوعياً ، مكترثاً دون فضول

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

لم يجب لبعض الوقت ثم قال

www.ibtesama.com/vb

ـ لاأعرف

ومن جديد توقف صوته ؛ ومن رنته عرفت أنه كان ينظر بعيداً ، نحو الباب كان وجهه كئيباً ، ساكناً تماماً ثم تكلم مرة أخرى ، وهو يتحرك ؛ كان لصوته الآن نغمة توافقية لم يكن مرحاً وإن كان ساخراً ، كان في الآن ذاته غير هزلي وتهكمياً

ـ إن لم أكن كذلك ، فعلي اللعنة ، إذ أنني ضيعت الكثير من الوقت

وبدا عليها أنها راحت تفكر الآن بدورها ، بهدوء ، دون أن تتنفس إلا بالكاد ومع ذلك دون أية شفقة على الذات أو استعادة :

ـ لقد فكرت بذلك لماذا لم يقتل أبي الكولونيل سارتوريس أعتقد أن السبب في ذلك كامن في دمه الفرنسي

قال كريسماس

ـ دم فرنسي ؟ ألا يجن حتى الفرنسي حين يقتل أحدهم أباه وابنه في اليوم نفسه ؟ أعتقد أن أباك كان متديناً ربما أصبح واعظاً

لم تجبه لفترة كانت اليراعات لا تزال تندفع كان هناك كلب يعوي في مكان ما ، عواء رقيقاً حزيناً بعيداً قالت

ـ فكرت في ذلك كان الأمر كله قد انقضى آنئذ القتل بالبزة العسكرية والأعلام ، والقتل دون بزات عسكرية وأعلام ولم يكن هناك نفع في ذلك كله في أي منه وكنا أجانب ، غرباء ، نفكر على نحو مختلف عن الناس الذين دخلنا بلدهم دون أن يُطلب

www.ibtesama.com/vb

منا ذلك أو أن نكون مرغوبين وكان هو فرنسياً ، نصف فرنسي كان فيه من الروح الفرنسية ما يكفي بجعله يحترم حبّ أي شخص للأرض التي ولد فيها وكذلك أهله ولكي يفهم أن الرجل سيضطر إلى التصرف حسب ما ربتّه عليه الأرض التي ولد عليها أعتقد أن ذلك كان هو السبب

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثاني عشر

وهكذا بدأت المرحلة الثانية كأنما كان قد سقط في مجرور كان يلتفت مفكرا بذلك الاستسلام الأول الصعب الرجولي كأنما يلتفت الى حياة أخرى ، ذلك الاستسلام الرهيب والصعب ، كتحطيم هيكل روحي يمكن سماع صوت أليافه المفرقعة بالأذن المادية تقريبا ، بحيث كان فعل الاستسلام هبوطاً مفاجئاً من السامي الى التافه ، كما يحدث حين يقوم جنرال مهزوم في اليوم التالي على آخر معركة ، بحلق لحيته في الليل وتنظيف جزمته من طين المعركة ، ثم يسلّم سيفه الى اللجنة

المجرور كان يجري ليلا فحسب وكانت الأيام متشابهة كما سبق أن كانت كان يذهب الى العمل في السادسة والنصف صباحاً ، يغادر الكوخ دون أن ينظر باتجاه المنزل اطلاقا في السادسة مساء كان يعود ، ودون أن ينظر أيضاً باتجاه المنزل كان يغتسل ويغير ملابسه فيرتدي القميص الأبيض والبنطال الداكن المكوي ويذهب الى المطبخ ليجد عشاءه ينتظره على المائدة ، وكان يجلس ويأكل ، دون أن يراها على الاطلاق ولكنه كان يعرف أنها في المنزل وأن قدوم الظلام الى

www.ibtesama.com/vb

داخل الجدران العتيقة كان يحطم شيئا ما ثم يتركه ليتفسخ من الانتظار كان يعرف كيف قضت يومها وأن أيامها كانت لا تختلف عما كانت عليه دائماً ، كأنما في حالتها هي أيضا كان شخص آخر يعيش أيامها كان يتخيلها طوال النهار ، تقوم بأعمالها المنزلية ، أو تتحدث وتصغي الى النساء الزنجيات اللواتي كن يأتين الى المنزل من اتجاهات مختلفة من الطريق ، متتبعات ممرات راحت تتشكل منذ سنين وكانت تتفرع من المنزل كأنها برامق دولاب لم يكن يعرف عما يتحدثن عنه معها ، رغم أنه راقبهن وهن يقتربن من المنزل ليس بأسلوب سري تماماً ، بل بأسلوب هادف ، يدخلن عادة فرادى وأحيانا على نحو ثنائي أو ثلاثي ، في مآزرهن و مناديل الرأس وبعض الأحيان بمعطف رجالي مرمي فوق الكتفين ، ثم يخرجن ثانية ويرجعن على امتداد الممرات المشعة دون اسراع ودون تسكع أيضا كانت مختصرة في ذهنه مفكرا **الآن تفعل هذا** و**الآن تفعل ذاك** لا يفكر فيها كثيرا كان يعتقد أنه خلال النهار لم تكن تفكر فيه أكثر مما كان هو يفكر فيها أيضا وحتى حين كانت تصر ليلا ، في غرفة نومها المعتمة ، على أن تحكي له بتفاصيل مملّة المسائل التافهة التي مرت بها خلال النهار وتلح على أن يحكي لها بدوره على نهاره ، فقد كان ذلك بأسلوب العشاق ذلك الطلب الملح النهم بأن يتم التعبير عن التفاصيل التافهه لكلا النهارين بالكلمات ، دون أية حاجة الى الاستماع الى سرد الكلام ثم كان ينهي عشاءه ويذهب اليها حيث تنتظره غالبا ما كان لا يسرع ومع مضي الوقت ومع الزوال التدريجي لجدة المرحلة الثانية وتحولها الى عادة ، كان يقف في باب المطبخ وينظر عبر الغسق ويرى ، وربما

www.ibtesama.com/vb

بتنبؤ منذر وهاجس مسبق ، الشارع الوحشي والوحيد الذي اختاره بارادته ، ينتظره مفكرا **هذه ليست حياتي أنالا أنتمي إلى هنا**

في البداية صدمه ذلك الغضب المذّل لجبل الجليد النيو انكلندى الذي تعرض فجأة لحرارة جهم التوراتية النيو انكلندية ربما كان واعيا بنكران الذات في ذلك الا لحاحية المستبدة العنيفة التي كانت تخفي يأسا فعليا من السنوات المحبطة غير الممكن استرجاعها ، والتي بدا عليها أنها تحاول التعويض عنها في كل ليلة كأنما كانت تعتقد أنها آخر ليلة على الأرض لأنها تلعن نفسها الى الابد وتحكم عليها بجحيم أجدادها ، اذ أنها لا تعيش وحيدة في الخطيئة فحسب ، بل وفي القذارة . كان لديها شره للمفردات الرمز المحرمة ؛ وشهية لاترتوي لجرس هذه الكلمات على لسانه ولسانها وقد كشفت عن فضولها الرهيب الموضوعي الطفلي فيما يتعلق بالمواضيع والأمور المحرمة ؛ ذلك الاهتمام الجذل الذي لا يكل وغير المتحيز الذي يتميز به الجزاح وذلك فيما يتعلق بالجسد البشري وامكانياته وفي النهار كان يرى المرأة التي تكاد تكون في منتصف العمر ، الهادئة ذات الوجه البارد ، الشبيهة بالرجال تقريبا ، والتي عاشت وحيدة مدة عشرين عاما ، يراها دون مخاوف أنثوية اطلاقا ، في منزل منعزل في حي يسكنه ، حين يكون مسكونا ، الزنوج ، والتي تنفق جزءا من كل يوم جالسة بهدوء وراء مكتب وتكتب بهدوء من أجل عيون كل من الشباب والشيوخ النصائح العملية التي يمكن أن تخص كاهنا ومصرفيا وممرضة مدربة في آن معا

خلال تلك الفترة (لا يمكن أن نطلق عليها اسم شهر العسل) راح كريسماس يراقبها وهي تمر بكل تجسدات المرأة العاشقة وسرعان ما

www.ibtesama.com/vb

فعلت ما أثار لديه ما هو أكثر من مجرد صدمة لقد أدهشته وحيرته لقد فاجأته وأخذته على حين غرة بنوبات من الغضب الغيور ما كان ممكنا لها أن تكون قد عرفت مثل هذه التجربة اطلاقا ، ولم يكن هناك لا سببا يدعوا الى حصول مشهد ثورة الغضب ذلك ولا وجودا لبطل مسرحي كان يعرف أنها عرفت ذلك كأنها اخترعت الأمر كله على نحو متعمد بهدف تمثيله كمسرحية ومع ذلك فقد أدته بذلك الغضب و الاقتناع حتى أنه فكر في المناسبة الأولى أنها وقعت ضحية الوهم ، وفي المرة الثالثة ظن أنها مجنونة لقد كشف عن موهبة غير متوقعة وناجعة في مجال المكيدة لقد أصرت على مكان لاخفاء الملاحظات والرسائل وكان عمود مجوف في سياج يقع تحت الاصطبل البالي لم يرها قط وهي تضع الرسائل هناك ، ومع ذلك أصرت على أن يزوره يوميا وحين لم يكن يفعل ذلك ويكذب عليها ، وكان يكتشف أنه سبق لها ونصبت له أفخاخا لتكشفه ، ثم تبكي وتنتحب

في بعض الأحيان كانت الرسائل تقول له ألا يأتي حتى ساعة معينة ، الى ذلك المنزل الذي لم يدخله شخص أبيض سواه منذ أعوام والذي كانت فيه وحيدة طوال الليل منذ عشرين عاما ولمدة أسبوع أجبرته على التسلق عبر النافذة ليصل اليها كان يفعل ذلك وأحيانا كان يضطر الى البحث عنها في أرجاء المنزل المعتم حتى يجدها ، مختبئة ، في الخزائن ، في الغرف الفارغة ، منتظرة لاهثة ، وعيناها تلتمعان في العتمة كعيون الهررة بين الحين والآخر كانت تحدد أماكن للقاء تحت أشجار معينة في الأرض المحيطة بالمنزل ، حيث كان يجدها عارية أو بملابسها نصف ممزقة الى شرائط من حول جسدها ،

www.ibtesama.com/vb

ي نوبات مفاجئة جنونية من الشبق ، وجسمها يلتمع صقيلاً في التحول البطيء من وضعية جنسية أو ايماءة جنسية شكلية الى أخرى ، كما قد كان ممكنا أن يرسمها فنان مثل بيردسلي(١) يعيش في عهد بترونيوس(٢). كانت تجمح وتهتاج عند ئذ في نصف العتمة الخنيمة المتنفسة دون جدران ، بشعرها الجامح وكل خصلة منه تبدو كأنها تنبعث حية كأطراف الأخطبوط ، ويداها المجنونتان وهي تقول « زنجي ! زنجي ! زنجي ! »

خلال ستة أشهر كانت قد أصبحت فاسدة تماماً ما كان ممكناً ان يقال انه هو الذي أفسدها كانت حياته الخاصة ، رغم كل اتصالاته الجنسية غير الشرعية والمجهولة ، حياة تقليدية بما فيه الكفاية ، كما هي حياة الخطيئة الصحية والسوية عادة كان الفساد قد تأتى من مصدر أكثر صعوبة على التفسير بالنسبة اليه مما هو بالنسبة اليها وفي الواقع بدا الأمر كله كأنها بدأت تفسده بذلك الفساد الذي بدا أنها كانت تجمعه من الهواء نفسه بدأ يشعر بالخوف لم يكن يعرف من أي شيء ولكنه بدأ يرى نفسه من مسافة ، كرجل يتم امتصاصه نحو قاع مستنقع لا قرار له لم يكن قد فكّر في ذلك بالضبط بعد ما كان يراه الآن هو الشارع المهجور الوحشي والبارد كانت تلك هي المسألة البارد كان يفكر ، يقول بصوت مرتفع لنفسه أحيانا « الأ جدر بي أن أتحرك الأفضل أن أبتعد عن هنا »

---

(١) بيردسلي (أوبرى فنسنت) رسام انكليزي شهير اشتهر باستخدام الأبيض والأسود عاش بين عامي (١٨٧٢ - ١٨٩٨) (المترجم)

(٢) بترونيوس (مات حوالي عام ٦٦ ميلادي (كاتب روماني ساخر (المترجم) .

www.ibtesama.com/vb

ولكن كان هناك شيء يمسك به ، كما يمكن الامساك دائما الإنسان الجبرى المؤمن بالقضاء والقدر وذلك بالفضول ، بالتشاؤم ، بالعطالة المجردة في تلك الأثناء استمرت علاقة الحب ، وراحت تغرقه شيئاً فشيئاً في الغضب المستبد والطاغي لتلك الليالي ربما أدرك أنه غير قادر على النجاة وعلى أية حال فقد بقي وراح يراقب المخلوقين كليهما اللذين راحا يناضلان في الجسد الواحد نفسه كشكلين ينيرهما القمر وهما يتعاركان ويغرقان في نوبات متناوبة فوق سطح بركة سوداء كثيفة تحت القمر الأخير والآن دور ذلك الشكل الهادىء البارد مكبوح العواطف الخاص بالمرحلة الأولى والذي ، رغم أنه ضائع وملعون ، قد بقي كتيما ومنيعا ؛ ثم يحين دور الآخر الذي يناضل ضمن ذلك الانكار الجامح لتلك المناعة ليغرق في الهوة السوداء التي تخلق ذلك النقاء الجسدي الذي احتفظ به فترة طويلة الى الآن حتى أصبح صعب الفقدان كانا يخرجان بين حين وآخر الى السطح الأسود متشابكين كأختين ؛ وكانت المياه السوداء تجف وتتلاشى ثم كان العالم مندفعا الى الخلف الغرفة ، الجدران ، الصوت الهادىء المتعدد للحشرات من خلف النوافذ الصيفية حيث تحوم الحشرات منذ أربعين عاما كانت تحدق اليه عندئذ بالوجه الجامح اليائس لامرأة غريبة وهو اذ ينظر اليها آنئذ كان يعيد صياغة نفسه « انها تريد أن تصلي ولكنها لا تعرف كيف تفعل ذلك أيضاً »

كانت قد بدأت تصاب بالبدانة

* * *

كانت نهاية هذه المرحلة غير حادة ، ليست ذروة كالأولى لقد اندمجت في المرحلة الثالثة على نحو تدريجي الى حد أنه لم يكن قادرا

www.ibtesama.com/vb

على معرفة أين انتهت المرحلة وأين بدأت الأخرى كان ذلك أشبه بصيف يتحول الى خريف ، مع البرودة والفحوى العنيدين للخريف وقد سبق لهما وألقيا على الصيف ؛ شيء من الصيف المحتضر المنبثق مجددا كفحم محتضر ، في الخريف استمر ذلك مدة عامين كان لايزال يعمل في ورشة السحج ، وقد بدأ في تلك الأثناء يبيع قليلا من الويسكي ، بحذر شديد ، مقتصرا على قليل من الزبائن الكتومين لم يكن اي منهم يعرف الآخرين لم تكن هي تعلم بذلك ، رغم أنه كان يخفي مخزونه في ارضها ويقابل زبائنه في الغابات الواقعة خلف المرعى من المحتمل جداً أنها ما كانت ستعترض . ولكن السيدة ماك ايتشيرين ما كانت ستعترض أيضا على الحبل المخفي ؛ ربما لم يخبرها للسبب نفسه الذي لم يخبر من أجله السيدة ماك ايتشيرين وحين كان يفكر بالسيدة ماك ايتشيرن والحبل ، وبالنادلة التي لم يقل لها أبدا من أين كان يأتي بالنقود التي يعطيها لها ، ويفكر بعشيقته الحالية والويسكي ، فانه يكاد يصدق أنه لا يبيع الويسكي من أجل النقود بل لأنه كان مقدرا عليه دائما أن يخفي شيئا ما عن النساء اللواتي يحطن به وفي هذه الأثناء كان يراها من مسافة وفي النهار ، في مؤخرة المنزل ، حيث كانت تتحرك بوضوح ، تحت الثياب النظيفة المتقشفة التي ترتديها ، ذلك الغنى المتفسخ المستعد للتدفق متحولاً الى فساد لدى أول لمسة ، كشيء ينمو في مستنقع ، دون أن ينظر مرة واحدة الى الكوخ أو باتجاهه وحين كان يفكر بتلك الشخصية الأخرى التي بدت كأنها تتواجد في مكان ما في عتمة جسدية ، بدا له أن ما يراه الآن في نور النهار كان شبحا لشخص

www.ibtesama.com/vb

ما اغتاله الليل (أخو النهار) وهو يتحرك الآن دون هدف في أنحاء مشاهد الهدوء القديم ، وقد سلبت منه حتى القدرة على التفجع

وبالطبع فان الجنون الأول للمرحلة الثانية ما كان ممكنا له أن يدوم . في البداية كان عبارة عن سيل ؛ والآن تحول الى مد وجزر وخلال طوفانه كانت قادرة على خداعهما كليهما كأنما بسبب معرفتها بأنه لم يكن سوى مد مضطر إلى القيام برد فعل مباشر فقد ولد جنون أكثر سعارا ، انكار عنيف كان قادرا على أن يرمي بنفسه وبه في تجربة جسدية تتجاوز التخيّل وتحملهما كأنما بالقوة الدافعة وحدها ، وتحملهما دون ارادة أو غاية كأنما كانت تعرف على نحو ما أن الزمن قصير ، وأن الخريف على وشك أن يحل بها ، دون أن تعرف بعد الأهمية الصحيحة للخريف بدا أنها الغريزة لوحدها الغريزة الجسدية والانكار الغريزي للسنوات المهدورة ثم كان المدّ ينحسر عندها كانا كمن ألقي به على الشاطىء كأنما خلف ريح بحرية عنيفة محتضرة ، فوق شاطىء مستهلك متخم ، ينظران الواحد الى الآخر كغريبين ، بعيون يائسة لائمة (من جانبه بعينين منهكتين ومن جانبها بعينين يائستين)

ولكن ظل الخريف كان فوقها بدأت تتحدث عن طفل ، كأنما حذرتها الغريزة بأنه قد حان الآن الوقت الذي عليها فيه أن تبرّر أو تكفّر لقد كانت تتحدث عن ذلك في فترات الجزر في البداية كان أول الليل طوفانا ، كأنّ ساعات النور والانفصال قد كبحت ما يكفي من الجدول المتبدد لتحاكي سيلا يدوم للحظة على الأقل ولكن

www.ibtesama.com/vb

بعد فترة أصبح الجدول أرقّ بكثير من أن يصلح لذلك كان يذهب اليها بتردد الآن ، غريبا ، وهو ينظر الى الخلف مسبقاً ؛ وغريبا كان يغادرها بعد أن يكون قد جلس معها في غرفة النوم المعتمة ، يتحدثان عن غريب ثالث أيضا لقد لاحظ الآن كيف أنهما ، كأنما بتعمد ، كانا يتقابلان دائما في غرفة النوم ، كأنهما زوجان ولم يعد مضطرا الآن الى البحث عنهما في أرجاء المنزل ؛ الليالي التي كان عليه أن يبحث عنها ، وهي مختبئة ولاهثة وعارية ، في أرجاء المنزل المعتم أو بين الشجيرات في الحديقة المخربة ، تلك الليالي التي ماتت الآن شأن عمود الحاجز الأجوف تحت الحظيرة

أضحى ذلك كله ميتاً المشاهد ، المشاهد التي يجري تمثيلها دون هفوات ، ذات المتعة السرية الوحشية وذات الغيرة رغم أنها لو كانت تعلم فحسب بذلك الآن ، لكان لديها سبب للشعور بالغيرة كان يقوم برحلات مرة كل أسبوع أو نحوه ، بشأن العمل ، كما كان يقول لها لم تكن تعرف أن العمل كان يقوده الى ممفيس ، حيث كان يخونها مع نساء أخريات ، نساء يشتريهن بالمال لم تكن تعرف ذلك ربما في المرحلة التي كانت فيها الآن ما كانت قادرة على أن تكون مقتنعة ، ولا كانت مستعدة للاصغاء الى الدليل ، ما كانت لتكترث فقد اعتادت أن تستلقي ساهدة معظم الليل ، وتعوض عن ذلك بالنوم في فترة الظهر لم تكن مريضة ، لم تكن تلك علة في جسدها لم يسبق لها أن كانت في صحة أفضل ، وكانت شهيتها للطعام هائلة ، وقد أضحى وزنها الآن أكثر مما كان في أي وقت مضى من حياتها بمقدار أربعة

www.ibtesama.com/vb

عشر كيلو غراما . لم يكن ذلك هو ما يبقيها مستيقظة . كان ذلك شيء خارج من الظلام ، الأرض ، الصيف المحتضر نفسه شيء مهدد ورهيب بالنسبة اليها لأن الغريزة أكدت لها أنه لن يؤذيها ؛ أنه سيجتاحها ويخونها تماما ، ولكنها لن تصاب بأذى بل على العكس ، سيتم انقاذها ، وسوف تستمر الحياة على المنوال نفسه بل وحتى على نحو أفضل ، بل وأقل فظاعة ان الفظيع في الأمر كان أنها لم تكن تريد أن تنقذ قالت بصوت مرتفع « لست مستعدة للتوسل بعد » وذلك بلهجة هادئة وقاسية وصامتة وعيناها مفتوحتان على اتساعهما ، بينما راح القمر ينصب وينصب داخلا من النافذة ، مالئا الغرفة بشيء بارد لا يمكن استرجاعه ومجنون بالندم « لا تجعلني اضطر الى التوسل بعد يا الهي العزيز ، اتركني أبقى ملعونة فترة أطول قليلا ، فترة قصيرة ». بدأت ترى حياتها الماضية كلها ، السنوات الجائعة ، كنفق رمادي ، في نهايته البعيدة المتعذر تغيي ها ، كان صدرها العاري منذ ثلاث سنوات قصيرة مضت ، غير المنسي شأنه شأن العتاب ، وهو يؤلمها كما لو أنها تعاني من العذاب ، عذراء ومصلوبة « ليس بعد أيها الرب العزيز ليس بعد أيها الرب العزيز »

لذا حين كان يأتيها الآن ، وبعد النقلات الباردة السلبية اللائقة للعادة المحضة بدأت تتحدث عن طفل كانت تتحدث عن ذلك على نحو موضوعي في البداية وتناقش موضوع الأطفال ربما كان ذلك مجرد مواربة وخداع أنثويين وغريزيين ، وربما ليس كذلك وعلى وعلى أية حال ، فقد مضى بعض الوقت قبل أن يكتشف بنوع من الصدمة أنها كانت تناقش الموضوع كامكانية ، كفكرة عملية قال لا على الفور

www.ibtesama.com/vb

قالت :

— لم لا ؟

نظرت اليه متأملة كان يفكر بسرعة ، مفكرا إنها تريد أن تتزوج . هذا هوالأمر . إنها لا تريد طفلاً أكثر مما أريده أنا فكر « انها مجرد حيلة كان علي أن أعرف ذلك ، أن أتوقعه كان علي أن أهرب من هنا قبل عام » ولكنه كان يخشى أن يقول لها ذلك ، أن يدع كلمة زواج تأتي بينهما ، تأتي بصوت مرتفع ، يفكر « ربما لم يكن قد فكرت في ذلك ، وسوف أضع الفكرة في رأسها » كانت تراقبه قالت : « لم لا ؟ » ثم التمع شيء ما فيه لم لا ؟ سيعني ذلك الراحة ، الأمان ، بقيةحياتك كلها.لن يكون عليك أنتنتقل مرة أخرى . ويمكنك أيضاً أن تكونمتزوجاً منها هكذا مفكرا ، « لا لو استسلمت الآن ، فسوف أتبرأ من كل السنوات الثلاثين التي عشتها لتجعلني ما اخترت أن أكونه » قال

— لو كنا سننجب طفلا ، لكان علينا أن نفعل ذلك منذ عامين على ما أعتقد

قالت

— لم نكن نريد طفلا آنذاك

قال

— ولا نريد طفلا الآن أيضا

www.ibtesama.com/vb

كان ذلك في أيلول . وبعد عيد الميلاد مباشرة قالت له انها حامل وقبل أن تكمل حديثها عرف أنها كانت تكذب لقد اكتشفت الآن أنه كان يتوقع منها أن تقول له ذلك منذ ثلاثة أشهر ولكنه حين نظر الى وجهها عرف أنها لم تكن تكذب صدق أنها كانت تعرف أيضا أنها لم تكن كذلك . فكر « ها هو الأمر يأتي ستقول الآن الزواج ولكني أستطيع على الأقل أن أخرج من المنزل أولاً » .

ولكنها لم تقلها كانت تجلس هادئة تماما على السرير ، ويداها على حجرها ، ووجهها النيو انكلندي الهادىء (كان لايزال وجه عانس عظام بارزة ، طويل ، نحيل قليلا ، يكاد يكون رجوليا وبالتباين مع جسدها الممتلىء الذي كان أكثر شهوانية مع غنى ونعومة من أي وقت مضى) مطأطىء قالت بلهجة تأملية ، مستقلة ، موضوعية « مسألة فيها نظر حتى بالنسبة الى طفل زنجي ابن زنا أود أن أرى وجه أبي ووجه كالفين سيكون ذاك وقتا مناسباً للهروب اذا أردتَ الهروب » ولكن كأنما لم تكن هي تصغي الى صوتها ، ولا تهدف الى أن يكون للكلمات أي مغزى فعلي ذلك التوهج النهائي للصيف العنيد المحتضر الذي فاجأه الخريف ، بزوغ الموت النصف ، على حين غرة فكرت بهدوء « لقد انقضى الآن انتهى » وباستثناء الانتظار ، انتظار شهر آخر يمر ، بكل تأكيد ، فقد تعلّمت من النساء الزنجيات أنه لايمكن للمرأة أن تتأكّد الا بعد مرور شهرين كان عليها أن تنتظر شهراً آخر ، وهي تراقب التقويم خطت علامة على التقويم حتى لاتقع في الخطأ ومن نافذة غرفة النوم راحت تراقب ذلك الشهر يكتمل لقد حلّ الصقيع ، وبعض الأوراق على الأشجار بدأ لونها

www.ibtesama.com/vb

يتغير وحلّ اليوم الذي علّمته على التقويم ثم مرّ ، منحت نفسها أسبوعاً آخر حتى تكون على ثقة لم تكن تشعر بالابتهاج حيث أنها لم تكن مندهشة . قالت بهدوء وبصوت مرتفع « أنا حامل »

قال في نفسه في ذلك اليوم نفسه : « سأرحل غداً سأنتظر حتى أقبض راتب هذا الأسبوع ، وبعدها أرحل » بدأ يتطلّع الى يوم السبت ، وهو يخطط وجهة الذهاب لم يرها طوال ذلك الأسبوع قط كان يتوقع منها أن تبعث في طلبه وحين كان يدخل أو يغادر الكوخ كان يجد نفسه يتجنّب النظر الى المنزل كما كان يفعل في أول أسبوع له هناك لم يرها اطلاقا بين الحين والآخر كان يرى النساء الزنجيات ، في ملابس غريبة يصعب وصفها ، ارتدينها ضد برد الخريف ، قادمات أو رائحات على امتداد الممرات المهترئة ، داخلات أو خارجات من المنزل ولكن كان ذلك في أول الأمر وحين جاء يوم السبت لم يرحل فكّر « ولماذا لا أحصل على كل النقود التي أستطيع الحصول عليها وان تكن ليست متلهفة على رحيلي ، فلماذا أتلهف أنا سأرحل يوم السبت القادم »

مكث ولم يرحل وبقي الطقس باردا ، مشرقا وباردا حين كان يذهب الى الفراش مع بطانيته القطنية ، في الكوخ التي تعبث به الرياح ، كان يفكر بغرفة النوم في المنزل ، بدفأتها ، وأغطية السرير الوافرة ، ولحفه المحشوة باللبادات الكتانية كان أقرب الى رثاء النفس من أي وقت مضى فكّر « يمكنها على الأقلّ أن ترسل لي بطانية أخرى » وقد يشتري هو واحدة أيضا ولكنه لم يفعل

www.ibtesama.com/vb

ولا هي فعلت راح ينتظر انتظر ما حسبه وقتا طويلا وفي احدى أمسيات شهر شباط عاد الى البيت ووجد ملاحظة منها على سريره كانت مختصرة ، بل تكاد تكون أمرا ، طالبة منه أن يأتي الى المنزل تلك الليلة لم يدهش لم يكن قد عرف بعد امرأة لا تسلك طريقا غير مباشر في الوقت المناسب حين لا يكون هناك رجل آخر متاح وقد عرف الآن أنه سيرحل غدا فكر « يجب أن يكون هذا هو ما انتظره لقد كنت أنتظر أن تجري تبرئتي » وحين غير ملابسه حلق لحيته أيضا وجد المائدة معدّة له في المطبخ ، كالعادة ؛ فخلال المدة التي لم يرها فيها خلالها لم تتخلّى هي مرة واحدة عن هذه العادة أكل وصعد الى الطابق العلوي . لم يكن في عجلة من أمره فكّر « لدينا الليل بأكمله سيكون شيئا تفكر هي فيه في ليلة الغد والليلة التالية ، حين تجد الكوخ فارغا » كانت تجلس أمام النار لم تلتفت حتى برأسها حين دخل قالت

– اجلب ذلك الكرسي معك الى هنا

وهكذا بدأت المرحلة الثالثة لقد حيرته لفترة من الزمن ، حتى أكثر من الفترتين السابقتين كان يتوقع توقا ، نوعا من الاعتذار الصامت أو اذا لم يحدث ذلك فاذعانا لا يريد سوى أن يتم التودد اليه كان مستعدا حتى للذهاب الى ذلك الحدّ أيضا ولكن ما وجده كان امرأة غريبة أزاحت بحزم رجولي يده حين حاول أخيرا وبنوع من اليأس الممزوج بالحيرة أن يلمسها قال

– هيا ، اذا كان لديك ما تقولينه لي نحن نتحدث دائما على نحو أفضل فيما بعد لن يحصل أي أذى للطفل ان كان ذلك هو ما تخشينه

www.ibtesama.com/vb

أبقته بكلمة واحدة ؛ ولأول مرة نظر الى وجهها نظر الى وجه بارد ، منعزل ، ومتعصب قالت

– ألا تدرك أنك تضيع حياتك ؟

وقد جلس هو ناظرا اليها كحجر ، كأنه لا يستطيع تصديق أذنيه

وقد مرّ بعض الوقت قبل أن يفهم ما كانت تعنيه لم تنظر اليه اطلاقا جلست تنظر الى النار ، ووجهها بارد ، ساكن ، متأمّل ، وهي تتحدث اليه كأنه غريب ، بينما راح يصغي في خيرة غاضبة كانت تريد منه أن يستلم القضايا المتعلقة بالعمل كلها – المراسلات والزيارات الدورية – مع مدارس الزنوج كانت الخطة التي وضعتها جيدة الترتيب وقـد حكت له بالتفصيل بينما راح يصغي في غضب ودهشة متصاعدين . كان عليه أن يستلم الأمور كلها بالكامل ، وستكون هي سكرتيرته ، مساعدته سيسافران معا لزيارة المدارس ، وزيارة المؤسسات الخاصة بالزوج وبينما كان يصغي اليها ، وحتى رغم غضبه ، كان يعرف أن الخطة مجنونة وطوال الوقت كانت الصورة الجانبية الهادئة لوجهها في نور المدفأة الهادىء جدية ساكنة كصورة في اطار وحين غادرها ، تذكر أنها لم تذكر ولو مرة واحدة الطفل المتوقع

لم يكن قد صدق بعد أنها مجنونة ظن أن ذلك يعود الى أنها حامل ، كما اعتقد أن ذلك هو السبب في عدم سماحها له بأن يلمسها حاول أن يجادلها ولكن كان ذلك أشبه بمن يحاول أن يجادل شجرة لم تحاول حتى أن تتنكر ، بل أصغت اليه بهدوء ثم تكلمت مجددا بتلك

www.ibtesama.com/vb

اللهجة الهادئة الباردة كأنه لم يتكلم أبداً وحين نهض أخيرا وخرج من الغرفة لم يكن يعرف ان كانت واعية بخروجه أم لا

رآها مرة واحدة فقط خلال الشهرين التاليين . راح يمارس روتينه اليومي ، باستثناء أنه لم يعد يقترب من المنزل إطلاقا الآن ، بل أخذ يتناول وجباته في البلدة مرة أخرى ، كما فعل حين ذهب ليعمل في الورشة لأول مرة ولكن في تلك الأثناء ، حين ذهب الى العمل في المرة الأولى ، ما كان في حاجة الى التفكير بها خلال النهار ؛ كان لا يفكر فيها اطلاقا لم يكن قادرا على مغالبة نفسه كانت في ذهنه باستمرار الى حد أنه كان ينظر اليها ، هناك في المنزل ، صابرة ، منتظرة لا يمكن النجاة منها ، ومجنونة وخلال المرحلة الأولى كأنما كان هو خارج منزل حيث الثلج على الأرض ، وهو يحاول الدخول الى المنزل وفي المرحلة الثانية كان في قعر حفرة في العتمة الحارّة المسعورة وها هو الآن في وسط سهل حيث لا منزل ولا حتّى ثلج أو ريح

بدأ يشعر بالخوف الآن ، وهو الذي كان شعوره حتّى الآن هو الحيرة وربما هاجس الشر وربما الفاجعة كان لديه شريك في تجارة الويسكي الآن غريب اسمه براون ظهر في الورشة في أحد الأيام في مطلع الربيع ، باحثا عن عمل عرف أن ذاك الرجل كان أحمق ، ولكنه فكّر في البداية « على الأقل سيكون فيه ما يكفي من العقل ليفعل ما آمره به . لن يكون مضطراً إلى التفكير بنفسه اطلاقا » ولكنه لم يقل في نفسه الا لاحقا « أعرف الآن أن ما يجعل المرء أحمق هو عدم القدرة على سماع نصيحته الذاتية » لقد شارك براون لأن براون كان غريبا عن البلدة ولديه استعداد مرح ومجرد من الضمير ،

www.ibtesama.com/vb

كما لم يكن يتمتع بالكثير من الشجاعة الشخصية ، اذ كان كريسماس يعرف أنه يمكن حتى لجبان ضمن حدود قدراته الشخصية — بين يدي رجل حكيم — أن يكون مفيدا تماماً لأي شخص باستثناء نفسه

كان يخشى أن يكون براون قد عرف شيئا عن المرأة التي في المنزل فيكون من شأنه أن يرتكب شيئا متعذرا تغييره بسبب حماقته غير الممكن التنبؤ بتصرفاتها. كان يخشى أن المرأة ، وهو الذي يتجنبها ، قد يخطر لها أن تأتي الى الكوخ في احدى الليالي لم يكن قد رآها سوى مرة واحدة منذ شباط . وكان ذلك حين بحث عنها ليقول لها ان براون قادم ليعيش معه في الكوخ . وكان ذلك يوم أحد . ناداها ، فخرجت الى حيث كان يقف على الرواق الخلفي وأصغت اليه بهدوء قالت « ما كان عليك أن تفعل ذلك » لم يفهم عند ذاك ما كانت تعنيه ولم يحدث الا فيما بعد أن التمعت الفكرة ، كاملة ، كجملة مطبوعة

إنها تظن أني جلبته إلى هنا لأبعدها عني . وهي تعتقد أني أظن أنه بوجوده هناك لن تتجرأ هي على النزول إلى الكوخ ؛ أنها ستضطر إلى تركي وشأني

وهكذا وضع اعتقاده ، خشيته مما قد تفعله هي ، في ذهنه معتقدا أنه وضعه في ذهنها هي كان يعتقد أن وجود براون ، كما حسبت هي ، لن يكون من شأنه أن يحول بينها وبينه فحسب بل سيكون من شأنه أن يكون حافزا لها على القدوم الى الكوخ وبسبب حقيقة أنها لم تفعل أي شيء منذ شهر ونيف ، ولم تقم بأية حركة اطلاقا ، فقد اعتقد هو أنها قد تفعل أي شيء . والآن كان هو أيضا يتمدد على فراشه

www.ibtesama.com/vb

مستيقظا في الليل ولكنه كان يفكر « عليّ أن أفعل شيئا هناك شيء ما عليّ أن أفعله »

لقد كان يحتال على براون ويتجنبه ليصل الى الكوخ قبله كان يتوقع في كل مرة أن يجدها هناك في انتظاره . وحين كان يصل الكوخ ويجده فارغا ، كان يفكر بنوع من الغضب العقيم بالحاجة الملحة ، بالكذب والسرعة ، وبوجودها وحيدة وكسولة في المنزل طوال النهار ، لاتفعل أي شيء الا أن تقرر أن كانت ستخونه فوراً أو ستعذبه فترة أطول قليلا في الحالات العادية ما كان سيكترث ان كان براون يعرف عن علاقتهما أم لا لم يكن في طبيعته أي نوع من التكتم أو الفروسية تجاه النساء بل كان عمليا وماديا في هذا الخصوص ما كان ليكترث لو عرفت كل جفرسون أنه عشيقها ولكن الأمر وما فيه أنه لم يكن يريد لأي شخص أن يبدأ بالتحرّز حول حياته الخاصة هنا بسبب الويسكي الذي يخفيه و الذي كان يكسبه ثلاثين أو أربعين دولارا في الأسبوع كان ذلك أحد الأسباب وهناك سبب آخر هو الغرور كان مستعدا أن يموت أو يقتل على أن يعرف أي شخص ، أو أي رجل آخر ، شيئا عن الحالة التي وصلتها علاقتهما ليس أنها غيرت حياتها كلها فحسب ، بل أنها كانت تحاول أن تغير حياته هو أيضا وتحوله الى ما يتراوح بين ناسك ومبشر للزنوج كان يعتقد أنه لو عرف براون بأحد الأمرين لعرف الآخر لذا كان يصل الكوخ في النهاية ، بعد الكذب والاسراع ، وحين يضع يده على الباب ، متذكرا السرعة ومفكرا أنه خلال لحظة سيجد أن كل ذلك لم يكن ضروريا اطلاقا ، وفي الوقت نفسه فانه ما كان يجرؤ على اهمال

www.ibtesama.com/vb

احتراسه ؛ حين كان يفكر في ذلك كان يكرهها باشمئزاز شديد يتميز بالرهبة والغضب العقيم ثم فتح الباب في احدى الأمسيات ووجد الرسالة على السرير

رآها لحظة دخوله ، مربعة وبيضاء وملغزة على نحو عميق على البطانية الداكنة لم يتوقف ليفكر في أنه يعتقد أنه يعرف مضمون الرسالة ، أو ما ستعده به لم يشعر بأية لهفة ، بل أحس بالارتياح فكّر « لقد انتهى الأمر الآن » قبل أن يرفع الورقة المطوية « ستبقى الأمور كما كانت من قبل لن يكون هناك حديث عن الزنوج والأطفال لقد عادت إلى رشدها لقد محت الأخرى تماما ، اذ أحست أنها لن تصل الى أي مكان انها ترى الآن أن ما تريده وتحتاجه هو رجل تريد رجلا في الليل أما ما يفعله في النهار فذاك شأنه » كان عليه أن يدرك عندئذ السبب في أنه لم يرحل كان عليه أن يرى أنه كان مقيدا أشد ما يكون القيد بذلك المربع الصغير من الورق الساكن غير المفشي لأي سر ، كأنه عبارة عن قفل وسلاسل لم يفكر في ذلك رأى نفسه فحسب مرة أخرى على شفا الوعد والمتعة ولكن سيكون الأمر أهدأ الآن على أية حال سيرغبان كلاهما أن يكون الأمر كذلك ، علاوة على وضع الهيمنة الذي سيتمتع به الآن فكر وهو يمسك بالورقة التي لم تزل غير مفتوحة بعد بين يديه « كل تلك الحماقة ، كل تلك الحماقة اللعينة . هي لا تزال هي وأنا لا أزال أنا والآن ، بعد كل هذه الحماقة اللعينة » ، مفكرا كيف أنهما سيضحكان كلاهما حول ذلك في الليل ، فيما بعد ، لاحقا ، حين يحل موعد الكلام الهادىء والضحك الهادىء على المسألة كلها ، على واحدهما الآخر ، على نفسيهما

www.ibtesama.com/vb

لم يفتح الرسالة قط وضعها جانبا واغتسل وحلق وغير ملابسه ، وهو يصفّر خلال ذلك لم يكن قد انتهى حين دخل براون قال براون « حسنا ، حسنا ، حسنا » قال كريسماس شيئا ما كان يواجه كسرة المرآة المسمرة على الجدار ، ويعقد ربطة عنقه أما براون فقد توقف في وسط الكوخ طويلا ، نحيلا ، شابا في أوفرول متسخ وله وجه داكن البشرة ، وسيم وداهن ، وعينان فضوليتان قرب فمه كانت ندبة ضيقة بيضاء كخيط من البصاق وبعد برهة قال براون

— يبدو عليك كأنك ذاهب الى مكان ما

قال كريسماس

— حقا ؟

لم يلتفت راح يصفر برتابة ولكن بصدق شيئا من السلم الموسيقي الثانوي ، حزينا وزنجيا

قال براون

— أعتقد أنه ليس علي أن أكترث بتنظيف المكان حيث أنك تكاد تكون جاهزا

التفت كريسماس اليه وقال

— جاهز لأي شيء ؟

— ألست ذاهبا الى البلدة ؟

قال كريسماس

— وهل قلت ذلك ؟

عاد والتفت الى المرآة

www.ibtesama.com/vb

قال براون

ـ أوه

ثم راح يراقب مؤخرة رأس كريسماس

ـ حسنا ، أعتقد اذن أنك ذاهب لتقوم بعمل خاص

كان يراقب كريسماس

ـ هذه ليلة باردة لا تناسب التمدد على الأرض الرطبة ولا شيء تحتك سوى فتاة نحيلة

قال كريسماس

ـ أوليست باردة رغم كل شيء ؟

ثم راح يصفر وهو متهمك دون عجلة التفت ، والتقط جاكيته وارتداها ، وبراون لا يزال يراقبه ذهب الى الباب قال « أراك في الصباح » . لم يغلق الباب خلفه كان يعرف أن براون يقف فيه ، يراقبه ولكنه لم يحاول اخفاء مقصده ، ذهب نحو المنزل فكّر « دعه يراقبني دعه يلحق بي لو شاء »

كانت المائدة معدة له في المطبخ وقبل أن يجلس اليها أخرج الرسالة من جيبه ووضعها الى القرب من طبقه لم تكن موضوعة في مغلف ولا مغلقة انفتحت من تلقاء نفسها ، كأنما تدعوه وتلحّ ولكنه لم ينظر اليها بأن يأكل أكل دون عجلة كان على وشك أن ينهي طعامه حين رفع رأسه فجأة وراح يصغي ثم نهض وذهب الى الباب الذي دخل منه ، دون أن يحدث صوتاً شأن الهررة ، وفتح الباب فجأة وبعنف كان براون يقف في الخارج هناك ، ووجهه مسند الى الباب ، أو حيث كان الباب سقط النور على وجهه وكان عليه تعبير

www.ibtesama.com/vb

الاهتمام والفضول الطفولي الذي تحول الى دهشة وكريسماس ينظر اليه ، ثم استعاد نفسه ، وتراجع قليلا الى الخلف جاء صوت براون مرحاً رغم هدوئه وحذره وتآمريته ، كأنه سبق له وأقام تحالفا وتعاطفاً مع كريسماس ، دون أن يطلب منه ذلك ، ودون أن ينتظر ليعرف ما الذي كان يحدث ، وكل ذلك نابع من اخلاصه لشريكه أو ربما للرجل المجرد مقابل كل النساء قال

— حسنا ، حسنا ، حسنا اذن هذا هو المكان الذي تتسلل اليه كالقطط كل ليلة أمام بابنا الأمامي مباشرة ، كما يمكنك أن تقول

ضربه كريسماس دون أن يقول كلمة واحدة لم تكن الضربة قوية لأن براون كان قد تراجع في براءة ومرح ، في ضحكة ساخرة أخرست اللكمة صوته تحرك وهو يقفز نحو الخلف واختفى من مسقط النور ، نحو العتمة ، التي كان صوته لا يزال يأتي منها ، غير مرتفع لايزال ، وكأنه لا يريد الآن أن يعرض عمل شريكه للخطر ، ولكنه متوتر بالذعر والدهشة: « اياك أن تضربني ! » كان أطول من كريسماس: شكل طويل نحيل مضطرب سبق له أن انتشر على نحو مضحك نحو الهروب كأنه كان على وشك أن يسقط على الأرض مقعقعا في انحلال كامل كأنه تراجع نحو الخلف أمام التقدم المطرد والصامت لا يزال للشخص الآخر . ومن جديد وصل صوت براون مرتفعا ، مترعا بالذعر والتهديد الكاذب « اياك أن تضربني ! » وفي هذه المرة أصابت الضربة كتفه وهو يلتفت . كان يعدو الآن . عدا مسافة مئة ياردة قبل أن يبطىء ، وهو ينظر الى الخلف ثم توقف والتفت قال بلهجة مترددة « أنت يا أيها الداكن البشرة الجبان » ، وهو يهز رأسه بعنف وعلى الفور ،

www.ibtesama.com/vb

كأن صوته أصدر المزيد من الضجة ، كان أعلى ، مما كان ينويه لم يصدر أي صوت من المنزل كان باب المنزل معتما مرة أخرى ، ، مغلقا مرة أخرى رفع صوته قليلا « أيها الداكن البشرة الجبان ! سأعلمك مع من تتعامل » لم يصدر أي صوت من أي مكان كان الجو باردا التفت وعاد الى الكوخ وهو يهمهم لنفسه

حين عاد كريسماس للدخول الى المطبخ لم ينظر الى المائدة حيث كانت الرسالة التي لم يقرأها بعد . ولج من الباب الذي يؤدي الى داخل المنزل ثم الى الدرج بدأ يصعد ، ليس بسرعة صعد بثبات ، كان يستطيع الآن رؤية باب غرفة النوم ، وشق من النور ، نور المدفأة ، من تحته مضى بثبات ووضع يده على الباب ثم فتحه وتوقف ساكنا تماما كانت تجلس الى طاولة ، تحت المصباح رأى شكلا يعرفه ، في ثوب بسيط يعرفه ثوب يبدو وكأنه خيط وارتدي من قبل رجل مُهْمِل وفوقه رأى رأسا بشعر بدأ يشيب وقد شُدّ الى الخلف على نحو كئيب بعقدة بدائية وقبيحة كثؤلول على غصن ميت ثم رفعت نظرها اليه ورأى أنها كانت ترتدي نظارتين باطارين فولاذيين لم يسبق له أن رآهما من قبل وقف في الباب ، ويده لا تزال لى الأكرة ، دون أي حراك . بدا له أنه قادر فعلا على أن يسمع الكلمات في داخله **كان عليك أن تقرأ تلك الرسالة . كان عليك أن تقرأ تلك الرسالة** مفكرا « سأفعل شيئا ما سأفعل شيئا ما »

كان لايزال يسمع ذلك وهو واقف قرب الطاولة التي كانت الأوراق متناثرة عليها والتي لم تنهض عنها بعد ، وأصغى الى القباحة الهادئة التي كشف عنها صوتها البارد الهادىء ، وفمه يكرر الكلمات

www.ibtesama.com/vb

من بعيدها وهو ينظر الى الأوراق والوثائق المتناثرة الملغزة والفكر يتلاشى بنعومة وكسل ، متسائلا حول ما تعنيه هذه الورقة وما تعنيه تلك الورقة. قال فمه

– الى المدرسة

قالت

– أجل سيأخذونك أي واحدة من المدارس على حسابي يمكنك أن تختار أية واحدة تريدها . لن نضطر حتى الى الدفع

قال فمه

– الى المدرسة ، مدرسة زنجية أنا

– أجل ثم يمكنك الذهاب الى ممفيس يمكنك أن تدرس القانون في « مكتب بيبلز » سيعلمك القانون ثم يمكنك أن تستلم العمل القانوني كله كل ما يفعله ، كل ما يقوم به « بيبلز » ذاك

قال فمه

– ثم أتعلم القانون في مكتب محام زنجي

– أجل سأحيل كل العمل اليك ، كل النقود كلها حتى اذا ما احتجت الى نقود لنفسك أمكنك أن ستعرف كيف المحامون يعرفون كيف يفعلون ذلك ستساعدهم سراً ولا يمكن لأحد أن يتهمك أو يلومك حتى لو اكتشف الأمر حتى لولم تستبدل ولكنك تستطيع استبدال النقود ولا يمكن لأحد أن يعرف على الاطلاق...

قال صوته بهدوء دون مجادلة حتى

– ولكن كلية زنجية . محام زنجي

لم يكونا يتبادلان النظر لم تكن قد رفعت نظرها منذ أن دخل قالت

– قل لهم

– أقول للزنوج اني زنجي أنا أيضاً ؟

نظرت اليه الآن كان وجهها هادئا تماما وجه امرأة عجوز الآن

– أجل . سيكون عليك أن تفعل ذلك حتى لا تطالب بأية نفقات على حسابي

ثم حدث كأنه قال فجأة لفمه « اخرس توقف عن هذا الهراء . دعني أتكلم » انحنى لم يتحرك لم يكن وجهاهما بعيدين سوى مسافة قدم واحدة الواحد منهما بارد وأبيض بياض الموتى ، متعصب ، مجنون ، والآخر باون الرقوق الجلدية والشفة مرفوعة على شكل زمجرة صامتة قاسية قال بهدوء

– أنت عجوز لم ألحظ ذلك من قبل امرأة عجوز لديك شيب في شعرك

ضربته ، فورا ، بيدها المبسوطة ، وبقية جسدها لا تتحرك أبداً سببت ضربتها صوتا خفيفا ، أما ضربته هو فكانت قريبة منها كأنها صدى ، ضربها بقبضته ، ثم رفعها بعنف في ريح الضرب الطويلة تلك وأمسك بها ، في مواجهته ، ساكنة دون حراك دون رفة واحدة على وجهها ، بينما راحت ريح المعرفة الطويلة تهب عليه . قال

– ليس لديك أي طفل . لم تحملي أبدا كل ما في الأمر أنك عجوز . لقد شخت ولم تعودي صالحة بعد الآن . هذا كل ما في الأمر

www.ibtesama.com/vb

حررها من قبضته ثم ضربها مرة أخرى وقعت جاثمة على السرير ، وهي ترفع نظرها اليه ، فصفعها على وجهها مرة أخرى ثم قال لها وهو واقف فوقها الكلمات التي كانت تحب أن تسمعها على لسانه سابقاً ، والتي اعتادت أن تقول انها تستطيع ان تتذوقها مهمهمة ، فاحشة ، ملاطفة

– هذا كل ما في الأمر أنت مستهلكة لم تعود صالحة لشيء بعد الآن هذا كل ما في الأمر

تمددت على السرير ، على جنبها ، ورأسها ملتفتة وهي تنظر اليه عبر فمه الدامي قالت

– ربما يكون من الأفضل أن نموت كلانا

* * *

استطاع أن يرى الرسالة على البطانية حالما فتح الباب ثم سيذهب ويأخذها ويفتحها سيتذكر الآن عمود السياج الأجوف كشيء سمع به يُروى ، كشيء حدث في حياة أخرى لا علاقة لها بأية حياة عاشها هو . لأن الورقة ، الحبر ، الشكل والمظهر كانت كلها الشيء نفسه : لم تكن طويلة أبدا ، وهي ليست طويلة الآن . والآن لم يكن هناك فيها ما يوحي بوعد غير منظوق ، بالمتع الغنية التي لا يمكن ذكرها : كانت الآن أوجز من نقش على ضريح وأكثر إحكاماً من أمر عسكري

كان أول دافع أحس به هو ألا يذهب اعتقد أنه لا يجرؤ على الذهاب ثم عرف أنه ما كان يجرؤ على ألا يذهب . لن يغير ملابسه الآن . كان سيجتاز الغسق المتأخر لشهر أيار في أوفروله المبلل بالعرق

ويدخل المطبخ لم تكن المائدة مجهزة له الآن كان ينظر أحيانا اليها وهو يمر ويفكر « يا الهي عندما كنت أجلس في سلام لآكل » ولم يستطع أن يتذكر

كان سيدخل المنزل ويصعد الدرج سيكون قد سمع صوتها على نحو مسبق صوتها يعلو مع صعوده الدرج وحتى يصل باب غرفة النوم كان الباب مغلقا ، مقفلا من وراءه كان الصوت الرتيب المطرد يأتي لم يستطع تمييز الكلمات ، بل الرتابة المتواصلة فحسب لم يتجرأ فيحاول تمييز الكلمات لم يتجرأ أن يسمح لنفسه بأن يعرف ما كانت بصدده . لذا كان يقف هناك وينتظر ، وبعد فترة كان الصوت سيتوقف وستفتح هي الباب وسيدخل هو وحين يمر بالسرير سينظر الى الأرض القريبة منه وسيبدو له أنه يستطيع أن يميز آثار ركبتين وسوف يشيح بعينيه بعيدا كأنما نظرتا الى ميت

ربما لم يكن المصباح قد أشعل بعد لم يجلسا ومن جديد وقفا ليتكلما كما اعتادا منذ عامين ، كانا واقفين في الغسق بينما راح صوتها يكرر حكايته: «...ليس الى المعهد اذن ،اذ كنت لا تريدالذهاب اليه يمكن الاستغناء عنه...روحك.تكفير عن...» وهو ينتظر ،ببرود وهدوء ، حتى تنهي كلامها: «...الجحيم ...الىأبدالآبدين...»قال: «لا »وكانتستصغي بهدوء مماثل ، وكان يعرف أنها لم تكن مقتنعة وكانت تعرف أنه لم يكن مقتنعا . ولكن لم يستسلم أي منهما ، بل حدث ما هو أسوأ ما كان أحدهما يترك الآخر يذهب في حال سبيله ، ولن يرحل هو نفسه وكانا سيقفان لفترة أطول في الغسق الهادىء المأهول ، كأنما من خاصرتيهما

www.ibtesama.com/vb

بأشباح عديدة للخطايا والمتع الميتة ، وهما ينظران كل الى وجه الآخر الهادىء المتلاشي ، المنهك ، المستهلك ، الذي لا يقهر

ثم كان يغادر وقبل أن يغلق الباب ويوصد من خلفه ، كان يسمع الصوت مرة أخرى ، رتيبا ، هادئا ، يائسا ، ويقول ما أو لمن لم يكن يتجرأ على ألا يعرفه ولا يشك به ، وبينما هو جالس في ظلال الحديقة المخربة في ليلة شهر آب تلك ، بعد ثلاثة أشهر ، وسمع ساعة دار المحكمة البعيدة مسافة ميلين وهي تدق العاشرة ثم الحادية عشرة ، آمن بمفارقة هادئة أنه كان الخادم اللاإرادي للقضاء والقدر اللذين كان يؤمن بأنه لا يؤمن بهما كان يقول في نفسه **كان علي أن أفعلها** ويقولها بصيغة الماضي على نحو مسبق ؛ **كان علي أن أفعلها قالت هي ذلك بنفسها**

كانت قد قالتها قبل ذلك بليلتين وجد الرسالة وذهب اليها وبينما كان يصعد الدرج كان الصوت الرتيب يعلو ، يسمعه أعلى وأوضح من المعتاد وحين وصل أعلى الدرج عرف السبب كان الباب مفتوحا هذه المرة ، ولم تنهض هي من حيث كانت راكعة قرب السرير حين دخل لم يتحرك ، صوتها لم يتوقف كانت رأسها غير مطأطئة كان وجهها مرفوعا ، بفخر تقريبا ، ووضعية الذل الشكلي كانت جزءا من الفخر ، وصوتها هادئا ومسالما ومترعا بنكران الذات تحت نور الغسق لم يبد عليها أنها شعرت بدخوله حتى مرت فترة من الزمن ثم التفتت برأسها قالت

— اركع معي

قال

www.ibtesama.com/vb

– لا .

قالت

– اركع ، لن تكون في حاجة حتى الى تخاطب الرب بنفسك اركع فحسب قم بالبادرة الاولى فحسب

قال

– لا أنا راحل .

لم تتحرك بل راحت تتطلع اليه من أسفل وتلاحقه بنظراتها قالت

– يا جو هل لك أن تبقى ؟ هل لك أن تفعل ذلك ؟

قال

– أجل ، سأبقى ولكن أسرعي

صلت مرة أخرى ثم تحدثت بهدوء ، بذل الفخر ذاك ، وحين دعت الضرورة لاستخدام الكلمات الرمزية التي علمها اياها ، استخدمتها ؛ نطقتها مباشرة ودون تردد ، مخاطبة الرب كأنه رجل في الغرفة معها مع رجلين آخرين تحدثت عن نفسها وعنه وعن شخصين آخرين ، بصوت هادىء ، رتيب ، عديم الجنس ثم توقفت نهضت بهدوء وقفا في الغسق ، يواجهان أحدهما الآخر في هذه المرة لم تطرح عليه حتى السؤال ؛ وهو لم يكن في حاجة الى أن يجيبها . وبعد فترة قالت بهدوء

– اذن هناك أمر واحد فقط بقي عليك أن تفعله

قال

– هناك أمر واحد فقط بقي عليّ أن أفعله

www.ibtesama.com/vb

فكّر بهدوء « اذن انتهى كل شيء الآن ، انقضى كله » . وذلك وهو جالس في الظل الكثيف للشجيرات ، ويسمع الضربة الأخيرة للساعة البعيدة تدق ثم تتلاشى كانت بقعة قام باجتياحها فيها ، حين وجدها فيها في أحدى الليالي المجنونة قبل سنتين ولكن كان ذلك في زمان آخر ، حياة أخرى . والآن كان كل شيئا ساكنا ، هادئا ، الأرض الخصبة تتنهد الآن باردة كانت العتمة مترعة بالأصوات ، كثيرة ، خارجة من كل الزمن الذي عرفه ، كأنما كان الماضي كله عبارة عن نموذج مسطح ثم الاستمرار ليلة الغد ، كل أيام الغد ، ستكون جزءاً من النموذج المسطح ، الاستمرار فكر في ذلك بدهشة هادئة مستمرة ، كثيرة مألوفة ، حيث أن كل ما كان هو الشيء نفسه الذي سيكون ، حيث أن الغد القادم والماضي هما الشيء نفسه ثم حان الوقت

نهض انتقل من الظل ودار حول المنزل ثم دخل الى المطبخ كان المنزل معتما لم يكن قد دخل الكوخ منذ الصباح الباكر ولم يكن يعرف ان كانت قد تركت له رسالة أم لا ، أو ان كانت تتوقعه أم لا ومع ذلك لم يحاول الصمت كأنما لم يكن يفكر بالنوم ، فيما لو كانت نائمة أم لا صعد الدرج بثبات ودخل غرفة النوم وعلى الفور تقريبا نطقت من السرير

– أشعل المصباح

قال

– لا حاجة الى أي نور

www.ibtesama.com/vb

قالت

– لا

وقف فوق السرير كان يمسك بالموسى بيده ولكنها لم تكن مجردة بعد الا أنها لم تنطق مرة أخرى وبدا جسده كأنه يمشي مبتعداً عنه ذهب جسده الى الطاولة ووضعت يداه الموسى على الطاولة ووجدتا المصباح وأشعلتا عود الكبريت كانت تجلس في السرير وظهرها مسند الى اللوح الرأسي للسرير فوق قميص نومها كانت تضع شالا شدته ليغطي صدرها كانت ذراعاها مطويتين فوق الشال ويداها مختفيتين عن النظر وقف عند الطاولة نظر الواحد منهما الى الآخر

قالت

– هل لك أن تركع معي ؟ لا آمرك بذلك

قال

– لا

– لا آمرك به لست أنا التي تأمر اركع معي

– لا

نظر الواحد منهما الى الآخر قالت

– يا جو ، للمرة الأخيرة لا آمرك بذلك تذكر اركع معي .

قال

– لا

ثم رأى ذراعاها تنفكان ويدها اليمنى تخرج من تحت الشال كانت تمسك بمسدس قديم الطراز غير آلي ومن النوع المزود بكبسولة

www.ibtesama.com/vb

وزصاص كروني »، وكان طويلاً بقدر بندقية صغيرة وأثقل منها ولكن ظله وظل ذراعها ويدها على الجدار لم يرتعش أبداً »، وكان ظل الشيئين كليهما هائلا ، والزند المهيأ للاطلاق هائلا ، ذو خطاف خلفي ومهيأ على نحو منذر بالشر كأنه رأسا حية مقوسة لم يرتعش قط كما لم ترتعش عيناها اطلاقا كانتا ساكنتين شأنهما شأن الحلقة السوداء المستديرة لفوهة المسدس ولكن لم يكن فيهما أي انفعال ، أي غضب كانتا هادئتين وساكنتين كما هو شأن الشفقة كلها واليأس كله والقناعة كلها ولكنه لم يكن يراقبهما كان يراقب المسدس ذا الظل الذي على الجدار كان يراقب حين انطلق الظل المهيأ للزند فجأة

* * *

وبينما كان يقف في منتصف الطريق ، بيده اليمنى المرفوعة تحت وهج السيارة المقتربة ، لم يكن يتوقع منها أن تتوقف ومع ذلك فقد توقفت بفجائية صريرية انتشارية تكاد تكون مضحكة كانت سيارة صغيرة ، عتيقة ومهشمة وحين اقترب منها ، تحت الوهج المنعكس لأنوارها الأمامية ، لاح له وجهان شابان يبدوان كأنهما يطفوان كبالونين ملونين بألوان لطيفة ومشدوهين ، والوجه الأقرب اليه ، وجه الفتاة ، منكمش نحو الخلف في ذعر لطيف واسع . ولكن كريسماس لم يلاحظ هذا في ذلك الوقت قال « هل تركبانني معكما وتأخذاني أنى أنتما ذاهبان ؟ » لم يقولا أي شيء اطلاقا ، بل راحا ينظران اليه بذلك الرعب الهادىء الفضولي الذي لم يلحظه لذا فتح الباب ليدخل الى المقعد الخلفي

www.ibtesama.com/vb

حين فعل ذلك ، بدأت الفتاة تصدر صوتا معولا مخنوقا علا بعد لحظة الى حد كبير مع اكتساب الخوف للشجاعة كانت السيارة قد سبق لها وتحركت ، بدت كأنها تقفز نحو الأمام ، والشاب ، دون أن يبعد يديه عن المقود أو يلتفت برأسه نحو الفتاة ، همس « اخرسي ! صه ! انها فرصتنا الوحيدة ! هل لك أن تنصتي الآن ؟ » لم يسمع كريسماس هذا أيضا كان يجلس الآن مستندا نحو الخلف ، غير واع على الاطلاق بأنه كان يركب خلف الرعب اليائس مباشرة كان يفكر باهتمام مؤقت بأن السيارة الصغيرة كانت تسير بسرعة متهورة جدا بالنسبة الى طريق ريفية ضيقة

قال

ـ الى أين تؤدي هذه الطريق ؟

أجابه الشاب وهو يسمي البلدة التي أسماها له ذلك الولد الزنجي في عصر ذلك اليوم قبل ثلاث سنوات ، حين رأى جفرسون أول مرة كان لصوت الشاب خاصية جافة وخفيفة

ـ هل تريد الذهاب الى هناك يا كابتن ؟

قال كريسماس

ـ حسنا أجل أجل هذا مناسب هذا يناسبي هل أنتما ذاهبان الى هناك ؟

قال الشاب

ـ طبعا أني أردت

وقد نطق بتلك اللهجة الخفيفة المسطحة

www.ibtesama.com/vb

ومن جديد بدأت الفتاة التي الى قربه تصدر ذلك الأنين المخنوق المغمغم الأشبه بأصوات الحيوانات الصغيرة ومن جديد همس الشاب لها ، ووجهه ما زال متجها نحو الأمام على نحو صارم ، والسيارة الصغيرة تندفع وتتواثب نحو الأمام . « صه ! هس! صه ! صه ! » ولكن كريسماس لم يلحظ ذلك مجددا كان يرى الرأسين الشابين المتجهين نحو الأمام على نحو صارم أمام توهج النور ، الذي كان شريط الطريق يندفع فيه متأرجحا وهاربا ولكن لاحظهما كليهما والطريق الهارب دون فضول لم يكن منتبها على ما يبدو حين اكتشف أن الشاب كان يخاطبه منذ بعض الوقت من أين أتيا أو أين كانا لم يكن يعرف كان الشاب يتكلم ببطء الآن ، بايجاز ، كأنما كل كلمة مختارة ببساطة وعناية ومنطوقة ببطء ووضوح يناسب أذن شخص أجنبي

ـ اسمع يا كابتن حين أنعطف هنا ، فذلك لأني أريد أن أسلك طريقاً مختصرة الى طريق أفضل سأسير في تلك الطريق المختصرة الى الطريق الأفضل حتى نصل الى هناك أسرع أترى ؟

قال كريسماس

ـ حسنا

تواثبت السيارة واندفعت نحو الأمام ، وهي تتأرجح على المنعطفات صاعدة التلال وهابطة بسرعة كأنما كانت الأرض قد سقطت من تحتهم كانت صناديق البريد على الأعمدة على جانب الطريق تندفع نحو الأنوار وتلتمع بين الحين والآخر كانوا يمرون بمنزل معتم ومن جديد كان الشاب يتكلم

www.ibtesama.com/vb

ـ والآن هذه هي الطريق المختصرة التي كلمتك عنها انها هنا مباشرة سأنعطف فيها ولكن ذلك لايعني أني سأترك الطريق ولكني أنعطف نحو طريق أفضل أترى ؟

قال كريسماس

ـ حسنا

ثم قال دون سبب

ـ لابد وأنكما تعيشان في مكان ما من هذه الأنحاء

والآن نطقت الفتاة التفتت في مقعدها ، مندفعة ، ووجهها الصغير شاحب بالترقب القلق واليأس الأعمى الجرذي . صاحت

ـ هذا صحيح نحن نعيش كلانا في هذه الأنحاء في مكان قريب هناك وحين جرى أن بابا واخوتي

توقف صوتها ، انقطع رأى كريسماس يد الشاب مطبقة على الجزء السفلي من وجهها ، ويداها تناضلان رسغه تحت اليد نفسها كان صوتها المكتوم مخنوقا ومزبدا عدل كريسماس من جلسته وانحنى نحو الأمام

قال

ـ هنا سأنزل هنا يمكنك ان تنزلني هنا

صاح الشاب أيضا ، بصوت رفيع ، بغضب يائس أيضا

ـ الآن فعلتها ! لو أنك بقيت صامتة

قال كريسماس

ـ أوقف السيارة لن أسبب لأي منكما أي أذى أريد النزول فحسب

www.ibtesama.com/vb

ومن جديد توقفت السيارة بفجائية منتشرة ولكن المحرك كان
لايزال دائراً ، وقفزت السيارة نحو الأمام ثانية قبل أن ينزل من الحافة
كان عليه أن يقفز نحو الأمام وهو يعدو بضع خطوات حتى يسترد
توازنه وبينما كان يفعل ذلك ضربه شيء ثقيل وقاس على خاصرته
استمرت السيارة في طريقها مسرعة ، وتلاشت بأقصى بسرعة
ومنها كان عويل الفتاة الحاد ينتشر عائدا اليه ثم
تلاشى وكانت الظلمة ، والغبار الدقيق جدا ، قد سقطا مرة أخرى ،
والصمت تحت نجوم الصيف كان الشيء الذي أصابه قد ضربه بقوة ،
ثم اكتشف أن ذلك الشيء كان معلقا بيده اليمنى رفع يده فوجد أنها
لازالت تحمل المسدس العتيق لم يعرف أنه كان يحمله لم يتذكر أنه
أمسك به اطلاقا ، ولا السبب في ذلك ولكنه كان هناك فكر
« وقد لوحت للسيارة بيدي اليمنى . لاعجب أنها أنهما » تجر
ذراعه اليسرى نحو الخلف ليرمي بها ، والمسدس متوازن عليها ثم
توقف ، وأشعل عودا ، وتفحص المسدس في الوهج الضعيف المتلاشي
احترق العود كله ثم انطفأ ، ومع ذلك كان لايزال يبدو عليه أنه
يرى ذلك الشيء العتيق بحجرتيه المحشوتين الواحدة منهما التي سقط
الزند عليها ولم تنفجر ، والأخرى التي لم يسقط عليها أي زند ولكن
الزند مخطط له أن يسقط قال « واحدة لها وواحدة لي » تراجعت
ذراعه ، ثم رمت سمع المسدس وهو يرتطم بالشجيرات ثم لم
يعد هناك أي صوت « لها ولي »

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثالث عشر

خلال خمس دقائق بعد أن اكتشف الرجل الريفي الحريق ، بدأ الناس يتجمعون توقف بعضهم ، وكانوا أيضا في طريقهم الى البلدة في عرباتهم لتمضية يوم السبت وقد جاء البعض ماشيا على الأقدام من الحي المجاور مباشرة. كانت تلك منطقة أكواخ الزنوج والحقول التالفة والمستهلكة التي ما كان يمكن لسرية بقيادة عريف من الشرطة السرية أن تخرج منها بأكثر من عشرة أشخاص ، رجالا ونساء وأطفالا ، ولكنها طرحت الآن خلال ثلاثين دقيقة ، كأنما خلقوا من الهواء ، مجموعات وجماعات تتراوح بين أفراد وحيدين وعائلات بأكملها. كما وصل آخرون من البلدة في سيارات راحت تتسابق وتصدر الضجيج ، وبين هؤلاء وصل مأمور المنطقة رجل بدين رخي البال له رأس صلبة حكيمة ومظهر يدل على حب الخير ، وقد دفع هذا بعيدا بأولئك الذين احتشدوا لينظروا الى الجثة على الملاءة بتلك الدهشة السكونية والطفولية التي يتأمل بها الراشدون صورهم التي لا يمكن التهرب منها وبينهم كان « اليانكيون » العاديون والبيض من الفقراء بل وحتى الجنوبيين الذين عاشوا لفترة في الشمال ، والذين أكدوا علنا أنها جريمة ارتكبها زنجي مجهول الاسم ، ولم يكن من ارتكبها زنجي

www.ibtesama.com/vb

واحد بل الزنوج عامة ، وكانوا ويصدقون ويأملون أن تكون قد اغتصبت على الأقل مرة واحدة قبل أن تذبح ومرة واحدة على الأقل بعد ذلك اقترب المأمور ونظر هو بنفسه لمرة واحدة ثم أمر برفع الجثة واخفاء المسكينة عن الأنظار

ثم لم يعد هناك شيء آخر ينظرون اليه باستثناء المكان الذي وضعت فيه الجثة والحريق . وسرعان ما نسي الجميع أين كان الشريف بالضبط ، وأية أرض غطاها ، ولم يبق سوى الحريق للفرجة اذن راحوا يتفرجون على الحريق بتلك الدهشة السكونية نفسها التي جلبوها معهم من الكهوف القديمة النتنة حيث بدأت المعرفة ، كأنهم ، كالموت ، لم يروا حريقا من قبل والآن وصلت عربة الاطفاء بشهامة ، مثيرة الضجيج ، بصفاراتها وأجراسها كانت جديدة ، مطلية باللون الأحمر ، مع زخرفة ذهبية وصفارة انذار يدوية وجرس ذهبي اللون ذي جرس نقي ، وقح ومغرور ومن حولها كان رجال دون قبعات وبعض الشبان يتشبثون بها باستخفاف مدهش بالقوانين الفيزيائية التي يتحلى بها الذباب كانت لها سلالم ميكانيكية تقفز الى ارتفاعات هائلة بلمسة يد ، كقبعات الأوبرا ؛ ولكن لم يكن هناك ما يقفزون اليه وكانت لها لفات أنيقة وعذراء من الخراطيم تذكر باعلانات مؤسسة الهاتف في المجلات الشعبية ؛ ولكن ما كان هناك شيء لتعليقها به ولا شيء يتدفق فيها لذا كان الرجال الذين لا يرتدون القبعات ، والذين هجروا البارات والمكاتب ، يتعلقون بها ، بمن فيهم ذلك الذي كان يضرب صفارة الانذار وصلواهم أيضا وعرضت عليهم مختلف الأماكن التي كان

www.ibtesama.com/vb

الشرشف قد وضع عليها ، وكان بعضهم يحملون المسدسات في جيوبهم لذا بدأوا يفتشون عن شخص يصلبونه

ولكن لم يكن هناك أحد... كانت قد عاشت حياة هادئة جداً ، وكانت تعتني بشؤونها الخاصة ، حتى أورثت البلدة التي ولدت وعاشت وماتت فيها كغريبة ، كأجنبية ، نوعا من الارث المتميز بالدهشة والغضب، ما كانوا ليغفروه لها ، حتى لو أنها زودتهم أخيرا بمناسبة اجتماعية عاطفية ، بعيد روماني تقريبا ، ولا كانوا سيتركونها تموت في سلام وسكينة ليس ذاك ليس السلام بالأمر الذي يحدث غالبا لذا اضطربوا وتكتلوا ، معتقدين أن اللهيب ، الدم ، والجثة التي ماتت قبل ثلاث سنوات وبدأت تعيش مجددا الآن ، تصرخ مطالبة بالثأر ، غير مصدقة أن الجنون الداخلي الجذل للهيب وسكونية الجسد كانا كلاهما تأكيدين لعالم تم الوصول إليه يقع الى ما وراء أذى أو اساءة الانسان ليس ذاك ، لأن الآخر صدق على نحو جميل أفضل من الرفوف ونضد الحساب المملوءة بالأشياء المألوفة طويلا والتي تشترى ، ليس لأن المالك يريدها أو يعجب بها ، ولا لأنه كان قادرا على الاستمتاع بامتلاكها ، ولكن حتى يتزلف الى الرجال الآخرين أو يخدعهم ليشتروها ويحقق هو ربحا ، كما أن عليه بين الحين والآخر أن يتأمل في كلا الشيئين اللذين لم يباعا بعد ، والناس القادرين على شرائهما ولم يفعلوا ذلك بعد ، بحنق وربما بغضب وربما بيأس أيضا. هذا أفضل من المكاتب العتيقة البالية حيث كان المحامون ينتظرون وهم يترصدون بين أشباح الرغبات والأكاذيب القديمة ، أو حيث كان الأطباء ينتظرون بسكاكين حادة وعقاقير حادة ، ويقولون

www.ibtesama.com/vb

للانسان ، معتقدين أن عليه أن يصدقهم ، دون اللجوء الى الدهشات المطبوعة ، إنهم يكدون للوصول الى ذلك الهدف الذي من شأن الوصول اليه أن يتركهم دون أي شيء يفعلونه وأتت النساء أيضا ، المتبطلات في ثياب مبهرجة ومتسرعة أيضا ، بنظرات سرية وعاطفية ولامعة وبصدور سرية محبطة (أحبت دائما الموت أكثر من السلام) ليطبعن بكعوب صغيرة قاسية الهمهمة المتواصلة **من فعلها ؟ من فعلها ؟** جمل مثل هذه ربما **هل لا زال طليقاً ؟ آه . هل هو ؟ هل هو ؟**

حدق المأمور أيضا الى اللهيب بسخط ودهشة ، حيث لم يكن هناك مسرح حوادث للتحقيق والاستقصاء لم يكن يفكر بنفسه بعد على أنه محبط بواسطة عامل بشري كان ذلك هو الحريق بدا له أن الحريق وقد ولد ذاتيا من أجل ذلك الهدف وتلك الغاية. بدا له أنه بسبب وجود سلالة طويلة من الأسلاف جعلته يصبح على ما هو عليه ، فالنار قد تحالفت مع الجريمة لذا استمر يمشي في أسلوب مرتبك متذمر من حول ذلك النصب المهمل الذي له له لون الأمل والكارثة معا حتى وصل أحد معاونيه وقال له كيف أنه اكتشف في كوخ يقع الى وراء المنزل آثارا تدل على السكن حتى وقت قريب وعلى الفور تذكر الرجل الريفي الذي اكتشف الحريق (لم يكن قد ذهب الى البلدة بعد ، لم تكن عربته قد تقدمت بوصة واحدة منذ أن نزل قبل ساعتين ، وقد راح يتحرك الآن بين الناس ، بشعر مجنون ، وهو يومىء متكلما وعلى وجهه تعبير غائم ، مستهلك متوهج ، وصوته قد بح حتى تحول الى مجرد همس تقريبا) تذكر أنه قد رأى رجلا في المنزل حين اقتحم الباب

سأل المأمور :

ـ أهو رجل أبيض ؟

ـ أجل يا سيدي كان يتعثر في أرجاء البهو كأنه سقط للتو من على الدرج حاول أن يمنعني من الصعود الى الطابق العلوي حكى لي كيف أنه كان قد سبق له وكان في الأعلى ولم يجد أي شخص وحين نزلت كان قد رحل

نظر الشريف الى الرجال وسأل

ـ من كان يسكن في الكوخ ؟

قال المعاون :

ـ لا أعرف أن هناك ساكنا له زنوج على ما أعتقد ربما كان لديها زنوج يعيشون في المنزل معها ، كما سمعت وما يدهشني أنه قد مر كل هذا الزمن الطويل قبل أن يفعل أحدهم فعلته بها

قال الشريف

ـ اجلبوا لي زنجيا

جلب له المعاون ، وبرفقة رجلان أو ثلاثة آخرون رجلا زنجيا

قال الشريف

ـ من كان يسكن في ذلك الكوخ ؟

قال الزنجي

ـ لا أعرف يا سيد وات لم أنتبه لذلك لا أعرف إن كان يسكن فيه أي شخص

قال الشريف

ـ اجلبوه الى هنا

www.ibtesama.com/vb

كانوا يتجمعون الآن من حول المأمور والمعاون والزنجي ، بعيون شرهة بدأ يمل فيها التطويل المحض للهيب الفارغ ، بوجوه متطابقة كأنما كانت الحواس الخمس لدى كل واحد منهم قد تحولت الى عضو واحد للنظر فحسب، كأنهم يمجدون بحمد إله ، والكلمات التي تتطاير بينهم كأنها خلقت من الريح أو الهواء **أهو ذاك ؟ أهو من فعلها؟ لقد قبض المأمور عليه.لقد سبق للمأمور وألقى القبض عليه** نظر المأمور اليهم **قال** « هيا ابتعدوا جميعكم اذهبوا وتفرجوا على الحريق اذا احتجت الى أية مساعدة ، سأرسل في طلبكم هيا ابتعدوا »

التفت وقاد مجموعته نحو الكوخ خلفه وقف المطرودون متكتلين وراحوا يراقبون الرجال البيض الثلاثة والزنجي يدخلون الكوخ ويغلقون الباب وخلفهم راحت النار المحتضرة تزمجر بدورها ، مالئة الجو رغم أنها لم تكن أعلى من الأصوات ولكنها أكثر مصدرية **وحق الله، إن كان ذلك هو القاتل، فما الذي نفعله نحن، ونحن واقفون هنا ؟ يقتل امرأة بيضاء الابن الأسود لـ** ولا واحد منهم كان قد سبق ودخل المنزل حين كانت حية لاتزال ما كانوا يسمحون لزوجاتهم بزيارتها . وحين كانوا أصغر سنا ، أطفالا (كان بعض آبائهم قد فعل ذلك أيضا) اعتادوا أن ينادوها في الشارع قائلين « يا محبة الزنوج ! يا محبة الزنوج ! »

في الكوخ جلس المأمور على أحد السريرين بتثاقل تنهد رجل كحوض حمام ، ويتمتع بجمود الحوض الكامل الصخري . قال :

ــ والآن ، أريد أن أعرف من يسكن هنا

قال الزنجي

ــ قلت لك اني لا أعرف

www.ibtesama.com/vb

كان صوته كئيبا بعض الشيء ، متنبها تماما ، متنبها على نحو مكشوف راح يراقب المأمور كان الرجلان الأبيضان الآخران خلفه ، حيث لم يكن قادرا على رؤيتهما . لم ينظر الى الخلف باتجاههما ، ولا حتى نظرة واحدة كان يراقب وجه المأمور كما يراقب رجل مرآة أمامه . ربما رآها ، كما في مرآة قبل أن تصل وربما لم يرها ، حيث لو حدث تغيير أو ارتعاشة في وجه المأمور فلن يكون أكثر من مجرد ارتعاشة ولكن الزنجي لم ينظر الى الخلف لم يبد على وجهه حين سقط الحزام على ظهره سوى اجفالة ، ارتعاشة فجائية حادة سريعة لزاويتي فمه وكشف سريع لأسنانه أشبه بالابتسام ثم عاد وجهه الى وضعه العادي ، غامضا وملغزا

قال المأمور

ـ أعتقد أنك لم تبذل جهدك لتتذكر

قال الزنجي

ـ لا أستطيع أن أتذكر لأني لا أستطيع أن أعرف أنا حتى لا أعيش الى القرب من هنا أنتم تعرفون أين أسكن أيها البيض

قال المأمور

ـ السيد بوفورد يقول انك تعيش هناك عند الطريق السفلية

ـ كثير من الناس يعيشون هناك على تلك الطريق على السيد بوفورد أن يعرف أين أسكن

قال المعاون

ـ انه يكذب

www.ibtesama.com/vb

كان اسم المعاون هو السيد بوفورد كان هو الذي استخدم الحزام ، وضرب به والابزيم نحو الخارج أمسك به على نحو متوازن كان يراقب وجه المأمور بدا كأنه كلب ينتظر أن يؤمر ليقفز الى الماء

قال المأمور

– ربما ، وربما لا يكذب

فكر في أمر الزنجي كان ساكنا ، ضخما ، هامدا ، يرخي نوابض السرير من تحته

– أعتقد أنه لم يدرك بعد أني لا ألهو هذا اذا ما أسقطنا من الحساب أولئك الأشخاص هناك الذين ليس لديهم سجن يضعونه فيه اذا حدث ما لايعجبه وهم الذين لن يكترثوا بوضعه في السجن لو كان لديهم سجن

ربما كانت هناك علامة ، اشارة ، في عينيه مرة أخرى ، وربما لا ربما رآها الزنجي ، وربما لم يرها الا أن الحزام سقط مرة أخرى ، وابزيمه خدش ظهر الزنجي

سأله المأمور

– هل تذكرت الآن ؟

قال الزنجي

– انهما رجلان أبيضان

كان صوته باردا ، ليس كئيبا ولا أي شيء آخر

– لا أعرف من هما ولا ما هو عملهما ليس ذلك شأنا من شؤوني لم أرهما قط بل سمعت كلاما حول سكن شخصين

www.ibtesama.com/vb

أبيضين هنا لم أكترث بمن يكونان وهذا هو كل ما أعرفه يمكنك أن تجلدني حتى يخرج الدم مني ، ولكن هذا هو كل ما أعرفه

ومن جديد تنهد المأمور

– هذا يكفي أعتقد أن هذا صحيح

قال الرجل الثالث

– انه ذاك الشخص المسمى كريسماس ، الذي كان يعمل في الورشة ، وشخص آخر اسمه براون يمكنك أن تمسك بأي شخص في جفرسون تفوح منه الأنفاس المناسبة(١) فيبلغك بهذا كله

قال المأمور :

– أعتقد أن هذا صحيح أيضا

عاد الى البلدة وحين ادركت الجمهرة أن المأمور سيرحل ، بدأ خروج عام كأنما لم يعد هناك ما يستحق الرؤية الآن كانت الجثة قد نقلت ، والمأمور رحل كأنما كان يحمل في داخله ، في مكان ما داخل تلك الكومة الهامدة المتنهدة ، السر ذاته ذاك الذي كان يحركهم ويثيرهم كوعد بشيء ما يقع الى ما وراء قذارة الأمعاء المحشوة والأيام الرتيبة اذن لم يعد هناك ما يمكن التفرج عليه سوى النار ، انهم يراقبونها منذ ساعات ثلاث حتى الآن لقد أضحوا معتادين عليها ، متعودين عليها ، فقد أضحت الآن جزءاً دائماً من حيواتهم ومن تجاربهم ، وهم واقفون تحت عمود الدخان عديم الريح المتصاعد والمنيع كنصب يمكن الرجوع اليه في أي وقت لذا حين وصلت

(١) يقصد تفوح منه رائحة الويسكي (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

القافلة الى البلدة كانت تتميز بتلك اللياقة الوقحة التي لموكب يسير خلف نعش ، وسيارة المأمور في المقدمة ، والسيارات الأخرى تصيح وتثغو في الخلف ضمن غبارها وغبار سيارة المأمور المركّب توقف الموكب مؤقتاً عند تقاطع أحد الشوارع قرب الساحة بسبب عربة ريفية توقفت لينزل ركابها أطل المأمور من نافذة السيارة ليرى امرأة شابة تنزل ببطء وحرص من العربة ، بذلك الاضطراب الحذر الذي يميز المرأة ذات الحمل المتقدّم ثم توقفت العربة جانبا ، وتابعت القافلة سيرها ، عابرة الساحة ، حيث كان قد سبق لأمين صندوق المصرف أن أخرج من القبو المغلف الذي أودعته لديه المرأة المتوفاة والذي كان يحمل الكتابة التالية « يفتح لدى موتي جوانا بيردن » وكان أمين الصندوق ينتظر عند مكتب المأمور حين دخل هذا ، ومعه المغلف ومحتوياته وكانت تلك عبارة عن ورقة واحدة كتب عليها باليد نفسها التي خطت على المؤلف « لابلاغ إي إي بيبلز ، المحامي — شارع بيل ، ممفيس ، تينيسي ، وناثانيال بارينغتون — شارع اكستر ، نيوها مبشر » وكان ذلك كل ما في الأمر

قال أمين الصندوق

— بيبلز هذا محام زنجي

قال المأمور

— حقاً ؟

— نعم ما الذي تريد مني أن أفعله ؟

www.ibtesama.com/vb

قال المأمور

– أعتقد أن الأجدر بك أن تفعل ما تقوله الوثيقة وأعتقد أنه يجدر بي أن أفعل ذلك بنفسي

ثم أرسل برقيتين وخلال ثلاثين دقيقة تلقى جوابا واحدا أما الجواب الآخر فوصل بعد ساعتين وخلال عشر دقائق بعد ذلك شاع في البلدة أن ابن أخ(١) الآنسة بيردن في نيوها مبشير يعرض مكافأة مقدارها ألف دولار لمن يلقي القبض على قاتلها وفي التاسعة من مساء ذلك اليوم ظهر الرجل الذي وجده الرجل الريفي في المنزل المحترق حين اقتحم الباب الأمامي للمنزل لم يكونوا على معرفة بأنه الرجل المطلوب لم يقل لهم ذلك كل ما كانوا يعرفونه هو أن رجلا كان يسكن لفترة قصيرة في البلدة وأنه يبيع الويسكي على نحو غير شرعي واسمه براون ، ولم يكن بائعا جيدا جدا هذا وقد ظهر في الساحة في حالة من الاستثارة وهو يبحث عن المأمور ثم بدأت الأمور تتضح عرف المأمور أن براون كان على علاقة بالرجل الآخر ، الغريب المسمى كريسماس ، والذي يعرف الناس عنه أقل مما يعرفونه عن براون رغم أنه يعيش في جفرسون منذ ثلاث سنوات ولكن المأمور عرف الآن فحسب أن كريسماس كان يعيش في الكوخ خلف منزل الآنسة بيردن منذ ثلاث سنوات أراد براون أن يحكي ، وأصر على أن يحكي ، بصوت مرتفع وملح وبدا على الفور أن ما كان يفعله هو المطالبة بمكافأة الألف دولار

---

(١) ابن أخ أو ابن أخت ولكننا نعرف أن الأخ الوحيد للآنسة بيردن قتل شابا قبل أن يتزوج وينجب (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

سأله المأمور

– هل تريد أن تقدم دليلا لصالح الحق العام ؟

قال براون بصوت جاف أجش ، وعلى وجهه مسحة جنون

– لا أريد تقديم أي شيء . وأعرف من ارتكبها وحين أحصل على مكافأتي سأحكي

قال المأمور

– أمسك بالشخص الذي ارتكبها وسوف تنال المكافأة

لذا أخذوا براون الى السجن كاجراء وقائي قال المأمور

– ولكني أعتقد أنه لا حاجة فعلية لذلك طالما أن الألف دولار موجودة حيث يستطيع شمها ، فلا يمكنك أن تجعله يهرب من هنا

وحين اقتيد براون ، وصوته لايزال مبحوحا ، وهو لايزال يومىء بيديه غاضبا ، هتف المأمور الى بلدة مجاورة لديها كلبان يتعقبان الأثر وقيل ان الكلبين سيصلان في قطار الصباح الباكر

عند الرصيف الأجرد الكئيب للمحطة ، في الفجر الحزين ليوم الأحد ذاك كان ثلاثون أو أربعون رجلا في الانتظار حين وصل القطار ، والنوافذ المضاءة تتلاشى وتصر حتى التوقف السريع كان قطارا سريعا ولم يكن يتوقف دائما في جفرسون وقد توقف لفترة تكفي لانزال الكلبين ألف طن ثمين من المعدن المعقد والغريب يتوهج ويضج ليصل الى سكون صادم مترع بأصوات تافهة للرجال ، وذلك ليتقيأ شبحين نحيلين متذللين لهما وجهان لطيفان بآذان مهدلة يحدقان باناءة حزينة الى الوجوه المتعبة الشاحبة للرجال الذين لم يناموا كثيرا منذ

www.ibtesama.com/vb

الليلة ما قبل الأخيرة ، الذين يدوون بشيء ما رهيب وتواق وعنّين كأنما كان الغضب الأولي الذي أثارته جريمة القتل وقد حمل في أعقابه وجعل كل التصرفات اللاحقة شيئا رهيبا متناقضا وخاطئا ، منافياً العقل والطبيعة كليهما

كانت الشمس آخذه بالشروق حين وصلت مجموعة المطاردة الى الكوخ الواقع خلف جذوات المنزل المتفحمة والباردة الآن وكان الكلبان ، وقد اكتسبا بعض الشجاعة من نور الشمس ودفئها ، أو وقد أصيبا بعدوى الاستثارة المتوترة والمشدودة للرجال ، قد بدآ يندفعان وينبحان من حول الكوخ وبينما راحا يتشممان بصوت مرتفع اتخذا مسارا كأنهما حيوان واحد ، وانطلقا وهما يجران الرجلين الممسكين بالحبال عدوا جنبا الى جنب مسافة مئة ياردة ، حين توقفا وبدآ يحفران بجنون في الأرض ويكشفان حفرة كان شخص ما قد دفن فيها مؤخرا صفائح طعام مفرغة جروا الكلبين بعيدا بالقوة جرّوهما لمسافة بعيدا عن الكوخ من أجل محاولة أخرى ولفترة قصيرة اضطرب الكلبان ، وهما يئنان ، ثم انطلقا مجددا ، بلسان مدلى ، ولعاب سائل ، وراحا يجران الرجال الشاتمين الراكضين باقصى سرعة عائدين نحو الكوخ ، حيث راحا ينبحان على الباب الفارغ ، بأقدام مزروعة ورأسين مشدودين نحو الخلف ومحاجر متقلبة ، بالحماسة الانفعالية لمغنيين من طبقة الباريتون في أوبرا ايطالية أعاد الرجال الكلبين الى البلدة ، في السيارات ، وأطعموهما وحين عبروا الساحة كانت أجراس الكنيسة تدق ، ببطء وهدوء وعلى امتداد الشوارع كان الناس المحتشمون يتحركون برزانة تحت المظلات ، حاملين الكتب المقدسة وكتب الصلاة

www.ibtesama.com/vb

وفي تلك الليلة وصل شاب ريفي وأبوه لمقابلة المأمور وقد أفاد الشاب أنه كان على الطريق الى بيته في سيارة في ساعة متأخرة من ليلة الجمعة ، وأن رجلا أوقفه على مسافة ميل أو ميلين خلف مسرح الجريمة ، ومعه مسدس . وقد اعتقد الشاب أنه سيسرق بل ويقتل حتى ، وحكى كيف أنه كان على وشك أن يخدع الرجل فيسمح له بقيادة السيارة حتى باب بيته ، حيث كان ينوي ايقاف السيارة والقفز منها والصراخ طلبا للمساعدة ، ولكن الرجل ارتاب بشيء ما وأجبره على ايقاف السيارة ونزل منها وقد أراد الأب أن يعرف كم ستكون حصتهما من الألف الدولار

قال المأمور

– امسكا به وسنرى

لذا أيقظوا الكلبين ووضعوهما في سيارة أخرى وأراهم الشاب المكان الذي كان الرجل فيه ، فأرسلوا الكلبين اللذين هجما فورا نحو الغابات ، وبقدرتهما التي لا تخطىء على تقضي المعدن في أي شكل من أشكاله ، فقد وجدا المسدس القديم المحشو على الفور تقريبا

قال نائب المأمور

– انه واحد من بقايا الحرب الأهلية ، مسدس بكبسولة ورصاص كروي احدى الكبسولتين تم قدحها ، ولكنها لم تنطلق ما الذي تعتقدون أنه كان يفعل به ؟

قال المأمور

– أطلقا سراح الكلبين ربما تزعجهما الحبال

www.ibtesama.com/vb

وقد فعلوا ذلك أصبح الكلبان حرين الآن ، وبعد ثلاثين دقيقة كانا قد فقدا لم يفقد الرجال الكلبين ، بل فقد الكلبان الرجال كانا عند نهر صغير وتلة ، وكان الرجال قادرين على سماعهما بوضوح لم يكونا ينبحان الآن ، باعتزاز وثقة وربما بسرور كان الصوت الذي يصدرانه نواح طويل يائس ، بينما راح الجال يصرخون بهما على نحو متواصل ولكن كان من الواضح أن الحيوانين لم يكونا قادرين على السماع أيضا كان الصوتان كلاهما غير ممكن تمييزهما ، ولكن النواح الجرسي والذليل بدا وكأنه يأتي من حنجرة واحدة ، وكأن الوحشين كانا جاثمين والخاصرة على الخاصرة . وبعد فترة وجدهما الرجال هكذا ، جاثمين في حفرة . . في ذلك الحين كان صوتاهما أشبه بصوت الأطفال تقريبا . وقد جلس الرجال هناك حتى بزغ الفجر وأصبح هناك نور كاف يتمكنون على هداه من الوصول الى السيارات كان ذاك هو صباح الأثنين

* * *

بدأت الحرارة ترتفع يوم الاثنين وفي يوم الثلاثاء فان الليل والعتمة بعد النهار القائظ كانا ثقيلي الوطأة ، ساكنين وقابضين للصدر وما أن دخل بايرون المنزل حتى أحس بزاويتي منخريه تبيضان وتتواتران بالرائحة الثقيلة للمنزل سيىء التهوية المعتني به من قبل ذكر وحين يقترب منه هايتاور فان رائحة اللحم البشري الريان غير المغسول والملابس غير المغسولة حديثا — تلك الرائحة المتعلقة بالجلوس المتواصل غير شديد الحساسية ، وللحم المكتنز الساكن الذي لا يستحم كثيرا — رائحة طاغية تقريبا . وبينما هو يدخل ، يفكر بايرون كما فكر سابقاً

www.ibtesama.com/vb

« هذا هو حقه   قد لا يكون هذا أسلوبي ، ولكنه أسلوبه وحقه »
ويتذكر كيف بدا له أنه وجد الجواب مرة ، كأنما بالهام ، بنبوءة
« انها رائحة الخير   وطبعا تبدو لنا هذه الرائحة سيئة نحن الشريرين الخاطئين »

يجلسان مرة أخرى الواحد منهما مقابل الآخر في غرفة المكتبة ، والمكتب والمصباح المضاء بينهما   يجلس بايرون على الكرسي القاسي ، ووجهه مطأطىء ، ساكن   صوته رزين ، عنيد   صوت رجل يقول شيئاً لن يكون مزعجا فحسب ، ولكنه لن يصدق

ــ سأجد مكاناً آخر لها ، مكانا أكثر خصوصية ، تستطيع فيه أن....

يراقب هايتاور وجهه المطأطىء

ــ ولماذا عليها أن تنتقل وهي المرتاحة هناك ، ومعها امرأة قريبة من متناولها ان احتاجت الى مساعدتها ؟

لا يجيب بايرون   يجلس بلا حراك وهو ينظر الى الأسفل ، وجهه عنيد ، ساكن ، واذ ينظر ها يتاور اليه ، يفكر   « هذا لأنه تحدث أمور كثيرة   إن ما يحدث لكثير   هذا هي المسألة   الانسان يفعل ويتكاثر ، أكثر مما يستطيع أن يتحمله أو يجب عليه أن يتحمله   وهكذا يكتشف أنه يستطيع تحمل أي شيء   هذه هي المسألة   هذا هو الرهيب جدا في الأمر   أنه يستطيع تحمل أي شيء »   يراقب بايرون

ــ هل السيدة بيرد هي السبب الوحيد في انتقالها ؟

بايرون لا يرفع نظره بعد ، ويتحدث بذلك الصوت الهادىء العنيد

www.ibtesama.com/vb

– تحتاج الى مكان يمكن أن يكون نوعا من البيت لها لم يعد لديها الكثير من الوقت ، وفي نزل ، معظم زبائنه من الرجال انها تريد غرفة تكون هادئة حين يحل موعد الولادة ، ولا يمكن فيه لكل تاجر جياد لعين أو عضو لجنة محلفين يمر من البهو

قال هايتاور

– أفهم ذلك

يراقب وجه بايرون

– وأنت تريدني أن أستقبلها هنا

بايرون يفهم الكلام ولكن الآخر يستأنف بلهجة باردة ، هادئة

– ليس هذا مناسبا يا بايرون لو كانت هناك امرأة أخرى هنا ، تعيش في المنزل ... ولكن هذا عار أيضا ، مع كل هذا الفراغ والهدوء هنا أنا أفكر بها كما ترى وليس بنفسي لا يهمني ما يقولونه أو يفكرون به

– لا أطلب ذلك

لا يرفع بايرون نظره . يستطيع أن يشعر بالآخر يراقبه ، يفكر **يعرف أن هذا ليس ما كنت أعنيه أيضاً . هو يعرف . لقد قال ذلك للتو أعرف ما يفكر به . أعتقد . أني توقعته . أعتقد أنه لا سبب هناك يدعو إلى التفكير على نحو يختلف عن الآخرين،حتى فيمايخصني أنا**

– أعتقد أن عليك أن تعرف ذلك

ربما يعرف هو ذلك ولكن بايرون لا يرفع نظره ليرى يستمر في الحديث بذلك الصوت الكئيب الواضح ، وهو ينظر الى الأسفل ، بينما كان هايتاور وراء المكتب، يجلس منتصبا أو أكثر قليلا من ذلك،

www.ibtesama.com/vb

وينظر الى الوجه النحيل الذي لوحه الطقس وطهره العمل ، وجه الرجل الجالس قبالته

ــ لن أجعلك تتورط في هذه المسألة التي لا علاقة لك بها أنت لم ترها بعد حتى ، ولا أعتقد أنك ستراها أبداً وأعتقد أنه من المحتمل أنك لم تره هو أيضا لتعرف المسألة أيضا . ولكني ظننت أنه من الأرجح..

توقف صوته عبر المكتب كان القس المنتصب في جلسته ينظر ينظر اليه ، منتظرا ، لا يعرض مساعدته

ــ حين تكون تلك مسألة ألا تفعل ، فأعتقد أن على الرجل أن يثق بنفسه فيما يخص النصيحة ولكن حين تكون المسألة أن تفعل ، فأظن أن على الرجل أن يصغي الى كل النصح الذي يمكنه أن يتلقاه ولكني لن أورطك في هذه المسألة لا أريدك أن تشعر بالقلق حول هذه المسألة

يقول هايتاور

ــ أعتقد أني أعرف ذلك

يراقب الوجه المطأطىء للشخص الآخر يفكر « لم أعد في الحياة ، ولذا لا فائدة من محاولة التدخل أو التطفل لم يعد قادرا على سماعي بعد الآن أكثر مما يستطيع ذلك الرجل وتلك المرأة (أجل ، وذلك الطفل) أن يسمعوني لو حاولت العودة الى الحياة »

ــ ولكنك قلت لي أنها تعرف أنه هنا

قال بايرون مفكرا

ــ أجل ، هناك حيث فكرت في الفرصة السانحة للايذاء قبل أن تكتشفني أي امرأة أو طفل ولكنها ما أن وصلت هي الى هناك حتى أفشيت المسألة كلها

www.ibtesama.com/vb

– لا أعني ذلك أنت نفسك لم تكن تعرف آنئذ أعني بقية المسألة أي فيما يتعلق به وبذلك كانت ثلاثة أيام قد مرت. لابد أنها تعرف ، سواء قلت لها أم لا لا شك أنها سمعت به الآن

يقول بايرون دون أن يرفع نظره

– كريسماس لم أقل أي شيء آخر ، بعد أن سألت عن تلك الندبة البيضاء الصغيرة قرب فمه خلال الوقت الذي أمضيناه قبل الوصول الى البلدة في ذلك المساء كنت أخشى أن تسألني كنت سأحاول أن أفكر بشيء أقوله لها حتى لا تتاح لها فرصة أن تطرح المزيد من الأسئلة وخلال ذلك الوقت كله كنت أفكر في أني كنت أبعدها عن اكتشاف أنه لم يهرب فحسب وتركها تعاني من ورطة ، بل أنه قد غير اسمه حتى لا تجده ، وأنها الآن بعد أن وجدته أخيرا اكتشفت أنه يتاجر بالمشروبات الروحية على نحو غير شرعي لقد سبق لها وعرفت أنه انسان غير صالح »

ثم يقول الآن بنوع من الدهشة المتأملة

– لم أكن في حاجة حتى الى اخفاء ذلك عنها ، أن أكذب عليها كذبا لطيفاً كأنما كانت تعرف مسبقاً ما سأقوله ، أني سأكذب عليها كأنما سبق لها وفكرت في ذلك هي نفسها ، وأنه سبق لها ولم تصدقه قبل أن أقوله أنا ، وكان ذلك صحيحاً أيضا ولكن الجزء منها الذي كان يعرف الحقيقة ، ما كنت أستطيع أن أخدعه

يتلمس مرتبكا ، يتحسس دون هدف ، والرجل منتصب الجذع وراء المكتب يراقبه ، دون أن يعرض المساعدة

www.ibtesama.com/vb

– كأنما كانت جزئين ، وأحدهما يعرف أنه وغد ولكن الجزء الآخر يعتقد أنه حين يكون رجل وامرأة على وشك أن يرزقا بطفل ، فان الرب سيجمعهما حين يحل الوقت الملائم كأنما الله يرعى النساء ويحميهن من الرجال واذا لم يكن الرب يرى أنه يلائمه جمع هذين الجزئين ومقارنتهما نوعا ما ، فلن أفعل أنا ذلك بالتالي

يقول هايتاور

– هراء

ينظر عبر المكتب الى الوجه الساكن العنيد الزاهد للشخص الآخر وجه ناسك عاش فترة طويلة في مكان فارغ تهب فيه عواصف رملية

– الأمر ، الأمر الوحيد الذي يمكنها أن تفعله هو العودة الى ألاباما الى أهلها

يقول بايرون

– لا أعتقد ذلك

يقولها على الفور وبحسم مباشر ، كأنما كان ينتظر طوال الوقت أن يقال ذلك

– لا حاجة بها الى فعل ذلك أعتقد أنها لن تحتاج الى أن تفعل ذلك

ولكنه لا يرفع نظره يستطيع أن يشعر بالآخر ينظر اليه

– هل يعرف بو براون أنها في جفرسون ؟

يبتسم بايرون لبرهة ترتفع شفته حركة رقيقة تكاد تكون ظلا دون مرح

www.ibtesama.com/vb

ـ لقد كان مشغولا جدا بعد قصة الألف دولار تلك من المضحك تماما مراقبته كرجل لا يستطيع أن يعزف لحنا واحدا وينفخ في البوق عاليا على أمل أن يقوم البوق خلال دقيقة باخراج موسيقى حقيقية انهم يجرونه عبر الساحة مكبّل اليدين كل اثنتي عشرة أو خمس عشرة ساعة ، وهم غير قادرين على جعله يهرب حتى لو أطلقوا الكلبين عليه لقد أمضى ليلة السبت في السجن ، وهو لايزال يتحدث عن محاولتهم لجعله يتخلى عن الدولارات الألف تلك على أساس اثبات أنه ساعد كريسماس على ارتكاب القتل ، حتى ذهب « بك كونر » الى زنزانته في النهاية وقال له انه سيضع كعاماً في فمه اذا لم يخرس ويسمح للسجناء الآخرين بالنوم . وقد خرس فعلا ، وفي ليلة الأحد خرجوا مع الكلبين وقد أثار الكثير من الضجيج حتى اضطروا الى اخراجه من السجن واطلاقه هو أيضا . ولكن الكلبين لم ينطلقا قط وكان هو يصرخ ويشتم الكلبين ويريد أن يضربهما لأنهما لم يلتقطا أي أثر ، وراح يحكي لكل شخص مرة أخرى كيف أنه كان أول من بلغ عن كريسماس وأن كل ما يريده هو العدالة الحقة ، حتى أخذه المأمور جانبا وتحدث اليه لم يعرفوا ما قاله له المأمور ربما هدده باعادته الى الزنزانة وعدم اطلاق سراحه في المرة التالية وعلى أية حال ، فقد هدأ هو قليلا واستأنفوا السير ولكنهم لم يعودوا الى البلدة الا في وقت متأخر من ليل الأثنين كان لا يزال هادئا ربما كان منهكا لم يكن قد نام منذ مدة ، وقد حكوا له كيف أنه كان يحاول أن يسبق الكلبين حتى هدده المأمور بتكبيل يده مع يد أحد معاونيه ليبقيه في المؤخرة حتى يستطيع الكلبان أن يشما شيئا آخر غير رائحته كان في حاجة الى حلاقة لحيته حين سجنوه في ليلة السبت ،

www.ibtesama.com/vb

وأضحى الآن في حاجة ماسة الى مثل تلك الحلاقة أعتقد أنه كان يبدو كقاتل أكثر من كريسماس وكان يشتم كريسماس الآن كأنما كان كريسماس متواريا بسبب بخله ، وحتى يغيظه ويحرمه من الحصول على تلك الدولارات الألف ثم أعادوه الى السجن وحبسوه في تلك الليلة وفي هذا الصباح عادوا فأخرجوه مرة وانطلقوا جميعاً مع الكلبين متقفين أثر جديدا ويقول الناس انهم استطاعوا أن يسمعوه وهو يصيح ويتكلم حتى خرجت الجماعة الى خارج البلدة

– وتقول انها لا تعرف ذلك تقول انك أخفيت عنها ذلك كان الأجدر بك أن تجعلها تعرف أنه وغد وليس أحمق أليس الأمر كذلك ؟

وجه بايرون هادىء مرة أخرى ، غير مبتسم الآن انه رزين تماما

– لا أعرف كان ذلك في ليلة الأحد الماضي ، بعد أن خرجت لأحدثك وعدت الى البيت فكرت أنها ستكون نائمة في سريرها ، ولكنها كانت لا تزال ساهرة في البهو ، وقالت « ما الأمر ؟ ما الذي حدث هنا ؟ » ولم أنظر اليها واستطعت أن أشعر بها تنظر الي قلت لها ان زنجيا قتل امرأة بيضاء لم أكذب في ذلك الحين لأني قبل أن أفكر قلت لها « وأشعل حريقاً في المنزل » عندها كان قد سبق السيف العذل لقد أشرت الى الدخان وحكيت لها عن الشخصين اللذين يدعيان ببراون وكريسماس اللذين كانا يعيشان هناك واستطعت أن أشعر بها تراقبني كما أشعر به الآن ، وقالت « ما كان اسم الزنجي ؟ » كأنها مشيئة الله أن يكتشفن ما هن في حاجة الى معرفته من

www.ibtesama.com/vb

خلال كذب الرجال ، دون الحاجة الى طرح السؤال وأنهن لا يكتشفن ما هن لسن في حاجة الى معرفته ، دون أن يعرفن حتى أنهن لم يكتشفنه . وهكذا لا أعرف على وجه التأكيد ما تعرفه وما لا تعرفه باستثناء أني أخفيت عنها أن الرجل الذي تبحث عنه هو الذي أبلغ عن القاتل وأنه في السجن الآن الا حين يكون خارجا ليركض مع الكلبين باحثاً عن الرجل الذي آواه وصادقه لقد أخفيت ذلك عنها

– وما الذي ستفعله الآن ؟ أين تريد هي الانتقال ؟

– انها تريد الخروج الى هناك وانتظاره لقد قلت لها انه قد رحل في مهمة تخص المأمور لذا لم أكذب تماما لقد سبق لها وسألتني عن مكان سكنه وسبق لي وأخبرتها وقد قالت انه المكان الذي تنتمي هي اليه حتى يعود ، لأن ذاك هو بيته قالت ان هذا هو ما يرغب أن أن تفعله هي ولم أستطع مخالفتها ، أن أقول لها ان الكوخ هو آخر مكان في العالم يريدها أن تراه كانت تريد الخروج الى هناك لحظة عودتي من الورشة هذا المساء كانت قد حزمت صرتها وارتدت قبعتها ، وراح تنتظر عودتي . قالت « لقد كدت أن أذهب لوحدي ، ولكني لم أكن على ثقة من معرفتي للطريق » وقلت « أجل لكن الوقت متأخر الآن وسنذهب غدا الى هناك » وقالت « لا زالت هناك ساعة قبل حلول الظلام المسافة كلها عبارة عن ميلين ، أليس كذلك ؟ » وطلبت منها الانتظار لأن علي أن أطلب الأذن أولا ، فسألت « اذن ؟ أليس منزل لوكاس ؟ » واستطعت أن أشعر بها تراقبني وقالت « ظننت أنك قلت انه المكان الذي يسكن فيه لوكاس ». وكانت تراقبني وقالت « من هو هذا الواعظ الذي تذهب اليه باستمرار لتحدثه عني ؟ »

www.ibtesama.com/vb

– وهل ستسمح لها بالذهاب لتعيش هناك ؟

– قد يكون هذا أفضل حل ستكون هناك لوحدها بعيدة عن كل الكلام حتى تنتهي هذه المسألة

– أنت تعني أنها قد صممت على ذلك ، وأنك لن تمنعها أنت لا تريد أن تمنعها

لايرفع بايرون نظره

– انه بيته على نحو ما انه أقرب شيء الى بيت يخصه قد يتاح له أن يملكه ، على ما أعتقد وهو

– هناك لوحدها وهي تتوقع أن تنجب واقرب منزل اليها بضعة أكواخ زنجية تبعد مسافة نصف ميل

يراقب وجه بايرون

– لقد فكرت في ذلك. هناك طرق ، أمور يمكن فعلها ،

– أية أمور ؟ ما الذي تستطيع فعله لحمايتها هناك ؟

لا يجيب بايرون على الفور لا يرفع نظره حين يتكلم الآن فإن صوته عنيد

– هناك أمور سرية يمكن للرجل أن يفعلها دون أن يكون شريرا أيها الموقّر بغض النظر عن وجهة نظر الناس بها

– لا أعتقد أنك قادر على ارتكاب أي شيء بالغ الشر يا بايرون ، مهما تكن وجهة نظر الناس فيه ولكن هل ستأخذ على عاتقك تقرير مدى امتداد الشر في مظهر الشهر ؟ أين يتوقف الشر بالضبط بين الفعل والمظهر ؟

www.ibtesama.com/vb

يقول بايرون

ــ لا

ثم يتحرك قليلا يتكلم كأنه كان يستيقظ هو أيضاً

ــ لا آمل أعتقد أني أحاول أن أفعل الشيء الصحيح حسب مفاهيمي

يفكر هايتاور « وهذه هي أول كذبة يقولها لي حتى الآن ، أو سبق أن قالها لأي شخص ، امرأة كانت أم رجلا ، وربما حتى لنفسه » ينظر عبر المكتب نحو الوجه العنيد الصلب الرزين الذي لم ينظر اليه بعد يفكر « وربما لا تكون هذه كذبة لأنه لا يعرف هو نفسه أنها كذلك » يقول :

ــ حسنا

يتكلم الآن بنوع من الفظاظة الزائفة بخدين مترهلين وعينين داكنتين كهفيتين ، ووجه خائب

ــ اذن فهذا أمر محسوم ستأخذها الى هناك ، الى بيته ، وستتخذ ما يلزم لتكون مرتاحة لا يزعجها أحد حتى تنتهي هذه المسألة كلها ثم ستقول لذلك الرجل ــ بيرتش ، براون ــ انها هنا

يقول بايرون

ــ وهو سيهرب

لا يرفع نظره ، ولكن تمر به موجة من النشوة ، الانتصار قبل أن يكبحها ويخفيها ، بعد أن فات الاوان على المحاولة آنيا لا يحاول أن يكبحها ، وهو الذي يستند الى الخلف في كرسيه القاسي ، وينظر للمرة الأولى الى القسيس ، بوجه واثق وجرىء ومخضوضب الآخر يواجه تحديقته بثبات

www.ibtesama.com/vb

يقول هايتاور

– وهل هذا هو ما تريده أن يفعله ؟

يجلسان هكذا في نور المصباح وعبر النافذة المفتوحة يأتي صمت الليل اللاهث الحار ذي المظاهر التي لا تحصى ولا تعد

– فكر فيما تفعله أنت تحاول التفريق بين رجل وزوجته

لقد أوقع بايرون نفسه في الشرك لم يعد وجهه يبدو منتصراً ولكنه ينظر بثبات الى الرجل الأكبر سنا ربما كان يحاول أن يدرك صوته أيضا ولكنه لا يستطيع ذلك بعد يقول

– ليسا زوجا وزوجة بعد

– هل تظن هي كذلك ؟ هل تعتقد أنها ستقول ذلك ؟

ينظران الواحد الى الآخر

– آه يا بايرون يا بايرون وما هي بضع كلمات مغمغمة أمام اخلاص طبيعة المرأة ؟ أمام ذلك الطفل ؟

– حسنا ، ربما لن يهرب اذا حصل على تلك المكافأة ، تلك النقود من المحتمل جدا أن يسكر بالدولارات الألف فلا يعود متمكناً من فعل أي شيء ، ناهيك عن الزواج

– آه ، يا بايرون يا بايرون

– ثم ما الذي تظن أن علينا علّي أنا أن أفعله ؟ ما الذي تنصح به ؟

– ارحل غادر جفرسون

ينظران أحدهما الى الآخر

www.ibtesama.com/vb

يقول هايتاور

– لا أنت لست في حاجة الى مساعدتي فأنت سبق لك ورحت تتلقى المساعدة من شخص أقوى مني

لا يتكلم بايرون لبرهة ينظران الواحد الى الآخر ، بثبات

– ومن يساعدني ؟

يقول هايتاور

– الشيطان –

* * *

« والشيطان يعتني « به » ، أيضاً » هذا ما يفكر به هايتاور انه يمشي ، وقد أصبح في منتصف الطريق الى البيت ، وسلة السوق الصغيرة المحماة على ذراعه يفكر « هو أيضا هو أيضا » وهو يمشي الجو حار إنه في قميصه ذي الردنين ، طويل بساقين مغطاتين ببنطال أسود وذراعين وكتفين هزيلتين نحيلتين وذلك الكرش المترهل البدين كأنه لامرأة حامل على نحو شديد البشاعة القميص أبيض ، ولكنه ليس نظيفاً ، وقبته متسخة ، وكذلك ربطة العنق الشاشية المعقودة باهمال ، كما أنه لم يحلق لحيته منذ يومين أو ثلاثة أما قبعته القشية الملونة فكانت متسخة ، وتحتها ، بين القبعة والجمجمة كان يضع اتقاء للحر منديلا متسخا تبرز حوافه وزواياه كما قد ذهب الى البلدة للتسوق نصف الاسبوعي ، حيث كان يدخل نحيلا ، مشوها ، بلحيته الرمادية غير الحليقة وعينيه المغطاتين بنظارتين ضبابيتين ويديه المؤطرتين بالأسود ورائحته الرجولية الزنخة الفائحة من لحمه كثير الجلوس قليل الاستحمام ، يدخل الدكان كريهة الرائحة التي تمتلىء

www.ibtesama.com/vb

بالأغراض المركومة دون انتظام والتي كان يتعامل معها بانتظام ويدفع نقدا ثمن ما يشتريه

قال صاحب الدكان

– حسنا ، لقد وجدوا أثر ذلك الزنجي أخيرا

قال هايتاور

– الزنجي ؟

سكنت حركته تماماً وذلك خلال وضعه في جيبه للفكة التي أعيدت له بعد دفعه ثمن مشترياته

– ذلك الوغد الشخص ، القاتل كنت تقول دائما انه ليس على ما يرام انه لم يكن أبيض أن هناك شيئا مضحكا في شخصه ولكنك لا تستطيع أن تقول شيئا للناس حتى

سأل هايتاور

– وجدوه ؟

– أجل وجدوه عجبا ، لم يكن لدى ذاك الأحمق من العقل ما يكفي للهرب من المقاطعة كلها والمأمور هنا كان يتصل بالهاتف بأرجاء البلد كلها ليبلغ عنه وذلك الابن الأسود لل هنا تحت أنفه اللعين طوال الوقت

– وهم قد

انحنى نحو الأمام على نضد الحساب ، فوق سلته المحملة استطاع أن يشعر بحافة النضد على بطنه كان قاسيا ، راسخا على نحو كاف ، كان شبه بالأرض نفسها وهي تهتز قليلا ، وهي تجهز نفسها للحركة ثم بدت كأنها تتحرك ، كشيء يحرر ببطء ودون سرعة ، في انقضاض متزايد ، وبمهارة ، حيث أن العين قد خدعت لتصدق بأن الرفوف

www.ibtesama.com/vb

القذرة المصفوف عليها الصفائح التي برز عليها الذباب ، وأن التاجر نفسه خلف النضد، لم يتحرك أي منها، احساس مثير للغضب وخادع وكان هو يفكر « لن أفعل ! لن أفعل ! لقد اشتريت الحصانة لقد دفعت لقد دفعت »

قال صاحب الدكان

— لم يمسكوا به بعد ، ولكنهم سيفعلون لقد اصطحب المأمور الكلاب الى الكنيسة قبل فجر هذا اليوم انهم لا يبعدون عنه أكثر من مسيرة ست ساعات والتفكير في أن ذلك الأحمق اللعين لم يكن لديه من العقل هذا يدل على أنه زنجي ، ان لم يكن يدل على شيء آخر .

ثم قال صاحب الدكان

— هل هذا كل ما تريده اليوم ؟

قال هايتاور

— ماذا ؟ ماذا ؟

— أكان ذلك كل ما تريده ؟

— أجل أجل كان ذلك

مد يده الى جيبه وصاحب الدكان يراقبه خرجت يده وهي لا تزال تتلمس شيئاً تخبطت فوق النضد ناثرة النقود أوقف صاحب الدكان قطعتين أو ثلاث منها قبل أن تتدحرج بعيدا عن النضد

قال صاحب الدكان

— ولماذا هذه النقود ؟

تلمست يدها يتاور المنسلة المحملة

www.ibtesama.com/vb

ـ انها لأجل لأجل

ـ لقد سبق لك ودفعت

كان صاحب الدكان يراقبه ، بفضول

ـ هذه فكتك التي أعطيتك اياها تتمة الدولار

قال هايتاور

ـ أوه أجل أنا أنا

كان التاجر يجمع قطع النقود أعادها اليه وحين لمست يد الزبون يده كانت باردة كالثلج

قال صاحب الدكان

ـ انه هذا الطقس الحار . انه لينهك المرء حقا هل تريد الجلوس قليلا قبل العودة الى البيت ؟

ولكن هايتاور لم يسمعه وكان ذلك واضحا كان يتحرك الآن ، نحو الباب ، بينما راح التاجر يراقبه . مر عبر الباب وخرج الى الشارع ، والسلة على ذراعه ، ومشى بتصلّب وحذر ، كرجل يمشي فوق الجليد كان الجو حارا ، وكانت الحرارة تصعد مرتعشة من الأسفلت ، مضفية على الأبنية المألوفة حول الساحة صفة نورانية ، صفة من الجلاء والقتامة الحيّين الخافقين خاطبه شخص ما وهو يمر به ، ولكنه لم ينتبه إلى ذلك استمر في السير ، مفكرا وهو أيضاً وهوأيضاًوهو يسير بسرعة الآن، لذا حين التف من حول الزاوية أخيرا ودخل الشارع الصغير الميت الخالي حيث ينتظره بيته الصغير الميت الفارغ ، كان يلهث تقريبا « انه القيظ » هذا ما كانت قمة ذهنه تقوله له ، بتكرار وشرح ومع ذلك ، وحتى في الشارع الهادىء الذي كان نادرا ما

www.ibtesama.com/vb

يتوقف فيه شخص لينظر الى اللافتة وبيته ويتذكرهما ، ملجأه ، الذي سبق له و ضحى تحت مرمى نظره ، استمر التفكير تحت قمة ذهنه الذي كان يخدعه ويخفف عنه « لن أفعل . لن أفعل . لقد اشتريت الحصانة » كأنها كانت كلمات نطقت بصوت مرتفع متكررة ، صبور ، تبريرية « لقد دفعت ثمن ذلك لم أفاوض على السعر لا يمكن لأي شخص ن يقول ذلك أردت السلام فقط لقد دفعت لهم ثمنهم دون مماطلة » كان الشارع يومض وينزلق كان يتعرق ، ولكن حتى هواء الظهر كان باردا بالنسبة اليه الآ ن ثم اندمج العرق والقيظ والسراب ، اندمجت كلها متحولة الى سهائية تلغي كل المنطق والتبرير وتمحوهما كما قد تفعل النار : **لن أفعل !** لن افعل . ــــــ ــــ

* * *

بينما كان جالسا في نافذة غرفة المكتبة في نول الظلمة ، راى بايرون يمر تحت نور مصباح الشارع ثم يتجاوزه ، فجلس في كرسيه منحنيا نحو الأمام لم يكن مندهشا بسبب مشاهدته لبايرون هناك ، في مثل تلك الساعة في البداية ، حين ميز الشخص ، فكر آه . **كنت أفكر في أنه سيأتي الليلة . لا يستطيع أن يدعم حتى شبيه الشر** كان ذلك حين كان يفكر بأنه قد انطلق ، فجلس منحنيا نحو الأمام ولبرهة بعد تمييز الشخص المقترب في وهج النور صدق أنه كان على خطأ ، عارفا طوال الفترة أنه لم يكن قادرا على ذلك ، أنه ما كان ممكنا أن يكون سوى بايرون ، حيث كان قد سبق له ودخل من بوابة منزله .

في هذه الليلة يبدو بايرون متغيرا تماما يبدو ذلك في مشيته ، في طريقة تحركه انه منحن نحو الأمام كما يقول هايتاور في نفسه

www.ibtesama.com/vb

كأنه قد تعلم الاعتزاز بالنفس ، أو التحدي رأس بايرون قائمة وهو يمشي بسرعة وانتصاب وفجأة يقول هايتاور ، بصوت مرتفع تقريباً « لقد فعل شيئا ما لقد اتخذ خطوة » فرقع بلسانه ، وهو ينحني عند النافذة المعتمة ، مراقبا الشخص يمر بسرعة مبتعدا عن النظر خلف النافذة ونحو الرواق ، المدخل ، وفي اللحظة التالية يسمع هايتاور صوت قدميه ثم قرعه على الباب يفكر « وهو لم يعرض أن يخبرني حتى كان علي أن أصغي ، أن أتركه يفكر بصوت مرتفع أمامي » لقد سبق له وعبر الغرفة ، وتوقف عند المكتب ليضيء المصباح يذهب نحو الباب الأمامي

يقول بايرون

— هذا أنا أيها الموقر

يقول هايتاور

— لقد عرفتك ، رغم أنك لم تتعثر بالدرجة السفلى هذه المرة لقد دخلت هذا المنزل ليلة الأحد ، ولكنك لم تدخله حتى هذه الليلة دون أن تتعثر بالدرجة السفلى ، يا بايرون

كان ذلك هو اللحن الذي تبدأ به عادة زيارات بايرون هذا اللحن المستبد قليلا ، لحن الخفة والدفء حتى يوضع الآخر في حالة من الارتياح ، ومن جهة الزائر ذلك الحياء البطيء الريفي الذي هو اللياقة أحيانا كان يبدو لهايتاور أنه سيجذب بايرون الى داخل المنزل بأن يدفعه بالاستعمال الحكيم لأنفاسه ، كأنما كان بايرون يرتدي شراعاً

www.ibtesama.com/vb

ولكن بايرون قد سبق له ودخل ، قبل أن ينهي هايتاور جملته يدخل على الفور ، بتلك الكبرياء الجديدة التي ولدت في مكان ما بين الثقة والتحدي

– وأعتقد أنك ستجد أنك تكره الأمر على نحو أشدّ حين لا أتعثر أكثر مما تكرهه حين أتعثر

هذا ما يقوله بايرون

– أهذا أمل ، أم تهديد يا بايرون ؟

– حسنا ، لا أعني أن يكون تهديدا

يقول هايتاور

– آه ، بكلمات أخرى لا يمكنك أن تعرض أي أمل خبئنا ، لقد شعرت بذلك مقدما على الأقل لقد شعرت به مقدّماً حالما رأيتك في نور الشارع ولكنك ستخبرني به على الأقل قل لي ما فعلته حتى لو لم تكن نرى أنه من المناسب أن تتحدث عنه مسبقاً

انهما يتحركان على نحو باب غرفة المكتبة يتوقف بايرون ينظر الى الخلف والى الأعلى نحو وجه الرجل الأطول

يقول

– أنت تعرف اذن لقد سبق لك وسمعت

عندها ، ورغم أن رأسه لم يتحرك ، الا أنه ما عاد ينظر الى وجه الرجل الآخر

يقول

– حسنا لكل رجل لسانه الحر والمرأة أيضا ولكني أود أن أعرف من الذي أبلغك لا يعني ذلك أني أشعر بالخجل ولا يعي

www.ibtesama.com/vb

أني كنت أهدف إلى ابقاء الأمر سرا عليك لقد جئت لأقوله لك بنفسي حين استطعت

يقفان خارج باب الغرفة المضاءة ويرى هايتاور الآن أن ذراعي بايرون محملتان بالرزم والعلب التي قد تحوي مواد بقالة . يقول هايتاور

ـ ماذا ؟ ماذا جئت تقول لي ؟ ولكن ادخل ربما أعرف ما هو الأمر . ولكني أريد رؤية وجهك حين تقوله لي لقد سبق لي وحذرتك أيضا يا بايرون

يدخلان الغرفة المضاءة الرزم عبارة عن مواد بقالة لقد اشترى وحمل الكثير كأنما هو نفسه لا يدري كم اشترى وحمل

يقول

ـ اجلس

ـ لا ، لن أبقى طويلا

يقف رزينا ، متماسكا ، بذلك المظهر المتعاطف انما الحاسم دون ثقة ، الواقف دون تأكيد ذلك المظهر الذي يميز رجلا على وشك أن يفعل شيئا لن يفهمه شخص عزيز عليه أو يوافق عليه ، ولكنه يعلم هو نفسه أنه صحيح ، كما يرى أيضا أن الصديق لن يراه على هذا النحو يقول

ـ لن يعجبك ذلك ولكن ليس هناك أي شيء آخر أفعله أتمنى لو أنك تراه ولكني أعتقد أنك لا تستطيع وأعتقد أن هذا كل ما في الأمر

www.ibtesama.com/vb

عبر الكتب ، يراقبه هايتاور ، بعد أن جلس مجددا ، بجدية

— ما الذي فعلته يا بايرون ؟

يتكلم بايرون بذلك الصوت الجديد ذلك الصوت الموجز ، المحكم ، وكل كلمة محددة المغنى ودون تعثر

— لقد اصطحبتها الى هناك هذا المساء لقد سبق لي وجهزت الكوخ ونظفته جيدا لقد استقرت هناك الآن هذا ما أرادته فقد فقد كان الكوخ أقرب شيء الى أن يكون بيتا له في الماضي أو في المستقبل ، لذا أعتقد أنه يحق لها استخدامه ، خاصة وأن المالك لن يستخدمه الآن . فهو محتجز في مكان آخر كما يمكنك أن تقول أعرف أن ذلك لن يعجبك يمكنك أن تورد الكثير من الاسباب وهي أسباب معقولة ستقول انه ليس كوخه حتى أعطيها اياه حسنا ، ربما لا يكون ولكن ليس هناك في هذا البلد رجل أو امرأة على قيد الحياة يقول انها لا تستطيع استعماله ستقول انها في حالتها تلك تحتاج الى أن يكون معها امرأة حسنا ، هناك امرأة زنجية ، كبيرة السن بما فيه الكفاية لتكون عاقلة وتسكن على مسافة لا تزيد عن مئتي ياردة عن الكوخ يمكنك أن تناديها دون أن تنزل عن الكرسي أو السرير ستقول ولكنها ليست امرأة بيضاء وسأسألك ما الذي يمكنها أن تناله من نساء جفرسون البيضاوات حين يأتيها المخاض ، وهي التي لم يمض عليها أسبوع في جفرسون فأضحت لا تستطيع أن تتحدث الى امرأة عشر دقائق قبل أن تعرف تلك المرأة أنها غير متزوجة بعد ، وطالما بقي ذلك الوغد اللعين فوق الأرض بحيث تستطيع أن تسمع عنه بين الحين والآخر ، فانها لن تتزوج كم من العون ستتلقى من السيدات البيضاوات حين

www.ibtesama.com/vb

يأتيها المخاض ؟ سيوفرون لها سريرا تنام عليه وبعض الجدران لاخفائها عن الشارع لا أعني ذلك وأعتقد أن المرء سيكون مبررا له أن يقول انها لا تستحق أكثر من ذلك ، حيث أنها لم تصل الى هذه الحالة خلف جدران . ولكن ذلك الطفل لم يقم بالاختيار . وحتى لو قام به ، فلأكن ملعونا ان كان أي طفل صغير اذا ما اضطر الى مواجهة ما سيكون عليه مواجهته في هذا العالم ، يستحق يستحق أكثر من — أفضل من ذلك ... ولكني أعتقد أنك تعرف ما أعنيه أعتقد أنك تستطيع أن تقوله حتى

يراقبه هايتاور من وراء المكتب بينما يتكلم بتلك اللهجة الهادئة المكبوحة ، دون أن تخونه ولو مرة واحدة الكلمات حتى وصل الى شيء ما جديد وضبابي أكثر مما ينبغي له أن يشعر به

— أما السبب الثالث ؛ أي وجود امرأة بيضاء لوحدها هناك فأنت لن يعجبك ذلك هذا الذي لن يعجبك أبدا

— آه يا بايرون يا بايرون

صوت بايرون عنيد الآن . ولكنه لا يزال يرفع رأسه عاليا .

— لست في المنزل معها لدي خيمة وهي ليست قريبة منها أيضا بل في مكان أستطيع منه أن أسمع صوتها عند الحاجة وقد وضعت مزلاجا للباب يمكن لأي منهم أن يخرج في أي وقت ويراني في الخيمة

— آه يا بايرون يا بايرون

— أعرف أنك لا تظن ما يظنه معظمهم ما هم آخذون بالظن فيه أعرف أنك تعرف أفضل منهم ، حتى لو لم تكن او لم يكن — أني أعرف أنك قلت ذلك بسبب أنك تعرف بما سيظن به الآخرون .

www.ibtesama.com/vb

يجلس هايتاور مرة أخرى في وضع معبود شرقي بين ذراعيه المتوازيين على ذراعي الكرسي

ـ ارحل يا بايرون ارحل الآن فورا غادر هذا المكان الى الأبد ، هذا المكان الرهيب هذا المكان الرهيب الرهيب أستطيع أن أفهمك ستقول لي انك تعلمت الحب للتو ، وسأقول لك انك تعلمت الأمل هذا كل ما في الأمر الأمل الهدف لايهم ، لايهم الأمل ولا يهمك وهناك نهاية واحدة لكل هذا ، للطريق التي تسير عليها الخطيئة أو الزواج وأنت سترفض هذه الخطيئة هذا كل ما في الأمر ، وليغفر لي الله . ومعك سيكون زواجا لابد ، أو لاشيء وسوف تصر أنت على الزواج ستقنعها ؛ ربما سبق لك وفعلت ذلك ، ولو أنها عرفت ذلك فحسب ، لأقرت به والا لماذا تقنع هي بالبقاء هنا ولا تبذل أي جهد لترى الرجل الذي جاءت تبحث عنه ؟ لا أستطيع أن أقول لك اختر الخطيئة ، لأنك لن تكرهني فحسب ، بل ستحمل ذلك الكره اليها مباشرة ، لذا أقول ارحل الآن فورا أدر وجهك الآن ولا تلتفت نحو الخلف ولكن ليس هذا يا بايرون

ينظر أحدهما الى الآخر يقول بايرون

ـ أعتقد أني فعلت ما هو صحيح ، حين رفضت أن أكون ضيفا فلم أجلس ولكني لم أتوقع هذا أن تقوم أنت أيضا بمعاداة امرأة أسيء اليها وغرر بها

ـ ليست هناك امرأة ذات طفل تكون قد تعرضت للتغرير بها ان زوجا لأم سواء كان هو الأب أم لا ، قد سبق له وأضحى ديوثا امنح نفسك فرصة واحدة من عشر على الأقل يا بايرون اذا كان

www.ibtesama.com/vb

عليك أن تتزوج فهناك نساء عازبات وفتيات وعذارى ليس عدلا أن تضحي بنفسك في سبيل امرأة سبق لها واختارت مرة وتترغب الآن في انكار ذلك الاختيار ليس هذا صحيحا ليس عادلا حين خلق الله الزواج لم يكن غرضه منه مثل هذا الأمر خلقه ؟ النساء هن اللواتي خلقن الزواج

ـــ أضحي بنفسي ؟ أنا أضحي ؟ يبدو لي أن التضحية

ـــ ليس في سبيلها بالنسبة الى النساء من نوع « لينا غروف » هناك دائما رجلان في العالم وهم كثر رجال من نوع لوكاس بيرتش وبايرون بنتش ولكن لا توجد أي « لينا » ، أي أمرأة ، تستحق أكثر من واحد منهما فقط ولا أي امرأة لقد وجدت نساء طيبات كن شهيدات لرجال وحوش ، سكيرين وغير ذلك ولكن أي امرأة ، سواء كانت طيبة أم شريرة ، أي امرأة عانت من رجال وحوش كما عانى الرجال من النساء الطيبات ؟ قل لي يا بايرون

يتحدثان بهدوء ، دون حرارة ، ويتوقفان ليزن كل واحد منهما كلمات الآخر ، كما قد يفعل رجلان سبق لهما وأصبحا حصينين أضحى كل واحد منهما ضمن حدود قناعته الخاصة يقول بايرون

ـــ أعتقد أنك على حق وعلى أي حال لست أنا من يقرر ان كنت على خطأ ولا أعتقد أنك من يقرر اني على خطأ ، حتى لو كنت كذلك

يقول هايتاور

www.ibtesama.com/vb

ـ لا.

يقول بايرون

ـ حتى لو كنت كذلك أعتقد أني سأقول ليلتك سعيدة

ثم يستأنف بهدوء .

ـ انه لمشوار طويل الى هناك

يقول هايتاور

ـ أجل ، لقد اعتدت أن أقطعه أنا بنفسي ، بين الحين والآخر لابد أنه حوالي ثلاثة أميال

يقول بايرون

ـ ميلان .. حسنا . ـــــــــــــــــــــ ....

يلتفت لا يتحرك هايتاور ينقل بايرون الرزم التي لا يزال يحملها من ذراع الى أخرى يقول وهو يتحرك نحو الباب

ـ سأقول ليلتك سعيدة أعتقد أني سأراك ، قريبا

يقول هايتاور

ـ أجل . هل هناك ما يمكنني أن أفعله ؟ هل تحتاج الى أي شيء ؟ ملاءات سرير أو ما شابه ؟

ـ أنا ممتن لك أعتقد أن لديها الكثير لقد وجدنا بعضها هناك أنا ممتن لك

ـ وهل ستبلغني؟اذا حصل شيء ما؟اذا ما الطفل ... هل رأيت طبيبا؟

ـ سأعتني بهذه المسألة

ـ ولكن هل سبق ورأيت أحدهم ؟ هل اتفقت مع طبيب ؟

ـ أنوي ترتيب كل هذه الأمور وسأبلغك

ثم رحل ومن النافذة ها هو هايتاور يراقبه مرة أخرى وهو يمر ثم يسير حتى نهاية الشارع ، نحو طرف البلدة ومشواره الذي يبلغ

www.ibtesama.com/vb

ميلين ، حاملا أكياس الورق التي تحوي طعاما ابتعد عن مرمى نظره منتصب القامة وبمشية سريعة مشية ما كان ممكنا لكهل نحيل ضيق النفس ، رجل كهل أنفق الكثير من وقته جالسا ، أن يجاريها وينحني هايتاوز هناك على النافذة ، في قيظ شهر آب ، ناسيا الرائحة التي يعيش فيها ، رائحة الناس الذين ما عادوا يعيشون الحياة رائحة التجفف الخاصة بالترهل المفرط والثياب القذرة كأنها نذير بالقبر مصغيا الى القدمين اللتين يبدو عليه أنه لايزال يسمع وقعهما بعد أن عرف أنه ما عاد قادرا على ذلك ، مفكرا « ليباركه الرب ليساعده الرب »

مفكرا **أن يكون المرء شاباً.أن يكون شاباً لا شيء كالشباب ولا أي‌شيء في العالم** انه يفكر بهدوء « ما كان علي أن أتخلى عن عادة الصلاة » ثم لم يعد يسمع وقع القدمين . ولا يسمع الآن سوى الحشرات الكثيرة اللامتناهية ، مستندا على النافذة ، يتنفس رائحة الأرض الحارة المبقعة الغنية لا تزال ، مفكرا كيف أنه حين كان شابا ، كان يحب العتمة ، والسير والجلوس وحيدا بين الأشجار في الليل ثم أصبحت الأرض ولحاء الأشجار أمرا حقيقيا متوحشا ، موحيا وممتلئا بأنصاف المتع والأهوال الغريبة المهلكة كان يخافها كان يخاف ، وكان يحب أن يشعر بالخوف ثم حدث في أحد الأيام وهو في المعهد اللاهوتي أن أدرك أنه لم يعد خائفا كأنما أغلق باب من الأبواب في مكان ما لم يعد خائفا من الظلمة كان يكرهها فحسب ؛ كان يهرب منها ، الى الجدران ، الى الأنوار الاصطناعية يفكر « أجل ما كان علي أن أتخلى عن عادة الصلاة » يلتفت مبتعدا عن النافذة على أحد جدران غرفة المكتبة كتب مصفوفة يتوقف أمامها ، مفتشا عن كتاب ،

www.ibtesama.com/vb

حتى يجده انه من مؤلفات « تنيسون (١) » وقد طويت كثير من صفحاته كان معه منذ أن كان في المعهد اللاهوتي يجلس تحت المصباح ويفتحه لا يستغرقه الأمر كثيرا سرعان ما تبدأ اللغة الجميلة الرشيقة ، انحدار عديم الحيوية مليء بالأشجار الميتة والشهوات الجافة بالسباحة على نحو ناعم سريع وهادىء انه أفضل من الصلاة دون الاضطرار الى الانزعاج بالتفكير بصوت مرتفع إنه أشبه بالاصغاء في كاتدرائية إلى مخصي ينشد بلغة لا يحتاج حتى الى أن يفهمها

* * *

(١) ألفرد تنيسون شاعر انكليزي هام (١٨٠٩ - ١٨٩٢)
(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

الفصل الرابع عشر

قال نائب المأمور للمأمور

– هناك شخص ما يعيش في ذلك الكوخ انه لا يخبىء نفسه بل يعيش فيه

قال المأمور :

– اذهب وتحر الأمر

خرج النائب ثم عاد

– انها امرأة امرأة شابة وقد رتبت أمورها بحيث تعيش هناك لفترة طويلة ، هذا ما يبدو عليه الأمر كما أن بايرون بنتش قد نصب خيمة تبعد عن الكوخ كما يبعد هذا المكان عن مكتب البريد

يقول المأمور

– بايرون بنتش ؟ ومن هي المرأة ؟

– لا أعرف انها غريبة امرأة شابة لقد حكت لي الموضوع كله لقد بدأت تحكي حتى قبل أن أدخل الكوخ ، كأنما كانت تلقي خطابا كأنها اعتادت أن تحكي تلك القصة ، أضحت عادة لديها وأعتقد أن المسألة قد وصلت الى هذا الحد ، فهي قدمت الى هنا من مكان ما في آلاباما ، تبحث عن زوجها لقد سبقها الى هنا بحثاً عن

www.ibtesama.com/vb

عمل ، كما يبدو ، وبعد فترة انطلقت تبحث عنه وقال لها بعض الناس على الطريق انه موجود هنا وفي تلك الأثناء دخل بايرون وقال انه يشرح لي الأمر كله قال انه كان ينوي أن يبلغك بذلك

يقول المأمور

– بايرون بنتش

يقول النائب

– أجل انها على وشك انجاب طفل . ولن يطول الأمر على أية حال

يقول المأمور

– طفل ؟

ينظر الى النائب

– ومن ألاباما من أي مكان لا يمكنك أن تحكي مثل ذلك عن بايرون بنتش

يقول النائب

– لن أحاول بعد الآن لن أقول إنه طفل بايرون وعلى الأقل فان بايرون لا يقول انه طفله أنا أنقل فحسب ما قاله لي

يقول المأمور

– أوه أرى الآن سبب وجودها هناك اذن فهو أحد هذين الشخصين انه كريسماس ، أليس كذلك ؟

– لا هذا ما قاله لي بايرون لقد اصطحبني الى الخارج حيث لا يمكنها سماعنا وقال لي ذلك قال انه كان ينوي القدوم ليبلغك انه طفل براون ولكن اسمه ليس براون انه لوكاس بيرتش هكذا قال لي بايرون حكى كيف تخلى عنها براون أو بيرتش في آلاباما

www.ibtesama.com/vb

قال لها انه قادم ليجد عملا ويدبر بيتا ثم يرسل في طلبها . ولكن اقترب موعد الانجاب ولم يصلها منه شيء ، ولم تكن هي تعرف أين مكانه أو أي شيء آخر عنه ، لذا قررت ألا تنتظر أكثر من ذلك وقد انطلقت في مسيرتها مشيا على القدمين ، وهي تسأل طوال الطريق ان كان هناك من يعرف شخصا اسمه لوكاس بيرتش ، وكانت تجد أحيانا عربة تنقلها من مكان الى مكان ، وهي تسأل كل شخص تقابله ان كان يعرفه . لذا قال لها شخص ما بعد فترة ان هناك رجلا اسمه بيرتش أو بنتش أو ما شابه يعمل في ورشة السحج في جفرسون فأتت الى هنا . وقد وصلت الى هنا يوم السبت ، في عربة ، بينما كنا نحن جميعاً في مشهد الجريمة ، وقد ذهبت الى الورشة فوجدت بنتش بدلا عن بيرتش . وقال بايرون انه أبلغها أن زوجها كان في جفرسون قبل أن يعرف ذلك ثم قال انها ألحت عليه فاضطر الى ابلاغها عن مكان سكن براون ولكنه لم يقل لها ان براون أو بيرتش متورط مع كريسماس في جريمة القتل لقد قال لها فحسب إن براون كان مسافراً في عمل ما وأعتقد أن بامكانك تسميته عملا انه عمل على أية حال . لم يسبق لك أن رأيت رجلا يريد ألف دولار على نحو أكثر الحاحا منه ويعاني كل هذه المعاناة ليصل اليها لذا قالت ان منزل براون هو المنزل الذي وعد لوكاس بيترش أن يجهزه لها لتعيش فيه ، فانتقلت اليه لتنتظر عودته من العمل الذي سافر من أجله . قال بايرون انه لم يستطع منعها من ذلك لأنه لم يكن يريد ابلاغها بحقيقة براون بعد أن سبق له وكذب عليها نوعا ما قال انه كان ينوي القدوم ليبلغك قبل الآن ، ولكنك اكتشفت المسألة سريعا قبل أن تستقر المرأة حتى .

www.ibtesama.com/vb

يقول المأمور

– لوكاس بيرتش ؟

يقول النائب

– لقد دهشت أنا نفسي ما الذي تنوي فعله ازاء ذلك ؟

يقول المأمور

– لا شيء أعتقد أن وجودهما هناك لا ضرر منه . وليس الكوخ ملكا لي حتى أطردها منه وكما قال لها بايرون ، فان بيرتش أو براون أو مهما يكن اسمه ، سيكون مشغولا لفترة قد تطول بعد

– هل تنوي إبلاغ براون بوجودها ؟

يقول المأمور :

– لا أظن ذلك ليس ذلك من شؤوني لست مهتما بالزوجات اللواتي خلفهن وراءه في آلاباما ، أو في أي مكان آخر ان ما أنا مهتم به هو الزوج الذي كان يعيش معه منذ جاء الى جفرسون

يقهقه النائب ثم يقول

– أظن هذه حقيقة

يعود الى رزانته ويفكر

– اذا لم يحصل على تلك الدولارات الألف فأعتقد أنه سيموت

يقول المأمور

– لا أعتقد ذلك

* * *

في الساعة الثالثة من يوم الأربعاء دخل زنجي البلدة ممتطيا بغلا دون سرج ذهب الى منزل المأمور وأيقظه فلقد وصل مباشرة من كنيسة

www.ibtesama.com/vb

للزنوج تبعد مسافة عشرين ميلا حيث كان يجري اجتماع ديني لايقاظ الروح الدينية ليلا وفي المساء السابق ، وفي منتصف الترتيلة ، صدرت ضجة هائلة من مؤخرة الكنيسة فالتفت المصلون ليروا رجلا واقفا في الباب ولم يكن الباب قد أوصد بالمفتاح أو أغلق حتى كان الرجل قد أمسك بالأكرة وفتحه صافعا به الجدار حيث اقتحمت الضجة الأصوات الممتزجة كطلقة مسدس ، ثم قطع الرجل الممشى بسرعة حيث كان الانشاد قد توقف ، ثم نحو المنبر حيث كان الواعظ يتكىء ، ويداه لاتزال مرفوعتين وفمه لايزال مفتوحا ثم لاحظوا أن الرجل أبيض البشرة . وفي القتامة الكثيفة الكهفية التي كان المصباحان الزيتيان يزيدانها فحسب ، لم يستطيعوا تمييزه حتى أصبح في منتصف الممشى ثم شاهدوا وجهه ولم يكن أسود ، وبدأت احدى النساء بالزعيق ، وقفز الناس الذين في المؤخرة ليهربوا باتجاه الباب ، كما أن امرأة أخرى كانت جالسة على مقعد ذوي الفقيد ، قفزت وقد سبق لها وأضحت في حالة هيستيرية واندفعت وحدقت اليه للحظة بعينين متقلبتين وصرخت « انه ابليس ! انه الشيطان نفسه ! » ثم راحت تعدو وقد عميت تماما عدت باتجاهه مباشرة فأوقعها أرضا دون أن يتوقف وخطا من فوقها وتابع السير ، والوجوه فاغرة الأفواه تنوي الصراخ متراجعة أمامه ، تابع السير حتى المنبر ووضع يده على القسيس

قال الرسول

– لم يكن أي شخص قد أزعجه حتى ذلك الحين كان كل شيء يجري بسرعة هائلة ، ولم يكن هناك من يعرفه ، يعرف من كان أو ما كان يريد أو أي شيء آخر والنساء كن يزعقن ويصرخن بينما قفز

www.ibtesama.com/vb

هو الى المنبر وأمسك بـ«الأخ بدنبري » من خناقه ، وحاول اخراجه من المنبر . استطعنا أن نرى الأخ بدنبري يكلمه ، يحاول تهدئته ، وهو يشد الأخ بدنبري من ملابسه ويصفعه على وجهه بيده والنساء يصرخن ويزعقن بحيث لم نستطع أن نسمع ما كان يقوله الأخ بدنبري ، باستثناء أنه لم يحاول أبدا أن يرد الصفعات أو أي شيء آخر ، ثم ذهب اليه بعض الشيوخ والشمامسة ، وحاولو أن يكلموه فأخلى سبيل الأخ بدنبري ثم اندفع فأوقع « بابي تومسون » العجوز البالغ السبعين من العمر في مقصورة ذوي الفقيد ثم مد يده وأمسك بكرسي ولوح به تجاه الآخرين حتى تراجعوا . والناس لا يزالون يصرخون ويزعقون ويحاولون الخروج. ثم التفت وصعد الى المنبر ، من حيث كان الأخ بدنبرن قد نزل من الجهة الأخرى ، ووقف هناك ... كان مغطى بالطين ، بنطاله وقميصه ، وذقنه سوداء دون حلاقة ويداه مرفوعتان كأنه واعظ ثم بدأ يجدف ، بصوت مرتفع ، موجها كلامه الى الناس ، وقد شتم الرب بصوت أعلى من صوت النساء الزاعقات ، وكان بعض الرجال يحاولون تهدئة خاطر « روزتومسون » حفيد « بابي تومسون » ، الذي كان طوله يبلغ الست أقدام وبيده موسى مشرعة وهو يصرخ « سأقتله أخلو سبيلي أيها الناس لقد ضرب جدي سأقتله أخلو سبيلي أرجوكم أن تخلوا سبيلي » والناس يحاولون الخروج ، وهم يتدافعون ويدوسون بعضهم البعض في الممشى وعبر الباب ، وهو على المنبر يجدف على الرب ، والرجال يبعدون روزتومسون وهو لايزال يرجوهم أن يخلوا سبيله . ولكنهم أخرجوا روز وعدنا الى الدغل وهو لايزال يصرخ ويشتم على المنبر هناك . ثم توقف عن ذلك بعد فترة ورأيناه يخرج

www.ibtesama.com/vb

الى الباب ويقف هناك وكان عليهم أن يمسكوا بروز مرة أخرى لاشك أنه سمع الضجة التي أثاروها وهم يحاولون كبح جماح روز ، لأنه بدأ يضحك وقف هناك في الباب ، والنور من خلفه ، وهو يضحك عاليا ثم بدأ يشتم مرة أخرى واستطعنا أن نراه يمسك بساق مقعد ويؤرجحها ثم سمعنا أول مصباح ينفجر ، وأصبحت الكنيسة معتمة قليلا ، ثم سمعنا المصباح الآخر ينفجر وعندها حل الظلام تماما ولم نعد نستطيع أن نراه وبينما كانوا يحاولون كبح جماح روز صدرت جلبة رهيبة وهم يصرخون هامسين « أمسكوا به ! امسكوا به ! اقبضوا عليه ! اقبضوا عليه ! » ثم صرخ أحدهم : « لقد أفلت » ، واستطعنا أن نسمع روز يعدو عائدا الى الكنيسة والشماس فاينز يقول لي « سيقتله روز اركب بغلا واستدع المأمور أجلك له ما رأيته للتو » . قال الزنجي « ولم يكن هناك من أزعجه يا كابتن . لم يسبق لنا حتى أن عرفناه حتى نناديه باسمه لم نره من قبل قط وقد حاول أن نمسك روز عنه ولكن روز رجل ضخم الجثة ، وهو قد أوقع جد روز العجوز وروز يحمل تلك الموسى المشرعة بيده ، غير مكترث كثيرا إن كان سيخرج أي شخص . وشق طريقه عائدا الى الكنيسة حيث ذلك الرجل الأبيض ولكننا حاولنا أن نمنعه وحق الله »

*

كان هذا هو ما حكاه ، لأنه كان لا يعرف سواه : كان قد غادر على الفور لم يكن يعرف أنه بينما كان يحكي قصته كان الزنجي روز ممددا دون وعي في كوخ قريب ، وقد كسرت جمجمته حيث ضربه كريسماس ، داخل الباب المظلم الآن ، ضربه بساق المقعد حين دخل

www.ibtesama.com/vb

روز الى الكنيسة لقد ضرب كريسماس ضربة واحدة ، بقسوة بوحشية ، باتجاه صوت القدمين اللتين كانتا تجريان ، والشكل الكثيف الذي اندفع مباشرة عبر الباب وسمعه دون توقف يرتمي متحطما بين المقاعد المقلوبة ثم يسكن تماما وبدون أن يتوقف أيضا قفز كريسماس خارجا نحو الأرض ، حيث وقف متوازنا بخفة ، وهو لايزال ممسكا بساق المقعد ، هادئا ، لا يتنفس بصعوبة . كان باردا تماما ودون تعرق وكانت العتمة تنزل باردة عليه كانت باحة الكنيسة هلالاً شاحبا من الأرض التي ديست ووطئت ، المتشكلة والمحاطة بشجيرات واشجار كان يعرف أن الشجيرات ممتلئة بالزنوج كان قادرا على الاحساس بالعيون . فكر : « ينظرون وينظرون لا أعرف لماذا لا يرونني » تنفس بعمق وجد أنه كان يرفع ساق المقعد ، بفضول ، كأنه يحاول أن يزنها ، كأنه لم يلمسها من قبل فكر « سأحفر ثلما فيها غدا » أسند الساق بعناية الى الجدار قريبا منه وأخرج من قميصه لفافة وعود كبريت وحين أشعل العود توقف ، وباللهب الأصفر المنبثق حيا على نحو ضعيف وقف ، ورأسه قد التفتت قليلا كان قد سمع وقع حوافر سمعها تأتي حية وتصبح أسرع وتتلاشى قال « بغل » بصوت مرتفع ، « وهو ذاهب الى البلدة يحمل النبأ السار » أشعل اللفافة ورمى بالعود بعيدا ووقف هناك ، يدخن ، ويشعر بالعيون الزنجية المركزة على الجمرة الصغيرة الحية ورغم أنه وقف هناك حتى دخن اللفافة كلها الا أنه كان متنبها تماما كان قد أسند ظهره الى الجدار وأمسك بساق الكرسي بيده اليمنى مجدداً دخّن اللفافة حتى آخرها ، ثم رماها وهي تلتمع ، بأقوى ما يستطيع ، نحو الشجيرات

www.ibtesama.com/vb

حيث كان يشعر بالزنوج هم جاثمون . قال « خذوا عقباً أيها الشباب ».
كان صوته مفاجئاً عالياً في الصمت وبين الشجيرات حيث كانوا يجثمون راحوا يراقبون اللفافة تومض متجهة الى الأرض وتتلألأ هناك لبعض الوقت ولكنهم لم يستطيعوا أن يروه حين رحل ، ولا أن يعرفوا أي طريق سلك

في الثامنة من صباح اليوم التالي وصل المأمور ، مع مجموعة المطاردة وكلبي الأثر قد حازوا على غنيمة على الفور ، رغم أن الكلبين لم يكن لهما فضل في ذلك كانت الكنيسة مهجورة ، وليس من زنجي منظور دخلت المجموعة الكنيسة وبحثت بهدوء بين الأنقاض ثم خرجت كان الكلبان قد اشتما شيئاً على الفور ، ولكن قبل أن ينطلقا وجد أحد نواب المأمور قطعة ورق منحشرة في لوح خشبي مشقوق في طرق الكنيسة كانت قد وضعت هناك بواسطة يد بشرية وكان ذلك واضحاً للعيان ، ولدى فتحها ، فقد تبين أنها علبة لفافات فارغة فُتحت وبُسطت وكُتب على الجانب الداخلي الأبيض فيها رسالة بقلم الرصاص كانت الكتابة غير متقنة ، كأنما خطتها يد غير متمرسة أو ربما كتبت في الظلام ، ولم تكن رسالة طويلة وقد كانت موجهة الى المأمور بالاسم ولكنها غير قابلة للنشر هنا — جملة واحدة فقط — وكانت دون توقيع . قال أحد أفراد المجموعة « أو لم أقل لك ؟ » كان غير حليق هو أيضاً وموحل الثياب ، كالطريدة التي لم يروها بعد ، ووجهه يبدو متوتراً ومجنوناً نوعاً ما ، مع احباط وغضب ، وكان صوته أبح كأنما كان قد مارس الكثير من الصياح المتواصل أو الكلام مؤخراً

— لقد كنت أقول لك ذلك طوال الوقت ! قلت لك !

قال المأمور بصوت بارد حيادي

www.ibtesama.com/vb

- وماذا قلت لي ؟

وذلك وهو يحدق الى الآخر ببرودة حيادية ، والرسالة المخطوطة بقلم الرصاص في يده

- ما الذي قلته لي آنذاك ؟

نظر الآخر الى المأمور ، محنقا ويائسا ومنهكا الى آخر حدود الاحتمال ، وقد فكر المأمور وهو ينظر اليه « اذا لم ينل تلك المكافأة ، سيموت على الفور » كان فمه فاغرا رغم صمته وهو يحدق الى المأمور بنوع من الدهشة غير المصدقة قال المأمور بصوته الكئيب الهادىء

- وأنا قلت لك أيضا : اذا كنت لاتحب أسلوب هذه المطاردة ، يمكنك أن تعود لتنتظر في البلدة . هناك مكان مناسب لك كي تنتظر فيه مكان بارد لاتشعر فيه بالحرارة شأن ما يحدث لك هنا تحت الشمس أولم أقل لك ذلك ؟ هيا انطلق

أغلق الآخر فمه . أشاح بنظره جانبا وقال كأنما بجهد هائل وبصوت جاف مخنوق

- أجل

التفت المأمور بحركة ثقيلة ، وهو يجعلك الرسالة بيده

- حاول ألا تجعل هذا الأمر يزوغ من دماغك مرة أخرى اذن هذا اذا كان في ذهنك فكرة الزوغان هذه

كانوا محاطين بوجوه هادئة مستثارة الانتباه تحت نور الشمس الباكر

- أشك في ذلك تماما هذا اذا أردت أنت أو غيرك أن تعرفا

قهقه أحدهم مرة واحدة

www.ibtesama.com/vb

قال المأمور

– اخرس لننطلق أطلق الكلبين يا « بيوف »

أطلق الكلبان رغم أنهما كانا مازالا مقيدين . وقد التقطا الأثر على الفور كان مجرى الأثر جيدا وتقفياه بسهولة بسبب الندى لم يكن الهارب قد بذل أي جهد يذكر لاخفاء أثره كانوا قادرين على أن يروا حتى آثار ركبتيه حيث ركع ليشرب من أحد العيون

قال نائب المأمور

– لم يسبق لي أن عرفت قاتلا لديه فهم أفضل من هذا للناس الذين قد يطاردونه . ولكن هذا الأحمق اللعين لايشك حتى في أننا قد نستخدم كلابا

قال المأمور

– نحن نطارده بالكلاب يوميا منذ يوم الأحد ولم نمسك به بعد

– كانت تلك آثارا با دة لم نحظ بأثر حار جيد حتى هذا اليوم ولكنه ارتكب غلطته أخيرا . سنمسك به اليوم . قبل الظهر ربما

قال المأمور

– سأنتظر وسأرى على ما أعتقد

قال نائبه

– سترى هذا الأثر يجري باستقامة كأنه على خط سكة حديدية أستطيع اتباعه لوحدي تقريبا انظر هنا تستطيع حتى أن ترى آثار قدميه ليس لدى الأحمق اللعين حتى ما يكفي من العقل ليسير على الطريق ، في الغبار ، حيث سار أناس آخرون وحيث لا تستطيع الكلاب أن تشم أثره وهذان الكلبان سيجدان نهاية آثار الأقدام هذه قبل الساعة العاشرة

www.ibtesama.com/vb

وقد فعلت الكلاب ذلك في الوقت الحاضر كان الأثر ينحني بحدة بزوايا قائمة تابعوه ووصلوا الى أحد الدروب فساروا فيه خلف الكلبين اللذين طأطأا رأسيهما بتوق ، واللذين ، بعد فترة قصيرة ، التفتا الى جانب الطريق حيث كان هناك ممر يؤدي الى مستودع قطن في حقل مجاور بدأا ينبحان ويزبدان ويشدان الحبال ، وصوتاهما مرتفعان ، مرحان ورنانان ينبحان ويموران من الاستثارة

قال النائب

– عجبا ، يا للأحمق اللعين ! جلس هنا واستراح ها هي آثار قدميه الكعبان المطاطيان بالذات انه لا يبعد عنا مسافة ميل واحد الآن ! هيا أيها الشباب

استأنفوا السير والحبال مشدودة ، والكلبان ينبحان ، والرجال يتحركون الآن بمشية سريعة . التفت المأمور الى الرجل غير الحليق وقال

– انها فرصتك الآن لتسبقنا وتمسك به وتنال تلك الدولارات الألف لم لا تفعل ذلك ؟

لم يجبه الرجل ؛ لم يكن لدى أي منهم قدرة على الكلام ، خاصة حين غادر الكلبان الطريق بعد حوالي الميل ، وهما لايزالان يشدان وينبحان ، وتبعا ممرا كان يصعد تلة ثم نحو حقل ذرة وهنا توقفا عن النباح ، ولكن لهفتهما زادت على أية حال كان الرجال يعدون الآن وراء نباتات الذرة التي ترتفع حتى مستوى رؤوس البشر كان كوخ زنجي قال المأمور وهو يشهر مسدسه

– انه هناك احذروا أيها الشباب معه مسدس الآن

www.ibtesama.com/vb

وقد تم الأمر بدقة ومهارة أحيط المنزل برجال مختبئين وبمسدسات مشهرة ، والمأمور ، الذي لحق به نائبه ، يتحرك رغم حجمه الهائل بسرعة ومهارة ملاصقا جدار الكوخ ، بعيدا عن مدى أية نافذة وقد التف من حول الزاوية وهو لايزال ملتصقا بجدار الكوخ ورفس الباب ففتحه وقفز ومسدسه أولا الى داخل الكوخ كان فيه طفل زنجي كان الطفل عاريا تماما ويجلس على الرماد البارد للموقد ، وهو يأكل شيئا ما كان وحيدا على ما يبدو رغم أن امرأة ظهرت بعد برهة في باب داخلي ، وفمها فاغر ، وهي على وشك أن تسقط مقلاة حديدية من يدها . كانت ترتدي زوجا من الأحذية الرجالية ميزه أحد رجال مجموعة المطاردة على أنه يخص الطريد وقد حكت هي لهم عن رجل أبيض قابلته على الطريق حوالي الفجر وكيف بادلها بحذائه مقابل مداس زوجها الغليظ الذي كانت ترتديه في ذلك الحين أصغى اليها المأمور قال « حدث ذلك قرب مستودع للقطن ، أليس كذلك ؟ » وقد أجابته بالايجاب فالتفت الى رجاله ، والى الكلبين المربوطين بمقود والتواقين الى الانطلاق نظر الى الكلبين بينما كان الرجال يطرحون الأسئلة ثم توقفوا عن ذلك ، وراحوا يراقبونه وقد راقبوه وهو يعيد المسدس الى جرابه ثم يلتفت ويرفس الكلبين ، كل واحد منهما رفسة واحدة ، وبقوة قال

– أعيدوا مصّاصي البَيْض اللعينين الى البلدة

ولكن المأمور كان شرطيا جيدا كان يعرف وكذلك رجاله أنه سيعود الى مستودع القطن ، حيث كان يعتقد أن كريسماس كان مختبئا فيه طوال الوقت ، رغم أنه كان يعرف الآن أن كريسماس

www.ibtesama.com/vb

لن يكون هناك لدى عودتهم إلى المستودع . وجدود صعوبة في ابعاد الكلبين عن الكوخ ، لذا لم يصلوا الى مستودع القطن ويحيطوا به الا بعد أن كانت الساعة قد قاربت العاشرة وأصبحت الشمس لامعة وحارة ، وقد أحاطوا به بمهارة وحذر وهدوء واقتحموه بالمسدسات ، حسب القواعد تماما دون أي أمل معين وقد وجدوا فأر حقل مندهشا ومذعورا وعلى أية حال فان المأمور كان معه كلبان وقد رفضا الاقتراب من مخزن القطن اطلاقا ، كما رفضا مغادرة الطريق وراحا يناضلان ضد الطوقين برأسين متزامنتين ومرتدتين الى الخلف ومتجهتين نحو الطريق ونحو الكوخ الذي جرا بعيدا عنه قبل قليل وجلبا الى هنا وقد تطلّب الأمر أن يستعمل رجلان كامل قواهما لاحضارهما ، وما أن تم ارخاء الحبال حتى قفزا ككلب واحد واندفعا من حول مستودع القطن نحو الآثار التي تركتها ساقا الطريدة في الأعشاب الطويلة التي لا زالت مبللة بالندى في ظلّ المستودع ، واندفعا متقافزين ومتوترين عائدين الى الطريق ، وهما يجران الرجلين مسافة خمسين ياردة قبل أن ينجحا في ربط الحبال بشجرة وربط الكلبين بها وفي هذه المرة لم يقم المأمور حتى برفسهما

* * *

وأخيرا يموت الضجيج وأجراس الانذار ، والصخب والعنف الذي رافق حملة المطاردة ، يموت مبتعدا عن سمعه لم يكن في مستودع القطن حين مر الرجل والكلبان كما كان المأمور يعتقد لقد توقف هناك فترة تكفي لربط شريطي المداس الحذاء الأسود ، الحذاء الأسود الذي له رائحة الزنوج . كان يبدو كأنه اقتطع من فلز الحديد

www.ibtesama.com/vb

بفأس مثلمة . وبينما كان ينظر الى المداس الغليظ غير المتقن عديم الشكل ، قال « هاه » من خلال أسنانه بدا له أنه يستطيع أن يرى نفسه مطاردا من قبل رجال بيض أخيرا نحو الهاوية السوداء التي كانت تنتظره ، محاولة ، مدة ثلاثين عاما ، أن تغرقه والتي دخلها الآن أخيرا بالفعل ، وهو يحمل على كاهليه المعيار المحدد المتعذر استئصاله لحركتها الصاعدة

انه الفجر تماما ، ضوء النهار ذلك المزيج المعلق الوحيد الممتلىء باستيقاظ الطيور الهادىء المتردد والهواء ، المستنشق ، أشبه بماء العين انه يتنفس بعمق وبطء ، وهو يشعر بنفسه مع كل نفس ينتشر مع كل نفس في الرمادية الحيادية ، ويتحد مع الوحدة والهدوء اللذين لم يعرفا الغضب واليأس قط يفكر بدهشة هادئة وبطيئة « كان هذا كل ما أردت كان هذا كل ما في الأمر خلال ثلاثين عاماً وليس هذا بالمطلب الكبير خلال سنوات ثلاثين »

لم يكن قد نام كثيرا منذ يوم الاربعاء ، والآن ها قد حل أربعاء آخر ورحل ، رغم أنه لايدرك ذلك حين يفكر بالزمن يبدو له الآن أنه عاش لمدة ثلاثين عاما داخل استعراض منتظم للأيام المسماة والمعدودة كخوازيق سياج ، وأنه ذهب لينام في احدى الليالي واستيقظ ليجد أنه خارج هذا الاستعراض ولفترة من الزمن بعد هروبه في ليلة الجمعة تلك حاول أن يبقى على اطلاع بتسلسل الأيام حسب العادة القديمة وفي احدى المرات ، وبعد أن نام طوال الليل في كومة قش ، فقد استيقظ ليراقب المنزل الريفي يستيقظ وقد رأى الفجر مصباحا يستيقظ أصفر في المطبخ ، ثم سمع في الرمادية التي لاتزال معتمة

www.ibtesama.com/vb

الصوت البطيء المصفق للفأس ، وحركة ما ، حركة رجل ، بين أصوات القطيع المستيقظ في الحظيرة المجاورة ثم استطاع أن يشم رائحة دخان وطعام ، الطعام الساخن الرديء ، وبدأ يقول في نفسه المرة تلو المرة لم أتناول طعاماً منذ لم أتناول طعاماً منذ محاولا أن يتذكر عدد الأيام التي مرت منذ يوم الجمعة ذاك في جفرسون ، في المطعم الذي تناول فيه عشاءه ، حتى أنه بعد فترة ، وخلال مكوثه الهادىء منتظرا حتى يأكل الرجال ويغادروا الى الحقل ، فان معرفة اسم ذلك اليوم من الأسبوع الذي هو فيه بدا أكثر أهمية من الطعام لأنه حين غادر الرجال أخيرا ونزل هو ، خرج الى الشمس المستوية المصطبغة بلون النرجس وذهب الى باب المطبخ ، لم يطلب طعاما على الاطلاق . كان ينوي ذلك كان قادرا على الاحساس بالكلمات القاسية تنتظم في ذهنه ، وراء فمه مباشرة ثم أتت المرأة النحيلة القاسية كالجليد الى الباب ونظرت اليه واستطاع أن يرى الصدمة والتمييز والخوف في عينيها بينما كان يفكر إنها تعرفني لقد وصلها الخبر سمع فمه يقول بهدوء

– هل لك أن تقولي لي في أي يوم نحن ؟ أريد أن أعرف في أي يوم نحن

– في أي يوم نحن ؟

كان وجهها نحيلا كوجهه ، وكان جسدها نحيلا وغير قابل للانهاك ونشيطا كجسده قالت

– ابتعد من هنا انه يوم الثلاثاء ابتعد عن هنا سأنادي على زوجي

www.ibtesama.com/vb

قال بهدوء والباب ينصفق :

– شكرا

ثم راح يعدو . لم يتذكر أنه بدأ بالعدو ظن لفترة أنه كان يعدو بسبب أو نحو وجهة معينة تذكرها العدو فجأة وبالتالي فان ذهنه لم يكن في حاجة الى الاكتراث بتذكر سبب عدوه ، حيث أن العدو لم يكن صعبا كان الأمر سهلا تماما في الواقع أحس أنه خفيف تماما ، دون وزن وحتى خلال مشيه بأقصى سرعة بدت قدماه كأنهما تضلان الطريق ببطء وخفة ، بعشوائية متعمدة عبر أرض غير صلبة ، حتى سقط أرضا لم يتعثر بأي شيء بل سقط على طوله ، معتقداً لفترة من الزمن أنه كان لايزال على قدميه ويعدو ولكنه كان أرضا ، ممددا على وجهه في حفرة ضحلة عند طرف حقل محروث ثم قال فجأة « أعتقد أنه من الأجدر بي أن أقف » وحين جلس وجد أن أن الشمس ، وقد قطعت نصف الطريق في المساء ، كانت تتوهج فوقه من الاتجاه الآخر في البداية ظن أنه قد قلب رأسه من جهة الى أخرى ثم أدرك أن المساء قد حل ، وأنه حين سقط وهو يعدو كان الوقت صباحا ، رغم أن الأمر بدا له وكأنه جلس على الفور ، الا أن الوقت كان مساء الآن فكر « كنت نائما لقد نمت أكثر من ست ساعات لابد وأني نمت وأنا أعدو دون أن أعرف ذلك هذا ما فعلته

لم يشعر بأي دهشة فالزمن ، فترات النور والعتمة ، فقدت نظامها منذ زمن طويل وقد يحل أي منهما الآن ، في لحظة واحدة على ما يظهر ، بين حركتين من حركات الأهداب ، دون تحذير

www.ibtesama.com/vb

ما كان يستطيع أن يعرف متى سيجتاز الواحد منهما الى الآخر ، ومتى سيكتشف أنه كان نائما أن يتذكر أنه تمدد على الأرض ، أو يجد نفسه يمشي دون أن يتذكر أنه استيقظ أحيانا كان يبدو له أن ليلة نوم يقضيها في التبن ، في حفرة ، تحت سقف مهجور ، سيتبعها مباشرة ليلة أخرى دون فاصل نهاري ، دون نور بينهما يستطيع أن يرى خلاله ليهرب ؛ أو يبدو له أن نهارا قد يتبعه نهار آخر مترع بالهروب والإلحاحية ، دون ليل بينهما أو أية فترة للراحة ، كأنما الشمس لم تغرب بل عادت فالتفتت قبل أن تصل الى الأفق وراحت ترجع في الطريق نفسها التي قطعتها وحين كان يغفو وهو يعدو أو حتى وهو راكع ليشرب من عين ، لم يكن يعرف اطلاقا ان كانت عيناه ستتفتحان مرة أخرى على نور الشمس أو النجوم

مرت فترة من الزمن كان يشعر فيها بالجوع طوال الوقت كان يجمع ويأكل فاكهة فاسدة يملأها الدود أو كان يزحف أحيانا الى الحقول فيقتلع وينهش أكواز ذرة قاسية كمبشرة البطاطا كان يفكر بالطعام طوال الوقت ، متخيلا الأطباق والأطعمة كان يفكر بتلك الوجبة التي كانت تعد له على مائدة المطبخ قبل سنوات ثلاث ويعيش مرة أخرى تجربة أرجحة ذراعه المتعمدة وهو يرمي بالاطباق على الجدار ، بنوع من الألم المتلوى المعذب ، ألم الندم والأسف والغضب ثم ما عاد يشعر بالجوع في أحد الأيام وقد جاء ذلك على نحو مفاجىء ومسالم أحس ببرودة وهدوء ولكنه كان يعرف أن عليه أن يأكل كان يجبر نفسه على أكل الفاكهة الفاسدة والذرة القاسية ، يمضغها ببطء ، دون أي تذوق اطلاقا كآن يأكل كميات هائلة منها ، وكانت النتيجة

www.ibtesama.com/vb

هي نوبات من الاسهال الدامي ولكن كانت تنتابه مباشرة بعد ذلك هواجس الحاجة والدافع الى أن يأكل . لم يكن الهاجس هو الأكل الآن ، بضرورة أن يأكل كان يحاول أن يتذكر متى أكل آخر مرة طعاما مطبوخا مقبولا كان قادرا على أن يشعر ، يتذكر متى أكل آخر مرة طعاما مطبوخا مقبولا كان قادرا على أن يشعر ، يتذكر ، منزلا أو كوخا في مكان ما منزلا أم كوخا ، أبيض أم أسود لم يعد يستطيع أن يتذكر ثم كان يجلس بسكون وعلى وجهه النحيل المريض ذي اللحية النامية تعبير الذهول المستغرق ، أصبحت له رائحة الزنوج وقد راح يشم دون حراك (كان جالسا مستندا الى شجرة قرب نبع ، ورأسه مرتدة نحو الوراء ويداه في حجره ، ووجهه متعب وهادىء) ويرى أطباقا زنجية وطعاما زنجيا كان ذلك في غرفة لم يتذكر كيف وصل الى هناك ولكن كانت الغرفة مترعة بالهروب والذعر المفاجيء ، كأنما هرب منها الناس مؤخرا وعلى نحو فجائي وفي خوف كان جالسا الى طاولة ، ينتظر ، مفكرا في لا شيء في فراغ ، في صمت مترع بالهروب ثم كان هناك طعام أمامه ، يظهر فجأة بين يدين طويلتين سوداوين تهربان أيضا في حالة وضع الأطباق على الطاولة بدا له أنه كان قادرا على السماع دون أن يسمعها تلك النواحات ، نواحات الرعب والبؤس الأهدأ من التنهدات في كل ما حوله ، مع صوت المضغ والبلع فكر « كان ذلك كوخا وكانوا خائفين خائفين من أخيهم »

في تلك خطر له خاطر كان مستلقيا ومستعدا للنوم ، دون نوم ، دون أن يبدو أنه في حاجة الى النوم كما قد يحدث لمعدته الميالة لقبول

www.ibtesama.com/vb

الطعام التي لم يبد عليها أنها ترغب أو تحتاج كان ذلك غريبا بمعنى أنه كان غير قادر على أن يكتشف لا سبب ولا دافع ولا تفسير ذلك لقد وجد أنه كان يحاول أن يحسب ما هو ذلك اليوم من الأسبوع كأنما كان الآن وأخيرا في حاجة فعلية وملحة الى أن ينظم الأيام المنجزة ويوجهها نحو هدف ما ، نحو يوم أو تصرف محدد ، دون أن يقصر أو يزيد دخل حالة السبات التي تحول اليها نومه الآن مع الحاجة إلى النوم في ذهنه وحين استيقظ مع اللون الرمادي الندي للفجر ، كان متبلورا تماما حتى أن الحاجة لم تعد تبدو غريبة أكثر من ذلك

كان الوقت هو الفجر ، ضوء النهار ينهض وينزل الى النبع ويخرج الموسى من جيبه ، والفرشاة والصابون ولكن كان النور لايزال غير كاف ليرى وجهه بوضوح في الماء ، لذا يجلس قرب النبع وينتظر حتى يستطيع أن يرى على نحو أوضح ثم يستخدم الفرشاة على وجهه بالماء البارد القاسي بصبر ترتجف يده ، ورغم الإلحاحية يشعر بالتراخي لذا عليه أن يجبر نفسه الموسى كليلة يحاول أن يشحذها على المداس ولكن الجلد قاس كالحديد ورطب من الندى . يحلق لحيته ، وفق أسلوبه الخاص يده ترتجف ، ليست الحلاقة جيدة وهو يجرح نفسه ثلاث أو أربع مرات ، ثم يحاول وقف النزف بالماء البارد حتى يتوقف يرمي بأدوات الحلاقة بعيدا ويبدأ بالمشي يتبع خطا مستقيما ، متجاهلا ضاوح الحراثة والأسهل على المشي وبعد مسافة قصيرة يصل الى درب فيجلس الى القرب منها انها درب هادئة ، تظهر وتختفي بهدوء والغبار الشاحب اللون دون أية علامات سوى آثار العجلات الضيقة النادرة وحوافر الخيل والبغال وبين الحين والآخر آثار أقدام بشرية

www.ibtesama.com/vb

يجلس الى القرب منها ، دون معطف ، والقميص الذي كان أبيض ذات مرة والبنطال الذي كان مكويا ذات مرة أضحيا الآن موحلين وملطخين ووجهه النحيل مبقع ببقع من اللحية غير المحلوقة جيدا والدم الجاف ، وهو يرتجف ببطء من الانهاك والبرد ؛ والشمس تصعد وتدفئه وبعد فترة يظهر طفلان زنجيان عند المنعطف ويقتربان لا يريانه حتى يتكلم يتوقفان ، جامدين ، وينظران اليه بعيون يتقلب بياضها يكرر « أي يوم من الأسبوع هو اليوم ؟ » لا يقولان أي شيء اطلاقا ، بل يحدقان اليه يحرك رأسه قليلا يقول « هيا تابعا السير » يتابعان السير لا يراقبهما يجلس ، وهو يتأمل على ما يبدو المكان الذي كانا يقفان فيه ، كأنما كانا بالنسبة اليه حين تحركا قد سارا خارجين من صدفتين إنه لا يرى أنهما يعدوان

ثم ، راحت الشمس تدفئه ببطء وهو جالس هناك فينام دون أن يشعر بذلك ، لأن الشيء التالي الذي يحيه هو طقطقة رهيبة لخشب وحديد مترثرين مجلجلين وحوافر تخب يفتح عينيه في الوقت الملائم ليرى العربة تنعطف من حول المنعطف مدومة ومبتعدة عن الأنظار ، وراكبوها ينظرون اليه ملتفتين من فوق أكتافهم ، ويد السائق الحاملة للسوط ترتفع وتنزل يفكر « لقد ميزوني أيضا هم وتلك المرأة البيضاء . والزنوج الذين أكلت لديهم ذلك اليوم كان بمقدور أي منهم أن يقبض علّي ، لو شاء ذلك بما أن هذا هو ما يريدونه جميعاً أن يتم القاء القبض علي ولكنهم يجرون جميعاً أولا كلهم يريدون أن يلقى القبض علي ، وحين أكون جاهزا لأقول ها أنذا أجل سأقول ها أنذا أنا متعب أنا متعب من الركض من الاضطرار إلى حمل حياتي كسلة من

www.ibtesama.com/vb

البيض يهربون جميعاً كأن هناك قاعدة خاصة بالقاء القبض عليّ ، والقاء القبض عليّ بتلك الطريقة يخالف القاعدة »

لذا يتحرك عائدا الى الدغل في هذه المرة هو متنبّه ، ويسمع صوت العربة قبل أن تصبح مرئية لا يرى نفسه حتى تصبح العربة الى جانبه ثم يخطو نحو الأمام ويقول « هاي » العربة تتوقف ، وهي تهتز بعنف رأس سائق العربة الزنجي تهتز هي أيضا وتطرأ على وجهه الدهشة ، ثم التمييز والرعب يقول كريسماس

— ما هو هذا اليوم ؟

يحملق الزنجي فيه وقد ارتخى حنكه

— ما الذي قلته ؟

— في أي يوم من أيام الأسبوع نحن ؟ الخميس ؟ الجمعة ؟ ماذا ؟ أي يوم هو ؟ لن أؤذيك

يقول الزنجي

— انه يوم الجمعة يا الهي ، انه الجمعة

يقول كريسماس

— الجمعة

يهز رأسه مجددا

— هيا تابع السير

يسقط السوط ، يتحرك البغلان نحو الأمام تبتعد العربة عن النظر مسرعة والسوط يرتفع ويسقط ولكن سبق الكريسماس أن التفت ودخل الغابة مرة أخرى

ومن جديد يكون اتجاهه مستقيما كخط مساح للأراضي ، دون اعتبار للجبل والوادي والمستنقع ومع ذلك فهو لا يسرع انه أشبه

www.ibtesama.com/vb

بشخص يعرف أين هو وأين يريد الذهاب وكم يحتاج الى وقت للوصول بالدقيقة كأنما يرغب في أن يرى أرض موطنه الأصلي في كل مظاهرها للمرة الأولى أو الأخيرة لقد وصل الى سن الرجولة وهو يعيش في الريف حيث تشكل جسديا وفكريا ، كالبحار الذي لا يعرف السباحة ، بالدوافع القسرية للريف ، دون أن يتعلم أي شيء عن شكله واحساسه الفعلي منذ أسبوع وهو يتخفى ويزحف بين أماكنه السرية ، وبقي غريبا فيما يخص القوانين الثابتة التي على الأرض اطاعتها ولفترة من الوقت ، وبينما يتقدم هو بثبات ، يفكر أن هذين ـ المشاهدة والنظر ـ هما اللذان يمنحانه السلام واللاعجلة والهدوء ، حتى يصله فجأة الجواب الحقيقي يشعر أنه جاف وخفيف يفكر « ليس علي أن أكترث بالحاجة الى الطعام بعد الآن . هذا هو الأمر »

مع حلول الظهيرة كان قد سار ثمانية أميال يصل الآن الى طريق واسعة مفروشة بالحصى ، انها طريق عامة في هذه المرة تتوقف العربة حين يرفع يده على وجه الشاب الزنجي الذي يقودها لا توجد لا الدهشة ولا التمييز يقول كريسماس

ـ الى أين تؤدي هذا الطريق ؟

ـ الى موتستاون ، إلى حيث أنا ذاهب

ـ موتستاون هل ستذهب الى جفرسون أيضا ؟

يحك الشاب رأسه

ـ لا أعرف أين هي أنا ذاهب الى موتستاون

ـ أوه أرى ذلك أنت لست من سكان هذه المنطقة اذن

ـ لا يا سيدي أسكن على مبعدة مقاطعتين من هنا أنا على الطريق

منذ ثلاثة أيام وأنا ذاهب الى مونتستاون لأشتري عجلا صغيرا هل تريد الذهاب الى مونتستاون ؟

يقول كريسماس

– نعم

يصعد الى المقعد الى جانب الشاب تنطلق العربة يفكر « مونتستاون » جفرسون تبعد عشرين ميلا فحسب يفكر « الآن أستطيع أن أرتاح قليلا لم أرتح منذ سبعة أيام ، لذا أظن أني سأرتاح لفترة » يفكر أنه ربما ستهدهده حركة العربة حتى ينام ولكنه لاينام. ليس وسنان ولا جائعا ولا متعبا حتى ، انه في مكان ما بين ذلك كله ، معلق ، متأرجح مع حركة العربة دون تفكير ، دون احساس لقد ضيع الزمن والمسافة ربما يكون الوقت قد تقدم ساعة واحدة وربما ثلاث يقول الشاب

– هذه مونتستاون

ينظر ، فيستطيع أن يرى الدخان واطئا في السماء ، خلف زاوية غير مرئية انه يدخله مرة أخرى ، الشارع الذي امتد ثلاثين عاما كان شارعا مرصوفا ، السير فيه سريع لقد استدار الشارع وهو لايزال فيه ورغم أنه لم يعرف شارعا مرصوفا خلال الأيام السبعة الأخيرة ، ولكنه سافر مسافة أبعد من الثلاثين سنة السابقة كلها ولكنه لايزال ضمن الدائرة يفكر « ومع ذلك فقد قطعت في هذه الأيام السبعة أكثر مما فعلت في السنوات الثلاثين الماضية ولكني لم

www.ibtesama.com/vb

أخرج خارج تلك الدائرة لم أخرج أبدا من الحلقة التي سبق لي وضعتها ولا أستطيع كسرها أبداً » هذا ما يفكر به بهدوء وهو جالس على المقعد وأمامه على الواقية انزرع الحذاء ، الحذاء الأسود الذي يحمل رائحة الزنوج تلك العلامة على كاحليه هي المعيار المحدد المتعذر استئصاله للمد الاسود الزاحف صاعدا ساقيه ، وينتقل من قدميه صاعدا فصاعدا مع تحرك الموت

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل الخامس عشر

في يوم الجمعة ذاك حين ألقي القبض على كريسماس في موتسنون، كان يعيش في البلدة زوجان عجوزان من آل « هاينز » كانا مسنين تماما ، ويعيشان في بيت من طابق واحد في حي للزنوج ، كيف حدث ذلك ، ومتى ، البلدة كلها عموما لا تعرف ، حيث بدا أنهما يعيشان في فقر وقذارة وتبطل كامل ، فهاينز كما تعرف البلدة لم يقم بأي عمل ثابت خلال خمسة وعشرين عاما

لقد وصلا الى موتستاون قبل ثلاثين عاما وفي أحد الأيام وجدت البلدة المرأة وقد استقرت في المنزل الصغير الذي عاش فيه الزوجان منذ ذلك الحين رغم أن هاينز ما كان يأتي الى المنزل في السنوات الخمس الأولى سوى مرة واحدة في الشهر ، وذلك في عطلة نهاية الأسبوع وسرعان ما أصبح معروفا أنه كان يعمل في وظيفة ما في ممفيس أما ما هي تلك الوظيفة بالذات ؟ ما كان أحد يدري ، حيث أنه كان حتى في ذلك الوقت شخصا متكتماً يمكنه أن يكون في الخامسة والثلاثين من العمر أو في الخمسين ، وكان في نظرته شيء يوحي بالتعصب على نحو بارد وعنيف ، يخالطه بعض الجنون ، ويمنع التساؤل والفضول كانت البلدة تعتبرهما كليهما على أنهما مصابان بمس — كانا وحيدين ،

www.ibtesama.com/vb

شيبين ، أضأل حجماً من معظم الرجال والنساء ، كأنهما ينتميان الى جنس أو نوعٍ آخر — رغم أن الناس ، خلال السنوات الخمس أو الست بعد عودة الرجل الى موتستاون للاستقرار نهائيا في المنزل الصغير حيث تعيش زوجته ، كانوا يستخدمونه لأعمال عرضية مختلفة يعتبرونها ضمن حدود امكانياته الجسدية ولكنه تخلى فجأة عن ممارسة هذه الأعمال أيضا وقد تساءلت البلدة لفترة من الزمن عن الكيفية التي سيحصلان فيها الآن على قوت يومهما ثم نسيت أمر التحزر في هذه المسألة حين علمت البلدة لاحقاً أن هاينز كان يتجول في أنحاء المقاطعة سيرا على الأقدام ويقيم اجتماعات لايقاظ الروح الدينية في كنائس زنجية ، وأن نساء زنجيات كن يشاهدن بين الحين والآخر ، وهن يحملن ما كان على نحو جلي أطباقا من الطعام ، وهن يدخلن من مؤخرة المنزل الذي يعيش فيه الزوجان ، ويظهرن لاحقاً فارغات الأيدي ، فكانت البلدة تتساءل عن هذا لفترة من الزمن ثم تنساه ثم حدث أن البلدة امّا نسيت أو تغاضت ، وذلك لأن هاينز كان رجلا كبير السن لاضرر منه ، بينما لو فعل شاب الأمر نفسه لعوقب بالصلب كانت تقول فحسب « انهما مجنونان ، مجنونان فيما يخص الزنوج ربما هما من اليانكي » وتركت الموضوع عند هذا الحد أو ربما كان ما تغاضت عنه ليس تكريس الرجل نفسه لانقاذ أرواح الزنوج ، بل التجاهل العام لحقيقة الاحسان الذي كانا يتلقيانه من الأيدي الزنجية ، حيث أن من عادات العقل السعيدة أن ينبذ ما يرفض الضمير استيعابه

لذا كان يبدو أن الزوجين لا يتمتعان بأي مصدر للدخل خلال خمسة وعشرين عاماً ، والبلدة تغض بصرها الجماعي عن النساء

www.ibtesama.com/vb

الزنجيات والأطباق والمقالي المغطاة ، وخاصة أن بعض هذه الأطباق والمقالي كانت تنتقل على الأرجح دون أن تلمس من مطابخ أشخاص بيض حيث كانت النساء الزنجيات يعملن كطباخات ربما كان هذا جزءا مما ينبذه العقل وعلى أية حال فان البلدة كانت تغص البصر ، وكان الزوجان منذ خمسة وعشرين عاما حتى الآن يعيشان في المستنقع الخلفي المهمل لعزلتهما المتوحدة ، كأنهما ثورا مسك ضالان قادمان القطب الشمالي ، أو وحشان مشردان متخلفان مما وراء العصر الجليدي

لم تكن المرأة تشاهد الا فيما ندر ، رغم أن الرجل — كان يدعى بالعم دوك — كان مظهرا ثابتا من مظاهر الساحة رجل عجوز ضئيل الحجم قذر المظهر له وجه كان ذات مرة اما شجاعا أو عنيفا — اما حالماً أو شديد الأنانية — دون ياقة ، في ملابس من قماش الجينز الأزرق ، ويحمل عصا قشرت باليد ومهترئة عند القبضة ، سوداء مثل خشب الجوز ومصقولة كالزجاج في البداية ، حين كان لايزال يعمل في ممفيس ، كان لا يتحدث عن نفسه خلال زياراته الشهرية الا ما ندر ، وكان يتمتع بثقة بالنفس لا تميز الشخص المستقل فحسب ، بل بصفة أبعد من ذلك ، كأنما كان ذات مرة في حياته أكثر من شخص ذي استقلالية ، وأن ذلك لم يكن منذ فترة بعيدة جدا لم يكن فيه ما هو مهزوم بل كان يتمتع بثقة رجل كان يسيطر على أشخاص أقل مرتبة ، وقد قام طوعا بتغيير حياته لسبب اعتقد أن ليس هناك رجل آخر يمكنه أن يشك أو يفهمه ولكن كان ما يقوله عن نفسه وعن مهنته الحالية دون معنى رغم ترابطه المنطقي الظاهري لذا كانوا

www.ibtesama.com/vb

يعتقدون أنه مجنون قليلا ، حتى في ذلك الحين . ولم يبد الأمر كأنه كان يحاول اخفاء شيء ما بانشائه شيئا آخر . كانت كلماته ، طريقة سرده ، لا تتطابق مع ما كان سامعوه يعتقدون أنه (ويجب أن يكون) ضمن نطاق امكانيات فرد واحد . وكانوا يعتقدون أحيانا أنه سبق له وكان كاهنا . ثم كان يتحدث عن ممفيس ، المدينة ، بطريقة غامضة ورائعة ، كأنه أمضى حياته كلها وهو يحتل مركزا هاما وان يكن مركزا في البلدية لا اسم له . كان الرجال في موتبستاون يقولون من خلف ظهره « طبعا ، كان ناظرا للسكة الحديدية هناك . يقف في وسط مفترق الشوارع مع علم أحمر في كل مرة يمر بها أحد القطارات » أو « انه صحفي كبير يجمع الصحف من تحت مقاعد الحديقة » ما كانوا يقولون هذا في وجهه ولا حتى أكثرهم جرأة كان يجرؤ على ذلك ، ولا حتى أولئك الذين يتمتعون بسمعة خطيرة على أنهم ظرفاء تهكميون .

ثم خسر وظيفته في ممفيس ، أو تخلى عنها . في احدى عطل نهاية الأسبوع عاد الى المنزل ، وحين جاء يوم الاثنين لم يرحل . وبعد ذلك كان يقضي النهار كله في البلدة ، في الساحة ، قذرا ، غير ثرثار ، بذلك التعبير الغاضب الصادّ في العينين الذي ظنّه الناس جنونا . تلك الخاصية المتميزة بعنف مستهلك أشبه بالرائحة ، بالنكهة ؛ ذلك التعصب الأشبه بجمرة خابية أو مطفأة تقريبا ، بنوع من الحماسة الدينية القوية التي كان ربعها قناعة عنيفة وثلاثة أرباعها جرأة جسدية . لذا لم يشعروا بالدهشة حين علموا أنه كان يجوب في أنحاء الريف ، مشيا على القدمين ، ويلقي المواعظ في الكنائس الزنجية ، ولا حتى حين

www.ibtesama.com/vb

علموا بعد عام بموضوعها هذا الرجل الأبيض الذي كان يعتمد تقريبا على هبات واحسان الزنوج في معيشته ، كان يذهب وحيدا الى كنائس زنجية نائية ويقاطع الصلاة ليدخل الى المنبر ويعظ بصوته الأجش الميت ، وأحيانا بقذاعة عنيفة ، في الزنوج ، عن التواضع المتوجب أمام كل البشرات الأفتح لونا من بشراتهم ، ويبشر بتفوق الجنس الأبيض ، وهو نفسه المستند رقم(١) لذلك ، وكل ذلك بمفارقة متعصبة ولا واعية . وكان الزنوج يعتقدون أنه مجنون ، ممسوس من قبل الرب ، ما كانوا قادرين على فهم كثير مما كان يقوله ربما اعتقدوا أنه هو الرب نفسه ، اذ كان الرب بالنسبة اليهم رجلا أبيض وأفعاله غير قابلة للتفسير الى حد ما.

كان قد نزل الى البلدة عصر ذلك اليوم حين راح اسم كريسماس يطير صاعدا ونازلا الشارع والأولاد والرجال — التجار ، الكتبة ، المتبطلون والفضوليون وريفيون في أوفرولات يشكلون الأغلبية — حين بدأ هؤلاء جميعاً يتراكضون ركض هاينز أيضا ولكنه لم يكن قادرا على الركض بسرعة ولم يكن طويلا بما فيه الكفاية ليرى من فوق الأكتاف المتكتلة حين وصل فعلا ومع ذلك فقد حاول ، بالقسوة والتصميم اللذين كان يتمتع بهما الحاضرون ، أن يشق طريقه الى داخل المجموعة الصاخبة المتماوجة كأنما في انبعاث جديد للعنف القديم الذي كان قد ترك آثاره على وجهه ، وراح يخدش بأظافره الظهور ثم راح أخيرا يضربها بالعصا حتى بدأ الرجال يلتفتون ليميزوه ويمسكوا به وهو يقاوم ويضربهم بالعصا الثقيلة صرخ « كريسماس ؟ هل قالوا كريسماس ؟ »

www.ibtesama.com/vb

رد عليه أحد الرجال الممسكين به صارخا ووجهه متوتر محملق « كريسماس ! كريسماس ! ذلك الزنجي الأبيض الذي ارتكب جريمة القتل هناك في جفرسون في الأسبوع الماضي ! »

حملق هاينز في الرجل ، وفمه الخالي من الأسنان يرغي من البصاق ثم راح يشق طريقه بالقوة مجددا ، بعنف ، وهو يشتم رجل عجوز ضئيل الحجم ضعيف البنية بعظام طفلية خفيفة وهشة ، يحاول أن يحرر نفسه بالعصا ، محاولا أن يشق طريقه الى وسط الحشد حيث كان الحبيس يقف مدمى الوجه كانوا يقولون « اهدأ يا عم دوك اهدأ يا عم دوك لقد أمسكوا به لا يستطيع الافلات الآن لا يستطيع الآن »

ولكنه كافح وقاتل وهو يشتم ، بصوت أجش ، نحيل ، ولعابه يسيل ، وأولئك الذين كانوا يمسكون به يناضلون أيضا كرجال يحاولون الامساك بخرطوم صغير متقلب الضغط لا يتناسب ما في داخله مع حجمه وبين أفراد المجموعة كلها كان الحبيس هو الشخص الهادىء الوحيد كانوا يمسكون بهاينز ، وهو يشتم ، وعظامه العتيقة الهشة وعضلاته الخيطية تحمل الجنون المرعد واللون الذي يتمتع به ابن عرس أفلت من قبضتهم وقفز نحو الأمام ، وهو يشق طريقه حتى استطاع أن يصل ويواجه الحبيس وجها لوجه وهنا توقف للحظة ، محملقاً في وجه الحبيس كانت وقفة كاملة ، ولكن قبل أن يتمكنوا من الامساك به مجددا كان قد رفع العصا وضرب الحبيس بها ، كان يحاول أن يضربه مرة أخرى حين أمسكوا به أخيرا وجعلوه عاجزا

www.ibtesama.com/vb

عن الحركة وثائرا ، مع ذلك الزبد الرقيق الخفيف على شفتيه ولكنهم لم يكموا فمه صرخ « اقتلوا النغل ! اقتلوه ! اقتلوه ! »

بعد ثلاثين دقيقة أوصله رجلان في سيارة الى البيت كان أحدهما يسوق السيارة بينما يمسك الآخر بهاينز في المقعد الخلفي كان وجهه شاحبا الآن تحت لحيته غير الحليقة وقذارته ، وعيناه مغلقتين رفعاه من السيارة وحملاه عبر البوابة وسارا به في الممشى ذي البلاط المتآكل وقطع الاسمنت ، حتى الدرج ، كانت عيناه مفتوحتين الآن ولكنهما فارغتان تماما ، وقد ارتدتا الى جمجمته فلم يعد يظهر منهما سوى البياض القذر المائل الى الزرقة ولكنه كان لايزال مترنحا وعاجزا وقبل أن يصلوا الى الرواق فتح الباب الأمامي وخرجت زوجته وأغلقت الباب خلفها ووقفت هناك وراحت تراقبهم عرفا أن هذه هي زوجته لأنها خرجت من المنزل الذي كان من المعروف أنه يسكن فيه أحدهما ، رغم أنه من سكان البلدة ، لم يكن قد رآها من قبل . قالت

— ما الأمر ؟

قال الرجل الأول

— انه على ما يرام لقد حدث أمر مثير جدا في وسط البلدة قبل قليل ، ومع هذا الطقس الحار ، فقد كان الأمر أكثر من قدرته على التحمل

وقفت أمام الباب كأنها تمنعهم من الدخول الى المنزل امرأة قصيرة بدينة ضئيلة الحجم بوجه مدور ككعكة قذرة لم تدخل الفرن ، ورزمة مشدودة من الشعر الخفيف قال الرجل

— لقد أمسكوا للتو بذلك الزنجي كريسماس الذي قتل تلك السيدة هناك في جفرسون في الأسبوع الماضي لقد انزعج العم دوك قليلا بسبب ذلك

www.ibtesama.com/vb

كانت السيدة هاينز قد سبق لها والتفتت بظهرها كأنما تريد فتح الباب وكما روى الرجل الأول لاحقاً لرفيقه ، فقد توقفت خلال الالتفاتة كأنما ضربها شخص ما بحصاة ضربة خفيفة قالت

– أمسكوا بمن ؟

قال الرجل

– بكريسماس ذلك القاتل الزنجي كريسماس

وقفت عند طرف الرواق ، وهي تنظر اليهم بوجهها الرمادي الساكن

قال الرجل لرفيقه وهما عائدان الى السيارة

– كأنما كانت تعرف مسبقاً ما سأقوله لها كأنما كانت تريد طوال الوقت أن أقول لها إنه هو وليس هو

سألت

– كيف يبدو ؟

قال الرجل

– لم ألحظ ذلك كثيرا لقد دموه قبل ان يمسكوا به انه شاب لا يبدو عليه أنه زنجي الا اذا كنت أنا أبدو زنجيا

نظرت المرأة اليهما ، من عل بين الرجلين كان هاينز يقف على قدميه الآن ، وهو يغمغم قليلا كأنه يستيقظ من النوم . قال الرجل

– ما الذي تريدين أن نفعله بالعم دوك ؟

لم تجب على الاطلاق كأنما هي نفسها لم تميز زوجها ، هذا ما قاله الرجل لرفيقه لاحقاً قالت

– وما الذي سيفعلونه به ؟

www.ibtesama.com/vb

قال الرجل

– هو ؟ آه الزنجي هذه مسألة تخص جفرسون انه ينتمي الى هناك

نظرت اليهما من عل ، شبياء ، ساكنة

– هل سينتظرون جفرسون ؟

قال الرجل

– هم ؟ آوه حسنا اذا لم تتأخر جفرسون في الأمر

بدل مكان قبضته على ذراع الرجل

– أين تريدين منا أن نضعه ؟

عندها تحركت المرأة نزلت الدرجات واقتربت

– سنحمله الى المنزل من أجلك

قالت المرأة

– أستطيع حمله

كانت هي وهاينز من الطول نفسه ، رغم أنها كانت أثقل وزنا أمسكت به من تحت ذراعيه قالت بصوت غير مرتفع

– يوفيوس يوفيوس

ثم قالت للرجلين بهدوء

– اتركاه لقد أمسكت به

أفلتاه سار قليلا الآن راقباها وهي تساعده على صعود الدرج ثم على دخول الباب لم تنظر الى الخلف

www.ibtesama.com/vb

قال الرجل الثاني

– حتى أنها لم تشكرنا ربما كان علينا أن نعيده ونضعه في السجن مع الزنجي حيث بدا أنه يعرفه جيدا

قال الرجل الأول

– يوفيوس ، يوفيوس كنت أتساءل منذ خمسة عشر عاما عن اسمه يوفيوس

– هيا بنا لنعد قد يفوتنا شيء

نظر الرجل الأول الى المنزل ، الى الباب المغلق الذي اختفى وراءه الشخصان

– انها تعرفه هي أيضا

– تعرف من ؟

– ذلك الزنجي كريسماس

– هيا بنا

عادا الى السيارة

– ما الذي تظنه بذلك الشخص اللعين الذي أتى الى هنا مباشرة ، الى مكان يبعد عشرين ميلا عن ذلك المكان الذي ارتكب فيه فعلته ، يتمشى في الشارع الرئيسي جيئة وذهابا حتى يميزه أحدهم أتمنى لو كنت أنا من ميزه أنا في حاجة الى تلك الدولارات الألف ولكني لست محظوظا

تابعت السيارة السير كان الرجل الأول لا يزال ينظر الى الخلف نحو الباب الفارغ الذي اختفى فيه الشخصان

www.ibtesama.com/vb

وقف الزوجان في بهو ذلك المنزل الصغير المعتم والصغير ذي الرائحة الفاسدة ككهف كانت حالة الرجل العجوز المنهوك القوى لاتزال أفضل بقليل من حالة الاغماء وحين قادته زوجته الى كرسي وساعدته على الجلوس فيه ، بدت مسألة إهتمام ورعاية ولكن لم تكن هناك حاجة الى العودة واغلاق الباب الأمامي بالمفتاح ، الا أنها فعلت ذلك وصلت ووقفت الى القرب منه لفترة في البداية بدا أنها تراقبه فحسب ، باهتمام وقلق ولكن شخصا ثالثا كان سيرى أنها ترتجف بعنف وأنها قد أنزلته في الكرسي اما قبل أن تسقطه على الأرض أو حتى لكي تجعله أسيراً لها حتى تستطيع أن تتكلم انحنت من فوقه قصيرة بدينة ، ممتلئة رمادية اللون ، بوجه يشبه وجه جثة غريق وحين نطقت ارتجف صوتها وكانت تجاهد فيه ، مرتعشة ، ويداها مطبقتان على ذراعي الكرسي الذي كان يتمدد عليه تقريبا ، وصوتها يرتعد ، مكبوتا

— يوفيوس اصغ الي عليك أن تصغي الي . لم أزعجك من قبل خلال ثلاثين عاما لم أزعجك أبدا ولكني سأفعل ذلك الآن سأعرف وعليك أن تخبرني ما الذي فعلته بابن « ميلي» ؟

* * *

خلال فترة بعد العصر الطويلة كانوا يتجمعون في أنحاء الساحة وأمام السجن الكتبة ، المتبطلون ، الريفيون في الأفرولات ، والثرثرة كانت هذه تذرع البلدة جيئة وذهابا ، تموت وتولد مجددا كريح أو نار حتى بدأ الريفيون في الظلال المتطاولة يرحلون في عربات وسيارات يعلوها الغبار وبدأ سكان البلدة يتحركون نحو الجزء العلوي منها

www.ibtesama.com/vb

ثم انفجرت الثرثرة مجددا ، أعيد احياؤها مؤقتا ، بين الزوجات والعائلات على موائد العشاء في غرف منارة بالكهرباء وفي أكواخ جبلية بعيدة بمصابيح تعمل على الكيروسين وفي اليوم التالي ، وكان يوم أحد ريفي بطيء لطيف ، وبينما كانوا يقبعون في قمصانهم النظيفة وحمالات البناطيل المزخرفة ، بغلايين سلمية من حول كنائس ريفية أو أفنية منازل ظليلة ، حيث كانت البغال والسيارات الزائرة مربوطة أو متوقفة على امتداد السياج ، والنساء في المطابخ ، يهيئن طعام العشاء ويروينها مرة أخرى « انه لا يبدو كزنجي الا بمقدار ما أبدو أنا كزنجية ولكن لابد من وجود دم زنجي فيه ويبدو أنه جهز نفسه لالقاء القبض عليه كما يجهز الرجل نفسه للزواج لقد اختبأ مدة أسبوع بكامله ولو لم يحرق المنزل لما كانوا سيكتشفون الجريمة مدة شهر بحاله وما كانوا سيشكون في أمره لولا شخص اسمه براون ، وأن الزنجي كان من عادته بيع الويسكي مدعيا أنه رجل أبيض وقد حاول أن يضع وزر بيع الويسكي وجريمة القتل على براون ولكن براون كان يقول الحقيقة ثم حدث في صباح البارحة أن دخل موتستاون في وضح النهار ، في يوم السبت حين تمتلىء البلدة بالناس ثم دخل الى دكان حلاق أبيض كأنه رجل أبيض ، ولأنه يبدو كرجل أبيض لم يشك أحد به وحتى رأى ماسحو الأحذية أنه كان يرتدي مداسا غليظا مستعملا أكبر من قياس قدميه ، فانهم لم يشكوا فيه اطلاقاً وقد حلقوا له لحيته وقصوا له شعره ودفع لهم وخرج وذهب مباشرة الى دكان واشترى قميصا جديداً وربطة عنق وقبعة من القش ، من النقود نفسها التي سرقها من المرأة التي قتلها ثم سار في الشارع في

www.ibtesama.com/vb

وضح النهار كأنه يمتلك البلدة كلها ، ثم راح يذرع الشارع جيئة وذهابا والناس تمر به عشرات المرات ولا تعرفه ، حتى رآه «هاليداي» وعدا نحوه وأمسك به وقال : « أو ليس اسمك كريسماس ؟ » وقال الزنجي ان ذلك صحيح لم ينكر ذلك اطلاقا لم يفعل أي شيء اطلاقا. لم يتصرف لا كزنجي ولا كرجل أبيض. كان ذلك كل ما في الأمر. كان ذلك هو الذي جعل الناس تخرج عن طورها أن يكون قاتلا ومع ذلك فهو متأنق ويسير في البلدة كأنه يتحداهم أن يلمسوه ، وهو الذي كان مفروضا فيه أن يكون متسللا ومختفيا في الغابات ، مغطيا بالوحل والقذارة وفي حالة ركض متواصل كأنما لم يكن يعرف قط أنه قاتل ، ناهيك عن أنه زنجي أيضا اذن كان « هاليداي » ذاك (كان مستثارا ، ويفكر بالدولارات الألف ، وكان قد سبق له وصفع الزنجي مرتين والزنجي يتصرف كزنجي للمرة الأولى ، فيتلقى الصفعات دون أن يقول أي شيء بل كان دمه ينزف ووجهه متجهم وهادىء) — كان هاليداي ذاك يصرخ ويمسك به حين وصل العجوز الذي يسمونه العم دوك هاينز وبدأ يضرب الزنجي بعكازه حتى اضطر رجلان الى الامساك به وتهدئته واصطحابه الى المنزل في سيارة لم يعرف أحد بالفعل ان كان هو يعرف الزنجي أم لا لقد وصل وهو يعرج وزعق قائلا « هل اسمه كريسماس ؟ هل قلتم كريسماس ؟ » ثم تحرك وألقى نظرة واحدة على الزنجي وبدأ يضربه بعكازه تصرف كمن هو منوم مغناطيسيا أو ما شابه لقد اضطروا الى الامساك به ، وكان عيناه تتقلبان زرقاوين في رأسه ولعابه يسيل وهو يضرب بتلك العكاز كل ما يستطيع الوصول اليه بها ، حتى تراخى فجأة ثم حمله شخصان

www.ibtesama.com/vb

ى البيت في سيارة ، وخرجت زوجته وأخذته الى داخل المنزل ، ثم عاد هذان الشخصان الى البلدة لم يعرفا ما حصل له ، أي أن يستثار الى هذا الحد بسبب القاء القبض على الزنجي ، ولكنهما ظنا أنه سيكون على ما يرام الآن ، ولكن لم تمض نصف ساعة الا وكان قد عاد الى البلدة مجددا كان مجنونا تماما الآن ، وكان يقف عند احدى الزوايا ويصرخ بكل من يمر به ، ويدعوهم بالجبناء لأنهم لا يخرجون الزنجي من السجن ويشنقونه على الفور ، دون اكتراث ببلدة جفرسون كان الجنون باديا على وجهه كشخص هارب من مستشفى المجانين وهو يدرك أنهم لن يمهلوه كثيرا قبل أن يصلوا ويتمسكوا به مجددا هذا ويقول الناس انه كان واعظا ذات مرة أيضا

قال ان له الحق في قتل الزنجي ولكنه لم يذكر السبب أبدا ، وقد كان في حالة من الانفعال الشديد والجنون بحيث لم يكن كلامه مفهوما حين كان يوقفه أحدهم فترة طويلة بما فيه الكفاية ليلقي عليه سؤالا كان حشد كبير من الناس قد تجمع حتى ذلك الحين ، وهو يصرخ قائلا بأن له الحق في أن يكون أول من يقرر ان كان على الزنجي أن يعيش أو يموت وكان الناس قد بدأوا يفكرون بأن المكان المناسب له هو في السجن مع ذلك الزنجي وذلك حين وصلت زوجته

هناك أناس كانوا يعيشون في موتستاون منذ ثلاثين عاما ومع ذلك لم يروها أبدا لم يكونوا يعرفونها حتى خاطبته ، لأن أولئك الذين رأوها فعلا رأوها حول ذلك المنزل الصغير في حي الزنوج حيث تعيش هي وزوجها ترتدي ثوبا طويلاً فضفاضا واحدى قبعات زوجها

www.ibtesama.com/vb

لمهترئة ولكنها كانت ترتدي ملابس لائقة الآن كانت في ثوب حريري قرنفلي اللون وقبعة عليها ريشة وكانت تحمل مظلة وقد اقتربت من الحشد حيث كان هو يصرخ ويزعق وقالت: « يا يوفيوس ». توقف عن الصراخ عندها ونظر اليها ، وتلك العكاز لا تزال مرفوعة في يده ، وهي تهتز نوعا ما ، وحنكه قد تراخى ، ولعابه يسيل أمسكت به من ذراعه كان كثيرون يخشون الاقتراب منه بسبب تلك العكاز ، اذ كان يبدو عليه أنه قد يضرب أي شخص في أية دقيقة دون أن يعرف ذلك أو ينويه ولكنها سارت مباشرة تحت تلك العكاز وأمسكت به من ذراعه وقادته الى حيث كان كرسي أمام احدى الدكاكين وأجلسته على الكرسي وقالت « ابق هنا حتى أعود أياك أن تتحرك الآن وتوقف عن ذلك الصراخ »

وقد فعل ذلك فعله بكل تأكيد جلس هناك حيث وضعته هي ، ولم تنظر هي الى الخلف قط أيضا لقد لاحظ الجميع ذلك ربما كان السبب أن الناس لم يروها الا حول المنزل ، اذ كانت هناك في المنزل دائما وكان هو عجوزا من ذلك النوع ضئيل الحجم شرس الطباع بحيث كان الشخص لا يمر به الا ويفكر مرتين وعلى أية حال فقد دهشوا لم يكونوا قد فكروا به على أنه يتلقى أوامر من أي شخص كان بدا أنها كانت تعرف عنه شيئا ما وكان هو مضطرا الى أخذها في الحسبان لأنه جلس حيث أمرته بذلك ، في ذلك الكرسي ، دون أن يصرخ أو يتبجح الآن ، ولكن برأس مطأطئة ويدين مرتجفتين على تلك العكاز الكبيرة وبعض اللعاب لايزال يسيل من فمه نحو قميصه

www.ibtesama.com/vb

ذهبت مباشرة الى السجن كان هناك حشد كبير أمامه ، فقد كانت جفرسون قد بعثت تقول إن المأمور على الطريق لاصطحاب الزنجي مشت مخترقة الحشد نحو السجن وقالت لمتكاف « أريد ذلك الرجل الذي ألقي القبض عليه »

قال متكاف

– لماذا تريدين أن تريه ؟

قالت

– لن أزعجه أريد أن أنظر اليه فحسب

قال لها متكاف أن هناك عددا كبيرا من الناس الآخرين يريدون هم أيضا أن يفعلوا ذلك ، وأنه يعرف أنها لن تساعده على الهروب ، ولكنه مجرد سجان وهو لا يستطيع ادخال أي شخص الا اذا حصل على اذن من المأمور بذلك وهي تقف هناك ، في ذلك الثوب القرنفلي اللون والريشة ولم تكن تومىء برأسها أو تنحني كانت هادئة تماما قالت

– أين المأمور ؟

قال متكاف

– ربما يكون في مكتبه . ابحثي عنه واحصلي على اذنه ثم تستطيعين أن ترى الزنجي

ظن متكاف أن هذا من شأنه انهاء الموضوع لذا فقد راقبها وهي تلتفت وتخرج وتخترق الحشد أمام السجن وتعود قاطعة الشارع

www.ibtesama.com/vb

نحو الساحة   كانت الريشة تتمايل الآن   كان قادرا على رؤيتها تتمايل من فوق السياج وعلى امتداده   ثم رآها تعبر الساحة وتدخل دار المحكمة   لم يكن الناس يعرفون ما تفعله ، لأنه لم تتح الفرصة لمتكاف ليخبرهم بما حدث في السجن   بل راقبوها فحسب تدخل دار المحكمة ثم حكى « راسل » كيف أنه كان في مكتبة وحدث أن رفع نظره فرأى تلك القبعة وفوقها الريشة وراء النافذة عند الجانب الآخر من النضد   لم يكن يعرف كم من الوقت كانت تقف هناك وهي تنتظره حتى يرفع نظره   قال انها ذات طول يكفي لتتطلع من وراء النضد ، لذا لم يبد عليها أنها تمتلك أي جسم اطلاقا   كأنما تسلل شخص ما ووضع بالونا له وجه مطلي وقبعة مضحكة ، كما هم أطفال « الكاتسنيامر » في الجريدة الفكاهية   تقول

— أريد أن أقابل المأمور

يقول راسل

— انه ليس هنا   أنا نائبه   ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك ؟

يقول انها لم تجب لفترة ، وظلت واقفة هناك   ثم قالت

— وأين أستطيع أن أجده ؟

يقول راسل

— ربما يكون في البيت   كان مشغولا جدا هذا الأسبوع   انه يسهر في الليل اذ يقدم المساعدة الى رجال الشرطة في جفرسون   ربما يكون في البيت لأجل القيلولة   ولكني أستطيع ربما

ولكنه قال انها كانت قد غادرت   قال انه نظر من النافذة وراقبها تعبر الساحة وتلتف من حول الزاوية نحو مسكن المأمور   قال انه كان لايزال يحاول أن يعرف من هي وأن يفكر بمن تكون

www.ibtesama.com/vb

لم تجد المأمور ولكن الوقت كان قد فات على أية حال ، لأن المأمور كان في السجن منذ البداية ولكن متكاف لم يخبرها بذلك ، كما أنها ما عتمت أن غادرت السجن حتى كان رجال شرطة جفرسون قد وصلوا في سيارتين ودخلوا السجن لقد وصلوا بسرعة ودخلوا بسرعة ولكن الخبر انتشر بسرعة بأنهم قد وصلوا ، وكان هناك مثنا رجل وولد وامرأة أيضا أمام السجن حين خرج المأمور إلى الرواق وخطب مأمورنا داعيا الناس الى احترام القانون وأنه هو ومأمور جفرسون يعدان كلاهما بأن الزنجي سينال محكمة سريعة وعادلة ثم قال أحد المحتشدين « جهنم عادلة وهل منح هو تلك المرأة البيضاء محاكمة عادلة ؟ » وعندها صرخ الناس وهم يحتشدون أكثر فأكثر ، كأنما هم يصرخون مخاطبين المرأة الميتة وليس المأمورين ولكن المأمور ظل يخاطبهم بهدوء ويتكلم عن الوعد الذي منحه لهم تحت القسم يوم انتخبوه وأنه يحاول الحفاظ على هذا الوعد قال : « لاأتعاطف مع القتلة الزنوج أكثر من أي رجل أبيض آخر هنا ، ولكنه الوعد الذي منحته تحت القسم ، وأناأنوي الحفاظ عليه والله على ذلك شهيد لا أريد أية مشاكل ، ولكني سأواجهها . الأجدر بكم أن تفهموا ذلك » وكان هاليداي هناك أيضا ، مع المأمورين كان أشد المتحمسين للتعقل وعدم اثارة المشاكل صاح أحدهم « هاهه ، نعتقد أنك لا تريده أن يشنق ولكنه لا يساوي ألف دولار بالنسبة إلينا إنه لا يساوي حتى ألف عود كبريت منطفئا بالنسبة إلينا » ثم يسارع المأمور إلى القول « وماذا لو كان هاليداي لا يريده أن يقتل ؟ ألا نريد نحن جميعا الشيء نفسه ؟ ها هو مواطن من

البلدة سينال المكافأة والنقود سيجري انفاقها هنا في موتسناون تصوروا فحسب أن شخصا من جفرسون كان سيحصل عليها أليس ذلك صحيحا يا رجال ؟ أليس هذا معقولا ؟ » كان صوته ضئيلا ، كصوت دمية ، كما قد يبدو صوت رجل ضخم حين يتكلم ليس أمام رجال يصغون بل أمام عقولهم نصف المصممة

وعلى أية حال فقد بدا أن ذلك قد أقنعهم ، حتى لو كانوا يعرفون أنه لا موتستاون ولا أي مكان آخر كانت سترى من تلك الدولارات الألف ما يكفي لتسمين عجل ، ان كان هاليداي هو الذي سينفق تلك النقود ولكن كان ذلك فعالا الناس مضحكون لا يستطيعون الالتزام بطريقة واحدة في التفكير أو القيام بأي عمل مالم يكن هناك سبب جديد للقيام به كل ذلك العدد من المرات ثم حين يكون هناك سبب جديد فانهم يكونون عرضة للتغيير على أية حال لذا لم يتراجعوا بالضغط بل كأنما حين كان الحشد من قبل متحفزا من الداخل الى الخارج وبدأ الآن يتحفز من الخارج الى الداخل . وكان المأموران يعرفان ذلك ، كما كانا يعرفان أن ذلك قد لا يدوم طويلا ، لذا رجعا بسرعة الى السجن ثم خرجا مجددا ، قبل أن يلتفتا حتى ، والزنجي بينهما وخمسة أو ستة من النواب في إثرهم لابد أنهم كانوا قد وضعوه داخل باب السجن طوال الوقت وفي حالة استعداد ، لأنهم خرجوا على الفور تقريبا ، والزنجي بينهم ووجهه ملطخ ورسغاه مقيدتان الى مأمور جفرسون ، والحشد يقول « آهههههه »

كانوا قد شكلوا ممرا ضيقا حتى الشارع حيث كانت أول سيارات جفرسون تنتظر والمحرك دائر والسائق خلف المقود ، والمأموران

www.ibtesama.com/vb

يتقدمان دون اضاعة أي وقت ، وذلك حين ظهرت هي مرة أخرى ، تلك المرأة ، السيدة هاينز كانت تشق طريقها عبر الحشد ، وكانت قصيرة جدا الى حد أن كل الناس كانوا قادرين على مشاهدة تلك الريشة وهي تتمايل ببطء ، كشيء لا يستطيع أن يتحرك بسرعة كبيرة حتى او لم يكن هناك أي شيء في طريقه ، كشيء لا يمكن لأحد ايقافه ، كجرار (تراكتور) كانت تشق طريقها مباشرة عبر الحشد ونحو الممر الذي شكله الناس ، إلى أمام المأمورين والزنجي بينهما ، حتى اضطرا الى التوقف حتى لا يكتسحانها في طريقهما كان وجهها يبدو كقطعة ضخمة من المعجون وقد انزاحت قبعتها الى جانب بحيث كانت الريشة مدلاة أمام وجهها وكان عليها أن تدفعها الى الوراء لتستطيع أن ترى ولكنها لم تفعل أي شيء بل أوقفتهم في مكانهم لمدة دقيقة وهي واقفة هناك تنظر الى الزنجي لم تقل كلمة واحدة ، كأنما كان ذلك هو كل ما تريده وتزعج الناس من أجله ، كأنما ذلك هو السبب الذي جعلها ترتدي أفضل ملابسها وتنزل الى البلدة لتنظر الى الزنجي في الوجه مرة واحدة . فقد التفتت وبدأت تشق طريقها مجددا عبر الحشد ، وحين انطلقت السيارات حاملة الزنجي ورجال القانون في جفرسون وتلفت الحشد فيما حوله ، كانت هي اختفت ثم عادوا الى الساحة ، وكان العم دوك قد اختفى أيضا من الكرسي الذي أجلسته فيه وطلبت منه الانتظار ولكن لم يذهب كل الناس مباشرة الى الساحة . فقد بقي كثير منهم هناك ، ينظرون الى السجن كأنما الذي خرج من هناك للتو هو ظل الزنجي لاغير

www.ibtesama.com/vb

ظنوا أنها اصطحبت العم دوك الى البيت كان ذلك أمام دكان « دولار » وحكى دولار هذا كيف رآها تعود على امتداد الشارع متقدمة على الحشد قال ان العم دوك لم يكن قد تحرك ، وأنه كان لايزال جالسا في الكرسي حيث تركته كأنه منوم مغناطيسيا ، حتى وصلت اليه ولمست كتفه فنهض وانطلقا معا ودولار يراقب الرجل ، وقال دولار انه من النظرة التي كانت على وجه العم دوك ، فانه كان يتوجب عليه أن يكون في البيت

ولكنها لم تصطحبه الى البيت بعد فترة رأى الناس أنها لم تكن ستأخذه الى أي مكان كأنما أراد كلاهما أن يفعلا الشيء نفسه الشيء نفسه ولكن لسببين مختلفين ، وكل واحد منهما كان يعرف أن سبب الآخر كان مختلفا ، وأنه إن كان أي منهما سيصل الى مبتغاه ، فسيكون ذلك خطرا بالنسبة الى الآخر كأنما كان يعرفان كلاهما دون أن يقولا ذلك وكان كل واحد منهما يراقب الآخر ، وأنهما كلاهما كانا يعرفان أنه سيكون من الصواب بالنسبة اليها أن ينطلقا

سارا مباشرة الى المرآب حيث يحتفظ « سالمون » بسيارة الأجرة خاصته كانت هي من يتكلم طوال الوقت . قالت انهما يريدان الذهاب الى جفرسون ربما لم يكونا يحلمان اطلاقا بأن سالمون سيطلب منهما أكثر من ربع دولار عن كل واحد منهما ، لأنه حين قال ان الأجرة ثلاثة دولارات سألته مرة أخرى كأنها لا تستطيع تصديق أذنيها « ثلاثة دولارات ؟ » يقول سالمون « لا يمكن أقل من ذلك » . وكانا واقفين هناك والعم دوك لا يمارس أي دور ، كأنه كان ينتظر ، كأنما لم يكن ذلك من شأنه ، كأنه كان يعرف أنه لا حاجة به إلى الاكتراث فهي ستأخذهما الى هناك على أية حال

www.ibtesama.com/vb

تقول

– لا أستطيع أن أدفع لك هذا المبلغ

يقول سالمون

– لا يمكنك الوصول الى هناك بسعر أرخص إلا بالقطار فالأجرة بالقطار اثنان وخمسون سنتا للشخص الواحد

ولكن كان قد سبق لها وابتعدت والعم دوك يلحق بها كما الكلب

كان ذلك في حوالي الرابعة وحتى السادسة رآهما الناس جالسين على مقعد في ساحة دار المحكمة لم يكونا يتحادثان كأنما كان كل واحد منهما لا يعرف أن الآخر كان هناك جلسا هناك فحسب جنبا الى جنب ، وهي في ملابس يوم الأحد الكاملة ربما كانت تريد أن تمتع نفسها ، في أفضل ملابسها وفي وسط البلدة ، فترة مساء السبت كله ربما كان ذلك بالنسبة اليها ما يمكن أن يكون تمضية مساء السبت في ممفيس بالنسبة الى أناس آخرين

جلسا هناك حتى أعلنت الساعة السادسة ثم نهضا قال الناس من الذين رأوهما انها لم تقل كلمة واحدة له ، بل نهضا في الوقت نفسه كما ينطلق طيران من غصن ، ولا يمكن للمرء أن يعرف من منهما أعطى الاشارة الى الآخر وحين سارا ، كان العم دوك متخلفا بعض الشيء عنها عبرا الساحة بهذا الاتجاه ثم انعطفا الى الشارع المتجه الى محطة القطار وكان الناس يعرفون أنه ليس هناك قطار سيصل قبل ثلاث ساعات أخرى وتساءلوا ان كانا سيذهبان فعلا الى مكان ما بالقطار ، قبل أن يكتشفوا أنهما كانا سيقومان بشيء يدهش

www.ibtesama.com/vb

الناس أكثر من ذلك لقد ذهبا الى ذلك المقهى الصغير بالقرب من المحطة وتناولا طعام العشاء ، وهما اللذان لم يرهما أحد في الشارع معا من قبل ، ناهيك عن ذكر تناول الطعام في مقهى ، وذلك منذ أن قدما الى (موتستاون) (١) . ولكنها اصطحبته الى هناك على أية حال ربما كانا يخشيان أن يفوتهما القطار او تناولا الطعام في وسط البلدة فقد وصلا الى هناك قبل السادسة والنصف ، وجلسا كلاهما على كرسيين صغيرين عند النضد ، وراحا يأكلان ما طلبته هي دون أن تستشير العم دوك في ذلك اطلاقا سألت عامل المقهى عن القطار الذاهب الى جفرسون فقال لها انه يمر في الساعة الثانية صباحا يقول « كثير من الأشياء المثيرة في جفرسون الليلة يمكنكما أن تأخذا سيارة من وسط البلدة وتصلا الى جفرسون في خمس وأربعين دقيقة لاحاجة الى الانتظار حتى الثانية صباحا لتستقبلا ذلك القطار » ظن أنهما كانا غريبين على الأرجح ، لذا دلهما على الطريق الى وسط البلدة

ولكنها لم تقل شيئا وأنهيا طعامهما ودفعت هي له ، قطعة من فئة العشرة سنتات وأخرى من فئة الخمسة ، كل واحدة أخرجتها على حدة من خرقة مربوطة أخرجتها من مظلتها ، والعم دوك جالس هناك يراقب بتلك النظرة المبهورة على وجهه كأنه يمشي في نومه ثم غادرا ، وظن عامل المقهى أنهما سيأخذان بنصيحته ويذهبان الى البلدة ويستأجران تلك السيارة حين نظر الى الخارج ورآهما يعبران خطوط التحويلة نحو المحطة وقد كاد ينادي ولكنه لم يفعل يقول « أعتقد أني أسأت فهمهما ربما يريدان أن يستقلا قطار التاسعة المتجه جنوبا » .

---

(١) وردت « جفرسون في النص الأصلي وأعتقد أنها مجرد خطأ مطبعي أو ربما من المؤلف

(المترجم) .

www.ibtesama.com/vb

كانا جالسين على المقعد في غرفة الانتظار حين بدأ الناس والبائعون والجوالون والمتسكعون بالدخول وشراء بطاقات القطار المتجه جنوبا قال موظف السكة الحديدية أنه لاحظ وجود بعض الناس في غرفة الانتظار حين دخل بعد العشاء في السابعة والنصف ، ولكنه لم يلاحظ أي شيء غريب حتى اقتربت هي من كوة بيع البطاقات وسألت عن موعد مغادرة القطار الى جفرسون قال انه كان مشغولا آنذاك وأنه رفع نظره فحسب وقال « غدا » دون أن يتوقف عن انجاز العمل الذي كان يقوم به . ثم قال انه حصل شيء جعله يرفع نظره مرة أخرى ، وكان هناك ذاك الوجه المستدير يراقبه وتلك الريشة التي لا تزال في الكوة تقول هي

– أريد بطاقتين على ذلك القطار

– ذلك القطار لن يصل حتى الثانية صباحا

لم يستطع أن يعرف من هي

– اذا أردت الوصول الى جفرسون بسرعة ، فالأجدر بك أن تذهبي الى البلدة وتستأجري سيارة أتعرفين في أي اتجاه هي البلدة

ولكنه قال انها وقفت هناك فحسب وهي تعد قطع النقود من فئة الخمسة والعشرة سنتات من تلك الخرقة المعقودة ، وقد أعطاها البطاقتين ثم نظر الى ما وراءها عبر الكوة فرأى العم دوك فعرف من تكون ثم حكى كيف جلسا هناك وراح المسافرون على قطار الجنوب يدخلون ثم وصل القطار وغادر وهما لا يزالان يجلسان هناك حكى كيف أن العم دوك كان لايزال يبدو كأنه نائم ، أو مخدر أو ما شابه ثم رحل القطار ، ولكن بعض الناس لم يعودوا الى البلدة بل بقوا هناك ،

www.ibtesama.com/vb

ينظرون عبر النافذة ، ثم يدخلون أحيانا وينظرون الى العم دوك وزوجته وهما جالسان على المقعد ، حتى أطفأ الموظف أنوار غرفة الانتظار

بقي بعض الناس ، حتى الى ما بعد ذلك كانوا ينظرون عبر النافذةويروبهما جالسين هناك في العتمة ربما كانوا قادرين على رؤية الريشة ، وبياض رأس العم دوك ثم بدأ العم دوك يستيقظ لم يكن مندهشا لاكتشافه مكان وجوده ، ولا أنه كان حيث لا يريد أن يكون لقد أفاق فحسب ، كسفينة كانت تبحر بمحاذاة الساحل لفترة طويلة ، وحان الآن موعد تشغيل المحرك ثانية استطاعوا أن يسمعوها وهي تحاول اسكاته ، ثم كان صوته ينفذ اليهم كانا لايزالان جالسين حين عاد الموظف وأضاء الأنوار وقال لهما ان قطار الساعة الثانية كان قادما ، وهي لا تزال تسكته كطفل ، والعم دوك يصيح

— شيء فاسق ومقيت ! شيء مقيت وفاسق !

www.ibtesama.com/vb

الفصل السادس عشر

يغادر بايرون الرواق ويلتف من حول المنزل حين لا تجد طرقته على الباب أي جواب ، ثم يدخل الفناء الخلفي الصغير المغلق يرى الكرسي فورا تحت شجرة التوت انه كرسي قماش من النوع الذي يوضع على سطح السفن ، وهو مرتق باهت ومرتخ على شكل جسم هايتاور ، منذ فترة طويلة ، حتى أنه يبدو وهو فارغ كأنه لازال يعانق على نحو شبحي الشكل البدين معدوم الشكل لصاحبه يقترب بايرون وهو يفكر كيف أن الكرسي الصامت الموحي باللاستعمال والكسل والعزلة الرثة عن العالم ، هو نوعاً ما رمز الرجل نفسه وكينونته يفكر « ها أني سأزعجه مرة أخرى » وذلك وهو يرفع شفته نحو الأعلى قليلا مفكرا **مرة أخرى ؟ الازعاج الذي سببته له ، حتى هو سيرى أن هذا الازعاج لا شيء الآن . وفي يوم أحد مرة أخرى وكلني أعتقد أن يوم الأحدسيبغي الانتقام منه ، كأن يوم الأحد من اختراع الناس**

يصل الى ما خلف الكرسي وينظر اليه من فوق هايتاور نائم فوق انتفاخة كرشه ، حيث القميص الأبيض (انه قميص نظيف وجديد الآن) ينتفخ كالبالون من البنطال الأسود المهترىء ، هناك

www.ibtesama.com/vb

كتاب مفتوح ومقلوب وفوق الكتاب كانت يدا هايتاور مطويتين ، مسالمتين ، حميدتين ، بل تكادان تكونان أسقفيتين القميص محوك حسب الطراز القديم وله صدر ذو ثنيات وان يكن مكويا دون عناية ، وهو لا يرتدي أية قبة فمه مفتوح ، واللحم المهدل المترهل يتدلى من حول الفوهة الدائرية التي كانت تظهر منها الأسنان السفلية الملطخة ، ومن الأنف الساكن الذي هو لوحده لم يغيره العمر واحباط السنين وبينما كان ينظر الى الوجه النائم غير الواعي ، بدا لبايرون كأن الرجل كله كان يهرب من الأنف الذي يتمسك على نحو لا يقهر بشيء من الكبرياء والجرأة فوق فسوق الهزيمة ، كعلم منسي فوق قلعة مخربة . ومن جديد فان النور ، انعكاس السماء وراء أوراق شجرة التوت ، كان يلتمع ويتوهج على عدستي النظارتين ، حتى أن بايرون لم يستطع أن يعرف متى فتحت عينا هايتاور انه يرى الفم المغلق فقط ، وحركة اليدين المطويتين حين يصلح هايتاور من جلسته في الكرسي يقول « نعم ، نعم ؟ من أوه بايرون »

ينظر بايرون اليه من على ، ووجهه جدي تماما . ولكنه ليس مشفقا الآن انه ليس أي شيء بل هو رصين ومصمم تماما يقول دون أي عطف « لقد أمسكوا به البارحة لا أعتقد أنك سمعت بذلك فضلا عن أنك لم تكن قد سمعت عن القتل »

— أمسكوا به ؟

— كريسماس في موتستاون لقد وصل الى البلدة ، وحسب ما سمعت فانه وقف في الشارع حتى ميزه أحدهم

شالنص أمسكوا به

www.ibtesama.com/vb

هايتاور يصلح من جلسته في الكرسي الآن

- وقد جئت لتقول انه إنهم

- لا لم يفعل أحد به أي شيء بعد لم يمت بعد انه في السجن على ما يرام

- حسنا تقول انه على ما يرام يقول بايرون انه على ما يرام بايرون بنتش ساعد عشيق المرأة على بيع رفيقه مقابل الف دولار ، ويقول بايرون ان كل شيء على ما يرام لقد أبقى المرأة مختفية عن أنظار أبي الطفل ، بينما ذلك هل أقول العاشق الآخر يا بايرون ؟ هل أقول ذلك ؟ هل أتجنب الحقيقة لأن بايرون بنتش يخفيها ؟

- اذا كان الكلام المتداول بين الناس يصنع الحقيقة ، اذن أعتقد أعتقد أن هذه حقيقة خاصة حين يكتشفون أني وضعتهما كليهما في السجن

- كلاهما ؟

- براون أيضا رغم أني أعتقد أن معظم الناس قد قرروا أن براون ما كان قادرا على ارتكاب ذلك القتل أو المساعدة فيه أكثر مما كان قادرا على القبض على الرجل الذي ارتكبه فعلا أو المساعدة في ذلك . ولكنهم يستطيعون جميعا أن يقولوا ان بايرون بنتش قد استطاع الآن ان يجعله محبوسا في السجن

- أوه ، أجل

يهتز صوت هايتاور قليلا ، عاليا ونحيلا

- بايرون بنتش ، القيم على الصلاح والأخلاق العامة كاسب

www.ibtesama.com/vb

ووارث المكافآت ، حيث أنها ستتنزل الآن على الزوجة المرغنطية(١) ل...
هل أقول ذلك أيضا؟هل أدل على بايرون هنا أيضا ؟

ـ ثم يبدأ بالبكاء وهو جالس ضخما ورخوا في الكرسي المتهدل ثم استأنف يقول

ـ لا أعني ذلك تعرف ذلك ولكن ليس من الانصاف أن تزعجني ، أن تقلقني وأنا الذي ـ حين آليت على نفسي البقاء ـ تعلمت منهم أن أبقى أن يحدث هذا لي ، بعد أن أصبحت مسنا ، وبعد أن روضت نفسي على قبول ما يريدونه

في احدى المرات كان بايرون قد رآه جالسا والعرق يجري مغطيا وجهه كالدموع والآن يرى الدموع نفسها تجري على الوجنتين كالعرق

ـ أعرف أنه أمر سخيف أمر سخيف لا يتوجب أن يقلقك أكن أعرف لم أكن أعرف حين تورطت فيه في البداية . أو كنت سأعرف ... ولكنك من رجال الله . لا يمكنك أن تروغ من ذلك .

ـ لست من رجال الله وليس ذلك بارادتي أنا تذكر ذلك أنا لم أعد من رجال الله ولم يكن ذلك وفق اختياري أنا كان ذلك بارادتهم ، وليس بالأحرى أمرهم ، هم أمثالك وأمثالهم وأمثال ذلك الذي في السجن هناك وأمثال أولئك الذين وضعوه هناك ليمارسوا ارادتهم عليه ، كما مارسوها علي ، مع اهانة وعنف يمارسان على

(١) ذو علاقة بزواج غير متكافىء بين امرأة أوربية مالكة أو نبيلة وشخص من طبقة اجتماعية أدنى مقاما ، بشرط أن تظل منزلة الفريق الأدنى على حالها وأن لا يرث الأبناء لقب الفريق الأسمى أو ممتلكاته

(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

أولئك الذين خلقهم الرب نفسه ، شأنهم شأن أولئك ، الذين أجبروا من قبل أولئك أنفسهم على فعل ذلك الشيء الذي يقوم أولئك بتمزيقهم الآن لأنهم ارتكبوه لم يكن ذلك باختياري تذكر ذلك

أعرف ذلك لأن الناس لم تمنح كثيرا من الخيارات لقد قمت باختيارك قبل ذلك

– لقد منحت الاختيار قبل أن أولد أنا ، وقد قبلت به قبل أن أولد أنا أو هي أو هو كان ذلك اختيارك أنت وأعتقد أن على أولئك الأخيار أن يعانوا من أجل ذلك شأنهم شأن الأشرار هذا شأنها وشأنه وشأني وشأن الآخرين وتلك المرأة الأخرى

– تلك المرأة الأخرى ؟ امرأة أخرى ؟ هل يجب أن تنتهك حياتي بعد خمسين عاما وأن تدمر طمأنينتي بسبب امرأتين ضائعتين يا بايرون ؟

– تلك الأخرى ليست ضائعة الآن لقد ضاعت مدة ثلاثين عاما ولكنها وجدت الآن انها جدته

– جدة من ؟

يقول بايرون

– كريسماس

يسمع هايتاور ، وهو ينتظر مراقبا الشارع والبوابة من نافذة غرفة مكتبه المعتمة ، يسمع الموسيقى البعيدة حين تبدأ انه لا يعرف أنه يتوقعها ، أنه في كل ليلة أربعاء وأحد ينتظر ، وهو جالس في النافذة المعتمة ، أن تبدأ انه يعرف حتى بالثانية تقريبا متى يكون عليه أن يبدأ سماعها ، دون الاستعانة بساعة يد أو ساعة جدار انه لا يستعمل أيا منهما ، ولم يكن في حاجة الى أي منهما منذ خمسة

www.ibtesama.com/vb

وعشرين عاما انه يعيش مقطوعا عن الزمن الميكانيكي ولكنه لهذا السبب لم يضيعه أبدا كأنما ينتج عن طريق وعيه الباطن دون ارادة التبلّرات القليلة من الحوادث المعروفة التي تحكمت بحياته الميتة ونظمتها في العالم الفعلي في مرة من المرات ودون الاستعانة بالساعة يستطيع أن يعرف مباشرة وبالفكر أين كان بالضبط ، في حياته السابقة ، وما الذي كان يفعله بين اللحظتين المعنيتين اللتين تشيران الى بداية ونهاية صلاة صباح الأحد وصلاة مساء الأحد وصلاة ليلة الأربعاء ومتى كان بالضبط يدخل الكنيسة ومتى ينهي على نحو محسوب الصلاة أو الموعظة لذا وقبل أن يكون الغسق قد تلاشى تماما يقول لنفسه **الآن يتجمعون يقتربون على امتداد الشوارع ببطء ويلتفون داخلين ، يحيون واحدهم الآخر المجموعات ، الأزواج، العازبون ، هناك بعض الحديث غير الرسمي في الكنيسة نفسها، ذي لهجة خفيضة، السيدات المخلصات والمصفرات قليلاً بالمراوح، وهن يومئن برؤوسهن للأصدقاء الذين يدخلون وهم يمرون في الممر الآنسة كاروذرز** (كانت عازفة الأرغن قد ماتت منذ عشرين عاماً تقريباً) **بينهن** ؛ **سرعان ما ستنهض وتدخل غرفة الأرغن** اجتماع صلاة الأحد بدا له دائما أنه في مثل تلك الساعة يكون الانسان أقرب ما يكون الى الرب ، أقرب من أي ساعة أخرى من ساعات الأيام السبعة ثم من بين كل اجتماعات الكنيسة الأخرى ، هل هناك مثل ذلك السلام الذي هو وعد وهدف الكنيسة ؟ العقل والقلب يكونان متطهرين آنئذ ، هذا لو كان لهما أن يتطهرا أبدا ، والأسبوع وكل كوارثه انتهت وتلخصت وتم التكفير عنها بالغضب الصارم والرسمي لصلاة الصبح ؛ والأسبوع

www.ibtesama.com/vb

القادم وكوارثه التي قد تأتي لم يولد بعد ؛ والقلب هادىء الآن لفترة قصيرة تحت الهبوب البارد الناعم للايمان والأمل

جالسا في الغرفة المعتمة يبدو أنه يراهم **ها هم يتجمعون الآن ، يدخلون من الباب . كلهم هناك الآن تقريباً .** ثم يبدأ يقول : « هيا ، هدوء » وهو ينحني قليلا نحو الأمام ثم ، وكأن الموسيقى كانت تنتظر اشارته فانها تنطلق . تأتي ألحان الأرغن غنية ورنانة عبر ليل الصيف ، متآلفة ، جهورية ، فيها تلك النوعية من القنوط والتسامي ، كأن الأصوات المتحررة نفسها كانت تتخذ أشكال ومواقف الصلب ، نشوانة ، رزينة وعميقة في جهارة متنامية ولكن حتى آنذاك كان لايزال للموسيقى تلك الخاصية الصارمة والعنيدة ، المتعمدة والتي لا عاطفة فيها شأنها شأن التضحية والتوسل والسؤال ، ليس من أجل الحب ، ليس من أجل الحياة ، تلك الأمور المحظرة على غيرها ، المطالبة بنبرات رنانة بالموت كأنما الموت هو الهبة والنعمة ، شأنها شأن كل الموسيقى البروتستانتية كأنما كان أولئك الذين قبلوها ورفعوا أصواتهم ليسبحوها ضمن التسبيح ، والذين أصبحوا على ما هم عليه بسبب ماتسبح به تلك الموسيقى وترمز اليه ، فقد انتقموا مما جعلهم هكذا بواسطة التسبيح نفسه وبينما كان يصغي ، بدا أنه يسمع ضمن الموسيقى تمجيد تاريخه هو ، أرضه ، دمه المطوق هو الناس الذين نبت منهم ويعيش بينهم والذين لا يستطيعون أن يستمدوا متعة أو جائحة أو هروبا من أي من هاتين دون أن يتشاجروا . المتعة والنشوة ، أمران لا يمكنهم أن يظهروا بمظهر من يتحملهما هروبهم من ذلك بالعنف ، بالشراب والمشاجرة والصلاة والجائحة أيضا ، العنف ذاته غير الممكن تجنبه

www.ibtesama.com/vb

ظاهريا إذن لم لا يدفعهم دينهم الى صلب أنفسهم وواحدهم الآخر هكذا يفكر يبدو له أنه يستطيع أن يسمع ضمن الموسيقى التصريح والتفاني بذاك الذي يعرفون أنهم سيضطرون الى فعله غدا بدا له أن الأسبوع الماضي قد اندفع كسيل جارف وأن الأسبوع القادم ، الذي سيبدأ غدا ، هو الهاوية ، وأن النهر على حافة الشلال الآن قد صرخ صرخة واحدة متآلفة ورنانة وصارمة ، ليس لأجل التبرير بل كتحية احتضار قبل الغطسة ، وليس ذلك في سبيل أي رب بل في سبيل الرجل المحكوم عليه بالهلاك في الزنزانة ذات القضبان ضمن مدى سماعهم والكنيستين الأخريين ، والذي سيرفعون من أجل صلبه صليبا أيضا يقول وهو جالس في النافذة المعتمة ، « وسيفعلون ذلك بسعادة » . يشعر بفمه وعضلات فكه تتوتر بشيء محذر ، بشيء أرهب حتى من الضحك « بما أن الاشفاق عليه سيعني الاقرار بالشك بالذات والأمل بالشفقة نفسها والحاجة اليها سيفعلون ذلك بسعادة ، بسعادة ولهذا فانه لأمر رهيب ، رهيب ، رهيب » ثم ينحني نحو الأمام فيرى ثلاثة أشخاص يقتربون وينعطفون داخلين من البوابة ، وقد ارتسمت صورهم الظلية الآن على نور مصباح الشارع ، بين الظلال كان قد سبق له وميز بايرون وهو ينظر الآن الشخصين اللذين يلحقان به يعرف أنهما رجل وامرأة ، ولكن باستثناء التنورة التي ترتديها واحدة منهما فهما غير قابلين للتمييز فلهما الطول نفسه والعرض نفسه الذي يساوي مثلي عرض رجل عادي أو امرأة عادية ، كأنهما دببن يبدأ بالضحك قبل أن يستطيع تهيئة نفسه للامتناع عن الضحك « لو كان على رأس بايرون منديل وحلق في أذنيه » هكذا يفكر ، وهو يضحك ،

www.ibtesama.com/vb

دون صوت ، محاولا تهيئة نفسه لمنعها من الضحك حتى يذهب الى الباب حين يقرعه بايرون

* * *

يقودهما بايرون الى غرفة المكتب امرأة قصيرة بدينة في ثوب أرجواني وريشة وتحمل مظلة ، ولها وجه داكن تماما ، ورجل قذر الى حد لايصدق ، وله لحية عنزة ملطخة بالتبغ وعينان مجنونتان يدخلان ليس دون حياء ، ولكن بشيء أشبه بالدمى المتحركة في حركتهما ، كأنما يعملان بزنبرك غير متقن الصنع . تبدو المرأة هي الأكثر ثقة أو الأقل خجلا على الأقل من الرجل . كأنما ، بسبب كل العطالة المتجمدة والمحركة ميكانيكيا ، قد وصلت الى هدف محدد أو الى أمل غامض نوعا ما ولكنه يرى على الفور أن الرجل في حالة أشبه بالغيبوبة ، كأنه غافل عما يحيط به أو غير مكترث به اطلاقا ، ومع ذلك فله من ناحية أخرى خاصية كامنة ومتفجرة ، جذلة ومتيقظة على نحو ظاهري التناقض في آن معا

يقول بايرون بهدوء

— هذه هي هذه هي السيدة هاينز

يقفان هناك ، دون حراك المرأة كأنها وصلت الى نهاية رحلة طويلة ، وقد راحت تنتظر الآن ، بين وجوه غريبة ومحيط غريب ، بهدوء وكنهر جليدي ، كشيء مصنوع من الحجر ومطلي ، والرجل العجوز الهادىء المنتشي القذر الذي يضمر الغضب كأنما لم يكن أي منهما قد نظر اليه ، بفضول أو دون فضول يشير الى الكراسي

www.ibtesama.com/vb

يقود بايرون المرأة التي تجلس بحذر ممسكة بالمظلة يجلس الرجل فو ر ا
يضع هايتاور كرسيه خلف المكتب يقول

– ما الذي تريد هي أن تحدثني عنه ؟

المرأة لا تتحرك من الواضح أنها لم تسمع انها أشبه بشخص قام برحلة شاقة يدفعها وعد ، وقد توقفت تماما الآن وراحت تنتظر يقول بايرون « هذا هو هذا هو الموقر هايتاور قولي له ما تريدينه أن يعرفه » تنظر الى بايرون وهو يتكلم ، ووجهها خال من التعبير تماما . وان كان خلفه أي عجز عن الافصاح ، فان القدرة على الافصاح قد ألغاها سكون الوجه نفسه ؛ ان كان هناك أمل أو توق ، فلا الأمل ولا التوق كانا ظاهرين

يقول بايرون

– قولي له قولي له سبب قدومك سبب مجيئك الى جفرسون

تقول

– كان ذلك بسبب

صوتها مفاجيء وعميق ، قاس تقريبا ، رغم أنه ليس مرتفعا كأنها لم تتوقع أن تصدر كل تلك الضجة حين نطقت تتوقف في نوع من الدهشة كأنما من رجع صوتها بالذات ، وهي تنقل بصرها بين الوجهين

يقول هايتاور

– هيا قولي حاولي أن تحكي لي

www.ibtesama.com/vb

ـ كان ذلك بسبب ...

ومن جديد يتوقف الصوت ، يموت بقسوة رغم أنه لم يرتفع بعد ، كأنما من دهشته بالذات .. كأنما كانت الكلمات الثلاث عائقا آليا لا يستطيع صوتها تخطيه يمكنهما أن يراقباها وهي تنظم نفسها لتلتف من حولها

ـ لم أره أبدا حين كان قادرا على المشي لم أره منذ ثلاثين سنة لم أره أبدا وهو يمشي على قدميه وينادي باسمه

يقول الرجل فجأة

ـ شيء فاسق ومقيت !

صوته مرتفع وحاد وقوي

ـ شيء فاسق ومقيت !

ثم يتوقف عن الكلام عبر حالته المباشرة والحالمة يصرخ بالكلمات الثلاث بفجائية غاضبة وتنبؤية ، وهذا كل ما في الأمر ينظر اليه هايتاور ثم الى بايرون يقول بايرون بهدوء

ـ انه ابن ابنتهما انه

وبحركة خفيفة من رأسه يشير الى الرجل العجوز الذي يراقب هايتاور الآن بتحديقته اللامعة الجنونية

ـ لقد أخذه بعد ولادته مباشرة وحمله الى مكان بعيد . لم تعرف ما الذي فعله به لم تكن تعرف ان كان لا يزال على قيد الحياة أم لا ، الى أن حصل

يقاطع العجوز الكلام مرة أخرى ، بتلك الفجائية المجفلة ولكنه لا يصرخ هذه المرة صوته الآن هادىء ومنطفي كصوت بايرون يتحدث بوضوح ولكن ببعض التشنج

www.ibtesama.com/vb

– أجل لقد أخذه دوك هاينز العجوز لقد منح الرب دوك هاينز العجوز فرصته ولذا منح دوك هاينز العجوز الرب فرصته أيضا وهكذا فان الرب استخدم ارادته من خلال أفواه الأطفال الصغار كان الأطفال الصغار يصيحون به : زنجي ! تحت سمع الرب والانسان معا ، مما يظهر ارادة الرب وقال دوك هاينز العجوز للرب « ولكن هذا لا يكفي فالاطفال ينادون واحدهم الآخر بما هو أسوأ من زنجي » وقال الرب « انتظر وراقب ، لأنه لاوقت لدي أضيعه على قذارة وفسوق هذا العالم لقد وضعت العلامة عليه وسوف أضع المعرفة وقد وضعتك هناك لتراقب وتحرس ارادتي وسيكون عملك هو رعايته والاشراف عليه »

توقف صوته عن الكلام ، ولكن لهجته لا تنخفض اطلاقا يتوقف صوته فحسب ، تماما كما يحدث حين ترفع الابرة عن اسطوانة الغرامافون (الحاكي) بيد شخص لا يصغي الى الاسطوانة ينظر هايتاور منه الى بايرون ، وهو يحملق تقريبا

يقول

– ما هذا ؟ ما هذا ؟

يقول بايرون

– لقد أردت أن أهيىء الأمر بحيث تأتي هي وتتحدث اليك دون أن يكون هو موجودا ولكن ما كان هناك مكان نتركه فيه تقول إن عليها أن تبقيه تحت المراقبة كان يحاول في موتستاون البارحة أن يثير الناس ليشنقوه قبل أن يعرف ما كان يفعله

www.ibtesama.com/vb

يقول هايتاوزر

ـــ يشنقونه ؟ يشنقون حفيده ؟

يقول بايرون بهدوء

ـــ هذا ما تقوله هي وتقول انه أتى الى هنا لهذا السبب وكان عليها أن تأتي معه لتمنعه من ارتكاب ذلك

تتكلم المرأة مرة أخرى ربما كانت تصغي ولكن لا يوجد تعبير على وجهها الآن أكثر مما كان لدى دخولها تكلمت بوجه متخشب وبصوت ميت ، بفجائية تشبه فجائية الزوج

ـــ منذ خمسين عاما وهو على هذه الحال منذ أكثر من خمسين عاما ، ولكني تحملت ذلك مدة خمسين عاما وحتى قبل أن نتزوج كان دائم الشجار وفي الليلة التي ولدت فيها « ميلي » ، سجن بسبب شجار هذا ما تحملته وعانيته قال انه اضطر الى التشاجر لأنه أصغر من بقية الرجال لذا كان الرجال يحاولون تجاوز الحدود معه كان ذلك هو خيلاؤه وغروره. ولكني قلت ان السبب هو أن الشيطان ساكن فيه وأن الشيطان سيأتي اليه دون أن يدري هو به الا بعد فوات الأوان ، وكان الشيطان سيقول « يا يوفيوس هاينز ، لقد جئت لأحصل ضريبتي » هذا ما قلته له في اليوم التالي على ولادة « ميلي » وأنا لا أزال ضعيفة لا أقوى بعد على رفع رأسي ، وهو قد خرج للتو من السجن مجددا قلت ذلك كيف أن الرب قد أعطاه علامة وتحذيرا أن يكون هو مسجونا في ساعة ولحظة ولادة ابنته ، فقد كانت تلك أمارة الرب على أن السماء لا تراه أهلا ليربي ابنته اشارة من الرب في الأعالي أن البلدة (كان يشتغل كعامل مكبح في السكة

www.ibtesama.com/vb

الحديدية آنذاك) لم تكن تسبب له سوى الأذى وقد اقتنع بذلك لأنها كانت أمارة وانتقلنا من البلدة عندئذ وبعد فترة أصبح رئيس عمال في منشرة ، وكان موفقا آنذاك لأنه لم يكن قد بدأ بعد باستعمال اسم الرب في خيلاء وغرور لتبرير الشيطان الذي كان في داخله والتغاضي عنه لذا حين مرت عربة « ليم بوش » في تلك الليلة وهي عائدة من السيرك ولم تتوقف اتنزل « ميلي » وعاد يوفيوس الى البيت وراح يرمي بالأشياء عن الخزانة حتى وصل الى المسدس ، قلت « يا يوفيوس ، انه الشيطان ليست سلامة ميلي هي التي تعجلك الآن » ، فقال « الشيطان أم لا الشيطان أم لا » وضربني بيده وتمددت على السرير ورحت أراقبه

تتوقف عن الكلام ولكن توقفها يترافق مع هبوط في الصوت كأن الحاكي قد توقف في منتصف الاسطوانة ومن جديد ينقل هايتاور نظره منها الى بايرون بتعبير يدل على الذهول المحملق

يقول بايرون

— هكذا سمعتها أيضا لقد كان صعبا علي أن أفهم القصة منها مباشرة أولا كانا يعيشان في المنشرة التي كان هو رئيس عمالها ، هناك في اركنساس كانت الفتاة في الثامنة عشرة آنذاك في احدى الليالي مر سيرك بالمنشرة في طريقه الى البلدة كان الشهر هو كانون الأول وقد هطلت أمطار كثيرة ، وسقطت احدى العربات من على أحد الجسور قرب المنشرة ووصل الرجال الى منزلهما ليوقظوها ويستعيروا عدة لاخراج العربة

يصرخ الرجل العجوز فجأة

www.ibtesama.com/vb

— إنه مقت الله وشهوة المرأة !

ثم يخفت صوته ، يتلاشى . كأنما كان يحاول لفت الانتباه فحسب يتكلم مرة أخرى بسرعة ، بلهجة معقولة ، غامضة وتعصبية ، متحدثا عن نفسه مجددا بضمير الغائب

— كان يعرف كان دوك هاينز العجوز يعرف لقد رأى مقت الرب على شكل أمارة نسائية عليها ، تحت ثيابها لذا حين ذهب وقد ارتدى معطفه المطري وأشعل مصباحه ثم عاد ، كانت عند الباب ، مع معطف مطري هي ايضا وقال « عودي الى السرير » . وقالت هي « أريد أن أذهب أنا أيضا » ، وقال هو « عودي الى تلك الغرفة » وعادت هي ونزل هو وأنزل العدة من المنشرة وأخرج العربة لقد عمل حتى الفجر معتقدا أنها أطاعت أمر الأب الذي وجهه الرب اليها ولكن كان عليه أن يعرف كان عليه أن يعرف مقت الرب يجسد المرأة كان عليه أن يعرف الشكل المائي للفسوق والمقت اللذين سبق لهما وراحا يتعفنان أمام نظر الرب لقد قالت لدوك هاينز العجوز الذي كان يعرف على نحو أفضل قالت إنه كان مكسيكيا بينما استطاع دوك هاينز العجوز أن يرى في وجهه اللعنة السوداء للرب كلي القدرة قالت له

يقول هايتاور

— ماذا ؟

يتكلم بصوت مرتفع كأنما توقع أن يضطر الى اغراق صوت الرجل الآخر بصوته المرتفع

— ما هذا ؟

www.ibtesama.com/vb

يقول بايرون

- كان ذلك شخصنا يعمل في السيرك قالت له ان الرجل كان مكسيكيا ، الابنة قالت له حين أمسك بها ربما كان ذلك هو ما قاله الرجل لها ولكنه

وهنا أشار مجددا الى الرجل العجوز

- كان يعرف بطريقة ما أن للرجل دما زنجيا ربما قالت له ذلك جماعة السيرك لا أعرف لم يقل أبدا كيف اكتشف ذلك ، كأن ذلك لا قيمة له اطلاقا وأعتقد أنه الأمر كان كذلك بعد الليلة التالية

- الليلة التالية ؟

- أعتقد أنها تسللت تلك الليلة بعد أن توقف السيرك في المكان ولم يستطع التقدم وعلى أية حال فقد تصرف هكذا ، وما فعله لم يكن ممكنا أن يحدث لو لم يعرف ولم تتسلل هي لأنه في اليوم التالي دخلت الى السيرك مع بعض الجيران لقد تركها تذهب لأنه لم يكن يعرف أنها كانت قد تسللت في الليلة السابقة لم يكن قد شك بأي شيء حتى حين خرجت لتدخل عربة الجار وهي ترتدي ملابس يوم الأحد ولكنه كان ينتظر العربة حين عادت في تلك الليلة ، مصغياً مترقباً صوتها ، وذلك حين وصلت الى الطريق ومرت بالمنزل كأنها لن تتوقف لتنزل هي منها وقد عدا خلفها ونادى ، وأوقف الجار العربة ولكن الفتاة لم تكن فيها قال الجار انها قد تركتهم في السيرك لتقضي الليل مع فتاة أخرى تعيش في مكان يبعد ستة أميال ، وتساءل الجار كيف لم يكن هاينز على علم بذلك ، لأنه قال ان الفتاة كانت تحمل حقيبة سفرها حين صعدت الى العربة لم يكن هاينز قد رأى الحقيبة وهي

www.ibtesama.com/vb

في هذه المرة يشير الى المرأة ذات الوجه المتحجر ، كانت تصغي وربما لم تكن تصغي الى ما كان يقوله

— وهي تقول ان الشيطان هو الذي كان دليله . تقول انه لم يكن قادرا على معرفة أي شيء زيادة عما كانت تعرفه هي ، أي أين كانت الفتاة آنئذ ، ومع ذلك دخل الى البيت وأحضر مسدسه وأوقعها على السرير حين حاولت ايقافه ثم أسرج حصانه وانطلق به وقالت انه سار في طريق مختصرة اختارها بين حوالي ستة طرق مختصرة مختلفة ، في الظلام ، وكلها قد تؤدي الى أن يلحق بهما ومع ذلك لم يكن ممكنا له أن يعرف أي طريق سارا فيها. ولكنه لحق بهما وقد وجدهما كأنه كان يعرف طوال الوقت أين سيكونان ، كأنه كان على موعد في ذلك المكان هو والرجل الذي قالت الفتاة عنه انه مكسيكي كأنما كان يعرف كان الظلام شديدا ، وحتى حين لحق بالعربة الخفيفة ذات الحصان الواحد ، لم يكن هناك أي دليل على أنها العربة المطلوبة ولكنه لحق بالعربة ، أول عربة رآها تلك الليلة ثم سار الى يمين العربة وانحنى ، والظلام لايزال مخيما ، ودون أن يتلفظ بأية كلمة ودون أن يوقف حصانه ، أمسك بالرجل الذي كان ممكنا له أن يكون شخصا غريبا أو جارا وقد أمسك به بأحدى يديه وصوب المسدس بالأخرى وقتله وأعاد الفتاة الى البيت وقد أردفها خلفه على الحصان وقد ترك العربة والرجل هناك على الطريق وكان المطر يهطل من جديد أيضا

يتوقف عن الكلام وعلى الفور تبدأ المرأة بالكلام كأنما كانت تنتظر بصبر صارم أن يتوقف بايرون عن الكلام تتحدث باللهجة

المبتة الحادثة نفسها : الصوتان يؤديان الاستروفة(١) والأنتي ستروفه(٢) الرتيبة صوتان دون جسد يرويان على نحو حالم شيئا ما أنجز في منطقة لابعد لها من قبل أشخاص دون دم :

— تمددت فوق السرير وسمعته يخرج ثم سمعت الحصان قادما من الحظيرة ثم مارا بالمنزل وقد سبق له وراح يعدو وقد تمددت هناك دون أن أخلع ملابسي ، وأنا أراقب المصباح كان الزيت ينضب ويعد فترة نهضت وأعدته الى المطبخ وملأته ونظفت الفتيل ثم خلعت ملابسي وتمددت في السرير ، والمصباح لازال مضاء كان المطر لايزال يهطل وكان الجو باردا وبعد فترة سمعت الحصان يعود الى الفناء ويتوقف عند الرواق فنهضت ووضعت شالي على كتفي وسمعتهما يدخلان المنزل استطعت أن اسمع صوت قدمي يوفيوس ثم قدمي « ميلي » ، ثم عبرا البهو نحو الباب ووقفت « ميلي ». هناك وماء المطر على وجهها ، وشعرها وثوبها الجديد موحلان وعيناها مغمضتان ثم ضربها يوفيوس فسقطت على الأرض وظلت ممددة هناك ولم يكن وجهها يبدو مختلفا عما كان عليه وهي واقفة . وكان يوفيوس يقف في الباب مبتلا وموحلا هو أيضا وقال « قلت اني أعمل مشيئة الشيطان حيننا ، لقد أعدت لك حصاد الشيطان المدخر للمستقبل اسأليها عما تحمله في أحشائها اسأليها » وكنت متعبة ، وكان الجو

---

(١) STROPHE في الدراما الاغريقية (ا) حركة الكورس في الالتفات من اليمين الى يسار المسرح ، (ب) ذلك الجزء من النشيد الكورالي الذي ينشد خلال القيام بمثل هذه الحركة

(٢)ANTISTROPHE عكس المعنى السابق تماما ، أي (ا) الحركة من اليسار الى اليمين (ب) ذلك الجزء من النشيد الكورالي الذي ينشد خلال القيام بمثل هذه الحركة .

(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

باردا وقلت « ما الذي حدث ؟ » فقال : « عودي الى هناك وانظري في الوحل وسترين ربما يكون خدعها بادعائه أنه مكسيكي ولكنه لم يخدعني أنا قط . ولم يخدعها هي ولم يكن مضطرا الى ذلك . لأنك قلت مرة إن الشيطان سيحل علي مطالبا بضريبته حسنا ، لقد فعل ذلك لقد حملت لي زوجتي عاهرا ولكنه فعل ما بوسعه على الأقل حين آن أوان التحصيل لقد أراني الطريق الصحيحة وحمل المسدس بثبات » لذا أفكر أحيانا كيف تغلب الشيطان على الرب لأننا اكتشفنا أن « ميلي » كانت حاملا وانطلق يوفيوس باحثا عن طبيب ينهي المسألة وقد اعتقدت أنه سيجد طبيبا ، وظننت أحيانا أنه سيكون من الأفضل أن تكون الحال على ما هي عليه ان كان على الرجل والمرأة أن يعيشا في هذا العالم وأحيانا كنت آمل أن يجده ، فقد كنت متعبة جدا حين انتهت المحاكمة وعاد مالك السيرك وقال ان الرجل كان حقا نصف زنجي وليس مكسيكيا ، كما كان يوفيوس يقول طوال الوقت ، كأنما قال الشيطان له انه زنجي . وكان يوفيوس يحمل المسدس مرة أخرى ويقول انه سيجد طبيبا أو يقتل طبيبا ، ثم كان يرحل مدة أسبوع ، وكل الناس يعرفون ذلك وأنا أحاول أن أقنع يوفيوس بالرحيل عن المكان بسبب أن صاحب السيرك قال ان الرجل كان زنجيا وربما لم يكن على ثقة من ذلك ، كما كان قد رحل هو أيضا وربما لن نراه مرة أخرى ولكن يوفيوس رفض الرحيل ، وكان ميعاد ولادة ميلي قد اقترب ويوفيوس يحمل ذلك المسدس ويحاول أن يجد طبيبا يفعل المطلوب ثم سمعت كيف أنه كان في السجن مجددا كيف كان يذهب الى الكنيسة واجتماعات الصلاة في مختلف الأماكن حيث

www.ibtesama.com/vb

يحاول أن يجد طبيبا ، وكيف نهض في احدى المرات خلال الصلاة وصعد الى المنبر وبدأ يلقي موعظة هو بنفسه ، وراح يصرخ ضد الزنوج ، مطالبا البيض بالخروج وقتل الزنوج جميعاً ، وقد طرده الناس المجتمعون في الكنيسة وأنزلوه من على المنبر فهددهم بالمسدس في الكنيسة ، حتى وصل رجال القانون والقوا القبض عليه وهو يتصرف كالمجنون وقد اكتشفوا كيف انه ضرب طبيبا في بلدة اخرى وهرب قبل ان يلقى عليه القبض لذا حين خرج من السجن وعاد الى البيت كانت « ميلي » على وشك الولادة وكنت اظن عندها انه قد استسلم ، انه قد راى ارادة الله اخيرا ، لأنه كان هادئا في المنزل ، ووجد في احد الأيام الملابس التي كنت اعدها انا و«ميلي» ونخفيها عن انظاره ، ولم يقل اي شيء سوى ان سأل عن الموعد كان يسأل في كل يوم ، وقد ظننا انه قد استسلم وان ذهابه الى تلك الكنائس او وجوده في السجن مرة اخرى قد جعله يسلّم بالأمر كما حدث ليلة ميلاد « ميلي » ثم حان الميعاد وايقظتني « ميلي » في احدى الليالي وقالت ان المخاض قد بدأ فارتديت ثيابي وقلت ليوفيوس ان يذهب في طلب الطبيب فخرج وقد جهزت كل شيء وانتظرنا وحان وقت عودة يوفيوس والطبيب وانقضى ولم يعد يوفيوس وانتظرت حتى كان موعد وصول الطبيب قد حان لابد ، ثم خرجت الى الرواق الأمامي فرايت يوفيوس جالسا على الدرجة العليا والبندقية على حجره وقال « عودي الى ذلك المنزل ايها الساقطة اللعينة » وقلت « يا يوفيوس » ورفع البندقية وقال « عودي الى ذلك المنزل دعي الشيطان يحصد غلته بنفسه ، فهو الذي زرعها » وحاولت ان اخرج من الباب الخلفي وسمعني والتف من حول المنزل بالبندقية وضربني بالسبطانة وعدت الى

www.ibtesama.com/vb

« ميلي » ووقف هو خارج باب البهو من حيث يمكنه ان يراقب « ميلي حتى ماتت ثم دخل الى السرير ونظر الى الطفل ورفعه عاليا ، اعلى من المصباح ، كأنه ينتظر ان يرى من يفوز الشيطان ام الرب وقا كنت منهكة جدا ، جالسة قرب السرير ، انظر الى ظله على الجدار وظل ذراعيه والصرة عاليا على الجدار ثم فكرت في ان الرب قد فاز ولكني لا أعرف الآن فقد اعاد الطفل الى السرير الى جانب « ميلي » وخرج سمعته يخرج من الباب الأمامي ثم نهضت واشعلت النار في الموقد وسخنت بعض الحليب

تتوقف عن الكلام ، يصمت صوتها الأجش الرتيب يراقبها هايتاوز عبر المكتب المراة الساكنة ذات الوجه المتحجر في الثوب الأرجواني ، التي لم تتحرك منذ ان دخلت الغرفة ثم تبدا بالكلام مرة اخرى ، دون ان تتحرك ، حتى دون تحريك الشفاه ، كأنها دمية والصوت يأتي من المتكلم من بطنه من الغرفة التالية

— وهكذا رحل يوفيوس لم يكن صاحب المنشرة يعرف اين ذهب ، وقد عين رئيس عمال جديدا ، ولكنه سمع لي بالبقاء في المنزل فترة اطول لأننا لم نعرف اين كان يوفيوس ، وكان الشتاء على الأبواب وانا لدي طفل ارعاه ولم اعرف اين كان يوفيوس اكثر مما كان السيد غيلمان يعرف حتى وصلت الرسالة كانت من ممفيس وكانت تحوي نقودا مرسلة عن طريق مكتب البريد ، وكان ذلك كل ما في الأمر لذا كنت لا ازال دون معرفة ثم وصلت النقود مرة أخرى في تشرين الثاني دون اية رسالة او أي شيء آخر وقد كنت منهكة جدا ، ثم حصل قبل عيد الميلاد بيومين ان كنت في الفناء

www.ibtesama.com/vb

الخلفي اقطع الحطب ، وقد عدت الى المنزل فلم اجد الطفل لم اكن خارج المنزل لأكثر من ساعة واحدة وقد بدا لي اني كنت استطيع أن اراه حين دخل وخرج ولكني لم أره . الا اني وجدت الرسالة حيث تركتها يوفيوس على الوسادة التي كنت اضعها بين الطفل وحافة السرير حتى لا يسقط عنه ، وقد كنت منهكة الى اقصى حد وقد انتظرت ، وبعد عيد الميلاد عاد يوفيوس الى البيت ، ولكنه لم يقل شيئا سوى اننا سننتقل ، وظننت انه سبق له واخذ الطفل الى هناك وقد عاد ليصطحبني ولكنه لم يقل اين كنا سننتقل ولم يستغرق ذلك كثيرا من الوقت ، وكنت قلقة الى حد الجنون بشأن الطفل وكيف سيبقى في المكان الجديد لوحده وهو يرفض ان يخبرني واحسست لشدة حزني اننا لن نصل ابدا الى هناك ثم وصلنا الى المكان الجديد ولم يكن الطفل هناك وقلت « قل لي ما الذي فعلته بجووى . عليك ان تخبرني » وقد نظر الي كما نظر الى « ميلي » في تلك الليلة حين كانت تستلقي على السرير ثم تموت ، وقالت « انه مقت الرب ، وانا اداة إرادته » ثم خرج في اليوم التالي ولم اعرف اين ذهب ، ثم وصلت النقود مرة اخرى وفي الشهر التالي عاد يوفيوس وقال إنه كان يعمل في ممفيس وظننت ان ذلك كان لابأس به حيث انه هناك ليرعى جووى طالما اني لم اكن هناك وقد عرفت اني سأضطر الى انتظار يوفيوس حتى اعرف ، وفي كل مرة كنت اظن انه في المرة التالية سيأخذني معه الى ممفيس وهكذا رحت انتظر . كنت اخيط ثيابا لجووى واجهزها حتى يعود يوفيوس الى البيت واحاول ان اجعله يخبرني ان كانت الملابس مناسبة لجووى وان كان على ما يرام وكان هو يرفض ابلاغي . كان

www.ibtesama.com/vb

يجلس ويقرا في الكتاب المقدس ، جهاراً ، دون ان يكون هناك من يسمعه غيري ، كان يقرا ويصرخ بأقوال الكتاب المقدس كأنه كان على قناعة بأني لا اصدق ما يقوله الكتاب المقدس . ولكنه رفض ان يخبرني بأي شيء إلا بعد خمس سنوات . ولم اكن أعرف أبدا ان كان يأخذ الملابس التي كنت اصنعها لجووى له ام لا وكنت اخشى أن أسأله ، أن اقلق عليه ، لأنه كان لابأس ان يكون هو في المكان نفسه مع جووى ، حتى لولم اكن معهما .. ثم عاد الى البيت بعد خمس سنوات وقال « سننتقل » ، وظننت ان اوان الفرج قد حان وسأراه مرة اخرى الآن إن كانت هناك خطيئة فنحن قد دفعنا جميعا ثمنها الآن بل اني غفرت ليوفيوس حتى ، اذ كنت اظن اننا سنذهب الى ممفيس هذه المرة اخيرا ولكننا لم نذهب الى ممفيس بل جئنا الى موتستاون . كنا سنمر بممفيس ، وقد رجوته كانت تلك اول مرة ارجوه فيها ولكني رجوته آنذاك ان اراه مدة دقيقة واحدة ، ثانية واحدة ، دون ان المسه او احدثه او اي شيء آخر ولكن يوفيوس رفض ذلك . حتى اننا لم نغادر محطة القطار . نزلنا من احد القطارات وانتظرنا سبع ساعات دون مغادرة المحطة ، حتى وصل القطار الآخر ووصلنا الى موتستاون ولم يعد يوفيوس الى ممفيس ليعمل فيها وبعد مدة قلت « يا يوفيوس » ونظر الي وقال « لقد انتظرت خمس سنوات ولم ازعجك خلالها قط .. الا يمكنك حتى ان تقول لي مرة واحدة ان كان حيا ام ميتا ؟ » فقال « انه ميت » وقلت « ميت بالنسبة الى العالم الحي ام ميت بالنسبة الي ؟ ها هو ميت بالنسبة الي ؟ قل لي ذلك ،

www.ibtesama.com/vb

فأنا لم ازعجك طوال خمس سنوات » فقال « انه ميت بالنسبة اليك والي وبالنسبة الى الرب والى كل عالم الرب الى الأبد وزيادة »

توقف عن الكلام مرة اخرى يراقبها هايتاور من خلف المكتب بتلك الدهشة الهادئة واليائسة بايرون دون حراك ايضا وراسه مطأطئة قليلا ثلاثتهم اشبه بثلاثة صخور فوق شاطىء ، فوق الجزر ، باستثناء رجل عجوز كان يصغي الآن ، باهتمام تقريبا ، بتلك القدرة التي يتمتع بها على التقلب الفوري بين الاهتمام الكامل الذي لا يبدو انه يسمع ، وذلك الاندهاش الأشبه بالغيبوبة الذي تكون فيه تحديقة عينه المقلوبة ظاهريا غير مريحة كأنه يحملهم بيده يضحك فجأة ، باشراق وبصوت مرتفع وبجنون يتكلم عجوزا الى حد لايصدق ، وقذرا الى حد لا يصدق

— كان ذلك هو الرب كان الرب هناك دوك هاينز العجوز يمنح الرب فرصته ايضا لقد قال الرب لدوك هاينز العجوز ما عليه ان يفعله وقد فعل دوك هاينز ذلك ثم قال الرب لدوك هاينز العجوز « راقب الآن راقب ارادتي وهي تتحقق » وقد راقب دوك هاينز العجوز وسمع افواه الأطفال ، اطفال الرب اليتامى ، وهم يضعون كلمات الرب ومعرفته في افواههم حتى دون ان يعرفوا ذلك ، فهم دون خطيئة بعد ، وحتى الفتيات لم يكن دون خطيئة وفسوق بعد « زنجي ! زنجي ! » هذا ما كانوا يقولونه بأفواههم البريئة قال الرب لدوك هاينز العجوز « ماذا قلت لك ؟ والآن وضعت ارادتي قيد التحقيق والآن سأذهب ... لا توجد هنا خطيئة تكفي لابقائي مشغولاً

www.ibtesama.com/vb

لأن ما اهتم به فعلا هو زنا العاهرة » ، حيث أنا هذا جزء من غايتي ايضا » فقال له دوك هاينز العجوز « وكيف يكون زنا العاهرة جزءا من غايتك ايضا ؟ » فقال الرب « انتظر وستر هل تظن انه محض صدفة اني ارسلت ذلك الطبيب الشاب ليكون هو الذي يكتشف « مقتي » ملفوفا بتلك البطانية على الدرج ليلة عيد الميلاد ؟ هل تظن انها مجرد صدفة فحسب ان تكون الرئيسة غائبة تلك الليلة فتتاح الفرصة للعاهرات الصغيرات ليسموا الطفل « كريسماس » مدنسين بذلك قدسية ابني ؟ لذا سأرحل الآن فقد وضعت ارادتي قيد التحقيق وسأتركك هنا لتراقبها » وهكذا راقب دوك هاينز العجوز وانتظر ومن غرفة سخان الرب راح يراقب الأطفال ، وبذرة الشيطان الماشية بينهم دون علمهم ، تلوث الأرض بعمل تلك الارادة لأنه لم يعد يلعب مع اولئك الأطفال الآن كان يبقى وحيدا ، يقف ساكنا ثم عرف دوك هاينز العجوز انه كان يصغي الى التحذير الخفي لقضاء الرب وقال دوك هاينز العجوز له « لماذا لا تلعب مع الأطفال الآخرين كما كنت تفعل ؟ » ولم يقل اي شيء وقال دوك هاينز العجوز « لأنهم يسمونك بالزنجي ؟ » ولم يقل شيئا وقال دوك هاينز العجوز « هل تظن انك زنجي لأن الرب وضع علامة على وجهك ؟ » فقال « وهل الرب زنجي هو ايضا ؟ » وقال دوك هاينز العجوز « انه الرب وصاحب جيوش الغضب ، وارادته ستتحقق لا ارادتك ولا ارادتي ، فأنت وانا كلانا جزء من غايته وانتقامه » ثم ابتعد وراقبه دوك هاينز العجوز يستمع ويصغي الى الارادة الانتقامية للرب ، حتى اكتشف دوك هاينز العجوز كيف انه كان يراقب الزنجي يعمل في الباحة ،

www.ibtesama.com/vb

ويتابعه حول الباحة وهو يعمل ، حتى قال الزنجي اخيراً « لماذا تراقبني يا هذا ؟ » وقال « وكيف حصل انك زنجي ؟ » وقال الزنجي « من قال لك اني زنجي ايها النغل الأبيض الضئيل النفاية ؟ » ويقول « لست زنجيا » ، ويقول الزنجي « انت اسوا من ذلك انت لا تعرف من انت بل واكثر من ذلك ، فأنت لن تعرف ابدا . ستعيش وستموت ولن تعرف ابدا » فيقول « ليس الرب زنجيا » ويقول الزنجي « اعتقد ان عليك ان تعرف ما هو الرب ، لأنه لا احد سوى الرب يعرف ما انت » ولكن الرب لم يكن هناك ليقول ، لأنه ترك ارادته تتحقق وترك دوك هاينز العجوز ليراقبها ومن تلك الليلة الأولى ، حين اختار الرب ليلة ذكرى مولد ابنه المقدسة ليجعل ارادته تتحقق ، فقد جعل دوك هاينز العجوز يراقبها كانت تلك ليلة باردة ، وكان دوك هاينز العجوز واقفا في العتمة خلف الزاوية من حيث يستطيع ان يرى الدرج وكيف تتحقق ارادة الرب ، ورأى ان الطبيب الشاب يدخل ليمارس الفسوق والزنا فيتوقف وينحني ويرفع مقت الرب ويحمله الى داخل المنزل وقد لحق به دوك هاينز العجوز ورأى وسمع راقب المومسات الشابات اللواتي كن يدنسن ذكرى الميلاد المقدسة بالشراب الممزوج بالبيض والويسكي في غياب الرئيسة ، رآهن يفتحن البطانية ، وكانت تلك الفتاة ، جيزبيل(١) ذلك الطبيب ، اداة الرب ، هي التي قالت « سنسميه كريسماس(٢) » وقالت اخرى « كريسماس ماذا ؟ كريسماس ماذا ؟ » هاينز العجوز ورائحة الدنس تفوح منهن ، وصحن « عجبا ، هذا العم دوك . انظر ماذا جلب لنا سانتا كلوس(٣) .

---

(١) جيزبيل المرأة الفاسقة (المترجم)
(٢) كريسماس عيد ميلاد المسيح (المترجم)
(٣) أو بابا نويل (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

لقد تركته عند عتبة الدار يا عم دوك » وقال دوك هاينز العجوز : « اسمه جوزيف » وقد توقفن عن الضحك ونظرن الى دوك هاينز العجوز وقالت جيزبيل « ما ادراك ؟ » وقال دوك هاينز العجوز : « هذا ما يقوله الرب » ثم ضحكن مجددا وصحن : « هكذا ورد في الكتاب المقدس كريسماس ابن « جو » « جو » ابن « جو » : جوكريسماس » هذا ما قلته « نخب جوكريسماس » ، وحاولن جعل دوك هاينز العجوز يشرب هو ايضا نخب مقت الرب ، ولكنه رمى الكأس جانبا وكان عليه ان يراقب وينتظر ، وقد فعل ذلك في الوقت الرباني المناسب ، فالشر يتأتى من الشر وقد وضلت جيزبيل خاصة الطبيب وهي تعدو من فراشها الشبق ، ولا تزال تفوح منها رائحة الخطيئة والخوف تقول : « كان مختبئا خلف السرير » هذا ما تقوله ، ويقول دوك هاينز العجوز « لقد استخدمت ذلك الصابون المعطر الذي اغوى الخراب ومقت الرب وغضبه بالنزول عليك تحمليه » وقالت « يمكنك ان تكلمه لقد رأيتك يمكنك اقناعه » وقال دوك هاينز العجوز « لا اكترث بزناك اكثر مما يكترث به الرب » وتقول « سيبلغ عني وسأطرد سيحل العار بي » كانت تفوح منها رائحة الشبق والشهوة وتقف امام دوك هاينز العجوز وارادة الرب تتحقق فيها في تلك اللحظة ، وهي التي انتهكت حرمة المنزل الذي آوى فيه الرب اليتامى قال دوك هاينز العجوز « انت لاشيء ، انت وكل المومسات انت اداة لغرض الرب في الانتقام الا تسقط سنونوة على الأرض انت اداة الرب ، شأنك شأن جوكريسماس ودوك هاينز العجوز » وقد ابتعدت هي وانتظر دوك هاينز العجوز

www.ibtesama.com/vb

وراقب ولم يمض وقت طويل الا وعادت هي ووجهها اشبه بوجه وحش مفترس في صحراء . قالت « لقد تدبرت امره » وقال دوك هاينز العجوز « كيف تدبرت امره ؟ » لأنه لم يكن هناك مالا يعرفه دوك هاينز العجوز لأن الرب لم يكن يخفي هدفه عن اداته المختارة . وقال دوك هاينز العجوز « لقد خدمت ارادة الرب المقدرة يمكنك ان تذهبي الآن وتمقتي الرب بسلام حتى يوم الدينونة » ، وبدا وجهها كوجه وحش مفترس في صحراء ؛ وهي تضحك على الرب من خلف قذارتها المصبوغة النتنة وقد وصلوا واصطحبوه الى مكان بعيد لقاء رآه دوك هاينز العجوز يرجل في العربة وعاد لينتظر الرب ووصل الرب وقال لدوك هاينز العجوز « يمكنك الآن ان ترحل انت ايضا لقد انجزت لي عملي لم يعد هنا شر الآن باستثناء شر النساء ، وهو امر لا يجدر بأداتي المختارة ان تراقبه » وقد رحل دوك هاينز العجوز حين امره الرب بذلك ولكنه ظل على صلة بالرب وقال في الليل « ابن الحرام ذاك ايها الرب » ، وقال الرب : « لا زال يمشي على ارضي » . وظل دوك هاينز العجوز على صلة بالرب وقال في الليل « ابن الحرام ذاك ايها الرب » وقال الرب « لا زال يمشي على ارضي » وظل دوك هاينز العجوز على صلة بالرب وفي احدى الليالي كافح وصارع وصرخ عاليا « ابن الحرام ذاك ايها الرب ! اشعر ! اشعر بأسنان ومخالب الشر ! » وقال الرب « انه ابن الحرام ذاك ، لم ينته عملك بعد . انه دنس وهو مقت على ارضي »

* * *

كان صوت الموسيقى الواصل من الكنيسة البعيدة قد توقف منذ

www.ibtesama.com/vb

فترة طويلة وعبر النافذة المفتوحة كان لا يصل الآن سوى الأصوات المسالمة والمتنوعة لليلة صيفية لايزال هايتاور جالسا خلف المكتب ، وهو يبدو كحيوان اخرق وقد احتيل عليه وخدع حتى سلب الحاجة الى الفرار ، وقد إكره الآن على الدفاع عن نفسه امام اولئك الذين احتالوا عليه وخدعوه جلس الثلاثة الآخرون يواجهونه ؛ كأنهم هيئة محلفين اثنان منهم دون حراك ايضا ، والمراة بذلك الصبر متحجر الوجه الذي تتملى به صخرة منتظرة ، والرجل العجوز بخاصية مستهلكة كفتيل شمعة مسود اطفئت شعلته بعنف بايرون هو الوحيد الذي يبدو حيا وجهه مطاطيء يبدو عليه انه يتأمل في يده التي تقبع على حجره ، والابهام والسبابة تحتكان ببعضهما ببطء وبحركة تدليك بينما يبدو عليه ان يقوم بالمراقبة بانهماك تأملي وحين يتكلم هايتاور ، يعرف بايرون انه لا يخاطبه ، لا هو ولاي شخص في الغرفة اطلاقا يقول: « ما الذي يريدانمي ان افعله ؟ ما الذي يظنان ، يأملان ، يعتقدان بأني استطيع القيامبه ؟ »

ثم لا صوت هناك فلا الرجل ولا المراة قد سمعا على ما يبدو لا يتوقع بايرون من الرجل ان يسمع يفكر « انه ليس في حاجة الى اية مساعدة ليس هو انه يحتاج الى اعاقة » مفكرا متذكرا حالة الغيبوبة للترقب الحالم والمجنون التي انتقل بها الرجل العجوز من من مكان الى آخر متأخرا قليلا عن المراة منذ ان قابلهما قبل اثنتي عشرة ساعة خلت « انه يحتاج الى اعاقة واعتقد انه لأمر جيد لكثير من الناس غيرها هي انه عاجز تقريبا » يراقب المراة يقول بهدوء ، بلطف تقريباً « هيا قولي له ما تريدينه انه يريد ان يعرف ما تريدينه منه قولي له »

www.ibtesama.com/vb

تقول .

ــ ظننت ربما

تتحدث دون ان تتحرك . صوتها ليس متردداً بقدر ما هو صدىء ، كأنه مجبر على محاولة ان يقول شيئا ما خارج مجال قوله بصوت مرتفع ، ان يكون اي شيء ما عدا ان يتم الشعور به والتعرف عليه

تقول

ــ قال السيد بنتش انه ربما

يقول هايتاور

ــ ماذا ؟

يتكلم بحدة ونفاد صبر ، صوته مرتفع قليلا هو ايضا لم يكن قد تحرك ، بل استند الى الخلف في كرسيه ويداه على ذراعيه

ــ ماذا ؟ انه ماذا ؟

ــ ظننت

يموت الصوت مجددا خلف النافذة تئز الحشرات ثم يستمر الصوت مسطحا دون نبرة ، وهي جالسة وراسها منحنية قليلا ايضا ، كأنها كانت تصغي ايضا الى الصوت بالتعمد الهادىء نفسه

ــ انه حفيدي ، ولد ابنتي الصغير لقد ظننت فحسب انني لو انه لو

يصغي بايرون بهدوء ، مفكراً **هذا مضحك تماماً . المرء يظن أنهما قد تقايضا في مكان ما . كأنه هو الذي لديه حفيد زنجي ينتظر شنقه** يتابع الصوت

www.ibtesama.com/vb

— اعرف انه ليس من حقي ازعاج شخص غريب .. ولكنك محظوظ انت عازب ، رجل وحيد يمكنه ان يشيخ دون يأس الحب ولكني اعتقد انك ان تستطيع رؤيته حتى لو استطعت ان احكيه على النحو الصحيح لقد ظننت فحسب انه لو كان ممكنا ولمدة يوم واحد ان يكون الأمر كأنه لم يحدث ابدا الا يكون الناس على علم بأنه قتل.

يتوقف الصوت مرة اخرى لم تكن قد تحركت كأنما كانت تصغي اليه يتوقف كما اصغت اليه وهو يبدا ، بالاهتمام نفسه ، والدهشة الهادئة نفسها

يقول هايتاور بذلك الصوت المرتفع نافد الصبر

— هيا ، تابعي

— لم اره ابدا وهو يمشي ويتكلم لم اره منذ ثلاثين عاما لا اقول انه لم يرتكب ما يقولون انه قد ارتكبه وانه لا يجب عليه ان يعاني بسبب ذلك كما جعل اولئك الذين اخبوا وخسروا يعانون ولكن لو كان ممكنا لأولئك الناس ان يتركوه وشأنه يوما واحدا كأن الأمر لم يحدث بعد كأنه ليس لدى العالم اي شيء ضده بعد عندها سيبدو الأمر كأنه ذهب في رحلة وكبر ليصبح رجلا ثم عاد لو امكن ان يكون الأمر كذلك مدة يوم واحد فقط بعد ذلك لن اتدخل لو كان قد ارتكبها ، فلن اقف بينه وبين ما عليه ان يتحمله مدة يوم واحد فقط .. اترى ما اعنيه ؟ كأنما كان في رحلة وعاد ، وهو سيحكي لي عن الرحلة دون ان يكون اهل الأرض ضده بعد .

www.ibtesama.com/vb

يقول هايتاور بصوته الحاد المرتفع

— اوه

ورغم انه لم يتحرك ، ورغم ان براجم يديه اللتين تمسكان بذراعي الكرسي متوترة وبيضاء . تبدأ بالظهور من تحت ملابسه رجفة بطيئة ومكبوتة يقول

— آه ، اجل هذا كل ما في الأمر هذا بسيط . بسيط بسيط بسيط

من الواضح انه لايستطيع ان يوقف نفسه عن تكرارها

— بسيط بسيط

هذا ما كان يقوله بلهجة خفيضة ثم يرتفع صوته الآن

— ما الذي يريدان مني ان افعله ؟ ما علي ان افعله الآن ؟ يا بايرون ! يا بايرون ؟ ما الأمر ؟ ما الذي يريدانه مني الآن ؟

ينهض بايرون يقف الآن قرب المكتب ، ويداه على المكتب ، في مواجهة هايتاور هايتاور لايزال دون حراك باستثناء تلك الرجفة المتزايدة باطراد في جسده المتهدل

— آه ، اجل كان علي ان اعرف سيكون بايرون هو الذي سيطلب ذلك كان علي ان اعرف . سيترك ذلك لبايرون ولي انا هيا ، هيا قلها لماذا تتردد الآن ؟

ينظر بايرون الى المكتب ، إلى يديه فوق المكتب .

— انه لأمر تافه امر تافه

— آه المؤاساة ؟ بعد كل هذا الزمن الطويل ؟ مؤاساة لي او لبايرون ؟ هيا قلها ما الذي تريد مني ان افعله ؟ انه انت اعرف

www.ibtesama.com/vb

ذلك لقد عرفت ذلك طوال الوقت اه ، يا بايرون يا بايرون كان يمكنك ان تصبح كاتبا مسرحيا هائلا

يقول بايرون

— او ربما تعني ضارب طبل ، وكيلا ، او بائعا متجولا انه لأمر تافه اعرف ذلك لست في حاجة الى ان تخبرني

— ولكني لست عرافا مثلك يبدو عليك انك تعرف مسبقاً ما استطيع ان اقوله لك ، ومع ذلك فأنت لا تريد أن تقول لي ما الذي تنوي ان تطلعي عليه . ما الذي تريدني ان افعله ؟ هل اذهب وادعي اني القاتل ؟ هل هو ذاك ؟

يلتوي وجه بايرون بتلك التكشيرة الخفيفة ، المتلاشية ، الساخرة ، المنهكة ، غير المرحة

— انه قريب منه على ما اعتقد

ثم يعتدل وجهه ، يصبح جديا تماما

— انه لأمر تافه اود ان اطلبه والله يعرف اني اعرف ذلك

يراقب يده البطيئة حيثما تتحرك ، منهمكة وتافهة ، على المكتب

— اتذكر كيف قلت لك مرة ان هناك سعرا للطيبة هو نفسه الذي للشر ؛ سعرا يتوجب دفعه الناس الطيبون هم الذين لا يستطيعون إنكار الفاتورة حين يحل اوانها وهم لا يستطيعون إنكارها لأنه ليست هناك وسيلة لجعلهم يدفعونها ، كرجل شريف يلعب القمار ويمكن للناس الأشرار انكارها ، ولذا لا يتوقع اي شخص منهم ان يدفعوا على الفور او في اي وقت آخر ولكن لا يستطيع الطيبون ذلك وربما يتطلب تسديد فاتورة الطيبة فترة اطول من فاتورة الشر ولكن يكون

www.ibtesama.com/vb

الأمر كما لو انك لم تفعل ذلك من قبل ، لم يسبق لك ان دفعت فاتورة كتلك من قبل لا يجب ان يكون الأمر سيئا جدا الآن كما كان آنذاك

ـ هيا ، هيا ما عليّ ان افعله ؟

يراقب بايرون يده البطيئة التي لا تتوقف متأملا

ـ لم يعترف قط بأنه قتلها وكل الدلائل التي لديهم ضده هي شهادة براون ، وهي لا تساوي شيئا تستطيع ان تقول انه كان هنا معك تلك الليلة كل ليلة يقول براون انه كان يراقبه يصعد الى ذلك المنزل الكبير ويدخل اليه الناس ستصدقك سيصدقون ذلك على اية حال .. سيفضلون بالأحرى ان يصدقوا ذلك فيما يخصك على ان يصدقوا انه كان يعيش معها كزوج ثم قتلها وانت عجوز الآن لن يفعلوا بك اي شيء ضار بسبب ذلك واعتقد انك معتاد على كل شيء آخر يستطيعون فعله

يقول هايتاور

ـ اوه آه اجل سيصدقون ذلك سيكون ذلك بسيطا جدا جيدا جدا . جيدا للجميع ثم سيعود هو الى اولئك الذين عانوا بسببه ، وبراون دون المكافأة سيضطر الى جعل طفلها شرعيا ثم يهرب مرة اخرى الى الأبد هذه المرة عندها ستبقى هي وبايرون فقط وبما اني مجرد رجل عجوز كان محظوظا الى حد كاف ليعيش دون ان يضطر الى ان يعرف يأس الحب

أنه يرتجف باطراد يرفع نظره الآن تحت نور المصباح يبدو وجهه صقيلا كأنه مطلي بالزيت وها هو يشع وقد تلوى وتثنى تحت

www.ibtesama.com/vb

نور المصباح القميص المصفر ، الذي غسل مرات كثيرة وكان نظيفا هذا الصباح ، اصبح رطبا من العرق

يقول

– ليس لأني لا استطيع ، لا اجرؤ على ذلك ، بل لأني لا أريد ! لا أريد ! هل تسمعي ؟

يرفع يديه عن ذراعي الكرسي

– بل لأني لن افعل ذلك !

لا يتحرك بايرون يداه فوق اعلى المكتب قد توقفتا يراقب الآخر مفكرا **إنه لا يصرخ في انا • كانه يعرف أن هناك شيئا ما اقرب إليه مني ليقنعه بذلك** فهايتاور يصرخ الآن

– لا اريد ! لا اريد !

ويداه مرفوعتان ومطبقتان ، ووجهه متعرق ، وشفته مرفوعة فوق اسنانه المتآكلة المطبقة التي كان اللحم المتهدل المترهل منذ فترة طويلة قد تراجع عنها وفجأة يرتفع صوته اكثر يصرخ

– اخرجوا ! اخرجوا من منزلي ! اخرجوا من منزلي !

ثم يتهاوى نحو الأمام ، نحو المكتب ووجهه بين ذراعيه الممدودتين وقبضتيه المطبقتين وبينما يتحرك العجوزان امامه ينظر بايرون الى الخلف من عند الباب فيرى ان هايتاور لم يتحرك ، وكانت رأسه الصلعاء وذرعاه الممدودتان وقبضتاه المطبقتان ممدودة كلها تحت بركة النور من المصباح المظلل ووراء النافذة المفتوحة لم يكن صوت الحشرات قد توقف او تعثر

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل السابع عشر

كانت تلك هي ليلة الأحد . وقد ولد طفل « لينا » في الصباح التالي. كان الوقت فجرا حين أوقف بايرون بغله المسرع امام المنزل الذي كان قد غادره قبل اقل من ست ساعات . قفز الى الأرض وهو يعدو - وهرع الى الممشى الضيق نحو الرواق المعتم . بدا واقفا بمعزل وراح يراقب نفسه ، رغم كل سرعته ، مفكرا بنوع من الدهشة الكئيبة: « بايرون بنتش يولّد طفلا . لو كنت قادرا على رؤية نفسي كما انا الآن قبل اسبوعين لما كنت لأصدق عيني . كنت سأقول لهما انهما تكذبان »

كانت النافذة التي ترك القسيس خلفها قبل ست ساعات معتمة الآن . وبينما هو يركض راح يفكر بالرأس الصلعاء واليدين المطبقتين ، والجسم المنكب المترهل المنحني فوق المكتب . فكر « ولكني اعتقد انه لم يتم كثيرا . حتى لو لم يؤد دور... دور . » لم يستطع ان يفكر بكلمة « القابلة » التي كان يعرف ان هايتاور سيستخدمها . فكّر « اعتقد اني لست مضطرا الى التفكير بها ، كما هو شأن شخص يندفع هاربا من مدفع او مندفعا باتجاهه ، فهو ليس لديه وقت ليشغل

www.ibtesama.com/vb

فكره بالكلمة المناسبة التي تصف ما يفعله ، أهي يا ترى الشجاعة ام الجبن ؟ »

لم يكن الباب مغلقا من الواضح انه كان يعرف انه لن يكون كذلك. لم يكن قد توغل في المنزل ابعد من الغرفة التي رأى فيها صاحب المنزل في آخر زيارة له وقد انحنى على المكتب تحت نور المصباح ولكنه مضى مباشرة تقريبا الى الباب الأيمن كأنه يعرف ، او يرى ، او ينقاد فكر في العتمة المتعثرة المستعجلة « هكذا سيسميه وهي ايضا » كان يعني « لينا » ، المتمددة هناك في الكوخ وقد بدأ المخاض « ولكنهما سيطلقان اسمين مختلفين على من قام بالدور القيادي »

استطاع ان يسمع شخير هايتاور قبل ان يدخل الغرفة فكر « كأنه ليس منزعجا الى حد كبير على اية حال » ثم فكر على الفور « لا ليس هذا صحيحا . ليس هذا عادلا لأني لا اصدق ذلك . اعرف السبب في انه نائم وانا لست نائما ، السبب هو انه رجل عجوز ولا يستطيع ان يتحمل ما اتحمله انا »

اقترب من السرير كان النائم غير المرئي في السرير يشخر بعمق كانت فيه خاصية تتميز بالاستسلام العميق والكامل ليس الانهاك ، بل الاستسلام ، كأنه قد استسلم وارخى القبضة على ذلك المزيج من الاعتزاز والأمل والغرور والخوف ، عن تلك القدرة على التشبث إما بالهزيمة او بالنصر ، التي هي « انا اكون » ، والذي يكون التخلي عنها هو الموت عادة . وقد فكر بايرون ثانية وهو واقف قرب السرير أمر تافه . أمر تافه بدا له الآن ان ايقاظ الرجل من نومه سيكون أكبر ألم يسببه له حتى الآن فكر « ولكن لست انا من

ينتظر . والله اعلم بذلك لأني اعتقد ان الرب كان يراقبني انا ايضا مؤخرا ، كبقيتهم ، ليرى ما سأفعله تاليا »

لمس النائم ، ليس بخشونة ، بل بحزم توقف هايتاور عن الشخير فجأة ، وقد اضطرب بضخامة تحت يد بايرون ثم صحا فجأة قال

— نعم ؟ ماذا ؟ من هذا ؟ من هنا ؟

قال بايرون

— إنه انا هذا بايرون مرة إخرى .. هل صحوت الآن ؟

— نعم .. ماذا

قال بايرون

— نعم تقول هي إنه اوانها لقد آن

— هي ؟

— قل لي اين هو النور السيدة هاينز انها هناك سأذهب لاحضار الطبيب ولكن قد يتطلب هذا بعض الوقت لذا تستطيع ان تأخذ بغلي اعتقد انك تستطيع ان تركب عليه حتى هناك الا يزال كتابك في حوزتك ؟

صر السرير حين تحرك هايتاور

— كتاب ؟ كتابي ؟

— الكتاب الذي استخدمته حين ولد ذلك الطفل الزنجي . لقد اردت ان اذكرك فحسب في حال احتجت الى اخذه معك ، اي إن لم استطع احضار الطبيب في الوقت المناسب البغل هناك عند البوابة

www.ibtesama.com/vb

انه يعرف الطريق   سأمشي حتى البلدة واحضر الطبيب   سأعود الى هناك حالما استطيع

يلتفت ويعبر الغرفة مجددا   يستطيع ان يسمع ويشعر بالآخر يجلس على السرير   توقف في منتصف المسافة فترة كافية ليجد النور المعلّق ويشعله   وحين يضاء النور يكون هو قد سبق له وتحرك نحو الباب   لم ينظر الى الخلف   سمع صوت هايتاور من خلفه

— يا بايرون ! يا بايرون !

ولكنه لم يتوقف ، لم يجب

كان نور الفجر قد تزايد   وقد سار مسرعا على امتداد الشارع الخالي تحت مصابيح الشارع المتباعدة والباهتة والتي لا تزال الحشرات تحوم وتتخبط من حولها   ولكن نور النهار كان يتنامى   وحين وصل الى الساحة كانت واجهة جانبها الشرقي كنحت نافر على السماء

كان يفكر بسرعة   لم يكن قد اجرى اية استعدادات مع الطبيب والآن ، وبينما يمشي راح يشتم نفسه في مزيج من الرعب والغضب الذي يمكن ان يميز اي اب شاب فعلّي ، يشتمها لما يعتقد انه اهمال شديد واجرامي . ولكنه لم يكن بالضبط قلق أب يعرف الأبوة لأول مرة   كان هناك شيء آخر خلف ذلك ، شيء لم يميزه إلا لا حقاً كأنما كان يكمن في ذهنه شيء ما ، مازال محجوبا بالحاجة الى السرعة ، شيء ما كان سينقض بكامل مخالبه عليه . ولكن هذا ما كان يفكر فيه « عليّ ان اقرر بسرعة . لقد ولّد ذلك الطفل الزنجي على النحو الصحيح ، كما قالوا   ولكن هذا مختلف   كان عليّ ان افعل ذلك في الأسبوع الماضي ، ان ارى مقدما الطبيب بدلاً عن الانتظار ، فأنا مضطر الى

www.ibtesama.com/vb

أن أشرح المسألة الآن ، في الدقيقة الأخيرة ، وان ابحث من منزل الى منزل حتى اجد طبيبا يرضي بالقدوم ، ويصدق الأكاذيب التي سأضطر الى ايرادها فلأكن كلبا ان كان الرجل الذي كذب مؤخرا بقدر ما كذبت انا قادرا على ان يتلفظ بكذبة الآن يمكن لأي شخص ان يصدقها ، سواء اكان رجلا ام امراة ولكن لا يبدو اني استطيع اعتقد اني لا استطيع ان اكذب كذبة جيدة.» سار مسرعا ، خطواته جوفاء ووحيدة في الشارع الخالي ؛ كان قد سبق له واتخذ قرارا ، دون ان يكون واعيا بذلك بالنسبة اليه لم يكن هناك اي تناقض او كوميديا فيما يخص المسألة لقد دخلت ذهنه بسرعة كبيرة واصبحت راسخة هناك على نحو ثابت حين اصبح واعيا بها ؛ كانت قدماه قد سبق لهما وراحتا تطيعانه كانتا تأخذانه الى بيت الطبيب نفسه الذي كان قد وصل متأخرا جدا على ولادة الطفل الزنجي والتي تولى الأمر فيها هايتاور وذلك بموساة وكتابه

وقد وصل الطبيب متأخرا جدا أي هذه المرة ايضاً كان على بايرون ان ينتظره حتى يرتدي ملابسه كان رجلا عجوزا الآن ، سريع الاهتياج وساخطا لإيقاظه في مثل تلك الساعة ثم كان عليه ان يبحث عن مفتاح سيارته الذي كان يحتفظ به في صندوق معدني صغير ، ولم يجد مفتاح هذا الصندوق فورا كما لم يسمح لبايرون بكسر القفل . لذا حين وصلا الكوخ اخيرا كان الشرق قد تحلّى بلون ازهار الربيع وكان هناك في الجو لمحة من شمس الصيف السريعة . ومن جديد التقى الرجلان الآن بعد ان اصبحا اكبر سنا ، التقيا عند كوخ مؤلف من غرفة واحدة ، وقد خسر المحترف مرة اخرى امام الهاوي ،

www.ibtesama.com/vb

فقد سمع الطبيب صرخة الطفل لحظة ان دخل من الباب رمش الطبيب باتجاه القسيس ، متذمرا ، ثم قال

— حسنا يا دكتور اتمنى لو ان بايرون اخبرني انه سبق له واستدعاك كان من شأني ان ابقى في السرير

اندفع مارا بالقسيس ودخل

— يبدو أنك اوفر حظا هذه المرة من المرة الماضية التي عملنا فيها معا ولكنك تبدو كأنك في حاجة الى طبيب انت نفسك او ربما انت في حاجة الى فنجان من القهوة

تلفظ هايتاور بشيء ما ، ولكن الطبيب تابع طريقه ، دون ان يتوقف ليستمع دخل الغرفة ، حيث كانت امراة شابة لم يسبق له ان رآها من قبل متمددة ، شاحبة ومنهكة ، على سرير عسكري ضيق ، وامراة عجوز في ثوب ارجواني لم يكن قد سبق له ان رآها من قبل ايضا ، تحمل طفلا في حضنها كان هناك رجل عجوز نائم على سرير آخر في الظل وحين لاحظ الطبيب وجوده قال في نفسه ان الرجل يبدو كالميت فقد كان ينام بعمق وسلام شديدين ولكن الطبيب لم يلاحظ الرجل العجوز فورا ذهب نحو المراة العجوز التي تحمل الطفل قال

— حسنا ، حسنا لاشك ان بايرون كان مستثارا لم يذكر لي قط ان العائلة كلها ستكون متواجدة ، والجد والجدة ايضا

رفعت المراة نظرها اليه فكر « تبدو حية بقدر ما هو حي ، رغم سهرها حتى الآن لا يبدو انها تتمتع بما يكفي من النباهة لتعرف انها ام هذا ناهيك عن كونها جدة »

www.ibtesama.com/vb

قالت المراة

— اجل

رفعت نظرها وهي تنحني فوق الطفل ثم راى ان وجهها لم يكن غبيا أبله لقد راى في الوقت نفسه انه كان هادئا ورهيبا ، كأن الهدوء والرعب قد ماتا منذ زمن طويل وعادا الى الحياة مرة اخرى في آن معا ولكنه لاحظ على نحو أساسي موقفها على الفور على انه كالصخرة وكحيوان جاثم هزت راسها باتجاه الرجل للمرة الأولى ينظر الطبيب اليه ملياً حيث ينام فوق السرير الآخر. قالت هامسة وعلى نحو خادع ومتوتر في آن معا ، وبرعب متلاش

— لقد خدعته قلت له إنك ستأتي من الطريق الخلفية هذه المرة. لقد خدعته ولكنك هنا الآن يمكنك ان تعتني بـ«ميلي» الآن سأعتني انا بـ«جووى»

ثم تلاشى هذا وبينما راح يراقب ، فان الحياة والحيوية تلاشيا ، هربا فجأة من الوجه الذي بدا ساكنا ، متبلد الحس إلى حد لايمكن معه ان يكون قد آوى الحياة قط والآن راحت العينان تستجوبانه بتحديقة خرساء ، عاجزة عن الافصاح ، مربكة ، وهي تنحني فوق الطفل كأنه عرض ان يأخذه منها ربما ايقظته حركتها فقد صرخ صرخة واحدة ثم تلاشى الارتباك ايضا تلاشى بنعومة كظل ؛ نظرت الى الطفل متأملة ، بوجه متخشب ، مضحك قالت

— انه « جووى » انه طفل « ميلي » الصغير

www.ibtesama.com/vb

وقد سمع بايرون ، وهو خارج الباب حيث كان قد توقف مع دخول الطبيب ، سمع الصرخة وحدث له شيء رهيب لقد نادته السيدة هاينز من خيمته كان هناك شيء ما في صوتها لذا ارتدى بنطاله وهو يكاد يعدو ، ومر بالسيدة هاينز ، التي لم تخلع ملابسها اطلاقا ، في باب الكوخ وركض الى داخل الغرفة ثم رآها وقد جعله ذلك يقف ساكنا كجدار كانت السيدة هاينز عند مرفقه ، تتحدث اليه ربما اجابها رد عليها وعلى اية حال فقد كان قد أسرج البغل وكان قد سبق له وراح يخب به نحو البلدة بينما بدا عليه انه لايزال ينظر اليها ، الى وجهها وهي مستلقية وقد رفعت نفسها على ذراعيها فوق السرير ، تنظر الى شكل جسدها تحت الشرشف بعويل ورعب يائس لقد رأى ذلك طوال الوقت الذي كان يوقظ فيه هايتاور ، وطوال الوقت الذي كان يساعد فيه الطبيب على الحضور ، بينما كان كامنا في مكان ما فيه الشيء ذو البراثن ، وقد راح ينتظر ، واعتقد انه كان اسرع من ان يمنحه وقتا للتفكير كان ذاك هو الأمر فكرة اسرع من التفكير ، حتى عادا هو والطبيب الى الكوخ ثم ، خارج الباب بالذات حيث توقف ، سمع الطفل يصرخ مرة واحدة وحدث شيء رهيب له (لبايرون)

لقد عرف الآن ما هو ذاك الشيء ذو البراثن الذي كان كامنا ومنتظرا وهو يعبر الساحة الفارغة باحثا عن الطبيب الذي نسي أن يتعاقد معه كان يعرف الآن لماذا اهمل التعاقد مع طبيب سلفا لأنه ما كان يعتقد حتى نادته السيدة هاينز من خيمته انه (هي) سيحتاج الى طبيب ، انه سيكون هناك حاجة بدا وكأن عينيه كانتا قد قبلتا

www.ibtesama.com/vb

ببطنها خلال الأسبوع الأخير دون ان يصدق عقله ذلك فكر « ومع ذلك فقد عرفت ، صدقت لابد واني عرفت ، حتى فعلت ما فعلته الركض والكذب واقلاق الناس » ولكنه راى الآن انه لم يصدق حتى مر بالسيدة هاينز ونظر الى داخل الكوخ حين اخترق صوت السيدة هاينز نومه لأول مرة ، كان يعرف ما الأمر ، ما الذي حدث نهض وارتدى ملابسه ، اوفرولاً سريعاً ، الحاجة الى السرعة ، وهو يعرف السبب ، يعرف انه كان يتوقع حصول ذلك طيلة الليالي الخمس الأخيرة ومع ذلك لم يصدق كان يعرف الآن انه حين ركض الى الكوخ ونظر الى داخله ، كان يتوقع ان يراها جالسة في سريرها ، او ربما ان يقابلها عند الباب ، هادئة ، غير متغيرة ، خالدة ولكنه حتى حين لمس الباب بيده سمع شيئا ما لم يسبق له ان سمعه من قبل كان عويلا ناتحا ، عاليا ، ذا نوعية انفعالية ومقنطة في آن معا ، بدا له كأنه يخاطب بوضوح شيئا ما وبلغة كان يعرف انها لم تكن لغته ولا لغة اي انسان آخر ثم مر بالسيدة هاينز في الباب ورآها ممددة على السرير لم يكن قد سبق له ورآها في الفراش من قبل وكان يعتقد انه حين سيراها او اذا رآها في الفراش ، ستكون هي متوترة ، متنبهة ، وربما تبتسم قليلاً ، وعلى وعي كامل به ولكنه حين دخل لم تنظر هي اليه بل لم يبد عليها حتى انها ادركت بأن الباب قد فتح ، وانه كان في الغرفة اي شخص أو أي شيء سواها هي وسوى ذلك الشيء — ايا كان — الذي خاطبته بتلك الصرخة المعقولة بلسان يجهله البشر كانت مغطاة حتى الذقن ، ومع ذلك فقد كان الجزء العلوي من جسدها مرفوعا على ذراعيها وكانت رأسها

www.ibtesama.com/vb

محنية كان شعرها حرا وتبدو عيناها كجورتين وفمها شاحبا الآن كالوسادة التي خلفها ، وبينما بدت في ذلك الوضع الذي يدل على الانزعاج والدهشة كأنها تتأمل بنوع من اللاتصديق الغاضب في شكل جسدها تحت الأغطية ، بدرت عنها مرة أخرى تلك الصرخة المعولة العالية المقنطة لم تكن السيدة هاينز منحنية فوقها التفتت برأسها بذلك الوجه الخشبي ، عبر كتفها الأرجواني قالت « اذهب اذهب واجلب الطبيب لقد آن الأوان »

لايتذكر انه ذهب الى الاصطبل اطلاقا ولكن ها هو يمسك ببغله ، يخرج السرج ويضعه عليه كان يعمل بسرعة ، ولكن التفكير كان بطيئا الى حد كاف وقد عرف السبب الآن عرف الآن أن التفكير كان يمضي بطيئا وسهلا مع حسبان ، كما ينتشر الزيت ببطء فوق سطح على عاصفة آخذة بالتشكل فكر « لو كنت اعرف آنئذ لو كنت اعرف آنئذ لو استوعبت الأمر آنئذ » فكر بهذا بهدوء ، في يأس مشدوه وندم « اجل كنت سأدير ظهري وانطلق في الاتجاه المعاكس.سأبتعد ما الى وراء معرفة الانسان وذاكرته الى ابد الآبدين على ما اعتقد » ولكنه لم يفعل ذلك مر بالكوخ خببا ، والتفكير يسير سهلا ومطردا ، ودون ان يعرف السبب بعد فكر « لو استطيع ان ابتعد عن السمع قبل أن تصرخ هي مرة أخرى لو أستطيع الابتعاد قبل أن أضطر الى أن أسمعها مرة أخرى » وقد حمله ذلك لفترة ، الى الطريق ، والحيوان الضئيل قاسي العضلات يسرع الآن ، مفكرا ، الزيت ، منتشرا باضطراد وسهولة « سأذهب الى هايتاور أولا سأترك له البغل علي أن أتذكر أن أذكره بالكتاب الطبي

www.ibtesama.com/vb

يجب ألا أنسى ذلك » بعد التفكير بالزيت الذي أوصله الى هناك الى حيث قفز عن البغل الذي لا يزال يعدو ونحو منزل هايتاور ثم كان هناك شيء آخر لديه « الآن تم هذا » ، مفكرا **حتى لو لم أستطع احضار طبيب نظامي** وقد أوصله هذا الى الساحة ثم خانه استطاع أن يشعر به ، مبرتنا بالكمون ، مفكرا **حتى لو لم أحضر طبيباً نظامياً لأني لم أكن أصدق أني سأحتاج إليه ، لم أصدق** كان ذلك في ذهنه ، يخب في مفارقة مزدوجة ومقهورة مع الحاجة الى السرعة وهو يساعد الطبيب العجوز على ايجاد مفتاح الصندوق حتى يحصل على مفتاح السيارة وأخيرا وجداه ، وكانت الحاجة الى الاسراع لفترة من الزمن تمضي يداً بيد مع الحركة ، السرعة ، على امتداد الطريق الفارغة تحت الفجر الخالي ذلك أو هو قد سلّم كل الواقع ، كل الخوف والخشية ، الى الطبيب الذي الى جانبه ، كما يفعل الناس وعلى أية حال فقد أعاده ذلك الى الكوخ ، حيث غادرا كلاهما السيارة واقتربا من باب الكوخ ، الذي كان المصباح وراءه لايزال مضاء خلال تلك الفترة ركض في الفجوة النهائية للطمأنينة قبل سقوط الضربة وأمسك به الشيء المبرتن من الخلف ثم سمع صرخة الطفل ثم عرف كان الفجر يسرع وقف بهدوء في الطمأنينة الباردة ، الهدوء المستيقظ الضئيل ، عسير الوصف ، الذي لم يلتفت أي رجل أو امرأة لينظر اليه مرتين قط كان يعرف الآن أنه كان هناك شيء ما طوال الوقت كان يقيه التصديق ، والتصديق يقيه وبدهشة صارمة وحازمة فكر **كان الأمر كأنه لم يكن حتى نادت السيدة هاينز علي وسمعتها ورأيت وجهها وعرفت أن بايرون بنتش لم يكن شيئاً في هذا العالم بالنسبة**

www.ibtesama.com/vb

إليها آنذاك ، وأني اكتشفت أنها ليست عذراء وقد فكر في أن ذلك كان رهيبا ، ولكن لم يكن ذلك كل ما في الأمر كان هناك شيء ما آخر لم تكن رأسه مطأطئة وقف بهدوء في الفجر المتزايد بينما راح التفكير يتحرك بهدوء وهذا أيضاً تحتفظ به لأجلي كما يقول الموقر هايتاور سأضطر إلى إبلاغه الآن ،سأضطر إلى ابلاغ لوكاس بيرتش لم تكن تلك مجرد لا دهشة الآن كانت شيئا ما أشبه باليأس الرهيب الذي لا شفاء منه لفترة المراهقة عجباً ، لم أصدق حتى الآن أنه هكذا كأنما أنا وهي وكل الناس الآخرين الذين اضطررت إلى أن أورطهم في المسألة ، كنا مجرد عدد كبير من الكلمات التي لم تعن أي شيء قط ، ولم تكن حتى نحن ، بينما كان الذي هو نحن يستمر ويستمر دون أن يفتقد حتى قلة الكلمات أجل لم أصدق حتى الآن أنه هو لوكاس بيرتش أنه كان هناك إطلاقاً لوكاس بيرتش

* * *

يقول هايتاور

ـ الحظ الحظ لا أعرف ان كنت أتمتع به أم لا

ولكن الطبيب كان قد دخل الكوخ نظر هايتاور الى الخلف للحظة أخرى ، وراح يراقب المجموعة التي من حول السرير ، ولا يزال يسمع صوت الطبيب المرح تجلس العجوز الآن بهدوء ، ولكن استرجاع الأمور يجعله يراها منذ لحظة وهي تناضل معه لإخراج الطفل ، حتى لا تسقطه في رعبها الأخرس الغاضب ولكنها لم تكن أقل غضبا لكونها خرساء ، اذا اختطفت الطفل من جسم أمه تقريبا ورفعته عاليا ، وجسدها الثقيل الدبي يجثم وهي تحدق في الرجل العجوز النائم على

www.ibtesama.com/vb

السرير كان لايزال نائما حين دخل هايتاور لم يبد عليه أنه يتنفس اطلاقا ، وقرب السرير كانت المرأة تجثم في كرسي حين دخل بدت بالضبط كصخرة على جرف مهيئة للانهيار ، وقد فكر هايتاور للحظة لقد سبق لها وقتلته .لقد اتخذت احتياطاتها جيداً وعلى نحو مسبق هذه المرة ثم كان مشغولا تماما كانت العجوز عند مرفقه دون أن يحس بذلك حتى اختطفت الطفل الذي لا يزال دون تنفس ورفعته عاليا ، وهي تحدق في العجوز النائم على السرير الآخر بوجه نمر ثم تنفس الطفل وبكى ، وبدت المرأة كأنها تجيبه ، رغم أن ذلك كان بلغة مجهولة ، وحشية ومنتصرة كان وجهها يوحي بالجنون تقريبا وهو يناضل معها ثم أخذ الطفل منها قبل أن توقعه قال « انظري إنه هادىء لن يأخذه منك هذه المرة » ومع ذلك ظلت تحدق اليه ، خرساء ، حيوانية ، كأنها لا تفهم الانكليزية . ولكن الجنون ، الانتصار ، قد غادرا وجهها أصدرت صوتا خشنا ذا أنين وتلمست الطفل برقة وهي تجلس الآن وتضعه في حضنها بينما الطبيب الذي وصل متأخرا جدا يقف قرب السرير ، متكلما بصوته المرح النزق بينما يداه منهمكتان يلتفت هايتاور ويخرج ويهبط بحذر الدرجة المكسورة ، حتى يصل الى الأرض كرجل عجوز ، كأنما كان هناك شيء في كرشه المترهل قاتل ومعدل على نحو شديد ، كالديناميت لم يعد الوقت فجرا الآن ، انه الصباح الشمس بازغة ينظر فيما حوله ، يتوقف ينادي « يا بايرون » لا جواب ثم يرى أن البغل الذي كان قد ربطه الى عمود السياج قريبا من المنزل قد رحل هو أيضا يتنهد يفكر « حسنا » اذن فقد وصلت الى المرحلة حيث يكون

www.ibtesama.com/vb

تتويج الاهانات التي علّي تحملها على يد بايرون هو أن أسير على قدمي مسافة ميلين عائدا الى البيت هذا ليس جديرا ببايرون ، بالحقد ولكن أفعالنا ليست جديرة على الأغلب . ولا نحن جديرين بأفعالنا »

يعود سيرا على قدميه الى البلدة ، ببطء ، رجل مضى ذو كرش في قبعه خفيفة قذرة من القش وذيل قميص نومه القطني الخشن محشور في بنطاله الأسود يفكر « من حسن الحظ أني تمهلت حتى لبست حذائي أنا متعب » هكذا يفكر متذمرا « أنا متعب ، ولن اكون قادرا على النوم » يفكر بذلك متذمرا ، منهكا ، ولكنه يواصل السير على قدميه الشمس عاليه الآن ، والبلدة قد استيقظت يشم رائحة الدخان هنا وهناك وهو يتصاعد من طبخ طعام الافطار يفكر « أقل شيء كـــان يمكنه أن يفعله طالما لم يترك لي البغل هو أن يسبقني ويشعل لي نارا في موقدي طالما أنه يظن أن مشوارا طوله ميلان قبل الطعام أمر جيد لشهيتي »

يذهب الى المطبخ ويشعل نارا في الموقد ، ببطء على نحو أخرق ، أخرق بعد خمسة وعشرين عاما كما كان أخرق في أول يوم حاول فيه ذلك ، ثم يضع القهوة على النار ، يفكر « ثم سأعود الى الفراش ولكني أعرف أني لن أنام» ولكنه يلاحظ أن تفكيره يبدو كثير الشكوى ، كالانتحاب الهادىء لامرأة كثيرة الشكوى لا تصغي حتى الى نفسها ؛ ثم يجد نفسه وقد راح يحضر فطوره العادي المشبع ، ويتوقف تماما ، وهو يقرقع بلسانه كأنما بامتعاض يفكر « كان يتوجب أن أشعر أني في حال أسوأ مما أنا عليه الآن » ولكن عليه أن يقر بأنه لا يشعر بذلك أني في حال اسوأ مما أنا عليه الآن »

www.ibtesama.com/vb

ولكن عليه أن يقر بأنه لا يشعر بذلك . وبينما يقف ، طويلا ، مشوها وحيدا في مطبخه الوحداني غير المرتب ، ممسكا بيده مقلاة حديدية اتخذ فيها دهن البارحة القديم شكل كتلة متراصة كئيبة ، يعبر به وهج ما ، موجة ، اندفاعة لشيء يكاد يكون حارا ، بل ومنتصرا تقريبا يفكر « لقد أريتهم ! لا زالت الحياة تأتي إلى الرجل العجوز حتى الآن ، بينما يصلون هم متأخرين جدا ، يصلون من أجل فضلاته كما من شأن بايرون أن يقول » ولكن هذا غرور وتبجح فارغ ومع ذلك فان التوهج البطيء والمتلاشي يتجاهله ، انه منيع على التأنيب يفكر وماذا لو شعرت ؟ ماذا لو شعرت بذلك ؟ بالنصر والافتخار ؟ وماذا لو حدث ذلك ؟ » ولكن الدفء ، التوهج ، لايأخذ ، وهذا جلي ، الدعم في الاعتبار ولا هو يحتاج اليه ؛ ولا هو يطفىء غثيانه بواقعية البرتقالة والبيض والخبز المحمص ثم ينظر الى الأطباق المتسخة والفارغة على الطاولة ويقول بصوت مرتفع الآن « بارك الله في روحي حتى أني لن أغسلها » وهو لا يذهب الى غرفة نومه ليحاول النوم يذهب الى الباب وينظر الى الداخل ، بتوهج العزيمة والافتخار ، مفكرا « لو كنت امرأة الآن هذا ما كانت ستفعله امرأة تعود الى السرير لترتاح » يذهب الى غرفة مكتبه يتحرك كرجل ذي عزيمة الآن ، رجل لم يفعل أي شيء طوال خمسة وعشرين عاما بين وقت الاستيقاظ ووقت النوم مرة أخرى ولا الكتاب الذي يختاره الآن هو لتنيسون هذه المرة يختار أيضا غذاء لرجل يختار « هنري الرابع(١) » ويخرج الى الفناء الخلفي ويتمدد على الكرسي المتهدل

---

(١) مسرحية شكسبير (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

الخاص بالسفن تحت شجرة التوت ، متهاويا بقوة فيه . يفكر « ولكني لن استطيع النوم ، لأنه سرعان ما سيأتي بايرون ليوقظني ولكن معرفة ما هو الشيء الآخر الذي يستطيع هو أن يفكر في أنه قادر على فعله تستحق الايقاظ »

ينام سريعا ، على الفور تقريبا ، ويشخر ... وأي شخص يتوقف لينظر الى الكرسي كان سيرى تحت التحديقة التوأم للسماء في النظارات ، وجها بريئا ، هادئا ، واثقا ولكن لا يأتي أحد ، رغم أنه حين يستيقظ بعد ست ساعات تقريبا ، يبدو عليه أنه يصدق أن شخصا ما قد ناداه يجلس فجأة ، والكرسي يصر من تحته يقول « نعم ؟ نعم ؟ ما الأمر ؟ » ولكن ليس هناك أحد ، رغم أنه يتلفت فيما حوله مدة دقيقة أخرى ، وقد بدا عليه أنه يصغي وينتظر ، بذلك المظهر الذي يدل على الفعالية والثقة والتوهج لم يول أيضا يفكر « رغم أني أملت أن أنام » يفكر فورا « لا لا أعني « أملت » ان الذي في فكري هو « خشيت » واذن فقد استسلمت أيضا » لا زال يفكر بهدوء حتى الآن يبدأ بفرك يديه ، بلطف أولا ، وببعض الشعور بالاثم « لقد استسلمت أيضا وسوف أتيح لنفسي أجل ربما كان هذا أيضا محتفظا به لأجلي لذا سأتيح ذلك لنفسي » ثم يقولها . يفكر بها ذلك الطفل الذي ولدت ليس لدي سمي . ولكني عرفت ، قبل الآن أن الأم الممتنة تطلق على الطفل اسم الطبيب الي ولده ولكن هناك بايرون وطبعاً سيكون له حق التقدم علي سيكون عليها ان تلد آخرين ، المزيد متذكراً الجسد الشاب القوي الذي شع من مخاضه شيء ما هادىء وغير هياب المزيد منهم . كثيرون آخرون

www.ibtesama.com/vb

ستكون تلك حياتها ، مصيرها العنصر الطيب يمنح سكاناً للأرض الطيبة في إذعان هادىء لها ؛ ومن هذا الفرج المعافى دون إسراع ، أو عجلة ستنزل الأم والابنة ولكنها ستحبل من بايرون في المرة التالية يا للشاب المسكين . حتى لو أنه تركني أعود مشياً إلى البيت

يدخل المنزل يحلق ثم يخلع قميص النوم ويرتدي القميص الذي سبق أن ارتداه البارحة ، وياقة وربطة عنق من الشاش وقبعة القش السير حتى الكوخ لم يستغرق من الوقت بقدر ما استغرقته رحلة العودة الى البيت ، رغم أنه ذهب هذه المرة عبر الغابات حيث المشي أصعب يفكر « علي أن أفعل هذا مرات أكثر » وهو يشعر بالشمس المتقطعة ، بالحرارة ، ويشم رائحة الأرض الوحشة الخصبة والغابات والصمت الصاخب « عليّ ألا أفقد هذه العادة أيضا ولكن ربما سيعودان كلاهما الي ، ان لم تكن هذه شأنها شأن الصلاة »

يخرج من الغابات عند الطرف الأقصى من المرعى خلف الكوخ وراء الكوخ يستطيع أن يرى أجمة الأشجار التي كان المنزل قد شيد واحترق ضمنها ، رغم أنه لا يستطيع أن يرى هنا البقايا المسودة والبكماء لما كان مرة ألواحا وأعمدة يفكر « يا لها من امرأة مسكينة امرأة عاقر مسكينة ألا تعيش أسبوعا واحدا آخر ريثما يعود الحظ الى هذا المكان ريثما يعود الحظ والحياة الى هذه الاراضي المجدبة والمدمرة » يبدو له أنه يستطيع أن يرى ، يشعر فيما حوله بأشباح الحقول الخصبة ، والحياة السوداء الخصبة الولودة للمساكن ، الصرخات الرخيمة ، حضور النساء الولودات ، والأطفال العرايا الكثر في التراب أمام الابواب ، والمنزل الكبير مرة أخرى ، صاخبة ، مدوية بالأصوات

www.ibtesama.com/vb

العالية الثلاثية للأجيال يصل الى الكوخ لا يقرع الباب يفتح الباب بيده وينادي بصوته المرح الذي يكاد يدوي

– هل يُسمح للطبيب بالدخول ؟

الكوخ فارغ باستثناء الأم والطفل رآها تجلس في السرير وقد أسندت نفسها ، والطفل على صدرها ومع دخول هايتاور ، تكون هي آخذة بجذب الشرشف الى الأعلى فوق صدرها العاري ، وقد راحت تراقب الباب دون أي انزعاج ، ولكن بيقظة ، ووجهها ثابت على تعبير هادىء ودافىء ، كأنها على وشك الابتسام ، يرى الابتسامة تبهت تقول

-- ظننت

يقول بصوت مدو

– من ظننت ؟

يقترب من السرير وينظر اليها من على ، الى الوجه الصغير الواهن الذي يبدو كأنه يتشبث معلقا من الثدي دون جسد ، وهو لا يزال نائما ومن جديد تجذب الشرشف على نحو أكثر احكاما ، بتواضع وهدوء ، بينما كان يقف من فوقها الرجل المضي المكرش الأصلع وعلى وجهه تعبير لطيف مشع ومنتصر تنظر هي الى الطفل .

– يبدو كأنه لا يستطيع تعلم الرضاعة أعتقد أنه قد نام مجددا فأضعه على السرير فيصرخ وعليّ أن أرضعه مرة أخرى .

يقول

– كان عليك ألا تبقي هنا لوحدك

ينظر فيما حول الغرفة ثم يقول

www.ibtesama.com/vb

– أين

– لقد رحلت هي أيضا الى البلدة لم تذكر الى أين . لقد انسل هو خارجا ، وحين استيقظت هي سألتني عنه فقلت لها انه خرج ولحقت هي به

– الى البلدة ؟ انسيل ؟

ثم يقول بهدوء

– أوه

وجهه جدي الآن

– كانت تراقبه طوال اليوم وكان هو يراقبها كان ذلك واضحا لي كان يتصنع النوم وقد ظنته نائما لذا استسلمت بعد العشاء للنوم لم تكن قد ارتاحت في أي من الليالي الأخيرة ، وبعد العشاء جلست في السرير وأغفت وكان هو يراقبها ، وقد نهض من السرير الآخر ، بحذر وهو يغمز لي ويرمش بعينيه ذهب الى الباب وهو لايزال يرمش ويغمز لي من فوق كتفه ، وخرج على رؤوس أصابعه ولم أحاول ايقافه ولا ايقاظها

تنظر الى هايتاور بعينين جديتين واسعتين

لم أجرؤ على ذلك انه يتكلم على نحو مضحك وتلك الطريقة التي كان ينظر بها الي كأنما لم يكن كل الرمش والغمز لي حتى لا أوقظها، بل وليخبرني ما سيحدث لي لو فعلت وقد خفت . لذا بقيت ممددة هنا مع الطفل وسرعان ما استيقظت هي على نحو مفاجىء ثم عرفت أنها لم تكن تنوي أن تنام لقد استيقظت وهرعت الى السرير الذي كان ينام عليه ، ولمسته كأنها لم تستطع أن تصدق أنه هرب فعلا

www.ibtesama.com/vb

فقد وقفت هناك عند السرير ، وهي تعبث بالبطانية كأنها ظنت أنه قد اختفى منها على نحو ما ثم نظرت الي ، مرة واحدة . ولم تكن ترمش وتغمز ، ولكني تمنيت لو فعلت ثم سألتني وقلت لها فارتدت قبعتها وخرجت

تنظر الى هايتاور

— أنا سعيدة بذهابها أعتقد أن علي الا أقول ذلك بعد كل ما فعلته من أجلي ولكن

يقف هايتاور وهو ينظر الى السرير من فوق لا يبدو عليه أنه يراها وجهه جدي تماما كأن وجهه شاخ عشر سنوات أخرى وهو واقف هناك أو كأن وجهه يبدو الآن كما يتوجب عليه أن يظهر وأنه حين دخل الغرفة كان الوجه غريبا تجاه ذاته . يقول « الى البلدة ». ثم تستيقظ عيناه فيبصر ثانية يقول « حسنا لا يمكن فعل أي شيء الآن وعلاوة على ذلك ، فان الرجال في البلدة ، العاقلون ستكون هناك قلة منهم لماذا أنت سعيدة برحيلهما ؟ »

تخفض بصرها تتحرك يدها من حول رأس الطفل ، دون أن تلمسها ايماءة غريزية ، لا حاجة اليها ، غير واعية بنفسها على نحو واضح

— كانت لطيفة أكثر من لطيفة كانت تحمل لي الطفل حتى أستطيع أن أرتاح تريد أن تحمله طوال الوقت وهي جالسة هناك على ذلك الكرسي ... عليك أن تعذرني لم أدعك للجلوس ولو مرة واحدة

تراقبه وهو يجر الكرسي حتى السرير ويجلس

www.ibtesama.com/vb

— جالسة هناك من حيث تستطيع أن تراقبه وهو على السرير ، وهو يدعي أنه نائم

تنظر الى هايتاور وعيناها تستفسران ، وفيهما تصميم

— كانت تدعوه « جووي » واسمه ليس « جووي » ولكنها ظلت تدعوه كذلك

تراقب هايتاور عيناها حائرتان الآن ، مستفسرتان ، شكاكتان

— ظلت تتحدث عن انها مشوشة على نحو ما وأحيانا أتشوش أنا أيضا ، وأنا أصغي

عيناها ، كلماتها ، تتلمس ، تتعثر

— مشوشة ؟؟

— ظلت تتحدث عنه كأن أباه هو ذاك الذي في السجن ، السيد كريسماس ذاك لقد واظبت على ذلك ثم تشوشت أنا وأصبحت لا أستطيع أحيانا كأني تشوشت أنا أيضا فأصبحت أظن أنا أيضا أن أباه هو ذلك السيد السيد كريسماس

تراقبه كأنها تبذل جهدا هائلا نوعا ما

— ولكني أعرف أن الأمر ليس كذلك أعرف أن هذا سخيف ولكن لأنها ظلت تقوله وتردده ، وربما لأني لم أسترجع عافيتي جيدا بعد ، فتشوشت أنا أيضا ولكني أخشى

— مم ؟

— لا أحب أن أتشوش وأخشى أن تشوشني هي ، أن يحدث لي ما يحدث لبعض الناس الذين يحولون عيونهم ثم لا يستطيعون أن يعيدوها الى طبيعتها

تتوقف عن النظر اليه . لا تتحرك . تستطيع أن تشعر به يراقبها

www.ibtesama.com/vb

– تقولين ان اسم الطفل ليس « جو » ما اسمه ؟

لا تنظر إلى هايتاور مدة دقيقة أخرى ثم ترفع بصرها اليه تقول على الفور وبسهولة شديدة

– لم أسمه بعد

وهو يعرف السبب كأنه يراها الآن للمرة الأولى منذ أن دخل يلاحظ لأول مرة أن شعرها قد مشط مؤخرا وأنها قد نضرت وجهها قليلا أيضا ، ويرى مشطا وشظية من مرآة مكسورة نصف مخفيين تحت الشرشف ، كأنها دفعت بهما على عجل وهو يدخل .

– حين دخلت كنت تتوقعين قدوم شخص ما ولم يكن ذلك الشخص أنا من كنت تتوقعين أن يأتي ؟

لا تشيح بنظرها بعيدا وجهها لا هو بالبريء ولا هو بالمنافق لا هو بالهادىء ولا هو بالرائق

– أتوقّع ؟

– هل كان بايرون بنتش هو الذي تتوقعين قدومه ؟

ما زالت لا تشيح بنظرها . وجه هايتاور جدي ، صارم ولطيف ولكن فيه تلك القسوة التي رأتها في وجوه قلة من الناس الطيبين ، الرجال منهم عادة ، الذين عرفتهم حتى الآن ينحني نحو الأمام ويضع يده على يدها حيث تمسك بجسد الطفل . يقول

– بايرون رجل طيب

– أعتقد أني أعرف ذلك ، كما يعرفه الجميع أعرفه أكثر من معظم الناس

– وأنت امرأة طيبة وستكونين كذلك لا أعني

www.ibtesama.com/vb

هذا ما يقوله بسرعة ، ثم يتوقف عن الكلام

— لم أعن

تقول هي

— أعتقد اني أعرف

— لا ، ليس هذا هذا لا أهمية له هذا لا شيء بعد . كل شيء يعتمد على ما تفعلينه ، لا حقاً بنفسك بالآخرين

ينظر اليها انها لا تشيح بنظرها

— دعيه يذهب أبعديه عنك

يتبادلان النظر

— أبعديه يا ابنتي سنك قد لا تزيد ربما عن نصف سنه ولكن سبق لك وعمرت أكثر منه بمرتين لن يستطيع اللحاق بك ، مجاراتك ، فقد هدر كثيرا من الزمن وهذا أيضا ، هذا اللاشيء ، أمر لا سبيل الى معالجته شأنه شأن كل شيء خاصتك لم يعد يستطيع الآن أن يطرح نحو الخلف وينفذ أكثر مما تستطيعين أنت أن تطرحي نحو الخلف وتبطلي لديك صبي ليس ابنه ، من رجل آخر ستقتحمين على حياته رجلين والجزء الثالث فقط من امرأة ، وحياته تستحق على الأقل أن يتم انتهاك اللاشيء الذي عاش فيه مدة خمسة وثلاثين عاما ، اذا كان لابد من انتهاكه ، دون شاهدين أبعديه عنك

— ليس هذا من شأني انه حر اسأله لم أحاول مرة واحدة أن أتمسك به

— هذا هو الأمر ربما ما كنت تستطيعين التمسك به لو حاولت هذا هو الأمر لو أنك عرفت كيف تحاولين ولكن لو عرفت ذلك

www.ibtesama.com/vb

لما كنت هنا الآن في هذا السرير وهذا الطفل على صدرك . ألن تبعديه ؟ ألا تستطيعين قول ذلك ؟

— لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلت وقد قلت « لا » له قبل خمسة أيام

— لا ؟

— طلب مني أن أتزوجه ألا أنتظر وقلت « لا »

— هل ستقولين « لا » الآن ؟

تنظر اليه بثبات

— نعم سأقولها الآن

يتنهد ، ضخما ، عديم الشكل وجهه يتهدل ثانية انه منهك

— أصدقك ستستمرين في قول ذلك حتى بعد أن ترى

ينظر اليها مجددا ، ومن جديد فان تحديقته مصممة وقاسية

— أين هو ؟ بايرون ؟

تنظر اليه وبعد برهة تقول بهدوء

— لا أعرف

تنظر اليه وفجأة يصبح وجهها فارغا تماما ، كأن شيئا ما كان يمنحه الصلابة والاكتناز قد بدأ يرشح منه . والآن لا يوجد أي تظاهر أو تنبه أو حذر فيه

— في هذا الصباح عاد في حوالي العاشرة لم يدخل بل وصل الى الباب ووقف هناك ونظر الي فحسب ولم أكن قد رأيته منذ الليلة

www.ibtesama.com/vb

الماضية وهو لم ير الطفل وقلت « ادخل وانظر اليه » ، وقد نظر الي ، واقفا عند الباب ، وقال « لقد جئت لأعرف متى تريدين رؤيته » ، فقلت « أرى من ؟ » فقال « ربما سيضطرون الى ارسال نائب المأمور معه ولكني أستطيع اقناع « كنيدي » بأن يسمح له بالقدوم » وقلت « يسمح لمن ؟ » وقال « لوكاس بيرتش » ، وقلت « نعم » وقال هو « هذا المساء ؟ هل هذا مناسب ؟ » فقلت « نعم » ، ثم مضى لقد وقف هناك فحسب ثم مضى بعيدا

وبينما راح يراقبها بذلك اليأس من كل الرجال في حضور دموع الأنثى ، تبدأ هي بالبكاء تجلس منتصبة ، والطفل على صدرها ، وهي تبكي ، ليس بصوت مرتفع وليس بشدة ، ولكن بقنوط صابر ويائس ، دون أن تخفي يأسها

— وأنت ترهقني باستفسارك ان كنت سأقول « لا » أم لا أقولها ، وأنا التي سبق لها وقالت « لا » وأنت ترهقني وترهقني وهو قد سبق له ورحل لن أراه مرة أخرى

ويجلس هو هناك وتحني هي رأسها أخيرا ، وينهض هو ويقف قربها ويده على رأسها المحنية ، مفكرا **الحمد لله ، ليكن الله في عوني الحمد لله ، ليكن الله في عوني**

* * *

وجد ممر كريسماس القديم عبر الغابات حتى ورشة النشر لم يكن يعرف بوجوده ولكنه حين اكتشف اتجاهه ، بدا له ذلك كفأل حسن وهو الشاعر بالانتشاء انه يصدقها ، ولكنه يريد أن يتأكد من هذه المعلومات من أجل المتعة الخالصة المستمدة من سماعها مرة أخرى

www.ibtesama.com/vb

انها الساعة الرابعة فقط حين يصل الى الورشة يسأل في المكتب عن بنتش

يقول كاتب الحسابات

— بنتش ؟ لن تجده هنا لقد ترك العمل هذا الصباح

يقول هايتاور

— أعرف ، أعرف

— لقد عمل في الشركة سبع سنوات ، بما فيها أمسيات السبت ولكنه دخل هذا الصباح وقال انه يريد ترك العمل دون سبب ولكن هذه هي طريقة هؤلاء الجبليون

يقول هايتاور

— أجل ، أجل ولكنهم رائعون على أية حال الرجال منهم والنساء

يغادر المكتب الطريق الى البلدة تمر بالمسحجة حيث اعتاد بايرون العمل انه يعرف « موني » رئيس العمال يقول وهو يتوقف

— لقد سمعت أن بايرون بنتش لم يعد يعمل معكم

يقول موني

— أجل لقد تركنا هذا الصباح

ولكن هايتاور لا يصغي يراقب الرجال المرتدين للأوفرولات ، الرجل الأشعث الشاذ المظهر ذو الشكل غير المألوف وهو ينظر بنوع من الاهتمام المنتشي الى الجدران والألواح والآلات الملغزة التي ما كان يمكنه فهم أو تعلم كينونتها والهدف منها . يقول « موني »

— اذا أردت أن تراه فأعتقد أنك ستجده في البلدة في دار المحكمة

www.ibtesama.com/vb

– في دار المحكمة ؟

– نعم يا سيدي فهيئة المحلفين الكبرى ستجتمع هذا اليوم لقد تم استدعاؤها خصيصا وذلك لإدانة ذلك القاتل

يقول هايتاور

– أجل ، أجل اذن فهو قد رحل أجل شاب رائع طاب يومكم ، طاب يومكم أيها السادة طاب يومكم

يستأنف السير بينما يتابعه الرجال المرتدون للأوفرولات بأنظارهم لفترة من الوقت يداه مشبكتان من خلفه يستمر في المشي مفكرا بهدوء وسلام وحزن « يا للرجل المسكين يا للشخص المسكين لا يمكن ولا يجوز تبرير فعلة أي انسان حين يزهق روحا بشرية ، وعلى الأخص ان كان هذا الانسان شرطيا مفوضا ، خادما محلفا لأقرانه من البشر وان جرى ذلك بموافقة علنية في شخص مأمور منتخب يعرف انه لم يعان هو نفسه على يد ضحيته ، وسم تلك الضحية بأي اسم شئت ، فكيف نتوقع من فرد أن يحجم حين يؤمن أنه قد عانى على يد ضحيته « هو » ؟ يستمر في السير . الآن هو في شارعه . سرعان ما يستطيع رؤية سياجه ، واللافتة ، ثم المنزل خلف خضرة آب الغنية « اذن فقد رحل دون أن يأتي ليودعي ، بعد كل ما فعله من أجلي جلبه لي أجل ، أعطاني ، رده لي وسيبدو أن هذا أيضا كان مكتوبا علي ولابد أن هذا هو كل ما في الأمر »

ولكنه ليس كذلك هناك شيء واحد آخر محفوظ من أجلي .

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثامن عشر

حين وصل بايرون الى البلدة وجد أنه لن يستطيع مقابلة المأمور حتى الظهر ، حيث أنه سيكون مشغولا طوال الصباح مع هيئة المحلفين الكبرى الخصوصية قالوا له

سيكون عليك أن تنتظر

قال بايرون

– نعم ، أعرف كيف

– تعرف ماذا ؟

ولكنه لم يجب غادر مكتب المأمور ووقف تحت الرواق المعمد الذي يواجه الجانب الجنوبي من الساحة ومن الشرفة المسطحة المرصوفة بالحجارة كانت تبرز الأعمدة الحجرية ، المقنطرة ، التي أثرت فيها العوامل الجوية ، والملطخة بأجيال من التبغ العرضي ، وتحتها ، وبثبات واضطراد ودونما غاية ، وبكآبة (وهنا وهناك يقفون دون حراك أو يتحدثون مع بعضهم البعض من طرف الفم ، كان بعض الشبان من سكان المدينة ، وبعضهم يعرفهم براون ككتبة ومحامين شبان وحتى كتجار ، والذين يتمتعون بمظهر رسمي متماثل عموما ، كأنهم شرطة متنكرون دون أن يهتموا على نحو خاص ان كان التنكر يخفي حقيقتهم

www.ibtesama.com/vb

كشرطة أم لا) كان ريفيون في أوفرولات يتحركون ، بمظهر أشبه بمظهر الرهبان في دير ، وهم يتحادثون بهدوء فيما بينهم عن النقود والمحصول، وينظرون بهدوء بين الحين والآخر الى الأعلى ، نحو السقف الذي كانت هيئة المحلفين الكبرى تستعد وراء أبواب لسلب الحياة من رجل لم تعرفه أو تره سوى قلة قليلة منهم ، لأنه سلب الحياة من امرأة لم يعرفها أو يرها سوى قلة أقل منهم كانت العربات والسيارات التي يعلوها الغبار والتي قدموا بها الى البلدة مصطفة من حول الساحة ، وعلى امتداد الشوارع وفي المخازن وخارجها كانت الزوجات والبنات اللواتي حضرن الى البلدة معهم يتحركن في مجموعات ، ببطء ودون غاية أيضا كقطيع أو غيوم وقف بايرون هناك لفترة طويلة ، دون حراك ، ودون أن يستند الى أي شيء رجلا ضئيل الحجم يعيش في البلدة منذ سبع سنوات والذي كان لا يعرفه من تلك القلة من أهل الريف التي كانت تعرف القاتل أو القتيل إلا قلة أقل أيضا ، بالاسم أو بحكم العادة

لم يكن بايرون مدركا لهذا لم يكن يكترث الآن رغم أن ذلك كان سيختلف منذ أسبوع عندها ما كان ليقف هنا ، حيث يمكن لأي شخص أن يراه ويميزه **بايرون بنتش ، الذي حرر المحصول المهمل لرجل آخر من أعشابه الضارة ، دون أي اقتسام بالتساوي الرجل الذي اعتنى بموسم رجل آخر بينما كان ذلك الشخص الآخر مشغولاً في جني ألف دولار ولم يحصل على أي شيء مقابل ذلك . بايرون بنتش الذي حمى شرفها حين كانت المرأة التي امتلكت الشرف والرجل الذي منحته شرفها قد رميا به بعيداً ، هو الذي جعل ابن الزنا الخاص بالرجل الآخر يولد في سلام وهدوء وعلى نفقة بايرون**

www.ibtesama.com/vb

بنتش، وقد سمع صرخة الطفل مرة واحدة لقاء ما دفعه . لم يحصل على أي شيء لقاء ذلك.إلا الاذن بإعادة الرجل الآخر إليها حالمايحصل على الألف دولار فبايرون لم تعد تدعو الحاجة إليه الآن.بايرون بنتش فكّر « والآن أستطيع الرحيل » بدأ يتنفس بعمق استطاع أن يشعر بنفسه يتنفس بعمق ، كأنما في كل مرة كانت أحشاؤه تخشى أن يكون النفس القادم غير قادر على التقدم بما فيه الكفاية وأن شيئا رهيبا سيحدث وأنه كان طوال الوقت قادرا على النظر الى نفسه وهو يتنفس ، الى صدره ، ولا يرى أية حركة اطلاقا ، كما يحدث حين يبدأ الديناميت بالانفجار ، فيجمع نفسه للانفجار ، الا الشكل الخارجي لعود الديناميت لا يتغير وكذلك فان الناس الذين كانوا يمرون به وينظرون اليه لم يكونوا قادرين على رؤية أي تغيير رجل ضئيل الحجم لا يمكنك أن تنظر اليه مرتين ، ولا يمكنك أن تعتقد أنه فعل ما فعله وشعر بما شعر به ، والذي صدق أنه ما كان ممكنا لفرصة التعرض الى الايذاء أن تصادفه في المنشرة هناك في مساء يوم سبت وهو لوحده

كان يمشي بين الناس فكر « عليّ أن أذهب الى مكان ما » استطاع أن يمشي في الوقت المناسب « عليّ أن أذهب الى مكان ما » من شأن هذا أن يجعله يتابع كان لايزال يقولها حين وصل الى النزل كانت غرفته تواجه الشارع وقبل أن يدرك أنه كان قد بدأ ينظر اليها ، كان يشيح بنظره . فكّر « قد أرى شخصا يقرأ أو يدخن في النافذة » دخل البهو بعد الصباح المشرق لم يستطع أن يرى جيدا على الفور استطاع ان يشم رائحة مشمع الأرضية والصابون فكر « لا زلنا

www.ibtesama.com/vb

في يوم الأثنين لقد نسيت ذلك ربما يكون الاثنين القادم هذا ما يبدو أنه يتوجب أن يكون » لم يناد بعد برهة كان قادرا على الرؤية بشكل أفضل استطاع أن يسمع المسح الجاري في مؤخرة البهو أو ربما المطبخ ثم رأى أمام مستطيل النور الذي كان هو الباب الخلفي ، المفتوح أيضا ، رأى رأس السيدة بيرد تطل ، ثم جسدها في صورة ظلية كاملة وهي تتقدم عبر البهو

قالت

– حسنا انه السيد بايرون بنتش السيد بايرون بنتش

قال

– نعم يا سيدتي

فكّر « السيدة البدينة التي لم يسبق لها أن اهتمت بأي شيء يزيد عمّا يهتم به دلو المسح ليس عليها أن تحاول أن تكون »

ومن جديد لم يستطع أن يجد الكلمة التي من شأن هايتاور أن يعرفها ، وسيستخدمها دون أن يفكر فيها « يبدو أني لا أستطيع أن أفعل أي شيء دون أن أجعله يتورط به ، وحتى أني لا أستطيع أن أفكّر دون أن يساعدني هو »

قال

– نعم يا سيدتي

ثم وقف هناك دون أن يكون قادرا على ابلاغها بأنه جاء ليودعها فكّر « ربما لن أفعل أعتقد أنه حين يكون شخص قد عاش في الغرفة نفسها مدة سبع سنوات ، فلا يمكنه أن ينتقل في يوم واحد ولكني أعتقد أني لن أتدخل ضد تأجيرها لغرفته »

www.ibtesama.com/vb

قال

– أعتقد أني مدين لك ببعض الأجرة

نظرت اليه وجه قاس مريح ، وليس غير لطيف أيضا

قالت

– أجرة ماذا ؟ ظننت أنك قد عرفت الاستقرار أنك قد قررت أن تعيش في الخيمة في فترة الصيف

نظرت اليه ثم أبلغته تصرفت بلطف ورقة واعتبار

– لقد سبق لي وقبضت أجرة تلك الغرفة

قال

– أوه أجل أرى ما تعنين أجل

نظر بهدوء الى الدرج النظيف المغطى بالمشمع ، والـذي أبلته قدماه حين وضع الشمع الجديد قبل ثلاث سنوات كان هو أول نزيل يصعده بين النزلاء قال

– أوه حسنا أعتقد أنه من الأجدر بي

وقد أجابت على ذلك أيضا ، على الفور ، وليس دون لطف

– لقد اعتنيت بذلك وضعت كل شيء تركته في حقيبتك انها هناك في غرفتي هل تريد أن تصعد وتتأكد بنفسك ؟

– لا أعتقد أنك وضعت كل حسنا ، أعتقد أني

كانت تراقبه قالت

– أنتم معشر الرجال لاعجب أن معشر النساء قد نفذ صبرهن معكم أنتم لا تعرفون حتى حدود أعمالكم الشيطانية وهي لا تتعدى شيئا أستطيع قياسه بالدبوس وأعتقد أنه لولا تورط بعض النساء في

www.ibtesama.com/vb

الأمر ومساعدتكم لكان كل واحد منكم سيُجَرّ صارخا الى السماء قبل أن يبلغ العاشرة من عمره

قال

– أعتقد أنه لا يحق لك أن تقولي أي شيء ضدها

– لن أفعل لا حاجة بي الى ذلك لا حاجة بأية إمرأة أخرى الى ذلك لن أقول إن معظم الثرثرة قد قامت بها النساء ولكن لو كان لديك أكثر من مجرد عقل رجل لعرفت أن النساء لا يعنين شيئا حين يتكلمن الرجال هم الذين يأخذون الكلام على محمل الجد ليست هناك امرأة تتحامل عليك وعليها لأنه ليست هناك امرأة إلا وتعرف أنه لا سبب لديها يدعوها الى أن تتحامل عليك ، حتى لو أسقطنا الطفل من الحساب ، أو تتحامل على أي رجل الآن بالذات ليست مضطرة الى ذلك أولم تفعل أنت وذلك الواعظ والرجل الآخر الذي يعرفها مسبقا ، أو لم تفعلوا جميعا كل شيء يمكن لها أن تفكر في طلبه ؟ ما الذي تحتاج هي اليه حتى تتحامل ؟ هيا قل لي

يقول بايرون

– أجل

لم يكن ينظر اليها الآن

– لقد جئت فقط لـ...

وقد أجابت على ذلك أيضا قبل أن ينطق به

– أعتقد أنك ستغادرنا قريبا.

كانت تراقبه

– ما الذي فعلوه هذا الصباح في دار المحكمة ؟

www.ibtesama.com/vb

– لا أعرف لم ينته الأمر بعد

– أعرف ذلك أيضا سينفقون الكثير من الوقت والجهد وأموال المقاطعة والى أقصى حد يستطيعونه بحيث ينظفون الذي كنا نحن معشر النساء قادرات على تنظيفه في عشر دقائق في ليلة السبت فقد كان احمق الى حد كبير لا أعني أن جفرسون ستفتقده لا تستطيع أن تستمر دونه . ولكنه كان أحمق الى حد صدق أن قتل امرأة يمكنه أن ينفع الرجل أكثر ممّا قد ينفع المرأة قتل رجل أعتقد أنهم سيطلقون سراح الآخر الآن

– نعم يا سيدتي أعتقد ذلك

– وكانوا قد اعتقدوا لمدة من الزمن أنه ساعد في قتلها لذا سيعطونه تلك الدولارات الألف حتى يبرهنوا على عدم تحاملهم ثم يستطيعان الزواج أليس كذلك ؟

– نعم يا سيدتي

استطاع أن يشعر بها تراقبه ، ليس دون لطف

– واذن أعتقد أنك ستغادرنا أعتقد أنك تشعر نوعا ما أنك مللت من جفرسون ، أليس كذلك ؟

– شيء كهذا أعتقد أني سأغادرها

– حسنا ، جفرسون بلدة جيدة ولكنها ليست جيدة الى ذلك الحد باستثناء ما يمكن لرجل حر دون قيود مثلك أن يجده في بلدة أخرى أي ما يكفي من الأعمال الشيطانية والمشاكل لجعله منهمكا أيضا يمكنك أن تترك حقيبتك هنا حتى تكون مستعدا للرحيل ، هذا ان شئت

www.ibtesama.com/vb

انتظر حتى الظهر وما بعده انتظر حتى اعتقد أن المأمور قد أنهى غداءه، ثم ذهب الى منزل المأمور . رفض الدخول انتظر عند الباب حتى خرج المأمور الرجل البدين ذو العينين الصغيرتين المحكيمين كقطعتين من الميكا مطمورتين في وجهه البدين الهادىء انتحيا جانبا الى ظل شجرة في الفناء لم يكن هناك مقعد للجلوس كما أنهما لم يقعيا على الكعبين ، كما كان من شأنه أن يحدث عادة (كانا كلاهما قد نشأا في الريف) اصغى المأمور بهدوء الى الرجل ، الرجل الهادىء ضئيل الحجم الذي كان ولا يزال منذ سبع سنين من الأمور الغامضة الثانوية في عيون البلدة والذي كان ولا يزال منذ سبع سنين يعتبر تقريبا إساءة واهانة عموميتين

قال المأمور

— حسنا ، تعتقد أنه آن أوان تزويجهما

— لا أعرف هذه مسألة تخصه وتخصها أعتقد أنه من الأفضل له أن يخرج ويقابلها ، على أية حال أعتقد أن الوقت مناسب الآن لذلك يمكنك أن ترسل نائبك معه لقد قلت لها انه سيخرج هذا المساء ثم سيكون من شأنهما هما أن يقررا ما سيفعلانه ليس هذا من شأني أنا

قال المأمور

— بكل تأكيد ليس ذلك من شأنك

كان ينظر الى الصورة الجانبية لوجه الآخر

— ما الذي تنوي أن تفعله الآن يا بايرون ؟

— لا أعرف

www.ibtesama.com/vb

تحركت قدمه ببطء فوق الأرض ؛ كان يراقبها

– كنت أفكّر بالانتقال الى ممفيس كنت أفكّر في ذلك منذ سنتين قد أفعل ذلك ، لاشيء هنا في هذه البلدات الصغيرة

– بكل تأكيد ممفيس ليست مدينة سيئة بالنسبة الى شخص يحب حياة المدن طبعا ، أنت دون أسرة تجرها من ورائك وتعيقك أعتقد أني لو كنت عازبا قبل عشر سنوات لفعلت ذلك أنا أيضا أعتقد أنك تريد الرحيل فورا

– سريعا على ما أعتقد

رفع بصره ثم أخفضه مرة أخرى قال

– لقد تركت العمل في المنشرة هذا الصباح

قال المأمور

– طبعا ، لقد عرفت أنك لم تقطع الطريق كلها الى هنا بدءا من الساعة الثانية عشرة وأنك تنوي العودة الى هناك في الواحدة حسنا ، يبدو كأن

يتوقف عن الكلام كان يعرف أنه مع حلول الليل ستكون هيئة المحلفين الكبرى قد أدانت كريسماس ، وبراون – أو بيرتش – سيكون رجلا حرا باستثناء التزامه بالظهور كشاهد في المحاكمة التي ستجرى في الشهر القادم ولكن حتى حضوره لن يكون جوهريا على نحو مطلق ، حيث أن كريسماس لم ينكر أبـدا فعلته ، وكان المأمور يعتقد أنه سيرد على الاتهام بالاعتراف لينقذ رأسه ، فكّر « ولن يكون هناك أي ضرر على أية حال في القاء الخوف من الرب في قلب ذلك الشخص اللعين مرة واحدة في حياته » قال

www.ibtesama.com/vb

– أعتقد أن هذا ممكن طبعا كما تقول ، سأضطر الى ارسال نائب معه ورغم أنه لن يهرب طالما كان لديه أي أمل في الحصول على جزء من تلك المكافأة هذا وشريطة ألا يعرف هو ما سيواجهه حين يصل الى هناك انه لا يعرف شيئا بعد

قال بايرون

– لا ، لا يعرف ذلك لا يعرف أنها في جفرسون

– اذن أعتقد أني سأرسله الى هناك مع أحد نوابي ولن أقول له السبب سأرسله فحسب الى هناك الا اذا كنت تريد أن تصطحبه بنفسك

قال بايرون

– لا ، لا ، لا

ولكنه لم يتحرك

– سأفعل ذلك بالضبط ستكون قد رحلت حتى ذلك الحين على ما أعتقد سأرسل نائبا معه هل الساعة الرابعة مناسبة ؟

– جيد جدا سيكون لطفا منك سيكون ذلك لطفا بالغا

– طبعا كثيرون غيري كانوا طيبين معها منذ وصلت الى جفرسون حسنا ، لن أقول وداعا أعتقد أن جفرسون ستراك مرة أخرى في يوم من الأيام لم يسبق لي أن عرفت رجلا عاش هنا فترة من الزمن ثم رحل دون عودة إلا إذا استثنينا ذلك الرجل الذي في السجن هناك ولكنه سيترافع على أساس أنه مذنب على ما أعتقد لينقذ رقبته يخرجها من جفرسون على أية حال الأمر قد يصعب كثيرا على تلك السيدة العجوز التي تظن أنها جدته كان الرجل العجوز

www.ibtesama.com/vb

في وسط البلدة حين عدت الى البيت ، وكان يصرخ ويحدث ضجيجا ويسمي الناس بالجبناء لأنهم لا يخرجونه من السجن حالا ويشنقونه على الفور

– يضحك بقوة

– عليه أن يكون حذرا أو أن «بيرسي غريم» سينال منه بجيشه ذاك.

عاد الى حالة الجد

– الأمر قد صعب عليها كثيرا على النساء

نظر الى الصورة الجانبية لوجه بايرون

– كان صعبا على كثيرين منا حسنا ، عد الى جفرسون بسرعة ربما ستعاملك على نحو أفضل في المرة القادمة

في الساعة الرابعة من عصر ذلك اليوم يرى السيارة تأتي ثم تتوقف ، وهو مختبىء ، ثم يخرج منها نائب المأمور والرجل الذي كان يعرف باسم براون ، ويقتربان من الكوخ براون دون قيود في يديه الآن ، وبايرون يراقبهما يصلان الى الكوخ ويرى النائب يدفع براون نحو الأمام ثم الى الباب ثم ينغلق الباب وراء براون ، ويجلس النائب على العتبة ويخرج كيس تبغ من جيبه ينهض بايرون يفكر : « أستطيع الذهاب الآن الآن أستطيع الذهاب » مخبأه عبارة عن مجموعة من الشجيرات على المرج الذي كان المنزل ينتصب فيه في يوم من الأيام على الجانب الآخر من الشجيرات ، بعيدا عن مرمى النظر من الكوخ والطريق كليهما ، كان البغل مربوطا الى وتد كانت حقيبة ملابس صفراء محطمة وليست جلدية مربوطة خلف السرج المهترىء يركب البغل ويديره نحو الطريق لا ينظر الى الخلف

www.ibtesama.com/vb

كانت الطريق الحمراء السهلة تمر تحت العصر الآيل الى زوال والهادىء كذلك ، صاعدة في جبل يفكر « حسنا ، أستطيع تحمل جبل أستطيع تحمل جبل ، يستطيع الانسان ذلك » انها هادئة وساكنة ومألوفة منذ سبع سنين « يبدو أن الانسان قادر على تحمل أي شيء ويستطيع أن يتحمل ما لم يسبق له أن تحمله اطلاقا بل يستطيع حتى أن يتحمل التفكير في أن الأمور أكثر مما يستطيع احتماله يستطيع حتى الاحتمال الى حد أنه لو استطاع أن يستسلم ويبكي ، فهو لا يفعل ذلك ويستطيع تحملها بحيث لا ينظر الى الخلف ، حتى وهو يعرف أنه سواء نظر الى الخلف أم لم ينظر فذاك لن يفيده على أية حال »

التلة ترتفع ، نحو الذروة لم يكن قد رأى البحر أبداً ، فيفكر على هذا النحو « انها أشبه بحافة اللاشيء كما لو أني مررت بها فسأمضي راكبا الى اللاشيء حيث الأشجار ستبدو وتسمى بشيء آخر ولكن ليس أشجارا ، والناس ستبدو وتسمى بشيء آخر ولكن ليس بشرا ربما لن يضطر بايرون بنتش الى أن يكون أو لا يكون بايرون بنتش بايرون بنتش وبغله لاشيء إطلاقا وهما يسقطان بسرعة ، حتى يشتعلا كتلك الصخور المتسارعة في الفضاء التي حكى عنها الموقر هايتاور والتي تشتعل وتحترق تماما فلا يبقى منها حتى رماد يصيب الأرض »

ولكن من وراء قمة التلة يبدأ بالبروز ذاك الذي يعرف أنه هناك الأشجار التي هي أشجار ، والمسافة الهائلة والمتعبة التي ، اذ يحركها الدم ، فعليه أن يبلغها الى أبد الآبدين بين افقين لا منجى منهما للأرض

www.ibtesama.com/vb

العنيدة يبرزان باضطراد ، ليسا منذرين بالشر ، ليسا مهددين هذا كل ما في الأمر . إنهما غافلان عنه . يفكر « لا أعرف ولا أفكر كما كانو يقولون حسناً . **نقول إنك تعاني .حسناً . ولكن في المقام الأول فإن كل ما لدينا هو كلمتك المجردة . وفي المقام الثاني فأنت تقول إنك بايرون بنتش .وفي المقام الثالث فأنت الشخص الذي يدعو نفسه بايرون بنتش ، الآن هذه اللحظة .** حسنا » يفكر « ان كان هو الأمر كله ، فأعتقد أيضا أني سأكون مسرورا لعدم قدرتي على تحمل النظر الى الخلف أيضا » يوقف البغل ويستدير وهو جالس في السرج

لم يدرك أنه ابتعد كثيرا وأن القمة عالية الى ذلك الحد وكوعاء مسطح فان الأرض الواسعة — التي كانت منذ سبعين عاماً مزرعة كبيرة ومنزلا كانت تترامى تحته الآن ، بينه وبين القمة الجبلية التالية التي تقع عليها جفرسون ولكن المزرعة مجزأة الآن بأكواخ زنجية متناثرة وحدائق صغيرة والتعريات التي سببتها الحقول الميتة المتلفة والمختنقة بشجر البلوط والغار والبرسيمون والخلنج ولكن في الوسط تماما فان أجمة أشجار السنديان لاتزال تنتصب كما انتصبت حين بني المنزل ، رغم أنه لم يعد هناك منزل بينها الآن ومن هنا لا يستطيع أن يرى حتى الندوب التي خلفتها النار لم يعد قادرا على أن يميز أين كان المنزل لولا أشجار السنديان وموقع الاصطبل الخرب والكوخ الذي خلفه ، الكوخ الذي ينظر هو الآن باتجاهه انه يقف كاملا وهادئا تحت شمس الظهيرة ، كدمية ؛ وكان نائب المأمور يجلس كدمية على العتبة ثم وبينما راح بايرون يراقب ، ظهر رجل كأنما

www.ibtesama.com/vb

بفعل ساحر عند مؤخرة الكوخ ، وقد سبق له وراح يعدو ، رآه في حالة الهروب من مؤخرة الكوخ بينما النائب غير المرتاب يجلس بهدوء ودون حراك على العتبة الأمامية ولبرهة أخرى ها هو بايرون يجلس أيضا دون حراك ، وقد التفت نصف التفاتة في السرج ، وراح يراقب الشكل البشري الدقيق يهرب عبر المنحدر الأجرد خلف الكوخ ، نحو الغابات

ثم بدا وكأن ريحا باردة قاسية تهب من خلاله انها عنيفة وهادئة في الوقت نفسه ، وتهب قاسية حاملة كالقش أو القمامة أو الأوراق كل الرغبات واليأس والقنوط والتخيل المأساوي والعبثي ومع عصفة الريح يبدو وكأنه يشعر بنفسه يندفع نحو الخلف فارغا مرة أخرى ، دون أي شيء فيه الآن لم يكن هناك قبل أسبوعين ، قبل أن يراها لأول مرة رغبة هذه اللحظة أكثر من مجرد رغبة ، انها قناعة هادئة وواثقة وقبل أن يعي أن دماغه قد أبرق لديه فقد أدار البغل بعيدا عن الطريق وها هو يخب على امتداد القمة التي توازي مسار الرجل الراكض حين دخل الغابة لم يكن حتى قد سمى الرجل في نفسه انه لا يتضرر اطلاقا فيما يخص الاتجاه الذي يسير فيه الرجل ، وسبب ذلك ولا يدخل في رأسه مرة واحدة أن براون يهرب مجددا ، كما تنبأ هو نفسه لو فكر في ذلك اطلاقا ، لاعتقد ربما أن براون كان متورطا ، بأسلوبه الخاص ، يعمل غير قانوني يتعلق به وبرحيل « لينا » ولكنه لم يكن يفكر في ذلك أطلاقا ؛ لم يفكر في « لينا » اطلاقا ؛ كانت غائبة من ذهنه تماما كأنه لم يسبق له أن رأى وجهها أو سمع باسمها انه يفكر « لقد اعتنيت بامرأته وولدت له طفله

www.ibtesama.com/vb

والآن هناك شيء واحد آخر أستطيع أن أفعله من أجله لا أستطيع تزويجهما ، لأني لست قسيسا ومن المحتمل ألا أستطيع الامساك به ، لأنه سبقني . وربما لا أستطيع أن ألقنه درسا لأنه أضخم مني وكي أستطيع أن أحاول **أستطيع أن أحاول** »

* * *

حين نادى عليه النائب في السجن ، سأل براون على الفور عن المكان الذي سيذهبان اليه فقال له النائب انهما ذاهبان في زيارة تراجع براون وهو يراقب النائب بوجهه الوسيم الجرىء على نحو مزيف

– لا أريد زيارة أحد هنا أنا غريب في هذه البلدة

قال النائب

– ستكون غريبا أنى حللت حتى في بيتك هيا

قال براون

– أنا مواطن أمريكي أعتقد أن لي حقوقي ، حتى او لم أكن أضع نجمة من الصفيح على حمالة بنطالي

قال النائب

– حسنا هذا ما أفعله الآن سأساعدك على الحصول على حقوقك

أشرق وجه براون كان ذلك وميضا

– هل هل سيدفعون

– تلك المكافأة ؟ طبعا سأصطحبك الى المكان بنفسي الآن ، الى المكان الذي ستحصل فيه على المكافأة هذا اذا كنت ستحصل أصلا على أية مكافأة

www.ibtesama.com/vb

صحا براون من نشوته ولكنه تحرك رغم أنه كان لايزال يراقب النائب بريبة قال

– هذه طريقة مضحكة في معالجة المسألة فأنتم تبقونني في السجن بينما يحاول أولئك الانغال أن يسبقوني اليها .

قال النائب

– أعتقد أن النغل الذي يستطيع أن يسبقك الى أي شيء لم يولد بعد هيا انهم في انتظارنا

خرجا من السجن رمش براون في نور الشمس ، وراح ينظر في هذا الاتجاه وذاك ، ثم رفع رأسه وراح ينظر الى الخلف من فوق كتفه بتلك الحركة الحصانية كانت السيارة تنتظر عند الزاوية نظر براون الى السيارة ثم الى النائب وهو صاح جدا وقلق جدا قال

– الى أين سنذهب با سيارة ؟ لم تكن دار المحكمة بعيدة في هذا الصباح حين أخذت اليها مشيا على الأقدام

قال النائب

– لقد أرسل « وات » السيارة لاعادة المكافأة بها هيا اركب

نخر براون

– لقد أصبح يهتم فجأة براحتي سيارة أركبها دون أصفاد وشخص واحد لعين فقط ليمنعني من الهرب

قال النائب

– لا أمنعك من الهرب

توقف وهو على وشك تشغيل محرك السيارة واستأنف يقول

– هل تريد أن تهرب الآن ؟

www.ibtesama.com/vb

نظر براون اليه ، محملقا كئيبا ، غاضبا ، مرتابا قال

— حسنا ، هذه حياته ، يخدعني حتى أهرب ثم يقبض تلك الدولارات الألف بنفسه ما هي الحصة التي وعدك بها ؟

— أنا ؟ سأحصل على ما تحصل عليه أنت حتى آخر سنت

حملق براون في النائب برهة أخرى . ثم بحماقة ، بأسلوب ضعيف عنيف قال

— هيا ، فلنذهب اذا كنا سنذهب فعلا

ذهبا بالسيارة الى موقع الحريق والجريمة وعلى فترات مضطردة موقوتة تقريبا كان براون ينخع برأسه عاليا والى الخلف بتلك الحركة التي يمكن أن تميز بغلا حرا يعدو أمام عربة في طريق ضيقة

— ما الذي أتينا الى هنا نفعله ؟

قال النائب

— ننال مكافأتك

— ومن أين سأنالها ؟

— في ذلك الكوخ هناك انها تنتظرك هناك

نظر براون فيما حوله ، الى البقايا المسودة المتفحمة التي كانت في يوم من الأيام منزلا ، الى الكوخ الكئيب الذي عاش فيه أربعة أشهر جالسا بهدوء في نور الشمس وقد أثرت فيه عوامل الطقس كان وجهه جديا تماما ، متيقظا تماما

— هناك شيء مضحك في هذه المسألة ان كان « كنيدي » يظن أنه يستطيع أن يدوس على حقوقي لأنه يرتدي نجمة صغيرة لعينة من التنك

www.ibtesama.com/vb

قال النائب

– هيّا اذا كنت لا تحب المكافأة ، سأكون في انتظارك لأعيدك الى السجن في أي وقت تشاء في أي وقت تشاء بالضبط

دفع براون نحو الأمام وفتح باب الكوخ ودفعه الى الداخل وأغلق الباب خلفه وجلس على الدرجة

سمع براون الباب يغلق من خلفه كان لايزال يتقدم نحو الأمام ثم حدث أن سكن تماما في وسط واحدة من تلك النظرات السريعة الملتوية الشاملة ، كأن عينيه لا تستطيعان الانتظار حتى تستوعبا الغرفة كلها كانت « لينا » على السرير تراقب الندبة البيضاء قرب فمه تختفي تماما ، كأنما كان تدفق الدم خلفها قد خطف الندبة خلال مروره كما يختطف ثوب من على حبل الغسيل . لم تتكلم اطلاقا بل تمددت هناك فحسب ، مستندة الى الوسائد ، وهي تراقبه بعينيها الصاحيتين اللتين لم يكن فيهما أي شيء اطلاقا – فرح ، دهشة ، عتاب ، حب – بينما عبرت وجهه الصدمة والدهشة والغضب ثم الفزع المباشر ، وكل واحدة تسخر بدورها من الندبة الصغيرة المنذرة ، بينما كانت عيناه المتضايقتان اليائستان تجوبان الغرفة الفارغة دون توقف راقبته يسوقهما بالارادة ، كحيوانين فزعين ، ويقودهما لتقابلا عينيها قال

– حسنا ، حسنا ، حسنا حسنا . حسنا هذه « لينا » اذن

راقبته مثبتة عينيه على عينيها كحيوانين على وشك الافلات ، كأنه كان يعرف أنهما حين يفلتان هذه المرة فلن يستطيع الامساك بهما وأن يعيدهما مرة أخرى ، وأنه هو نفسه سيضيع استطاعت أن تراقب عقله تقريبا وهو يرمي بهذا الاتجاه وذاك ، دون توقف ، منزعجا ،

www.ibtesama.com/vb

فزعا باحثا عن الكلمات التي يستطيع صوته ، لسانه ، أن ينطقا بها « أليست هذه لينا أجل يا سيدي اذن فقد وصلتك رسالتي ما أن وصلت الى هنا حتى أرسلت لك رسالة في الشهر الماضي حالما استقر بي المقام وقد اعتقدت أنها ضاعت أرسلتها مع شخص لم أكن أعرف ما اسمه ولكنه قال انه سيوصلها لم يبد أهلا للثقة ولكني اضطررت الى الوثوق به وان ظننت حين أعطيته الدولارات العشرة تلك لتسافري بها أنه » مات صوته في مكان ما خلف عينيه اليائستين ومع ذلك كانت قادرة على مراقبة عقله يندفع ويندفع دون شفقة أي دون أي شيء اطلاقا ، فراحت تراقبه بتحديقتها غير الممكن احتمالها والجدية بعينيها اللتين لا تطرفان ، راقبته يتعثر ويتهرب ويغير الاتجاه حتى كان كل ما بقي فيه أخيرا من الاعتزاز بالنفس ، من الاعتزاز الحزين بالنفس ، الرغبة في التبرير ، وحتى هذه هربت منه وتركته عاريا ، دون ستر ثم نطقت لأول مرة كان صوتها هادئا ، أملس ، باردا قالت

— تعال الى هنا هيا لن أتركه يعضك

وحين تحرك فقد اقترب على رؤوس أصابعه رأت ذلك ، رغم أنها لم تعد تراقبه الآن عرفت أنها كانت تعرف أنه يقف الآن بنوع من الرعب المضطرب المتحدي فوق سريرها والطفل النائم ولكنها عرفت أنه ذلك لم يكن بسبب الطفل عرفت أنه بذلك المعنى لم يكن حتى قد رأى الطفل كانت لا تزال قادرة على أن ترى وتشعر بعقله يندفع ويندفع فكرت سيتظاهر بأنه ليس خائفاً . لن يكون خجولاً بحيث يكذب حول كونه يشعر بالخوف ، كما من شأنه ألا يكون خجولاً من كونه خائفاً لأنه كذب

www.ibtesama.com/vb

قال

ـ حسبنا ، حسبنا هذا هو الأمر اذن بكل تأكيد .

قالت

ـ أجل هل لك أن تجلس ؟

كان الكرسي الذي قربه هايتاور من السرير لا يزال هناك كان قد سبق له ولاحظه فكر **لقد استعدت تماماً من أجلي** ومن جديد شتم دون صوت ، متضايقاً ، غاضبا **يا للأنغال** ولكن وجهه كان هادئا حين جلس

ـ أجل يا سيدي . ها نحن قد اجتمعنا مرة أخرى كما خططت تماما كنت سأجهز الأمور كلها من أجلك ، ولكني كنت مشغولا جدا مؤخرا وهذا يذكرني بـ ...

ومن جديد قام بتلك الحركة المفاجئة ، الأشبه بحركة البغال ، والتي ينظر بها باتجاه الخلف لم تكن هي تنظر اليه قالت

ـ يوجد واعظ هنا وقد سبق له وقام بزيارتي

قال

ـ هذا جميل

كان صوته مرتفعا ، حماسيا ولكن هذه الحماسة ، شأنها شأن الجرس ، بدت غير دائمة كصوت الكلمات ، اذ كانت متلاشية ، لم تترك خلفها شيئا ، ولا حتى فكرة واضحة في الأذن . ولم توح بالثقة .

ـ هذا جميل تماما . ما أن تورطت في هذا العمل

حرك ذراعه في حركة غامضة ، عناقية ، وهو ينظر اليها . كان وجهه هادئا وفارغا أما عيناه فكانتا رقيقتين ، يقظتين ، مبهمتين .

www.ibtesama.com/vb

ومع ذلك فقد كانت كامنة خلفهما لاتزال تلك الخاصية المتصفة بالضيق واليأس ولكنها لم تكن تنظر اليه

— ما نوع العمل الذي تقوم به الآن ؟ في ورشة السحج ؟؟

كان يراقبها

— لا لقد تركت ذلك العمل

كانت عيناه تراقبانها كأنهما لم تكونا عينيه ، كأنما لا علاقة لهما ببقيته ، وبما كان يقوله ويفعله

— الكدح كزنجي لعين عشر ساعات في اليوم . لدي شيء على وشك النضوج الآن وهو سيدر مالاً حقيقياً ليس إضاعة الوقت سدى لأجل خمسة عشر سنتا في الساعة . وحين أحصل عليه ، وذلك بعد اجراء بعض التفاصيل الصغيرة ، عندها أنت وأنا سوف

راحت العينان القاسيتان ، المصممتان ، المبهمتان ، تراقبانها ، تراقبان وجهها المطأطىء من صورته الجانبية ومن جديد سمعت هي ذلك الصوت الضعيف المفاجىء وهو يحرك رأسه عاليا ونحو الخلف

— وهذا يذكرني

لم تكن قد تحركت قالت :

— متى يا لوكاس ؟

ثم استطاعت أن تسمع ، أن تشعر بالسكون المطلق ، بالصمت المطلق

— متى سيكون ماذا ؟

— أنت تعرف كما قلت هناك في البيت . كان ذلك على ما يرام بالنسبة الي ولكن الأمر مختلف الآن أعتقد أنه يحق لي أن أشعر بالقلق الآن

www.ibtesama.com/vb

قال

— أو ، ذلك ذلك لا تقلقي فيما يخصه انتظريني حتى أنهي تلك المسألة وأحصل على تلك النقود . انها حقي ولا نغل واحد منهم يحق له

توقف عن الكلام كان صوته قد بدأ يرتفع ، كأنه نسي أين كان فراح يفكر بصوت مرتفع أخفض صوته ، قال

— اتركي الأمر لي لا تقلقي أبدا لم يسبق أن أعطيتك أي مبرر لتشعري بالقلق ، أليس كذلك ؟ هيا قولي لي ذلك

— لا ، لم أشعر بأي قلق . لقد عرفت أني أستطيع الاعتماد عليك .

— طبعا كنت تعرفين وهؤلاء الأنغال هنا هؤلاء ال...

كان قد نهض من على الكرسي

— وهذا يذكرني

لم ترفع هي نظرها ولا تكلمت بينما وقف من فوقها بتينك العينين المنزعجتين اليائستين الملحتين كأنما كانت تمسك به هناك وكانت هي تعرف ذلك . وأنها أطلقت سراحه بارادتها ، عن عمد

— أعتقد أنك مشغول جدا الآن اذن

— أجل ، كحقيقة مع كل الأمور التي تزعجني ، وأولئك الأنغال

كانت تنظر اليه الآن راحت تراقبه وهو ينظر الى النافذة في الجدار الخلفي ثم نظر الى الباب المغلق خلفه ثم نظر اليها ، الى وجهها الخذي الذي لم يكن فيه أي شيء ولا كل شيء ، وكل المعرفة . أخفض صوته

www.ibtesama.com/vb

– لدي أعداء هنا   أشخاص لا يريدونني أن أحصل على ما كسبته   لذلك   سوف

ومن جديد كأنما أمسكت به : مكرهة اياه : ممتحنة اياه بتلك الكذبة الأخيرة التي اشمأزت منها حتى آخر البقايا الحزينة لديه من الاعتزاز بالنفس ؛ أمسكت به هناك لا بالعصي ولا بالحبال ، بل بشيء راح كذبه يهب ضده سخيفا كأوراق شجر أو قمامة   ولكنها لم لم تقل شيئا على الاطلاق   بل راقبته وهو يمشي على رؤوس أصابعه الى النافذة ويفتحها دون اصدار صوت . ثم نظر اليها . ربما فكر في أنه كان آمنا عندئذ ، أنه يستطيع الخروج من النافذة قبل أن تستطيع لمسه بيدها الحقيقية   أو ربما كانت نهاية حزينة للعار ، الذي كان قبل قليل اعتزازاً بالنفس   لأنه نظر اليها ، وقد أضحى عاريا في هذه اللحظة من اللغو والخداع   لم يكن صوته أعلى بكثير من مجرد همسة

– انه ذلك الرجل في الخارج   عند المدخل   انه يراقبني

ثم رحل ، عبر النافذة ، دون صوت في حركة واحدة ، كحية طويلة   ومن وراء النافذة سمعت صوتا ضعيفا مفردا حين بدأ يعدو عندها فحسب تحركت هي ، ولكن لتتنهد مرة واحدة ، بعمق . قالت بصوت مرتفع

– والآن علي أن أنهض من جديد

* * *

حين خرج براون من الغابات ، نحو الأرض المجاورة لخط السكة الحديدية ، كان يلهث   ليس من التعب ، رغم أن المسافة

www.ibtesama.com/vb

التي كان قد قطعها في الدقائق العشرين الأخيرة تبلغ ميلين تقريبا ولم تكن الطريق سلسة . ولكن لهاثه كان بالأحرى التنفس المزمجر والغاضب لحيوان هارب وبينما يقف وهو ينظر في كلا الاتجاهين على امتداد السكة الفارغة ، فان وجهه ، تعبيره ، هما لحيوان يهرب وحيدا ، ولا يرغب بأية مساعدة من رفيق ، متشبثا باعتماده الوحداني على عضلاته وحدها ، والذي ، خلال توقفه ليسترد أنفاسه ، يكره كل شجرة وورقة عشب أمامه كأنها عدو حي ، يكره الأرض نفسها التي يقف عليها والهواء نفسه الذي يحتاجه ليسترد أنفاسه

لقد وصل الى السكة على مسافة مئات قليلة من الأمتار عن النقطة التي كان يبغيها كانت هذه قمة منحدر تبطىء عندها قطارات الشحن المتجهة الى الشمال على نحو استثنائي وزاحف وبسرعة تقل عن سرعة الشخص الماشي وعلى مسافة قصيرة الى الأمام كان الخيطان التوأمان اللامعان يعدوان كأنما تم تقصيرهما بمقص

لبرهة من الزمن يقف أمام شريط الغابات قرب الأرض المحاذية لخط السكة الحديدية ، وهو لا يزال يختبىء ويتوارى يقف كرجل يقوم بحساب تأملي ويائس ، كأنه يبحث في ذهنه عن رمية يائسة أخيرة في مباراة سبق له وخسرها وبعد الوقوف لبرهة أخرى في وضعية الاصغاء ، يلتفت ويعدو ويخرج الى فسحة فيها كوخ زنجي يقترب من مقدمة الكوخ وهو يمشي الآن على الرواق تجلس امرأة زنجية عجوز وهي تدخن غليونا ، ورأسها ملفوفة بخرقة بيضاء براون لا يعدو ، ولكنه يتنفس بسرعة ، بثقل يهدىء انفاسه ليتمكن من الكلام يقول

www.ibtesama.com/vb

ـ مرحبا يا خالة من هنا ؟

تزيح الزنجية الغليون جانبا

ـ مَنْ هنا ؟ ومن يريد أن يعرف ؟

ـ أريد أن أبعث برسالة الى البلدة أنا على عجل

يمسك أنفنسه ليتمكن من الكلام

ـ أنا مستعد للدفع أليس هنا شخص يستطيع ايصالها ؟

ـ ان كنت على عجل الى هذا الحد فالأجدر بك أن توصلها بنفسك

يقول

ـ أنا مستعد للدفع كوني على ثقة !

يتكلم بنوع من الصبر المضطرم ، كاتما صوته وأنفاسه

ـ أدفع دولارا ان كان سريعا بما فيه الكفاية . أليس هناك شخص هنا يريد أن يكسب دولارا ؟ بعض الأولاد ؟

تدخن المرأة العجوز وهي تراقبه وبوجه هرم ومبهم كأنه منتصف الليل يبدو عليها أنها تتأمله بحيادية تكاد تكون ربانية وان لم تكن تدل على الصلاح

ـ دولار نقدا

يقوم بايماءة يصعب وصفها ، تدل على السرعة والغضب المكبوح وشيء أشبه باليأس إنه على وشك الانصراف حين تتكلم الزنجية مرة أخرى

ـ لا يوجد هنا سواي والصغيرين وأعتقد أنهما صغيران جدا

www.ibtesama.com/vb

يلتفت براون

– صغيران الى أي حد ؟ أريد شخصا يمكنه أن يوصل رسالة الى المأمور بسرعة و...

– المأمور ؟ لقد جئت الى المكان غير المناسب لن أسمح لأي من أولادي أن يتدخل في شأن أي مأمور لقد عرفت بالفعل زنجيا ظن أنه يعرف مأمورا الى حد يكفي للقيام بزيارته . ولكنه لم يعد قط ابحث في مكان آخر

ولكن كان قد سبق لبراون وابتعد انه لا يعدو على الفور لم يكن قد فكّر بالعدو مجددا في الوقت الحاضر هو غير قادر على التفكير اطلاقا غضبه وعجزه يكادان يبعثان فيه النشوة بدا عليه أنه يتأمل بنوع من العصمة السرمدية الجميلة الكامنة في احباطاته الصعبة على التنبؤ كأنما كانت حقيقة أن عليه أن يكون على نحو متواصل مترعا بالاحباطات تسمو به على نحو ما فوق الآمال والرغبات الانسانية الصغيرة التي تلغيها وتنفيها ومن ثم فقد كان على الزنجية أن تصرخ مرتين قبل أن يسمعها ويلتفت لم تكن قد قالت أي شيء ، لم تكن قد تحركت ، بل صرخت فحسب تقول :

– هذا سيوصلها لك

قرب الرواق كان يقف الآن زنجي تجسد فجأة من الهواء يبدو عليه أنه اما أحمق تام النمو أو فتى ثقيل الحركة . وجهه أسود ، ساكن ، وغامق أيضا وقفا ينظران كل الى الآخر أو بالأحرى كان براون ينظر الى الزنجي . انه لا يستطيع أن يعرف إن كان الزنجي ينظر اليه أم لا

www.ibtesama.com/vb

وهذا يبدو أيضا صحيحا وجميلا ومنسجما أن يكون الأمل والملجأ الأخيران حيواناً لا يبدو عليه أنه يتمتع بقوة استلالالية كافية ليجد البلدة ، ناهيك عن أن يجد شخصا معينا فيها ومن جديد يقوم بايماءة لا يمكن وصفها انه يكاد يعدو الآن ، عائدا نحو الرواق ، وهو يتلمس جيب قميصه

– أريدك أن تأخذ رسالة الى البلدة وتجلب لي جوابا هل يمكنك ذلك ؟

ولكنه لايصغي الى اجابة لقد تناول من قميصه قصاصة ورق متسخة وعقب قلم رصاص ممضوغ ، وينحني فوق حافة الرواق ويكتب، بجهد وبسرعة ، بينما تراقبة الزنجية « **السيد وات كنيدي سيدي أرجو أن تعطي حاملها نقود مكافأتي لقاء القبض على القاتل كريسماس لفها بجريدة وأعطها إلى الحامل المخلص لك** »(١)

لا يوقع الورقة.. يرفعها ويحدق اليها ، بينما تراقبه العجوز الزنجية يحملق في الورقة القذرة والبريئة ، الى الكتابة المجهدة والسريعة بالقلم الرصاص التي نجح للحظة في نفخ كل روحه وحياته فيها أيضا ثم يضعها بسرعة وقوة ويكتب « **غير موقعة حسناً أنت تعرف من** » ويطويها ويعطيها الى الزنجي

– خذها الى المأمور ليس الى أي شخص آخر أتعتقد أنك تستطيع أن تجده ؟

---

(١) في الأصل ورد في الرسالة أخطاء املائية ونحوية

www.ibtesama.com/vb

قالت الزنجية العجوز

- ان لم يجده المأمور أولا أعطها له سيجده ان كان لايزال فوق الأرض خذ دولارك وانطلق يا ولد

كان الزنجي قد انطلق . يتوقف يقف هناك دون أن يقول شيئا ، أو ينظر الى أي شيء على الرواق كانت الزنجية جالسة تدخن ، وهي تنظر الى وجه الرجل الأبيض الضعيف الذئبي : وجه وسيم ، جدير بالتصديق ، ولكنه مشدود الآن بانهاك ليس جسديا فحسب ، متحولا الى قناع مستهلك ثعلبي قالت

- ظننت أنك على عجل

يقول براون

- أجل

يخرج قطعة النقود من جيبه

- اليك واذا جلبت الجواب خلال ساعة سأعطيك خمسة أمثاله

تقول المرأة

- هيا أيها الزنجي ليس أمامك النهار بطوله هل تريد أن يصلك الجواب الى هنا ؟

ينظر اليها براون لبرهة أخرى ثم يفر منه الحذر والعار كلاهما

- لا ، ليس هنا اجلبه الى أعلى الطريق المتحدرة هناك امش امش على امتداد السكة حتى أناديك وسأراقبك طوال الوقت أيضا لا تنس ذلك هل تسمعني ؟

www.ibtesama.com/vb

تقول الزنجية

ـ لا داعي للقلق سيصل الى هناك مع الرسالة ويحضر الجواب اذا لم يوقفه شيء ما هيا انطلق يا ولد

ينطلق الزنجي ولكن شيئا ما يوقفه فعلا قبل أن يقطع بمسافة نصف ميل انه رجل أبيض آخر يقود بغلا

يقول بايرون

ـ أيضاً ؟ أين رأيته ؟

ـ الآن هناك عند المنزل

يستأنف الرجل الأبيض السير وهو يقود البغل يلاحقه الزنجي بنظراته لم يبرز الرسالة للرجل الأبيض لأن هذا لم يطلب رؤيتها وربما كان السبب في أن الرجل الأبيض لم يطلب رؤية الرسالة أن الرجل لم يكن يعرف أن معه رسالة . وربما يفكر الزنجي في هذا ، لأن وجهه يعكس لبرهة من الزمان شيئاً هائلا وخفيا ثم يشرق وجهه يصرخ يلتفت الرجل الأبيض ويتوقف يصرخ الزنجي

ـ ليس هناك الآن يقول انه سيصعد الى قمة طريق السكة الحديدية لينتظر

يقول الرجل الأبيض

ـ أنا ممتن جدا لك

يستأنف الزنجي السير

* * *

عاد براون الى خط السكة لم يكن يعدو الآن كان يقول في

www.ibtesama.com/vb

نفسه « لن يفعل ذلك لا يستطيع أن يفعله أعرف أنه لا يستطيع أن يجده ، ولا يستطيع الحصول عليها والعودة بها » لم يسم أية أسماء ، ولم يفكر بأية أسماء . بدا له أنهم جميعا مجرد أشكال كأحجار الشطرنج الزنجي ، المأمور ، النقود ، جميعهم لايمكن التنبؤ بتصرفاتهم وهم يتحركون هنا وهناك دون سبب وبيد « خصم » يستطيع معرفة تحركاته قبل أن يقوم بها ويبدع قوانين تلقائية عليه هو أن يطيعها وليس « الخصم ». كان في الوقت الحاضر وراء اليأس وهو يبتعد عن خط السكة ويدخل بين الشجيرات القريبة من قمة المنحدر . وراح يتحرك الآن دون سرعة ، مقدرا مسافته كأنما لم يكن هناك في العالم أو في حياته على الأقل شيء آخر ، إلا ذلك وقد اختار مكانه وجلس ، بعيدا عن مرمى النظر من السكة ولكن من حيث يستطيع أن يراها

يفكر « ولكني أعرف تماما أنه لن يفعلها وحتى أني لا أتوقع ذلك ولو أني كنت سأراه عائدا بالنقود في يده ، لما صدقت ذلك لن تكون تلك لي سأعرف ذلك سأعرف أن هناك خطأ ما سأقول له « **هيا تابع سيرك . أنت عن شخص آخر غيري . أنت لا تبحث عن لوكاس بيرتش . لا يا سيدي لوكاس بيرتش لا يستحق تلك النقود، تلك المكافأة، فهو لم يفعل أي شيء.ليستحقها .لا يا سيدي**».
يبدأ بالضحك ، وهو مقمع ، دون حراك ، ووجهه المنهك ملتو ضاحك « نعم يا سيدي كل ما يريده لوكاس بيرتش هو العدالة العدالة فحسب ليس أنه أبلغ أولئك الأنغال باسم القاتل وأين يجدونه وهم لم يحاولوا أن يبحثوا عنه لم يحاولوا قط لأنهم كانوا سيضطرون الى دفع النقود الى لوكاس بيرتش . العدالة » ثم يقول بصوت مرتفع ،

www.ibtesama.com/vb

أبح ، دامع « العدالة هذا كل ما في الأمر حقوقي فحسب وأولئك الأنغال بنجومهم التنكية الصغيرة ، الذين أقسموا جميعاً على الاخلاص ، على حماية المواطن الأمريكي » يقولها بقسوة ، وهو يكاد يبكي غيظا ويأسا وانهاكا « سأكون كلبا ان لم يكن من شأن هذا كله أن يجعل المرء يعتنق البلشفية » . وهكذا لايسمع هو أي صوت اطلاقا حتى يحدثه بايرون مباشرة من خلفه

— انهض على قدميك

لا يدوم ذلك طويلا عرف بايرون ذلك ولكنه لم يتردد بل زحف حتى استطاع أن يرى الرجل الآخر ، حيث توقف ، وراح ينظر الى الجسم المقعي المفاجأ دون انذار. يفكر بايرون « أنت أضخم مني ، ولكني لا أكترث بذلك فقد خدعتني وأنا لا أكترث بذلك أيضا لقد رميت بعيدا خلال تسعة أشهر ما لم يكن لدي خلال خمسة وثلاثين عاما وسوف أنال الآن علقة ساخنة و لكني لن أكترث بذلك أيضاً »

لايدوم ذلك طويلا فبراون اندفع مستفيدا حتى من دهشته لم يكن يصدق أن أي رجل ، يفاجىء عدوه جالساً ، سيمنحه فرصة للنهوض على قدميه ، حتى لو لم يكن العدو أضخم الرجلين حجما ما كان هو ليفعلها لو أنه كان في مكان الرجل الآخر وحقيقة أن الرجل الأصغر حجما فعلها حيث لا يفعلها هو ، كانت أسوأ من الاهانة كانت سخرية لذا قاتل بضراوة أشد مما كان اسيفعل لو أن بايرون انقض على ظهره دون انذار قاتل بالبسالة العمياء البائسة التي يتميز بها جرذ جائع حوصر في زاوية

www.ibtesama.com/vb

استمر العراك أقل من دقيقتين ثم كان بايرون ممددا بهدوء بين الشجيرات المحطمة المداس عليها ، وهو ينزف بهدوء من الوجه ، ويسمع الشجيرات تتحطم ، تتوقف ، تتلاشى متحولة الى صمت ثم يبقى وحيدا لا يشعر بألم معين الآن ، بل بما هو أفضل من ذلك ، لا يشعر بأية عجلة أو الحاح ، ليفعل أي شيء أو يذهب الى اي مكان بل استلقى هناك نازفا وهادئا ، عارفا أنه بعد فترة سيكون هناك وقت كاف ليعود فيدخل العالم والزمان

انه لا يتساءل حتى الى اين ذهب براون ليس مضطرا الى التفكير في براون الآن ومن جديد يمتلىء ذهنه بأشكال ساكنة كدمى الطفولة المنبوذة المجزأة المكومة دون تمييز التي تجمع الغبار الهادىء في حجرة منسية براون لينا غروف هايتاور بايرون بنتش الكل كأشياء صغيرة لم يسبق لها أن كانت حية ، والتي لعب بها في الطفولة ثم حطمها ونسيها يسمع وهو مستلق على هذا النجو صوت القطار يصفر أمام معبر يبعد نصف ميل

يوقظه هذا ، هذا هو العالم والزمان أيضا يجلس في مكانه ، ببطء ، بتردد يفكر « على أية حال لم أكسر أي شيء أعني أنه لم يكسر شيئا يخصني » لقد تأخر الوقت حان الوقت الآن ، مع مسافة ، يتحرك ، يدخله « أجل يجب أن أتابع حتى أجد شيئا آخر أتدخل فيه » يقترب القطار سبق لشوط المحرك أن أصبح أقصر وأثقل الآن مع اقتراب القطار من المنحدر الآن يستطيع أن يرى الدخان. يبحث في جيبه عن منديل ليس معه ، لذا يمزق قطعة من ذيل القميص ويمسح وجهه بحذر شديد، مصغيا الى انفجارات عادم القاطرة القصيرة

www.ibtesama.com/vb

المدوية فوق المنحدر مباشرة يتحرك الى طرف الشجيرات من حيث يستطيع أن يرى السكة القاطرة ترى الآن ، متجهة نحوه تحت الندبات الثقيلة المتباعدة من الدخان الأسود ولهذا تأثير اللاحركة الرهيب ولكنه يتحرك مع ذلك فعلا ، يزخف على نحو رهيب صاعدا المنحدر ثم متجاوزا قمته وبينما يقف الآن عند طرف الشجيرات يراقب القاطرة تقترب ثم تتجاوزه ، تسير بجهده ، زاحفة ، يراقبها بالانهماك المنتشي الصبياني (وربما التوق) الذي يميز الريفيين يمر القطار ، تتحرك عيناه تتابعانه ، تراقبان العربات وهي تزحف على القمة وتتجاوزها ، ويرى للمرة الثانية في عصر هذا اليوم رجلا يتجسد خارجا من الهواء على ما يبدو ، وهو في حالة العدو ———

وحتى آنذاك لا يدرك هو ما الذي يوشك براون على فعله لقد توغل كثيرا في السلام والعزلة بحيث لم يعد يتساءل بل يقف هناك ويراقب براون يعدو نحو القطار ، في وضع انقضاض وهروب ، ثم يمسك بالسلم الحديدي في نهاية أحدى العربات ويقفز عاليا ويختفي عن الأنظار كأنما تم امتصاصه في الفراغ بدأ القطار يزيد من سرعته يراقب دنو العربة التي اختفى فيها براون تمر العربة ، فيرى براون متشبثا بمؤخرتها ، بينها وبين العربة التالية ، ووجهه مطأطىء وهو يراقب الشجيرات يريان واحدهما الآخر في اللحظة نفسها الوجهان ، الوجه اللطيف الغريب الدامي ، والوجه النحيل المنزعج اليائس الملتوي الآن في صراخ دون صوت فوق ضجة القطار ، ويمران واحدهما بالآخر كأنما على مدارين متقابلين وبتأثير أشبه بتأثير الأشباح أو الظواهر وبايرون لايزال دون تفكير يقول « يا للرب العظيم في الجبل »

www.ibtesama.com/vb

وذلك بدهشة طفولية منتشية «.انه يعرف أيضا كيف يقفز الى قطار لقد سبق له وفعل ذلك من قبل بكل تأكيد » انه لا يفكر اطلاقا كأنما كان الجدار المتحرك للعربات الداكنة سدا ينتظر خلفه العالم ، الزمان ، الأمل غير القابل للتصديق واليقين الذي لايقبل الجدل ، مانحا اياه بعض المزيد من السلام وعلى أية حال ، فحين مرت العربة الأخيرة ، المتحركة بسرعة الآن ، اندفع العالم باتجاهه كطوفان ، كموجة مدية

انها ضخمة جدا وسريعة جدا على المسافة والزمان ؛ ومن ثم فلا مر هناك يعود ليسير عليه ، وهو يقود البغل مسافة كبيرة قبل أن يتذكر أن يركبه ويتابع السير كأنما سبق نفسه منذ زمن طويل ، وها هو ينتظر عند الكوخ حتى يستطيع اللحاق والدخول **ثم سأقف هناك وسوف** يحاول مرة أخرى **ثم سأقف هناك وسوف** ولكنه لا يستطيع التقدم أبعد من ذلك انه على الطريق مرة أخرى ، مقتربا من عربة تتجه الى البيت من البلدة . الساعة حوالي السادسة انه لا يستسلم على أية حال **حتى لو لم أستطع أن أتقدم أكثر من ذلك** حين **سأفتح الباب وأدخل وأقف هناك . ثم سأفعل سأنظر إليها أنظر إليها** الصوت يتكلم مجددا

— الاثارة على ما أعتقد

يقول بايرون

— ماذا ؟

توقفت العربة انه الى جانبها تماما ، والبغل توقف أيضا على مقعد العربة يتكلم الرجل مرة أخرى بصوته الخفيض المتذمر

www.ibtesama.com/vb

ـ اللعنة على الحظ عند انطلاقي باتجاه المترل بالضبط لقد سبق وتأخرت

يقول بايرون

ـ الاثارة ؟ أية اثارة ؟

ينظر الرجل اليه

ـ من وجهك يمكن للمرء أن يقول .انك قد خضت في نوع من الاثارة

يقول بايرون

ـ لقد وقعت ما الاثارة التي حدثت في البلدة هذا المساء ؟

ـ ظننت أنك لم تسمع على الأرجح بما حدث منذ ساعة تقريبا ذلك الزنجي كريسماس ، لقد قتلوه

www.ibtesama.com/vb

الفصل التاسع عشر

على موائد العشاء في ليلة الاثنين تلك ، كان الأمر الذي تتساءل حوله البلدة ليس كيفية هروب كريسماس ، ولكن لماذا التجأ حين أصبح طليقاً الى ذلك المكان بالذات ، الذي كان يعرف لا بد أنه سيكتشف فيه ، ولماذا حين حدث واكتشف مخبأه لم يستسلم ولم يقاوم بدا الأمر وكأنه انطلق وخطّط للانتحار سلبيا ـ

كانت هناك أسباب وآراء عديدة حول هروبه الى بيت هايتاور في النهاية قال البسطاء وهم يتذكرون الحكايات القديمة حول القسيس « ربما وربما » اعتقد البعض أنها محض صدفة ؛ وقال آخرون ان الرجل قد أبدى الحكمة ، حيث أنه ما كان ليرتاب أحد في أنه موجود في منزل القس إطلاقا لولا أن أحدهم رآه يعدو عبر الفناء الخلفي ويدخل المطبخ

ولكن كان لدى « غافين ستيفنز » نظرية مختلفة انه محامي المقاطعة وخريج جامعة هارفارد وعضو جمعية « الفلسفة دليل الحياة(١) : رجل طويل القامة ، سيّب المفاصل ، ذو غليون خشبي دائم في فمه

١) وهي جمعية فخرية مؤلفة من طلاب جامعيين أمريكيين حصلوا على رتب علمية عالية تأسست عام (١٧٧٦)

(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

وله كتلة شعثاء من الشعر الرمادي الحديدي اللون ، ويرتدي على الدوام ملابس رمادية داكنة واسعة غير مكوية . أسرته عريقة في جفرسون ، اذ كان أجداده يمتلكون العبيد فيها ، كما كان جده يعرف جد وأخا الآنسة بيردن ، وكان يكرههما ، كما أنه هنأ الكولونيل سارتوريس حين قتلا . ويتحلى هذا بأسلوب هادىء بسيط في تعامله مع الريفيين ومع الناخبين والمحافين . ويمكن أن يرى بين الحين والآخر مقعيا بين لابسي الأوفرولات على أروقة الدكاكين الريفية عصر يوم كامل من أيام الصيف ، وهو يحدثهم بلهجتهم عن لاشيء اطلاقا .

في ليلة الاثنين تلك نزل من قطار الساعة التاسعة المتجهة جنوبا أستاذ جامعي من « جامعة ستيت » القريبة ، وهو زميل دراسة للمحامي ستيفنز حين كان هذا يدرس في هارفارد ، وقد وصل ليقضي بضعة أيام اجازة مع صديقه . حين نزل من القطار رأى صديقه على الفور . أعتقد أن ستيفنز جاء لاستقباله الى أن لاحظ أنه منهمك مع زوجين غريبي المظهر كان يساعدهما على ركوب القطار . وحين نظر اليهما رأى الأستاذ رجلا عجوزا ضئيل الحجم قذراً له عيون عنزة ، وكان يبدو عليه أنه في حالة من الاغماء التخشبي وامرأة عجوز كانت زوجته لابدّ . مخلوق قصير بدين بوجه كالعجين تحت ريشة بيضاء متداعية ومتسخة ، مخلوق عديم الشكل في ثوب حريري عتيق الطراز له لون فخم ومحتضر . وللحظة من الزمان توقف الأستاذ بنوع من الاهتمام المندهش ، مراقبا ستيفنز يضع في يد المرأة ، كما يوضع في يد الأطفال ، بطاقتي سفر بالقطار . يتحرك ثانية ويقترب دون أن يراه صديقه حتى الآن ، فيسمع كلمات ستيفنز الأخيرة بينما كان

www.ibtesama.com/vb

حامل الراية يساعد العجوزين على الدخول الى المدخل المسقوف لإحدى الحافلات « أجل ، أجل » هذا ما كان ستيفنز يقوله بلهجة مواسية مختصرة « سيكون على القطار غدا صباحا سأتدبر الأمر وسيكون عليكما أن تجهزوا الجنازة والمقبرة خذي الجد الى البيت وضعيه في الفراش سأتولى مسألة وضع الشاب على القطار في الصباح »

ثم بدأ القطار بالتحرك والتفت ستيفنز فرأى الأستاذ وقد بدأ يحكي القصة وهما عائدان الى البلدة وأنهاها وهما يجلسان على شرفة منزل ستيفنز ، وهناك احتضر المسألة كلها

— أعتقد أني أعرف سبب ذلك ، لماذا لجأ الى منزل هايتاور في النهاية أعتقد أن السبب هو جدته كانت معه في الزنزانة قبل أن يعيدوه الى دار المحكمة مجددا هي والجد — ذلك الرجل العجوز المجنون الذي أراده أن يشنق دون محاكمة ، والذي وصل من موتستاون لهذا الغرض لا أعتقد أنه كان للسيدة العجوز أي أمل في انقاذه حين جاءت ، أي أمل فعلي أعتقد أن كل ما كانت تريده هي أن يموت « على نحو لائق » كما قالت أي أن يتم شنقه من قبل « الشرطة » ، كمسألة مبدأ ، لا أن يحرق أو يقطع إرباً إرباً أو يسجل ميتاً من قبل « العامة » أعتقد أنها وصلت الى هنا لتراقب الرجل العجوز حتى لا يكون الشرارة التي تشعل الحريق ، لأنها لم تكن تجرؤ على جعله يبتعد عن مرمى نظرها لم تكن هي تشك في أن كريسماس كان حفيدها ، كما يمكنك أن ترى ولكنها لم تكن تحمل أي أمل لم تكن تعرف كيف تبدأ بالأمل وأتخيل أنه بعد ثلاثين سنة فان آلية الأمل تتطلب أكثر من أربع وعشرين ساعة لتبدأ بالانطلاق ، لتنطلق الى المعمل مجددا ولكني أعتقد أنه مع انطلاقها ماديا بفعل جنون

www.ibtesama.com/vb

وقناعة الرجل العجوز ، وقبل أن تعرف هي ذلك ، فقد عمها الاجتياح هي أيضا لذا جاءا الى هنا وصلا الى هنا على القطار الباكر ، حوالي الساعة الثالثة من صباح الأحد لم تحاول هي أن ترى كريسماس اطلاقا ربما كانت تراقب الرجل العجوز ولكني لا أظن ذلك . لا أظن أن ذلك قد انطلق قبل أن يولد الطفل هناك في ذلك الصباح ، يولد أمام وجهها تماما ، كما يمكن أن يقال ، وكان المولود صبيا أيضا ولم تكن هي قد رأت الأم سابقاً ، ولا الأب ، وذلك الحفيد الذي لم تره رجلا لذا كانت تلك السنوات الثلاثون كأنما لم تكن لقد زالت وامحت حين صرخ ذلك المولود لم يعد لها وجود كل شيء كان يعود اليها موبخا ومقرعا بسرعة هائلة كان هناك الكثير من الحقائق التي لم تستطع يداها وعيناها إنكارها ، والكثير مما يجب أن يسلم به جدلاً ولم تكن يداها أو عيناها قادرتين على البرهنة عليه ؛ الكثير مما لا يمكن تفسيره حتى أن اليدين والعينين قد طولبت على نحو فجائي جدا بالقبول والتصديق دون برهان وبعد ثلاثين سنة لابد وأن الأمر كان أشبه بشخص يعيش في تخبط وحداني فأدخل فجأة الى غرفة مليئة بأناس غرباء يتحدثون كلهم في آن واحد وهي تتخبط بيأس باحثة عن أي شيء يمكنه أن يجعل العقل يتماسك باختيار مسار منطقي للعمل يمكن أن يكون ضمن امكانياتها ، وتكون هي على ثقة من قدرتها على تحقيقه وقد وجدت وسيلة ما تستطيع بواسطتها أن تقف لوحدها ، وذلك حتى مولد ذلك الطفل ، أي كانت أشبه بتمثال ذي صوت آلي محمول على عربة ويجره ذلك الشخص المسمى بنتش ويتم جعله يتكلم حين يعطي هو الاشارة ، كما حدث حين أخذها

www.ibtesama.com/vb

في الليلة الأخيرة لتروي حكايتها لهايتاور وكانت لاتزال تتلمس طريقها كما يمكنك أن ترى كانت لاتزال تحاول أن تجد شيئا ما يستطيع عقلها الذي لم يكن قد عمل كثيرا خلال الثلاثين سنة الماضية أن يؤمن به ، أن يقر بأنه فعلي ، حقيقي وأعتقد أنها وجدته هناك ، في بيت هايتاور ، للمرة الأولى وجدت شخصا تستطيع أن تروي له الحكاية ، شخصا يستمع اليها كانت تلك على الأرجح هي المرة الأولى التي تروي بها تلك الحكاية ربما عرفتها آنئذ للمرة الأولى هي نفسها ، وربما رأتها للمرة الأولى كاملة وحقيقية في آن معا مع هايتاور لذا لا أظن أنه من الغريب جدا أنها ما أن بدأت أفكارها تتشوش فيما يخص ليس الطفل فحسب ، بل أبوته أيضا — حيث أن الثلاثين سنة لم تكن موجودة اطلاقاً في ذلك الكوخ — فان الطفل وأباه ، الذي لم يسبق لها أن رأته ، وحفيدها الذي لم تره منذ أن كان طفلا شأن الطفل الآخر ، والذي لم يكن أبوه موجودا بالنسبة اليها ، قد إختلطوا جميعا وما عادت قادرة على تمييز واحدهم من الآخر وأنه ، حين بدأ الأمل يتحرك فيها فعلا ، فقد كان عليها أن تستجير فورا بذلك الايمان السامي اللانهائي الذي يحمله أمثالها نحو أولئك الذين هم العبيد الطوعيون والرقيق المحلفون للصلاة ، الى القسيس . هذا ما كانت تقوله لكريسماس في السجن اليوم ، بعد أن كان الرجل العجوز قد اغتنم الفرصة وهرب منها ولحقت هي به الى البلدة ووجدته على زاوية الشارع مرة أخرى ، وقد جن جنونه وبح صوته ، وهو يعظ مطالبا بالشنق ، ويحكي للناس كيف أصبح جدا

www.ibtesama.com/vb

ببذرة الشيطان وأبقاها تحت الرعاية والصون لمثل هذا اليوم أو ربما كانت المرأة في طريقها الى السجن لتراه حين غادرت الكوخ وعلى أية حال فقد تركت الرجل العجوز لوحده خالما رأت أن جمهوره كان مستمتعا أكثر منه مستثارا ، ومضت في طريقها نحو المأمور كان قد عاد للتو بعد تناوله طعام الغداء ولم يستطع أن يفهم في البداية ما كانت تريده لابد وأنها بدت له كالمجنونة وهي تحكي له قصتها تلك ، مرتدية ثوب يوم الأحد المحترم على نحو مستحيل ، وتخطط لفرار من السجن ولكنه سمح لها بدخول السجن مع أحد نوابه وهناك ، وهي في الزنزانة مع حفيدها ، أعتقد أنها حكت له عن هايتاور وأن بامكان هذا انقاذه وسيسعى الى انقاذه . ولكني لا أعرف بالطبع ما قالته له لا أعتقد أن في وسع أي شخص أن يعيد بناء ذلك المشهد لا أظن أنها عرفت هي نفسها ، أو خططت على الأقل لما ستقوله ؛ لأنه كان قد سبق له أن كتب وصيغ لها في تلك الليلة التي حملت فيها بأمه ، والذي كان الآن قد أصبح قديما جدا بحيث أنها علمت به على نحو لا يمكن أن ينسى ثم نسيت الكلمات لهذا صدقها هو على الفور ربما ، من دون جدال أعني أنها لم تكن تكترث بما ستقوله ، بالقابلية للتصديق أو امكانية التصديق من جانبه أنه في مكان ما ، بطريقة ما ، في شكل أو حضور ذلك القسيس المنبوذ كان هناك ملاذ لا يمكن لأحد انتهاكه ، لا الشرطة ولا الغوغاء ولا حتى الماضي المتعذر ارجاعه ؛ ولا أية جرائم صاغته وشكلته وتركته أخيراً في بؤس وبلا ملجأ في زنزانة ذات قضبان لها شكل الجلاد الأولي أنى تطلع .وقد صدقها هو وأعتقد أن هذا هو الذي منحه ليس الشجاعة فحسب بل الصبر السلبي

www.ibtesama.com/vb

ليتحمل ويميز ويقبل الفرصة الوحيدة في أن يهرب في وسط تلك الساحة المزدحمة ، ويداه مقيدتان وأن يعدو ولكن هناك كثير من العدو معه ، خطوة بخطوة معه لم يكن أولئك مطاردين بل كانت نفسه سنوات ، أفعال ، تصرفات حذفت وارتكبت ، كلها تماشيه ، خطوة بخطوة ونفسا بنفس ، ودقة قلب بدقة قلب ، مستخدمة قلبا واحدا لم يكن ذلك هو مجرد تلك السنوات الثلاثين كلها التي لم تعرفها هي ، بل كانت تلك التتابعات المؤلفة كل واحد منها من ثلاثين سنة والتي سبقت تلك وضعت تلك الوصمة إما على دمه الأبيض أو دمه الأسود ، أيهما تريد ، والتي قتلته ولكن لابد وأنه كان يعدو ببعض الإيمان لفترة من الزمن ، بأمل على أية حال . ولكن ما كان ليهدأ ، يسمح له بانقاذه ما كان ممكنا للأمر أن يكون هذا أو ذاك فيترك جسده ينقذ نفسه لأن الدم الأسود قاده أولا الى كوخ الزنوج ثم طرده الدم الأبيض من هناك كما كان الدم الأسود هو الذي اختطف المسدس والدم الأبيض هو الذي لم يجعله يطلقه وكان الدم الأبيض هو الذي أرسله الى القسيس ، والذي اذ حمي فيه للمرة الأخيرة والنهائية أرسله ضد كل منطق وواقع نحو أحضان وهم يائس ، ايمان أعمى في شيء قُرىء في « كتاب » مطبوع ثم أعتقد أن الدم الأبيض تخلى عنه مؤقتا خلال ثانية ، برهة ، سمح للأسود بأن يحمى في لحظة النهائية ويجعله يهاجم ذلك الذي افترض أنه الأمل بنجاته كان الدم الأسود هو الذي اجتاحه برغبته الى ما وراء نطاق عون أي شخص ، اجتاحه نحو تلك النشوة الخارجة من غاب أسود حيث سبق للحياة أن توقفت قبل أن يتوقف القلب ويصبح الموت رغبة وانجازا ثم خانه الدم

www.ibtesama.com/vb

الأسود مرة أخرى ، كما حدث خلال الأزمات عبر حياته كلها لم يقتل القسيس ، بل ضربه فحسب بالمسدس وهرب وأقعى خلف تلك الطاولة وتحدى الدم الأسود للمرة الأخيرة كما كان يتحداه طوال ثلاثين سنة جثم خلف تلك الطاولة المقلوبة وتركهم يطلقون النار عليه حتى الموت وذلك المسدس المحشو في يده لم يطلق مرة واحدة

* * *

في ذلك اليوم كان يعيش في البلدة شاب اسمه « بيرسي غريم » كان في حوالي الخامسة والعشرين ويحمل رتبة نقيب في الحرس القومي للولاية . لقد ولد في البلدة وعاش فيها طوال حياته باستثناء الفترات التي قضاها في المخيمات الصيفية كان أصغر سناً من أن يكون قد شارك في « الحرب الأوربية(١) » ، رغم أنه لم يدرك حتى عام (١٩٢١) أو (١٩٢٢) أنه لن يغفر أبدا لوالديه تلك الحقيقة لم يفهم أبوه ، وهو تاجر خرداوات ، هذا الأمر ظن أن الولد كان كسولا فحسب وأنه أصبح تافها تماما ، حيث كان الولد يعاني في الواقع من المأساة الرهيبة ، مأساة أنه لم يولد في وقت متأخر جدا فحسب ، بل في وقت ليس متأخرا بما فيه الكفاية ليتمكن من النجاة من الاطلاع المباشر على الوقت الذي كان يتوجب فيه أن يكون رجلا بدلا عن أن يكون طفلاً والآن ، بعد ان انتهت الهيستيريا ،وأولئك الذين كانوا أصحاب أعلى الأصوات في الهستريا ، بل حتى أولئك ، أي الأبطال الذين عانوا وحاربوا ، حتى أولئك بدأوا ينظرون شزرا الى واحدهم الآخر الآن ، لم يعد

---

(١) يقصد الحرب العالمية الأولى (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

لديه من يحكي له ، من يفتح له قلبه . وفي الواقع ، فان أول شجار خطير له كان مع جندي سابق قال له ما معناه انه لو اضطر الى خوض الحرب مجددا فسوف يحارب هذه المرة على الجانب الألماني وضد فرنسا وعلى الفور قال له غريم

— وضد أمريكا أيضاً ؟

قال الجندي

— ان كانت أمريكا حمقاء بما فيه الكفاية لتساعد فرنسا مرة أخرى

وقد ضربه غريم على الفور كان أصغر حجما من الجندي ؛ كان لايزال مراهقا وكانت النتيجة محتومة ، حتى غريم كان على معرفة بذلك حتما ولكنه تلقى جزاءه حتى أن الجندي راح يرجو المتفرجين أن يمسكوا الصبي عنه وقد راح هو يتباهى بندوب ذلك الشجار باعتزاز كما كان سيرتدي لاحقا البزة نفسها التي قاتلها على نحو أعمى

كان القانون المدني — العسكري الجديد هو الذي أنقذه كان أشبه بشخص عاش فترة طويلة في مستنقع ، في الظلال كأنما لم يكن هو غير قادر على رؤية أية طريق أمامه فحسب ، بل كان يعرف أنه لا توجد أية طريق ثم انفتحت حياته فجأة على نحو محدد وواضح فالسنوات المهدورة التي لم يظهر فيها أية قدرات في المدرسة ، والتي عرف بها على أنه كسول ، حرون ، دون طموح ، أضحت الآن وراءه ، وقد طواها النسيان كان قادرا على أن يرى الآن حياته تتفتح أمامه ، دون تعقيد ودون مجال للنجاة كممر فارغ ، وأضحى متحررا الآن من الاضطرار الى التفكير و اتخاذ القرار ، والعبء

www.ibtesama.com/vb

الذي راح يحمله الآن كان لامعا وخفيفا وعسكريا مثل نحاس شارته العسكرية ايمان سام ومطاق بالشجاعة الجسدية والطاعة العمياء ، واعتقاد بأن العرق الأبيض متفوق على أي من العروق الأخرى وكل تلك العروق ، وأن الأمريكي متفوق على كل العروق الأخرى وأن البزة العسكرية الأمريكية متفوقة على الرجال ، وأن كل ما سيطلب منه لقاء هذا الايمان ، هذا الامتياز ، سيكون حياته بالذات وفي كل عيد قومي له أية نكهة عسكرية كان يرتدي بزة النقيب وينزل بها الى البلدة وكان أولئك الذين يشاهدونه يتذكرون مرة ثانية يوم الشجار مع الجندي السابق ، وكان هو يضع أيضا شارة الرامي (كان بارعا في الرمي) وشرائطه ، ويمشي بجدية وبقامة منتصبة بين المدنيين وقد بدا عليه اعتزاز نصف حربي ونصف خجول أشبه باعتزاز الصبية بأنفسهم

لم يكن عضوا في « الفيلق الأمريكي » ، ولكن كانت هذه غلطة أبويه وليس غلطته هو ولكن حين أحضر كريسماس من موتستاون في عصر يوم السبت ذاك ، كان قد سبق له وذهب الى قائد المركز العسكري المحلّي كانت أفكاره وكلماته بسيطة ومباشرة تماما قال

— علينا أن نجعل القانون يأخذ مجراه القانون هو الأمة ليس من حق أي مدني أن يحكم على شخص بالموت وعلينا نحن العسكرين في جفرسون ، أن نكفل ذلك

سأله قائد الفيلق

— وكيف عرفت أن هناك شخصا ما يخطط لحدوث خلاف ذلك ؟ هل سمعت أي حديث غن ذلك ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ لا أعرف لم أصغ

لم يكذب كأنه لم يكن يولي أهمية كافية لما قد يقوله المدنيون أو لا يقولونه حتى يكذب بهذا الشأن

ـ ليست هذه هي القضية انها قضية ان كنا نحن العسكريين ، الذي نرتدي البزة الرسمية ، سنكــون أولا نكــون أول من يؤكد على موقفه أن نري هؤلاء الناس أين هو موقف حكومة البلاد فيما يخص هذه الأمور أنه ان تكون هناك أية حاجة حتى للكلام

كانت خطته بسيطة تماما أن يتم تحويل مركز الفيلق الى فصيلة ويكون هو قائدها بواسطة السلطة الممنوحة له

ـ ولكن إن لم يكونوا يريدونني قائدا لهم ، فهذا حسن أيضا سأكون الثاني في القيادة اذا شاؤوا أو رقيبا أو عريفا

وكان يعي ما يقول لم يكن يريد مجدا فارغا كان مخلصا تماما مخلصا جدا ، جدياً جداً ، بحيث أن قائد الفيلق لم يصرح بالرفض الوقح الذي كان على وشك التلفظ به

ـ لا أزال أظن أنه لا حاجة هناك الى مثل ذلك اطلاقا ولو دعت الحاجة فعلا كنا سنتصرف كمدنيين جميعا ليس ممكنا استخدام مركز كهذا وعلى أية حال فنحن لسنا جنودا الآن لا أظن أني كنت سأقبل او استطعت

نظر غريم اليه ، دون غضب ، بل كأنه ينظر الى نوع من الحشرات، بالأحرى ثم قال بنوع من الصبر

ـ ومع ذلك فقد ارتديت البزة في مرة من المرات وأعتقد أنك لن تستخدم سلطتك لمنعي من التحدث اليهم ، أليس كذلك ؟ كأفراد ؟

www.ibtesama.com/vb

– لا ليست لدي سلطة التي تخولني فعل ذلك على أية حال
ولكن كأفراد فحسب ، انتبه الى هذه الناحية عليك ألا تستعمل
اسمي اطلاقا

ثم رماه غريم بواحدة من حسابه الخاص قال

– ليس من المحتمل أن أفعل ذلك

ثم رحل كان ذلك هو يوم السبت ، حوالي الرابعة بعد الظهر
وطوال بقية عصر ذلك اليوم دار غريم على الدكاكين والمكاتب حيث
يعمل أعضاء الفيلق ، حتى اذا ما حلّ الليل كان قد حرض ما يكفي
منهم لتشكيل فصيلة كان لا يعرف الكلل ، متضبطاً انما نشيطا
وكان يتمتع بخاصية لا تقاوم وله مزية الأنبياء . ومع ذلك فان المتطوعين
كانوا مع القائد بشرط واحد التسمية الرسمية للفيلق لا علاقة لها
بهذه المسألة وعلى أية حال فقد وصل دون نية متعمدة الى غايته
الأصلية فقد أصبح الآن قائدا وقد جمعهم معا قبل العشاء ووزعهم
على جماعات وعين ضباطا وهيئة قيادة أما الأصغر سنا ، أولئك
الذين لم يحاربوا في فرنسا ، فهم سيكونون عرضة للنار المناسبة الآن
وقد خطب فيهم باختصار وبرود « النظام مسار العدالة
لنجعل الناس يرون أننا قد ارتدينا بزة الولايات المتحدة وهناك
أمر آخر » كان قد هبط الى رفع الكلفة الآن انه قائد الفيلق الذي
يعرف رجاله بأسمائهم الأولى « سأترك هذا الأمر لكم أيها الشباب
سأفعل ما تقولونه أظن أنه سيكون من المناسب أن أرتدي بزتي حتى
تتم تسوية هذه القضية ، حتى يروا أن « العم سام » حاضر ليس بالروح
فحسب »

قال أحدهم بسرعة ، على الفور

www.ibtesama.com/vb

ـــ ولكنه ليس كذلك

كان واحدا من طراز القائد نفسه الذي لم يكن بالمنسبة حاضرا

ـــ هذه ليست مشكلة حكومية بعد . قد لا يعجب هذا « كنيدي » هذه مشكلة تخص جفرسون وليس واشنطن

قال غريم

ـــ سنجعله يعجب بها ما الذي يفعله فيلقكم ان لم يكن حماية أمريكا والأمريكيين ؟

قال الآخر

ـــ لا أعتقد أنه من الأفضل ألا نتباهى بهذه المسألة يمكننا أن نفعل ما نريد دون ذلك . هذا أفضل أليس هذا صحيحا يا شباب ؟

قال غريم

ـــ حسنا ، سأفعل كما تقول ولكن كل رجل في حاجة الى مسدس سنقوم بتفتيش على الأسلحة الصغيرة هنا خلال ساعة على كل رجل أن يعود الى هنا

قال أحدهم

ـــ وما الذي سيقوله « كنيدي » عن المسدسات ؟

قال غريم

ـــ هذا أمر سأهتم به عودوا الى هنا بعد ساعة بالضبط مع أسلحة جانبية

ثم صرفهم عبر الساحة الهادئة نحو مكتب المأمور قالوا له ان المأمور في البيت كرر

ـــ في البيت ؟ الآن ؟ ما الذي يفعله في البيت الآن ؟

www.ibtesama.com/vb

– يتناول الطعام على ما أظن على رجل في مثل ضخامته أن يأكل عدة مرات في اليوم

كرر غريم

– في البيت

لم يحملق كان على وجهه مرة أخرى ذلك التعبير البارد الحيادي الذي نظر به الى قائد الفيلق قال

– يتناول الطعام

خرج مسرعا عبر الساحة الفارغة مرة أخرى ، الساحة الهادئة الخالية من الناس الذين يجلسون الآن بهدوء الى موائد العشاء في تلك البلدة الهادئة والريف الهادىء ذهب الى بيت المأمور قال المأمور « لا » على الفور

– خمسة عشر أو عشرون شخصا يتحركون في أنحاء الساحة والمسدسات في بناطيلهم ؟ لا ، لا هذا غير وارد لا يمكنني الموافقة عليه هذا غير وارد اسمحوا لي بادارة هذه القضية

نظر غريم المأمور لبرهة أخرى ثم التفت وسار مسرعا قال

– حسنا ان كان هذا ما تريده لن أتدخل في أمورك ولن تتدخل في أموري اذن

لم يبد ذلك كتهديد فقد نطقه بصوت منخفض جدا ، حاسم جدا ، ودون حماسة استأنف السير مسرعا راح المأمور يراقبه ثم ناداه التفت غريم قال المأمور

– اترك مسدسك في البيت أيضاً أتسمعني ؟

لم يجب غريم استأنف السير راقبه المأمور حتى غاب عن أنظاره، مقطبا

www.ibtesama.com/vb

في ذلك المساء عاد المأمور الى البلدة بعد العشاء وهذا أمر لم يفعله منذ سنوات الا في الحالات الطارئة التي لا مهرب منها وهذه مفرزة من رجال غريم عند السجن ، وأخرى في دار المحكمة ، وثالثة تقوم بأعمال الدورية في الساحة والشوارع المجاورة أما الآخرون ، أي غير المناوبين ، فقد قيل للمأمور انهم في مكتب القطن حيث يعمل غريم ، وكانوا يستخدمونه كغرفة قيادة التقى المأمور بغريم في الشارع وهو يقوم بجولة تفتيشيةع قال المأمور

– تعال الى هنا يا شاب

توقف غريم لم يقترب من المأمور فذهب هذا اليه ربت على كفل غريم بيد سمينة ، وقال

– قلت لك أن تترك هذا في البيت

لم يقل غريم أي شيء راح يراقب المأمور بهدوء تنهد المأمور قال

– حسنا ان كنت لا تريد ذلك فأعتقد أن علّي أن أعينك كنائب خاص ولكن غير مسموح لك بأن تبرزه الا اذا سمحت لك هل تسمعني ؟

قال غريم

– لا ، بكل تأكيد أنت لا تريدني طبعا أن أشهره ان لم تدع الحاجة الى ذلك

– أعني ليس قبل أن أسمح لك

قال غريم دون غضب ، بصبر وعلى الفور

– بكل تأكيد هذا ما قلناه كلانا لا تقلق ، سأكون هناك

www.ibtesama.com/vb

وفي وقت لاحق ، وحين هدأت البلدة مع حلول الليل ، وحين فرغت دور السينما من روادها وأغلقت المحلات الواحد اثر الآخر ، بدأ فصيل غريم يتناقص أيضا . لم يبد هو احتجاجا بل راح يراقبهم ببرود أمسوا خائفين قليلا وفي موقف دفاعي ومن جديد ، ودون علم منه ، فقد رمى بورقة رابحة فبسبب احساسهم بالخوف وشعورهم بأنهم لم يكونوا على مستوى حماسته الرزينة ، فقد كانوا سيعودون غدا ولو بغرض ارضائه فحسب بقيت قلة منهم كانت تلك هي ليلة السبت على أية حال ، وقد جلب أحدهم المزيد من الكراسي من مكان ما وبدأوا يلعبون البوكر وقد لعبوا طوال الليل ، رغم أن غريم كان بين الحين والآخر (لم يشارك في اللعبة ولم يسمح لمن يليه في القيادة ، وكان الوحيد بين الموجودين الذي يحمل رتبة ضابط ، باللعب يضا) يرسل دورية تجوب الساحة وفي هذه الأثناء كان المفوض الليلي قد أصبح واحدا منهم ، رغم أنه لم يشترك في اللعب أيضا

كان يوم الأحد هادئا وقد جرت لعبة البوكر بهدوء خلال تلك الليلة ، وكانت لا تقطعها سوى الدوريات المتكررة في فترات منتظمة ، بينما راحت أجراس الكنيسة الهادئة تدق ورعايا الكنيسة يتجمعون في تكتلات محتشمة ملونة بألوان الصيف. في أنحاء الساحة كان قد سبق وأصبح معروفا أن « هيئة المحلفين الكبرى » ستجتمع غدا وبطريقة ما بدأت رنة هذه الكلمات الثلاث وسرها الموحي ووجود عين خفية لا تنام كلية القدرة تراقب أفعال الناس ، بدأت تعيد الثقة الى رجال غريم بادعاءاتهم . اذن فالانسان سرعان ما يتأثر ، دون قصد وعلى نحو لا يمكن التنبؤ به ، حتى أن السكان دون أن يعرفوا أنهم كانوا يفكرون بالأمر ، قبلوا غريم فجأة وبكل احترام ، وببعض

www.ibtesama.com/vb

الخوف ربما وبنوع من الايمان والثقة النعليين ، كأن بصيرته ووطنيته واعتزازه بالبلدة كانت أسرع وأصدق من بصيرتهم ووطنيتهم واعتزازهم هم على نحو ما وقد تولى رجاله ذلك وقبلوا به والآن بعد تلك الليلة الساهرة ، والتوتر ، ويوم العطلة ، والأرملة الهندوسية(١) لاستسلام الارادة ، فقد وصلوا الآن تقريبا الى الحد الذي يبذلون أرواحهم معه في سبيل غريم، عندما تسنح الفرصة كانوا يتحركون الآن ضمن نور منعكس مهلك ومفزع ، كان الآن تقريبا ملموساً كالخاكي الذي أرادهم غريم أن يرتدوه ، تمنى لو ارتدوه ، كأنما كانوا في كل مرة يعودون فيها الى غرفة القيادة كانوا يلبسون أنفسهم مجددا قصاصات من أحلامه مصقولة ورائعة على نحو متقشف

استمر هذا طوال ليلة الأحد ظلت لعبة البوكر تجري كان الحذر والسرية اللذان ساداها قد انقضيا الآن كان فيها شيء ما شديد الطمأنينة ويوحي بالثقة الهادئة بالنسبة الى الشخص المتبجح وهذه الليلة حين سمعوا صوت أقدام المفوض على الدرج ، قال أحدهم « احذروا الشرطة العسكرية » ، وللحظة نظروا الواحد منهم الى الآخر بعيون قاسية ، لامعة ، ومتهورة ثم قال أحدهم بصوت مرتفع تماما: « اطردوا ابن العاهرة خارجاً » وأصدر آخر عبر شفتين مزمومتين ذلك الصوت الموغل في القدم وهكذا حدث في صباح اليوم التالي ، وكان يوم الاثنين ، وحين بدأت أول السيارات والعربات الريفية تتجمع ، أن الفصيل كان لايزال متماسكا وكانوا يرتدون البزات الآن كان هناك شيء في وجوهم فقد كان معظمهم يتحلون بسن

(١) الأرملة التي تحرق نفسها في محرقة زوجها دليلا على الاخلاص والتفاني (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

متقدمة ، وينتمون الى جيل معين ومن ذوي التجربة ولكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك كانوا يتحلون الآن بجدية عميقة وكيئبة وهم واقفون حيث الجماهير تطوف ، بجدية وصرامة وبدون تحيز ، ينظرون بعيون فارغة كئيبة الى الحشود البطيئة التي كانت ، وهي تشعر وتحس دون أن تعرف ، تسير على غير هدى أمامهم ، ببطء ، وتحديق ، لكي يحاطوا بوجوه جذلة وفارغة وساكنة كوجوه البقر ، تقترب وتبتعد ، لتستبدل وطوال الصباح كانت الأصوات تأتي وتذهب في سؤال وجواب هادئين « ها هو يذهب الشاب ذو المسدس الآلي انهم قائدهم ضابط خاص أوفده الحاكم انه المسؤول عن الأمر كله ليس للمأمور أي دخل اليوم »

وفيما بعد ، وبعد فوات الأوان ، قال غريم للمأمور

— لو أنك أصغيت لي فحسب دعني أخرجه من تلك الزنزانة ضمن مفرز من الرجال ، بدلا عن ارساله عبر الساحة مع نائب واحد دون أن يقيد اليه، ضمن كل ذلك الحشد من الناس بحيث لم يستطيع « بوفورد » اللعين ذاك أن يطلق النار ، حتى لو كان قادرا على اصابة باب مخزن للحبوب

قال المأمور

— وكيف لي أن أعرف أنه كان ينوي الهرب ، أنه سيفكر في المحاولة في ذلك الزمان والمكان ؟ خاصة بعد أن أبلغني ستيفنز أنه ينوي أن يعترف بالجريمة لينال عقوبة السجن المؤبد ؟

ولكن كان قد فات الأوان كان الأمر قد انقضى في ذلك الحين وقد حدث ما حدث في منتصف الساحة ، في منتصف الطريق بين

www.ibtesama.com/vb

الممشى الجانبي ودار المحكمة ، في وسط حشد من الناس كثيف كما في « يوم المعرض » ، رغم أن غريم لم يعرف بما حدث إلا حين سمع مسدس النائب يطلق مرتين في الهواء وقد ادرك على الفور ما حدث ، رغمأنه كان في تلك الأثناء داخل دار المحكمة وكان رد فعله محددا ومباشرا كان قد سبق له وراح يعدو نحو مصدر الطلقتين حين صرخ ملتفتا نحو الرجل الذي كان له منذ ثمانية وأربعين ساعة نصف مساعد ونصف وصيف

— أطلق انذار الحريق !

قال المساعد

— انذار الحريق ؟ ما ؟

— اطلق انذار الحريق !

هذا ما رد به غريم صارخا واستأنف

— لايهم ما يظنه الناس ، نريدهم أن يعرفوا أن شيئا ما

لم ينه كلامه ، فقد كان قد غاب عن الأنظار

ركض بين الناس الراكضين ، وراح يتخطاهم ويتجاوزهم حيث كان لديه هدف ولم يكن لديهم مثل ذلك ؛ كانوا يركضون فحسب ، وكان المسدس الآلي الأسود الكليل الضخم يشق له طريقاً كأنه محراث كانوا ينظرون الى وجهه الشاب القاسي المتوتر المبيض فاغر الفم ، ذي الثغرات المدورة ذات الأسنان ، وقد بدر عنهم صوت واحد طويل كأنه تنهيدة مغمغمة « هناك ذهب من هناك » ولكن كان قد سبق لغريم أن رأى النائب يعدو ، وهو يرفع مسدسه عاليا بيده نظر غريم مره واحدة في أرجاء المكان وقفز مجددا نحو

www.ibtesama.com/vb

الأمام ضمن الحشد الذي كان يماشي على ما يبدو النائب والسجين عبر الساحة كان الشاب المتثاقل المحترم في بزة « الاتحاد الغربي » يقود دراجته من القرنين كأنها بقرة طيعة أعاد غريم مسدسه الى الجراب ورمى بالشاب من الدراجة وقفز عليها دون أي انقطاع في الحركة

لم يكن للدراجة بوق أو جرس ، ولكنهم أحسوا به بطريقة ما وابتعدوا عن طريقه وفي هذا أيضا بدا عليه أن الثقة كانت تخدمه ، الايمان الأعمى الكامل في صحة تصرفاته وعصمتها عن الخطأ وحين لحق بالنائب الراكض أبطأ الدراجة التفت اليه النائب بوجه متعرق ، فاغر الفم ، وهو يصرخ ويعدو صرخ النائب

– لقد انعطف ، الى ذلك الزقاق عند

قال غريم

– أعرف هل كان مقيد اليدين ؟

قال النائب

– أجل !

قفزت الدراجة نحو الأمام

فكر غريم « اذن لا يستطيع أن يعدو بسرعة سيكون عليه أن يختبىء قريباً أن يبتعد عن الأرض المكشوفة على أية حال » انعطف في الزقاق ، مسرعا كان الزقاق يفصل بين منزلين وله حاجز عريض على أحد جانبيه في تلك اللحظة دوى صوت انذار الحريق للمرة الأولى ، ابتدأ ثم تصاعد الى صراخ بطيء متواصل بدا في النهاية أنه يتجاوز عالم السمع ، الى عالم الحس ، كالتذبذب الصامت تابع غريم على الدراجة ، مفكراً بسرعة ، بمنطق ، بنوع من المتعة الشديدة

www.ibtesama.com/vb

المكبوحة « سيكون أول شيء يريده هو الابتعاد عن الأنظار » ، هذا ما فكر به وهو يستطلع المكان بعينيه من هذه الناحية كان الزقاق مفتوحا ، ومن الأخرى كان هناك حاجز من الألواح الخشبية بارتفاع ستة أقدام في النهاية كان الزقاق مقطوعا ببوابة خشبية ، كان وراءها مرعى ثم حفرة عميقة كانت من معالم البلدة كانت قمم الأشجار العالية التي تنمو فيها هي فحسب التي تظهر من فوق حافتها يمكن لفوج أن يختبىء وينتشر فيها قال بصوت مرتفع « آه » ، ودون أن يتوقف أو يبطىء سرعته ، فقد أدار الدراجة وعاد بها نازلاً الزقاق نحو الشارع الذي غادره للتو كان صوت صفارة الانذار يحتضر الآن ، وينزل عائدا الى السمع مرة أخرى ، بينما راح يبطىء الدراجة داخلا الشارع رأى بسرعة الناس الراكضين وسيارة تتجه نحوه ورغم سرعته لحقت به السيارة وأطل منها ركابها وهم يصرخون باتجاه وجهه المصمم الناظر الى أمام صرخوا « تعال معنا تعال الى هنا » لم يجب لم ينظر اليهم كانت السيارة قد تجاوزته ، مبطئة والآن مر هو بها بسرعة وثبات وصمت ، ومن جديد أسرعت السيارة وتجاوزته ، والرجال يطلون منها وينظرون الى الأمام كان مسرعا أيضاً ، صامتاً ، بتلك السرعة الرقيقة التي تميز الأشباح ، بالثبات العنيد الذي يميز « القوة الماحقة » أو « القدر » ، خلفه كانت صفارة الانذار قد بدأت تعول مجددا وحين نظر الرجال اليه مرة أخرى من السيارة ، كان قد اختفى تماما

كان قد انعطف بالسرعة القصوى الى زقاق آخر كان وجهه صخريا ، هادئا ، ولا يزال مشرقا بذلك التعبير عن الانجاز ، عن

www.ibtesama.com/vb

المتعة الجديدة والمتهورة كان هذا الزقاق أكثر أخاديد من الآخر ، وأعمق وكان ينتهي بهضبة مجدبة حيث قفز الى الأرض بينما تابعت الدراجة مسيرها ، فسقط ، واستطاع أن يرى الامتداد الكامل للوادي على طول حافة البلدة ، ولكن المنظر كانت تقطعه بضعة أكواخ على حافتها كان بلا حراك تماما ، هادئا ، وحيدا ، مشؤوما كأنه معلم من المعالم الهامة تقريبا ومن جديد ، ومن البلدة الواقعة خلفه ، بدأ زعيق صفارة الانذار يهبط

ثم رأى كريسماس رأى الرجل ، ضئيلا عن بعد ، رآه يظهر خارجا من الحفرة ويداه موثقتان معا ، وبينما راح غريم يراقب يدي الطريد تلتمعان مرة واحدة كما يلتمع المشماس وذلك حين ضربت الشمس أصفاده ، بدا له أنه يستطيع أن يسمع من هنا لهاث وتنفس الرجل البائس الذي لم يكن حراً حتى الآن ثم عدا الشكل الضئيل مرة أخرى واختفى خلف أقرب كوخ زنجي

ركض غريم أيضا الآن ركض بسرعة ، ومع ذلك لم تكن السرعة تبدو عليه ، ولا الجهد لم يكن فيه أي شيء يوحي بالانتقام ، ولا غضب ولا حنق رأى كريسماس ذلك بنفسه فقد نظر أحدهما الى الآخر لبرهة ، ووجها لوجه تقريبا كان ذلك حين كان غريم ، وهو لايزال يعدو ، على وشك المرور الى ما وراء زاوية الكوخ في تلك اللحظة قفز كريسماس من النافذة الخلفية للكوخ وبجهد أشبه بالسحر ، فقد رفع يديه الموثقتين عاليا وكانتا تلتمعان كأنهما تخترفان حملق أحدهما في الآخر لبرهة ، فتوقف أحدهما وهو يقرفص بسبب القفزة ، والآخر في منتصف حركة العدو ، الى أن حمل زخم انطلاقة

www.ibtesama.com/vb

غرتم ، حمله الى ما وراء الزاوية في تلك البرهة الخاطفة رأى أن كريسماس كان يحمل الآن مسدسا ثقيلا ذا صفائح من النيكل دوم غريم واستدار وقفز عائدا عبر الزاوية وهو يسحب مسدسه الآلي

كان يفكر بسرعة ، بهدوء ، بتلك الفرحة الهادئة « يمكنه أن يفعل أمرين يمكنه أن يجرب الحفرة مرة أخرى ، أو يستطيع أن يختبىء خلف المنزل حتى تصيب طلقة واحداً منا والحفرة على ذلك الجانب المنزل القريب منه » وقد تصرف على الفور ركض بأقصى سرعة من حول الزاوية التي عبرها للتو وقد فعل ذلك كأنما هو يتمتع بحماية السحر أو القدرة الالهية ، أو كأنه يعرف أن كريسماس لن يكون في انتظاره هناك مع المسدس كما عبر الزاوية الثانية دون توقف

كان قريبا من الحفرة الآن توقف ، دون حراك في منتصف الخطوة فوق المشط الكليل البارد للمسدس الآلي. كانت لوجهه تلك اللمعة الهادئة اللا أرضية التي تتحلى بها الملائكة المرسومة على نوافذ الكنيسة. كان يتحرك ، قبل أن يتوقف تقريبا ومن جديد ، بتلك الطاعة الرشيقة السريعة العمياء لأي « لاعب » يحركه على « الرقعة » ركض الى الحفرة ولكنه في بداية قفزته نحو الأسفل الى الشجيرات الكثيفة التي كانت تخنق المنحدر الحاد ، التفت وهو يتشبث بأظافره رأى الآن أن الكوخ كان أعلى بمقدار قدمين عن الأرض لم يكن قد لاحظ ذلك من قبل بسبب عجلته عرف الآن أنه قد خسر نقطة أن كريسماس كان يراقب ساقيه طوال الوقت من تحت المنزل قال « رجل طيب »

www.ibtesama.com/vb

حملته اندفاعته نحو الأسفل مسافة كبيرة قبل أن يتمكن من الوقوف ويعود ليتسلق خارجا من الحفرة . بدا عليه أنه غير قابل للشعور بالتعب ، ليس رجلا من لحم ودم ، كأنما كان « اللاعب » الذي يحركه كأنه « بيدق » قد راح يزوده بالأنفاس ، ودون أن يتوقف ، وبالاندفاعة نفسها التي حملته الى خارج الحفرة ، راح يعدو مجددا ركض من حول الكوخ في الوقت الملائم ليرى كريسماس يقفز من فوق سياج على مسافة ثلاثمئة ياردةعلم يطلق النار لأن كريسماس كان يعدو الآن عبر حديقة صغيرة ونحو أحد المنازل مباشرة وبينما راح يعدو رأى كريسماس وهو يقفز صاعدا الدرج الخلفي ويدخل المنزل . قال غريم

— هاهه ! منزل الواعظ منزل هايتاور

لم يبطئ ، رغم أنه انحرف ودار من حول المنزل وهو يعدو ثم الى الشارع كانت السيارة التي تجاوزته وأضاعته ثم عادت ، في المكان الذي يتوجب عليها أن تكون فيه ، أي حيث أرادها « اللاعب » أن تكون توقف دون اشارة منه وخرج منها ثلاثة رجال ودون أن يتلفظ بكلمة واحدة التفت غريم وركض عبر الباحة ثم دخل المنزل الذي يعيش فيه القيس العجوز المجلل بالعار لوحده ، ولحق به الرجال الثلاثة ، يندفعون الى البهو ، يتوقفون ، يجلبون معهم الى عتمته الراكدة الصومعية شيئا من نور شمس الصيف المتوحشة التي تركوها للتو

كانت فوقهم ، منهم وحشيتها الوقحة . منها كانت وجوههم تبدو وكأنها تتوهج باثارة غير مادية كأنما هي هالات وهم ينحنون ليرفعوا هايتاور ، ووجهه مدمى ، من على الأرض حيث كان كريسماس

قد أسقطه وهو يعدو قاطعا البهو ويداه المرفوعتان والمسلحتان والموثقتان مايئتان بالتوهج والالتماع كالصاعقة ، حتى كان أشبه بإله منتقم وغاضب ينطق بقدر مشؤوم أوقفوا الرجل العجوز على قدميه سأله غريم وهو يهزه

— أية غرفة ؟ أية غرفة أيها العجوز ؟

قال هايتاور

— أيها السادة !

ثم قال

— أيها الرجال ! أيها الرجال !

صرخ به غريم

— أية غرفة أيها العجوز ؟

أمسكوا بهايتاور وهو واقف على قدميه في البهو المعتم ، بعد نور الشمس ، كان هو أيضا برأسه الصلعاء ووجهه الشاحب الكبير المخطط بالدم ، رهيب المنظر صرخ

— أيها الرجال ! اسمعوني كان هنا في تلك الليلة كان معي في ليلة الجريمة أقسم بالله

صرخ غريم

— يا للمسيح !

كان صوته الشاب واضحا وغاضبا كصوت قسيس شاب

— هل أنزل كل واعظ وعانس في جفرسون سراويلهم أمام ابن القحبة الجبان ؟

أزاح العجوز جانبا وتابع طريقه مسرعا

www.ibtesama.com/vb

كأنما كان ينتظر فحسب أن يحركه « اللاعب » مرة أخرى ، لأنه ركض مباشرة بتلك اليقينيّة التي لا تخطىء نحو المطبخ ثم الى البوابة ، وهو يطلق النار على نحو مسبق ، حتى قبل أن استطاع رؤية الطاولة وقد قلبت وأصبحت تقف على حافتها عبر زاوية الغرفة ، واليدان اللامعتان المتوهجتان للرجل الذي أقعى خلفها تستريحان فوق الحافة العليا أفرغ غريم خزان المسدس الآلي في الطاولة وقد غطى فيما بعد كل الطلقات الخمس بمنديل مطوي

ولكن « اللاعب » لم يكن قد فرغ بعد حين وصل الآخرون الى المطبخ رأوا الطاولة وقد أزيحت جانبا وغريم منحنيا فوق الجسد وحين اقتربوا ليروا ما يفعله ، رأو أن الرجل لم يمت بعد ، وحين رأوا ما كان يفعله غريم صرخ أحد الرجال صرخة مخنوقة ثم رجع الى الجدار متعثرا وبدأ يستفرغ ثم قفز عزيم أيضا نحو الخلف ، وهو يرمي خلفه سكين الجزار الدامية قال

— والآن ستترك النساء البيضاوات وشأنهن ، حتى في جهنم

ولكن الرجل الذي على الأرض لم يكن قد تحرك بل بقي ممدودا هناك وعيناه مفتوحتان وفارغتان من كل شيء عدا الوعي ، وعلى فمه شي ما ، ظل ما وللحظة طويلة رفع نظره اليهم بعينين مسالمتين لاقرار لهما ويصعب احتمالهما ثم بدا وجهه وجسده كله بالانهيار ، يتهاوى على نفسه ، ومن الثياب الممزقة عند وركيه وعورته بدا الدم الأسود الحبيس يندفع كنفس مزفور بدا كأنه يندفع خارجا من جسده الشاحب كاندفاع الشهب من صاروخ آخذ بالارتفاع وفوق ذلك الانفجار الأسود بدا الرجل كأنه ينهض منتفخا في ذاكراتهم الى أبد الآبدين . لن ينسوه أبدا ، ولو كانوا في وديان هادئة أو قرب

www.ibtesama.com/vb

أية جداول هادئة ومطمئنة في الشيخوخة ، وفي الوجوه المرآتية لأية أطفال ، سيتأملون في الكوارث القديمة والآمال الجديدة سيبقى هناك ، هادئا ، ثابتا ، دون أن يبهت ودون أن يكون مهددا على نحو خاص ، ولكنه بحد ذاته هادئ ، ومنتصر بحد ذاته فقط ومن جديد تصاعد زعيق جرس الانذار ، وقد كتمته الجدران قليلا ، تصاعد على نحو لا يصدق ، وعبَر الى خارج نطاق السمع

* * *

www.ibtesama.com/vb

الفصل العشرون

والآن اضمحل آخر نور نحاسي للعصر ، أضحى الشارع الواقع الى ماوراء أشجار القيقب الواطئة واللافتة الواطئة مستعدا وفارغا ، مؤطرا بنافذة غرفة المكتب كمسرح ــ ــــ ــــ ــــ ــــ

يستطيع أن يتذكر كيف أنه حين كان شابا ، وكيف أنه بعد أن وصل الى جفرسون من المعهد اللاهوتي ، كيف كان ذلك النور النحاسي الآخذ بالاضمحلال يبدو كأنه مسموع تقريبا ، كانخفاض أصفر محتضر للأبواق المحتضرة في فترة صمت وانتظار التي تعود لتظهر منه في الوقت الحاضر لقد حدث ، حتى قبل أن تصمت الأبواق الخافتة ، أنه قادر على سماع الرعد المبتدئ حتى قبل أن يكون أعلى من همسة ، اشاعة ، في الهواء

ولكنه لم يسبق له أن حكى هذا لأي شخص كان ولا حتى لها ولا حتى لها في تلك الأيام حين كانا لايزالان عاشقي الليل ، ولم يكن العار والخلاف قد حلا وكانت تعرف ولم تكن قد نسيت بالخلاف والندم ثم اليأس لماذا كان يجلس هنا عند هذه النافذة وينتظر هبوط الليل ، لحظة الليل الأولى . لم يحك حتى لها ، لتلك المرأة . « المرأة » المرأة (ليس المعهد اللاهوتي كما اعتقد ذات مرة) « السلبية »

www.ibtesama.com/vb

و«المجهولة الاسم » التي خلقها الله لكي لا تكون هي المتلقي الوحيد والوعاء الوحيد لبذرة جسده بل روحه أيضا ، التي هي الحقيقة أو ما هو أقرب شيء الى الحقيقة يتجرأ أن يقترب منه

كان الطفل الوحيد لأبويه وحين ولد كان أبوه في الخمسين من العمر ، وأمه مريضة عاجزة منذ أكثر من عشرين عاما وقد كبر وهو يعتقد أن ذلك كان نتيجة الطعام الذي كان عليها أن تعتاش عليه خلال السنة الأخيرة من « الحرب الاهلية(١) » ربما كان ذلك هو السبب لم يكن لدى أبيه أي أرقاء ، رغم أنه كان ابن رجل كان يمتلك رقيقا في ذلك الحين كان بامكانه امتلاكهم ولكنه رغم ولادته وتنشئته وسكنه في عصر وارض كان الرقيق فيهما أقل تكلفة من عدم امتلاكهم ، الا أنه كان يرفض تناول الطعام الذي يزرعونه ويطبخونه ، أو النوم في سرير رتبه رقيق زنجي لذا فقد حدث خلال الحرب وأثناء غيابه عن المنزل ، أن زوجته لم يكن لديها حديقة تزرعها لذا اعتمدت على ما تستطيع أن تصنعه بنفسها أو على ما كان الجيران يهبونه لها بين الحين والآخر ولكن زوجها ما كان يسمح لها بقبول تلك المساعدة من الجيران حيث أنه كان متعذرا وفاؤه عيناً كان يقول

— الله سيزودنا

— يزودنا بماذا ؟ بالهندباء وأعشاب الخنادق ؟

— ثم سيمنحنا الاحشاء التي تهضمها

كان قسيسا . وكان منذ عام يغادر المنزل صباح كل يوم أحد قبل أن يكتشف أبوه (كان هذا قبل زواج الابن) الذي رغم كونه عضوا

---

(١) يعني الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ – ١٨٦٥)
(المترجم)

www.ibtesama.com/vb

ذا شأن في كنيسة أسقفية بروتستانتية لم يكن قد دخل أي كنيسة حسب ما يتذكر الابن ، أين كان يذهب لقد اكتشف أن الابن، الذي بلغ الواحدة والعشرين آنذاك ، كان يركب مسافة ستة عشر ميلا كل يوم أحد ليعظ في كنسة مشيخية بروتستانتية في الجبال ضحك الأب أصغى الابن الى الضحكة كأنه يصغي الى صراخ أو سبات بحياد بارد ومحتوم ، دون أن يقول شيئا : وفي يوم الأحد التالي عاد الى رعاياه .

وحين اندلعت الحرب لم يكن الابن بين أول من ذهبوا اليها ولا بين آخرهم وقد بقي مع الجنود أربع سنوات ، رغم أنه لم يطلق النار وكان يرتدي بدلا عن البزة العسكرية المعطف الداكن الذي اشتراه ليتزوج به والذي استعمله ليعظ به - حين عاد الى البيت في عام (١٨٦٥) كان لايزال يرتديه ، رغم أنه لم يلبسه مرة أخرى بعد ذلك اليوم الذي توقفت فيه العربة عند الدرج الأمامي وأنزله رجلان منها وحملاه الى المنزل ووضعاه في السرير أزاحت زوجته المعطف عنه وخبأته في صندوق في العلبة وقد بقي هناك خمسة وعشرين عاما حتى فتح ابنه الصندوق ذات يوم وأخرجه ونظر الطيات التي رتبتها يدان لم تعودا على قيد الحياة الآن

تذكر الابن ذلك ، وهو جالس في النافذة المعتمة في غرفة المكتبة الهادئة منتظرا أن ينتهي الغسق ووصول الليل والحوافر المسرعة كان النور النحاسي قد اختفى تماما الآن وأضحى العالم معلقا في مزيج أخضر اللون ونسيج كما النور عبر الزجاج الملون سرعان ما سيحل وقت البدء بقول قريباً الآن . الآن قريباً يفكر « كنت في الثامنة آنذاك . وكان المطر يهطل » يبدو أنه يستطيع أن يتذكر حتى الآن رائحة المطر ، الأسى الرطب لتربة تشرين الأول ، والتثاؤب العفن مع رفع غطاء

www.ibtesama.com/vb

الصندوق الى الأعلى . ثم الثوب والطيات المتقنة . لم يكن يعرف ما هو ، لأن استحضار يدي أمه الميتة اللتين كانتا لاتزالان متلبثتين بين الطيات قد استبد به في البداية ثم فتح الصندوق متهاويا ببطء بالنسبة اليه ، الطفل ، بدا الصندوق ضخما على نحو لا يصدق ، كأنه مصنوع لأجل مارد ، وكأن الثوب كونه ارتدي من قبل أحد المزدة قد اكتسب خصائص تلك الأشباح التي كانت تلوح بطولية وهائلة أمام خلفية من الرعد والدخان والرايات الممزقة التي كانت تملأ يقظته ومنامه

كان الثوب صعبا على التمييز بسبب كثرة الرقع فهناك رقع جلدية خاطها رجل ، غير متقنة ، ورقع من بزة للجيش الكونفدرالي (الجنوبي) الرمادية وقد تحول لونها بفعل الزمن الى البني ، ورقعة أخرى جعلت قلبه يتوقف : كـــانت ، زرقـــاء ، زرقاء داكنة ، زرقة علم الولايات المتحدة (الجيش الشمالي) وبينما هو ينظر الى تلك الرقعة ، الى القماش الأخرس مجهول الاسم ، فان الصبي ، الطفل الذي ولد في خريف حياتي أمه وأبيه ، والذي كانت أعضاؤه قد سبق لها وراحت تتطلب اهتمام ساعة سويسرية لا يفتر ، هذا الصبي مر بتجربة نوع من الرعب المكبوت والمنتصر مريضا بعض الشيء

في تلك الليلة لم يستطع أن يتناول طعام العشاء رفع الأب الذي كان قريبا من الستين الآن ، رفع نظره ليجد الطفل يحدق اليه برعب وبخوف وبشيء آخر ثم قال الرجل « ما الذي أنت بصدده الآن ؟ » ولم يستطع الطفل أن يجيب ، أن يتكلم ، بل ظل يحدق الى أبيه وعلى وجهه الطفولي تعبير جهنمي في تلك الليلة لم يستطع النوم تمدد بتيبس ، دون ارتجاف ، في سريره المعتم بينما كان الرجل الذي هو أبوه والقريب الوحيد المتبقي له ، والذي كان يفصل بينه وبين ابنه

www.ibtesama.com/vb

مسافةعظيمةزمانيالا يمكن حتى لعقود السنين قياسها، ولم يكن بينهما أي تشابه جسدي ، كان هذا الأب ينام على مسافة جدران وطوابق بعيدا عنه وفي اليوم التالي عانى الطفل من احدى النوبات المعوية ولكنه رفض أن يبلغ عن ذلك ، حتى المرأة الزنجية التي كانت تدير شؤون المنزل ، وكانت له أماً ومربية ، رفض أن يبلغها وبالتدريج كانت قوته تعود اليه ثم حدث في أحد الأيام أن انسل مرة أخرى الى العلية وفتح الصندوق وأخرج المعطف ولمس الرقعة الزرقاء بذلك الانتصار المترع بالرعب والفرحة الممرضة والتساؤل عما اذ كان أبوه قد قتل الرجل الذي أخذت من معطفه الأزرق تلك الرقعة ، متسائلا برعب أشد عن عمق وقوة رغبته وخوفه من المعرفة ولكن حدث في اليوم التالي ، حين عرف أن أباه قد ذهب ليعود أحد مرضاه الريفيين وان يعود قبل حلول الظلام ، أن ذهب الى المطبخ وقال للمرأة الزنجية « احكي لي عن جدي . كم واحدا قتل من اليانكي ؟ » وحين أصغى الآن كان ذلك دون رعب . لم يكن ذلك انتصارا كان فخرا

كان ذلك الجد هو الشوكة الوحيدة في جنب ابنه ما كان الابن سيقول ذلك أكثر مما كان سيفكر فيه ، أكثر مما كان سيخطر لأي منهما أن يتمنى على نحو متبادل أن يمنح ابنا مختلفا أو أبا مختلفا كانت علاقاتهما مسالمة بما فيه الكفاية ، وهي من جانب الابن تحفظ بارد دون ظرف ، مترع باحترام آلي ، ومن جانب الأب ظرف صريح ، مباشر ، حيوي على نحو قظ ويفتقر الى الفحوى أقل مما يفتقد الى سرعة البديهة لقد عاشا على نحو ودي بما فيه الكفاية في ذلك المنزل المؤلف من طابقين في البلدة ، رغم أن الابن رفض لبعض الوقت ، بهدوء وثبات ،

www.ibtesama.com/vb

أن يأكل أي طعام تحضره العبدة التي ربته منذ طفولته المبكرة كان يطبخ طعامه بنفسه في المطبخ ، رغم سخط المرأة الزنجية وحنقها ، ويضعه على المائدة بنفسه ويأكله مواجها أباه الذي كان يحييه بحرص على الشكليات ودائما بكأس من ويسكي البوربون وهذا ما رفض الابن لمسه ولم يذقه أبدا

وفي يوم زفاف الابن سلّم الأب المنزل كان ينتظر عند الرواق ، ومفتاح المنزل في يده حين وصل العروسان ارتدى قبعته وعباءته كان قد كوم الى جانبه حوائجه الشخصية ووقف خلفه العبدان اللذان كان يمتلكهما الطباخة الزنجية و«غلامه» ، وهو رجل أكبر سنا منه لم يكن قد تبقى في رأسه شعرة واحدة ، وكان أيضا زوج الطباخة لم يكن صاحب مزرعة ، بل كان محاميا تعلم القانون كما كان ابنه سيتعلم الطب ، أي « بالقوة البدنية ومباركة وحظ الشيطان » كما أفاد كان قد سبق له واشترى لنفسه منزلا صغيرا يبعد مسافة ميلين في قلب الريف ، وقد كانت عربته وحصاناه المتشابهان متوقفان أمام الرواق ينتظران بينما وقف هو ، وقبعته قد أميلت الى الخلف وساقاه منفرجتان — رجل معافى ، صريح ، أحمر الأنف ، ذو شارب أشبه بشارب زعيم عصابة من قطاع الطرق — بينما الابن ، والكنة التي لم يسبق له أن رآها من قبل ، يدخلان الممر من البوابة وحين انحنى وحياها شمت هي رائحة الويسكي والسيجار قال « أعتقد أنك ستكونين زوجة مناسبة » كانت عيناه صريحتين وجريئتين انما لطيفتان « كل ما تريده تلك اللعنة المتظاهرة بالتقوى مغنية تستطيع ان تغني بأخفض الأصوات من كتاب تراتيل مشيخي بروتستانتي ، حيث لم يستطع الرب الطيب نفسه أن يقحم أي موسيقى »

www.ibtesama.com/vb

ابتعد راكبا العربة المزينة بالشرابات من حوله حوائجه الشخصية ملابسه ، دجاناته ، وعبيده لن تبقى الطباخة العبدة لتحضير الوجبة الأولى. لم تعرض وبالتـالي لم ترفض ذلك ولم يدخل الأب المنـزل مرة أخرى وهو حي كان سيقابل بالترحيب بالطبع كان هو والابن يعرفان كلاهما ذلك ، دون أن يقال ذلك على الاطلاق والزوجة كانت واحدة من أولاد عديدين لزوجين أرستقراطيين لم يتح لهما التقدم المادي وبدا أنهما وجدا في الكنيسة بديلا عما كانا يفتقران اليه على مائدة الطعام – قد أحبته وأعجبت به بأسلوب مكتوم وقلق وسري أعجبت بخيلائه وبالتزامه الصريح والبسيط بمجموعة من مبادئ بسيطة وكانوا سيسمعون بأفعاله على أية حال ، كيف أنه في الصيف التالي بعد انتقاله الى الريف قام بغزو اجتماع ديني مطول في الهواء الطلق كان منعقدا في بستان مجاور وحوله الى أسبوع من سباق الخيل للهواة بينما كان واعظون ريفيون هزيلون ذوو وجوه متعصبة يرعدون ، مخاطبين رعية متناقصة العدد ، باللعنات من منبر مصنوع من الأغصان ، ويصبون تلك اللعنات على رأسه الضالة غير الواعية كان السبب في عدم زيارته لابنه وكنته صريح ظاهريا « ستجداني مملا وسأجدكما مملين . ومن يدري ؟ فقد تفسدني اللعنة قد تفسدني في شيخوختي فتأخذني الى الجنة » ولكن لم يكن هذا هو السبب كان الابن يعرف أنه ليس كذلك ، ومن كان سيحارب التشهير فعلا لو كان سيصدر عن شخص آخر أنه كانت هناك رقة في السلوك وعمق تفكير لدى الرجل العجوز

كان الابن مؤيدا لإبطال الرق حتى قبل أن تتحول الفكرة الى كلمة ترشحت قادمة من الشمال رغم أنه حين عرف أن لدى

www.ibtesama.com/vb

« الجمهوريين » اسما لذلك ، فقد غير اسم معتقده تماما دون أن يتراجع عن مبادئه أو سلوكه قيد أنملة وحتى في تلك الفترة ، ولم يكن قد بلغ الثلاثين بعد ، فقد كان رجلا ذا اعتدال اسبارطي يفوق سنوات عمره ، كما يكون على الأغلب نسل خـادم ليس مفرط على نحـو خاص للحظ والزجاجة وربما كان ذلك وراء حقيقة أنه لم يرزق بأي طفل الى ما بعد الحرب ، التي عاد منها رجلا مختلفا ، « مطهرا » ، كما وصفه أبوه المتوفي الآن ، من القداسة على نحو ما ورغم أنه خلال تلك السنوات الأربع لم يطلق أي رصاصة ، الا أن خدمته لم تكن مجرد صلاة ووعظ للقوات في صباح يوم الأحد . وحين عاد الى البيت بجراحه ثم تعافى وعين نفسه طبيبا ، كان يمارس الجراحة والصيدلة اللتين مارسهما وتعلمهما على أجساد الأصدقاء والأعداء معا ، وهو يساعد الأطباء في الجبهة ، وربما كان أبوه يستمتع بأفعال ابنه هذه أكثر من أي من ممارساته الأخرى أي أن يكون الابن قد علّم نفسه مهنة وتعلمها على حساب غازي بلده ومدمرها

يفكر ابن الابن بدوره الآن وهو جالس في النافذة المعتمة بينما يسبح العالم في الخارج في ذلك المزيج الأخضر وراء الأبواق الآخذة بالصمت « ولكن القداسة ليست الكلمة المناسبة له كان جدي نفسه أول من سيواجه أي رجل يستخدم تلك العبارة » كانت تلك عودة الى الأوقات الصعبة غير المعتمة التي لم يمض عليها زمن طويل ، حين لم يكن لدى الرجل في ذلك البلد الا القليل من نفسه يضيعه والقليل من الوقت لفعل ذلك ، وكان عليه حماية وحراسة ذلك القليل ليس من الطبيعة فحسب بل من الانسان أيضا ، ذلك بواسطة جلد محض

www.ibtesama.com/vb

لم يكن يوفر – خلال فترة حياته على أية حال – راحة جسدية كمكافأة .
وهنا كان يكمن رفضه للعبودية ، ولأبيه الشهواني المدنس للمقدسات
ان تلك الحقيقة بالذات ، حقيقة أنه لم ير ولم يكن قادرا على رؤية أي
تناقض في واقعة أنه ساهم على نحو فعال في حرب أنصار وإلى جانب
أولئك الذين تعارض مبادئهم مبادئه ، كانت تلك برهانا كافيا على
أنه كان شخصين مستقلين ومكتملين تماما ، أحدهما كان يسكن
بقوانين هادئة في عالم لا يوجد فيه واقع

ولكن الجزء الآخر منه ، ذاك كان يعيش في العالم الفعلي ، كان
يمارس حياته بكفاءة أي شخص آخر وأفضل من كثيرين كان يعيش
بمبادئه في سلام ، وحين جاءت الحرب حملها الى الحرب وعاش
بها هناك حين كان هناك وعظ يجب أن يتم في أيام الأحد السلمية في
البساتين الهادئة ، كان يقوم به دون أية معدات خاصة بذلك سوى
ارادته وقناعاته وما كان قادرا على التقاطه خلال مسيره وحين كان
هناك انقاذ للرجال الجرحى تحت النار وعلاجهم دون الأدوات المناسبة ،
فقد فعل ذلك أيضا ، وقد فعله مجددا دون أية أدوات أخرى سوى
قوته وشجاعته وما استطاع التقاطه خلال المسير وحين خسروا
الحرب وعاد الرجال الآخرون الى بيوتهم وعيونهم مرتدة بعناد نحو
ما رفضوا أن يصدقوا أنه مات ، تطلع هو نحو الأمام وحاول أن يستفيد
من الهزيمة بالممارسة العملية لما تعلمه فيها لقد أصبح طبيباً كانت
زوجته واحدة من أول مرضاه . ربما أبقاها على قيد الحياة . وعلى الأقل
فقد مكنها من أن تهب الحياة ، رغم أنه كان في الخمسين وكانت هي
قد تعدت الأربعين حين ولد الطفل وقد شب ذلك الابن ليصل الى
سن الرجولة بين أشباح ، والى جانب شبح

www.ibtesama.com/vb

كانت الأشباح هي أبوه وأمه وامرأة زنجية عجوز الأب الذي كان قسيسا دون كنيسة وجنديا دون عدو ، والذي جمع في الهزيمة بين الاثنين وأضحى طبيبا ، جراحا كأنما كانت القناعة الباردة جدا والعنيدة جدا التي جعلته منتصب القامة ، مزيجا من البيوريتاني والفارس ، كأنما لم تصبح مهزومة ولم تصبح محبطة ، بل أشبه حكمة كأنها قد رأت في دخان المدافع ، كما لو في رؤيا ، أن اتحاد الأيدي كان يعني ذلك حرفيا . كأنما أصبح يعتقد فجأة أن المسيح قد عنى أن ذاك الذي كانت روحه بمفردها تتطلب الشفاء ، لم يكن يستأهل الحيازة ، الخلاص كان ذلك أحد الأشباح وكان الثاني هو الأم التي يتذكرها أولا وأخيراً كوجه نحيل وعينين هائلتين وانتشارا لشعر داكن فوق وسادة ، مع يدين زرقاوين هادئتين ، كيدي هيكل عظمي تقريبا ولو قيل له يوم موتها انه قد سبق له ورآها في مكان آخر غير السرير ، لما كان سيصدق ذلك ثم راح يتذكر لاحقا على نحو مختلف لقد تذكرها تتحرك في أرجاء المنزل ، ترعى الشؤون المنزلية . ولكنه كان في الثامنة والتاسعة والعاشرة من عمره يفكر بها على أنها دون ساقين ، دون قدمين ، على أنها مجرد ذلك الوجه النحيل والعينين اللتين كانتا تبدوان كل يوم وكأنهما تكبران وتكبران ، كأنهما على وشك معانقة كل الرؤية ، كل الحياة ، بتحديقة أخيرة رهيبة تدل على الاحباط والمعاناة ، والتنبؤ ، وأنه حين حدث ذلك في النهاية ، كان يسمعها كان ذلك صوتا أشبه بصرخة وحتى قبل أن تموت كان قادرا على ان يشعر بهما عبر الجدران كلها . كانتا المنزل كان يعيش فيهما ، داخل آثار الخيانة الجسدية الداكنة الشاملة والصبور

www.ibtesama.com/vb

لقد عاشا ، هو وهي ، عاشا فيهما كوحشين صغيرين وضعيفين في وكر ، في كهف ، كهف كان يدخل اليه الأب بين الحين والآخر ذلك الرجل الذي كان غريبا بالنسبة اليهما كليهما ، أجنبيا ، بل وتهديدا على وجه التقريب إن صحة الجسد سرعان ما تغير وتعدل الروح كان أكثر من مجرد غريب كان عدوا كانت له رائحة مختلفة عنهما وكان يتكلم بصوت مختلف ، بل بكلمات مختلفة تقريبا ، كأنه كان يسكن في العادة في بيئة مختلفة وعالم مختلف كان الطفل وهو يقعي قرب السرير يستطيع أن يشعر بالرجل يملأ الغرفة بصحة وقحة واحتقار غير واع ، وهو أيضا عاجز ومحبط بقدر ما هي كذلك ....

أما الشبح الثالث فكان المرأة الزنجية ، الأمة التي رحلت في العربة ذلك الصباح حين وصل الابن وعروسه الى المنزل لقد رحلت كأمة ، وعادت عام (١٨٦٦) كأمة أيضا ، وهي تسير على قدميها امرأة ضخمة بوجه غضوب وهادئ في آن معا قناع مأساة سوداء بين المشاهد . وبعد موت سيدها وحتى اقتنعت أخيرا أنها لن تراه أوترى زوجها مرة أخرى – « الولد » الذي لحق بالسيد الى الحرب والذي لم يعد هو أيضاً رفضت مغادرة المنزل الريفي الذي انتقل اليه سيدها والذي تركه في عهدتها حين رحـــل وبعد موت الأب خرج الابن ليغلق المنزل وينقل ممتلكات أبيه الخاصة ، وقد عرض عليها المساعدة المادية فرفضت كما رفضت المغادرة كان لديها حديقة مطبخ صغيرة خاصة بها وكانت تعيش هناك ، وحيدة ، تنتظر عودة زوجها ، فقد رفضت أن تصدق اشاعة موته كانت مجرد إشاعة ، إشاعة غامضة كيف أنه بعد موت سيده في غزوة فرسان فان دورن لتدمير مستودعات « غرانت » في جفرسون ، أصبح الزنجي صعب

www.ibtesama.com/vb

العزاء وفي إحدى الليالي اختفى من المعسكر المؤقت ثم بدأت ترد حكايات عن زنجي مجنون أوقفه خفراء من الجيش الجنوبي قريبا من جبهة العدو ، وقد روى هذا الحكاية المشوشة نفسها عن سيده المفقود الذي كان اليانكي يحتجزونه طمعاً في الفدية هذا ولم يستطيعوا أن يجعلوه يفكر ولو للحظة واحدة في أن سيده قد يكون تعرض للقتل كان يقول « لا ، بكل تأكيد ليس السيد غيل . ليس هو إنهم لايجرؤون على قتل واحد من آل هايتاور لن يجرؤوا .لقد أخفوه في مكان ما محاولين أن يستخرجوا منه عنوة معلومات حول اخفائنا أنا وهو« ابريق قهوة السيدة والنادلة ».هذا هو كل ما يريدونه يربدونه». وفي كل مرة كان يهرب ثم وصل خبر من خطوط الإتحاديين (الجيش الشمالي) عن زنجي هاجم ضابطاً من اليانكي بمجرفة وكيف اضطر الضابط إلى إطلاق النار عليه دفاعاً عن النفس

لم تصدق المرأة هذا الكلام لفترة طويلة كانت تقول

ـ أعرف أنه أحمق بما فيه الكفاية ليفعل ذلك ، ولكنه ليس عاقلا إلى درجة يميز معها ضابطاً من اليانكي فيضربه بمجرفة لو رآه

ظلت تقول ذلك مدة عام كامل ثم ظهرت في أحد الأيام عند منزل الإبن ، المنزل الذي غادرته قبل سنوات عشر ولم تدخله منذ ذلك الحين ، حاملة حوائجها في منديل دخلت المنزل وقالت

ـ ها أنذا هل لديكم حطب كاف في الصندوق لطبخ عشاء الليلة ؟

قال لها الإبن

ـ أنت حرة الآن

www.ibtesama.com/vb

قالت

– حرة ؟

تكلمت باحتقار هادئ ومتأمّل

– حرة ؟ ما الذي فعلته الحريه سوى قتلها للسيد غيل وجعلها من « بوب » أحمق أكبر من ذاك الذي خلقه الرب ؟ حرة ؟ لا تكلمي عن الحرية

كانت هذه هي الشبح الثالث وبهذا الشبح كان الطفل (وكان هو أفضل بقليل من شبح أيضا في تلك الأثناء » ذلك الطفل نفسه يفكر الآن قرب النافذة المتلاشية) يتحدث عن الطيف لم يحاولا قط الطفل بشعور نصفه خوف منتش وواسع ونصفه سرور ، والمرأة العجوز بأسى متأمل ومتوحش باعتزاز ولكن كان هذا بالنسبة الى الطفل مجرد ارتعاد هادئ للدمتعة لم ينتبه أي خوف من معرفة أن جده قد قتل على العكس من ذلك رجالا « بالمئات » كما قيل له وصدقه ، أو من حقيقة أن الزنجي « بومب » كان يحاول قتل رجل حين مات لا رعب هنا لان هؤلاء كانوا أشباحاً ، لا يراهم المرء بلحمهم ودمهم ، أبطالا بسيطين ودافئين بينما كان الأب الذي يعرفه ويخشاه شبحا لايموت أبدا يفكر « لا عجب أني تخطيت جيلا كاملا لاعجب أنه لم يكن لي أب وأني كنت قد مت احدى الليالي قبل عشرين سنة من ولادتي ، وأن خلاصي يجب أن يكون العودة الى ذلك المكان لأموت حيث توقفت حياتي قبل أن تبدأ »

خلال وجوده في المعهد اللاهوتي ، بعد أوّل وصوله الى هناك ، غالبا ما كان يفكر بالطريقة التي سيخبرهم بها ، يخبر الشيوخ ، رجال

www.ibtesama.com/vb

الكنيسة السامون المقدسون الذين كانوا قدر الكنيسة التي استسلم لها بارادته ؛ كيف سيذهب اليهم ويقول « اسمعوا على الرب أن يدعوني الى جفرسون لأن حياتي ماتت هناك ، أطلق عليها النار وهي على سرج حصان مسرع في أحد شوارع جفرسون في احدى الليالي قبل أن أولد » فكر في أنه سيقول ذلك في البداية كان يعتقدأنهم سيفهمون وقد ذهب الى هناك ، اختار تلك كمهنة له ، وذلك كهدف له ولكنه ما عاد يؤمن بأكثر من ذلك لقد آمن بالكنيسة أيضا ، في كل ما كانت تتفرع عنه وتثيره لقد آمن بمتعة هادئة أنه لو أتيح له حمى يلتجئ اليه لكان ذلك هو الكنيسة ولو أن الحقيقة سيتاح لها أن تمشي عارية ودون خجل أو خوف ، لحدث ذلك في المعهد اللاهوتي وحين آمن أنه قد سمع النداء ، بداله أنه قادر على رؤية مستقبله ، حياته ، سليمين وكاملين من كل الجوانب ومنيعين كزهرية كلاسيكية جليلة ، حيث يمكن للروح أن تولد مجددا محمية من عاصفة الحياة ، ثم تموت هكذا ، بسلام ، مع الصوت البعيد للريح الدائرة فقط ، مع حفنة من التراب المتعفن يمكن الاستغناء عنها كان ذلك هو ما تعنيه كلمة المعهد اللاهوتي جدرانا هادئة وآمنة يمكن للروح فيما بينها الروح المقيدة والقلقة المرتدية للمسوح أن تتعلم مجددا هدوء التأمل دون خوف ودون أن تزعج بعريها بالذات

« ولكن هناك في السماء والأرض أيضا أشياء أكثر بكثير من الحقيقة » ، هكذا يفكر ، يعيد السبك ، بهدوء ، دون سخرية ودون جدية أيضا ها هو جالس في الغسق الواهن ، رأسه في ضمادها الأبيض تلوح أكبر وأكثر شبحية من أي وقت مضى يفكر « أشياء أكثر بالفعل » مفكرا كيف من الانسان وهب الابداع على ما يبدو

www.ibtesama.com/vb

حتى ستطيع تزويد نفسه في الأزمات بأشكال وأصوات يحمي بها نفسه من الحقيقة كان لديه على الأقل شيء واحد لايندم عليه أنه لم يرتكب خطأ ابلاغ الشيوخ بما كان يخطط لقوله لم يكن قد عاش أكثر من سنة في المعهد اللاهوتي حتى عرف ما هو أفضل من ذلك بل وأكثر منه وأسوأ أنه بمعرفته لذلك ، وبدلا عن أن يفقد شيئا كسبه ، فقد نجا من شيء ما وأن ذلك الكسب قد صبغ وجه الحب وشكله بالذات

كانت هي ابنة أحد القساوسة من المعلمين في الكلية وكانت وحيدة لأبويها شأنه هو . وقد صدق على الفور أنها كانت جميلة ، لأنه كان قد سمع عنها قبل أن يراها ، وحين رآها بالفعل لم يرها اطلاقا بسبب الوجه الذي كان قد سبق له وخلقه في ذهنه لم يصدق أنها يمكن أن تعيش هناك كل حياتها ولا تكون جميلة لم ير الوجه نفسه مدة ثلاث سنين وحتى ذلك الحين كانت هناك منذ سنتين شجرة جوفاء كانا يتركان فيها الرسائل المتبادلة ولو كان قد صدق ذلك كله قد صدق بأن الفكرة قد انبثقت عفويا بينهما ، بغض النظر عن أي منهما كان الذي فكر في ذلك وقاله أولا. ولكنه أخذ الفكرة في الحقيقة ليس منها أو من تلقاء ذاته ، بل من كتاب ولكنه لم ير وجهها اطلاقا لم ير قط شكلا بيضاويا صغيرا يضيق بحدة نحو الذقن ، وجها متقدا من الاستياء (كانت أكبر منه بعام أو عامين أو ثلاثة ، ولم يكن يعرف ذلك ، ولم يعرفه قط) لم ير مدة ثلاث سنوات أن عينيها كانتا تراقبانه بحساب يائس تقريبا ، كعيني مقامر منهك

www.ibtesama.com/vb

ثم رآها في احدى الليالي ، نظر اليها تحدثت على نحو فجائي وفظ عن الزواج وكان ذلك دون تمهيد أو تحذير لم يكن الموضوع قد ذكر بينهما سابقا ولم يكن هو قد فكّر فيه اطلاقا ، ولا بالكلمة ذاتها أيضاً ٠ كان قد قبل بها بسبب أن معظم أعضاء الكلية كانوا متزوجين ولكن بالنسبة اليه لم تكن الكلمة تعني رجالا ونساء يعيشون في حميمية مبرأة من الخطيئة وجسدية كذلك ، بل حالة من الفتور تحمل الى وتتواجد بين الأحياء كظلين مقيدين بالأغلال دون ظل القيد كان معتادا على ذلك ، فقد ترعرع مع شبح ثم تحدثت هي في احدى الأمسيات على نحو فجائي وفظ وحين اكتشف اخيرا أنها كانت تنوي الهروب من حياتها الحالية لم يشعر بأي دهشة كان بريئا جدا٠ قال

– الهروب ؟ الهروب مم ؟

قالت

– هذا !

رأى وجهها لأول مرة كوجه حي ، كقناع يخفي الرغبة والحقد وجها ملتويا ، أعمى ، متهورا بالانفعال ليس غبيا بل أعمى ، متهورا ، يائسا فحسب

– كل هذا ! كله ! كله !

لم يدهش صدق على الفور أنها كانت على حق ، وأنه لم يكن يعرف ما فيه الكفاية صدق على الفور أو وجهة نظره بالمعهد اللاهوتي كانت خاطئة طوال الوقت ليست خاطئة على نحو جدي ، بل مزيفة وغير صحيحة ربما كان قد سبق له وبدأ يشك هو نفسه ، دون أن

www.ibtesama.com/vb

يعرف ذلك حتى الآن ربما كان ذلك هو السبب في أنه لم يخبرهم بعد عن السبب في وجوب ذهابه الى جفرسون كان قد حكى لها ، قبل سنة ، عن السبب في أن عليه أن يذهب الى هناك وأنه كان ينوي ابلاغهم بالسبب ، وهي تراقبهم بعينيها اللتين لم يكن قد رآهما بعد

قال

– أتعنين أنهم لن يرسلوني ! لن يهبوا لي ذلك ؟ ألن تكون تلك حجة كافية ؟

قالت

– طبعا لن تكون

– ولكن لماذا ؟ هذه هي الحقيقة قد تكون حمقاء ربما ، ولكنها صحيحة وما هو غرض الكنيسة ان لم يكن مساعدة أولئك الذين هم حمقى ولكنهم يريدون الحقيقة ؟ لم لا يسمحون لي بالذهاب ؟

– عجبا ، ما كنت لأدعك تذهب أنا أيضا لو كنت في مكانهم وقدمت أنت مثل تلك الحجة

قال

– آه أرى ما ترمين اليه

ولكنه لم ير بالضبط ، رغم أنه صدق أنه يمكن أن يكون على خطأ وأنها على صواب لذا حين تحدثت اليه فجأة بعد سنة من ذلك عن موضوع الزواج والهروب بالكلمات نفسها ، لم يدهش و لم يشعر بأن مشاعره قد تأذت بل فكّر بهدوء فحسب « اذن هذا هو الحب . هاهو كنت على خطأ فيما يخص ذلك أيضا » ، مفكرا كما فكر من قبل وسيفكر مجددا وكما فكر كل رجل آخر كم يبدو أكثر الكتب عمقا ، كم يبدو مزيفا حين يطبق على الحياة

www.ibtesama.com/vb

لقد تغير تماما خططا للزواج عرف الآن أنه كان يرى طوال الوقت ذلك الحساب اليائس في عينيها فكر بهدوء « ربما كانوا على حق في وضع الحب في الكتب ، فربما لايستطيع الحب أن يعيش في أي مكان آخر » كان اليأس لايزال فيهما ، ولكن الآن مع وجود خطط محددة ، ويوم محدد للتنفيذ ، فقد تحول الى يأس أهدأ ، والى حساب في الأغلب كانا يتحادثان الآن عن رسامته كاهنا ، وكيف يمكن تعيينه في جفرسون قالت

ــ الأجدر بنا أن نبدأ بالعمل على الفور

قال لها انه كان يعمل من أجل ذلك منذ أن كان في الرابعة من عمره ربما كان يتظارف ويحاول أن يبدو غريب الأطوار وقد تجاهلت ذلك بقلة الظرف الانفعالية المكبوحة تلك ، وباهمال حتى ، وراحت تتحدث كأنها تخاطب نفسها ، عن رجال وأسماء عليهما مقابلتهم ، للتذلل لهم أو تهديدهم ، مخططة له حملة من الذل والتآمر وقد أصغى اليها حتى الابتسامة الضعيفة ، غريبة الأطوار ، الساخرة ، واليائسة ربما ، لم تغادر وجهه قال « أجل ، أجل أرى أفهم » وكان ذلك وهي تتكلم كأنه كان يقول **أجل . أرى . أرى الآن هكذا يفعلون ويكسبون . هذه هي القاعدة . أرى الآن**

في البداية ، حين كانت الدهماوية والتحقير والكذبات الصغيرة قد تركت صداها في كذبات صغيرة أخرى وتهديدات مطلقة على شكل طلبات واقتراحات بين كبار كهنة الكنيسة ، وتلقى هو الدعوة للذهاب الى جفرسون ، نسي كيف حصل عليها لفترة من الزمن لم يتذكر الا بعد استقراره في جفرسون وطبعا لم يتذكر حين كان القطار في آخر مرحلة من مراحل الرحلة قد هرب باتجاه نهاية حياته عبر أرض

www.ibtesama.com/vb

مشابهة لتلك التي ولد فيها ولكنها بدت مختلفة رغم أنه كان يعرف أن الفرق يكمن ليس في الخارج بل في داخل نافذة العربة التي كان وجهه شبه مضغوط على زجاجها كوجه طفل ، بينما كانت زوجته التي الى جانبه تحمل شيئا من التوق في وجهها اضافة الى الجوع واليأس كان قد مضى على زواجهما الآن ستة أشهر وقد تزوجا مباشرة بعد تخرجه من المعهد ولم يكن قد رأى ولو مرة واحدة اليأس واضحا على وجهها ولكنه ما كان قد رأى العاطفة أيضا ومن جديد فكر بهدوء، دون دهشة وربما دون احساس بالأذى .**أرى . هكذا هي الأمور . زواج أجل أرى الآن**

تابع القطار اندفاعته وبينما كان مستندا الى النافذة وهو يراقب مشاهد الريف الهاربة ، راح يتكلم بصوت مشرق سعيد طفولي

-- كان في وسعي القدوم الى جفرسون من قبل ، في أي وقت تقريبا ولكني لم أفعل كان يمكنني الحضور في أي وقت هناك فرق كما تعرفين بين اللامبالاة المدنية وتلك العسكرية اللامبالاة العسكرية ؟ آه ، كانت تلك لا مبالاة اليأس خفنة من الرجال (لم يكن ضابطا أعتقد أن تلك كانت المسألة الوحيدة التي اتفق عليها الأب و«سينثي » العجوز أن جدي لم يكن يحمل سيفا وكان يخب على حصانه دون سيف يلوح به أمام بقيتهم (حفنة من الرجال تنجز بالخفة الضارية ، التي يتميز بها أولاد المدارس عادة ، مزحة متهورة جداً الى حد أن الجنود الذين كانوا يواجهونهم منذ أربع سنوات لم يصدقوا أنهم قد يحاولون مثلها فقد ساروا مسافة مئة ميل عبر منطقة كان كل بستان فيها أو دربة فيها عبارة عن معسكر مؤقت

www.ibtesama.com/vb

لليانكي ، ونحو بلدة ذات حامية ـ أعرف الشارع الذي دخلوا البلدة منه ثم خرجوا ثانية لم أره قط ، ولكني أعرف بالضبط كيف يبدو أعرف بالضبط كيف يبدو المنزل الذي سنمتلكه يوما ما ونعيش فيه في ذلك الشارع نفسه ان يكون منزلنا في البداية ولفترة من الزمن سنضطر الى العيش في بيت الكاهن في البداية ولكن قريبا ، بأقرب ما نستطيع ، سنعيش حيث نستطيع أن نتطلع من النافذة ونرى الشارع ، وربما حتى آثار الحوافر أو أشكالها في الهواء ، لأن الهواء نفسه سيكون هناك حتى او أن الغبار ، الوحل ، قد رحلا كانوا جائعين ، هزيلين ، صارخين ، يشعلون النار في مستودعات حملة جيدة التخطيط ثم الهرب مجددا . دون سلب أو نهب على الاطلاق لم يتوقفوا حتى لأخذ أحذية أو تبغ أقول لك انهم لم يكونوا رجالا يسعون وراء المغانم والمجد ، بل كانوا شبانا يركبون الموجة المدية الهائلة ، موجة العيش اليائس . شبان لأن هذا هذا جميل . اصغي حاولي أن تري ذلك . ها هو ذلك الشكل الجميل للشباب الخالد والرغبة العذراء اللذان يصنعان الأبطال هذا الذي يجعل أفعال الأبطال تقترب الى ذلك الحد الذي من غير الممكن تصديقه حتى أنه لا عجب من أن افعالهم يجب أن تبرز بين الحين والآخر مثل التماعات المدافع في الدخان ، وأن مرورهم الجسدي يتحول الى إشاعة ذات ألف وجه قبل أن يخرج الناس منهم ، لئلا تنتهك الحقيقة المتناقضة ظاهريا نفسها هذا ما حكته له « سينثي » وأنا أصدقها أعرف هذا أمر أجمل من ان يشك به انه جميل جدا ، بسيط جدا ، بحيث يصعب أن يكون قد اخترع من قبل الفكر الأبيض قد يخترعه زنجي ولو فعلت « سينثي » ذلك ، فلا زلت أصدقها لأنه حتى الحقيقة لا يمكنها

www.ibtesama.com/vb

الوقوف أمامها لا أعرف أن كانت سرية جدي قد فقدت أم لا لا أظن ذلك أعتقد أنهم فعلوا ذلك عن عمد ، كما قد يفعل أولاد أشعلوا النار في حظيرة الأعداء دون أن يأخذوا حتى لوحا خشبيا أو مفصل باب ، ولكنهم قد يتوقفون خلال الهرب لسرقة بعض التفاح من حديقة جار أو صديق وتذكري أنهم كانوا جائعين كانوا جائعين منذ سنين ثلاث ربما كانوا معتادين على ذلك وعلى أية حال فقد كانوا قد أضرموا النار للتو في أطنان من الطعام والملابس والتبغ والمشروبات الروحية دون أن يأخذوا منها شيئا ، رغم أنه لم تكن قد صدرت أي أوامر تحرم النهب ، وها هم يلتفتون الآن ، مع كل ذلك كخلفية للمشهد ، كستارة في مؤخرة الخشبة الذعر ، الحريق ؛ السماء نفسها كانت تبدو كأنها تحترق يمكنك أن ترى ذلك تسمعيه الصراخات ، الطلقات ، صياح الانتصار والرعب ؛ الحوافر التي تقرع أرض الشارع ، الأشجار التي ترتفع أمام ذلك التوهج الأحمر كأنها قد جمدت من الذعر هي أيضا ، والجملونات الحادة للمنازل كأنها الحد المثلم للارض المتفجرة والنهائية والآن هي مكان مغلق يمكنك أن تشعر ، أن تسمع في العتمة الجياد تتوقف فجأة ، تندفع بسرعة بالغة صليل الأسلحة ؛ الهمسات المرتفعة ، الأنفاس المبهورة ، الأصوات التي لا تزال منتصرة ؛ خلفهم تخب بقية القوات على جيادها نحو الأبواق الداعية الى الاحتشاد . عليك أن تسمعي ذلك ، أن تشعري به ثم سترين سترين قبل الانهيار ، في التوهج الأحمر الفجائي ، سترين الجياد بعيون ومناخر واسعة في رؤوس مشدودة نحو الخلف وقد غرقت بالعرق ؛ التماع المعدن ، الوجوه الناحلة البيضاء لخيالات المأتة الحية التي لم تأكل حتى الشبع مرة واحدة ضمن حدود

www.ibtesama.com/vb

الذاكرة ؛ وربما كان بعضهم قد سبق له وترجل ، وربما سبق لواحد أو اثنين منهم أن دخل قنا للدجاج كل هذا ترينه قبل انطلاق صوت بندقية الرش ثم يسود السواد مرة أخرى كانت تلك هي الطلقة الواحدة تقول « سينثي » « وطبعا كانهو في مسارتلك الطلقة تماما يسرق الدجاج رجل كبير السن ، له ابن متزوج ، يذهب الى الحرب حيث يمارس قتل اليانكي ، يقتل في قن دجاج أحدهم بحفنة من الريش » يسرق الدجاج

كان صوته عاليا ، طفوليا ، منتشيا كان قد سبق لزوجته وأمسكت بذراعه « صه صه ! صه ! الناس ينظرون اليك ! » ولكن لم يبد عليه أنه كان يسمعها اطلاقا كان يبدو أو أن وجهه النحيل العليل وعينيه تقوم باقراز نوع من التوهج .—

— كان ذلك كل ما في الأمر لم يعرفوا من أطلق النار لم يعرفوا قط . لم يحاولوا أن يعرفوا ربما كانت امرأة ، زوجة جندي من الجيش الجنوبي ربما أحب أن أعتقد ذلك الأمر جميل هكذا يمكن لأي جندي أن يقتل من قبل العدو في وطيس المعركة ، بسلاح مصادق عليه من قبل حكام الحرب ومشرعيها أو من قبل امرأة في غرفة نوم أما أن يقتل بواسطة بندقية رش ، بندقية صيد الطيور ، في قن دجاج ؟ أيستغرب اذن أن هذا العالم يسكنه الموتى أساسا ؟ طبعا ، حين ينظر الرب الى سلالتهم لا يستطيع أن يكره مشاركتنا

— صه ! صه ! انهم ينظرون الينا !

ثم ها هو القطار يبطئ داخلا البلدة ؛ راحت الضواحي الفقيرة تنزلق متلاشية عبر النافذة كان لايزال ينظر الى الخارج — رجلا

www.ibtesama.com/vb

نحيلا غير أنيق فيه بعض الغموض ولا زال مرتسما عليه شيء من التوهج غير المطفأ لمهنته لحرفته المحيط الهادئ وتطويق وحماية قلبه اللجوج ، مفكرا بهدوء كم تتحلّى السماء بكل تأكيد ببعض من ذلك اللون والشكل اللذين يميزان أي قرية أو جبل أو كوخ يقول عنه المؤمن « هذا ملكي » توقف القطار الممر البطيء بين صفي المقاعد الذي لايزال يقاطع بالنظر الى الخارج ثم النزول بين وجوه جدية ومجيدة وقضائية الأصوات ، الهمهمات ، الجمل المقاطعة بلطف والتي لاتزال تحتفظ بالحكمة ، دون أن تعطي بعد ، كما أنها متحاملة يفكر « لقد سلمت بذلك ، أعتقد أني قبلته ولكن كان ذلك ربما كل ما قمت به بالفعل ، وليغفر الله لي . » كانت الأرض قد قد تلاشت بعيدا عن النظر تقريبا انه الليل تقريبا الآن كانت رأسه المشوهة بالضماد دون عمق ، دون صلابة ؛ وبما أنها كانت ساكنة بلا حراك فقد بدت وكأنها معلقة فوق اللطختين التوأمين الشاحبتين اللتين هما يداه فوق حافة النافذة المفتوحة . ينحني نحو الأمام يستطيع أن يشعر مسبقا باللحظتين الموشك هو على لمسهما احداهما وهي مجموع حياته ، والتي تجدد نفسها بين كل ظلام وغسق ، واللحظة المعلقة التي سيبدأ الزمن المسمى « قريبا » منها حين كان أصغر سنا ، وحين كانت شبكته حساسة لا يحتمل معها الانتظار ، في هذه اللحظة كان يخدع نفسه أحيانا ويصدق أنه سمعها قبل أن يعرف أن الأوان قد حان

يفكر « ربما هذا هو كل ما فعلتُه ، كل ما فعلته على الاطلاق » ، يفكر بالوجوه وجوه الرجال كبار السن الشكّاكين على نحو طبيعي

www.ibtesama.com/vb

بشبابه والضنينين بالكنيسة التي سيضعوبها بين يديه كما يكون الأب الموشك على تسليم ابنته العروس وجوه الرجال كبار السن المبطنة بذلك التراكم المجرد للاحباط والشك الذي غالبا ما يكون الجانب الآخر للصورة ، صورة السنوات الناضجة المترعة بالصحة والاحترام ذلك الجانب — بالمناسبة — الذي يكون على موضوع الصورة ومالكها أن ينظر اليه ، ولا يمكنه الهروب من ذلك يفكر « لقد أدوا دورهم ولعبوا حسب قوانين اللعبة أنا الذي فشل ، الذي انتهك القوانين ربما يكون ذلك أعظم الخطايا الاجتماعية على الاطلاق ، أجل ، ربما الخطيئة الأخلاقية » يستمر تفكيره هادئا ، ساكنا ، متدفقا ، متخذا أشكالا هادئة ، ليست تأكيدية ، ليست معاتبة ولا مفعمة بالندم على نحو خاص يرى نفسه شكلا ظليا وبين ظلال ، متناقضا ، مع نوع من التفاؤل المزيف والأنانية معتقدا أنه سيجد في ذلك الجزء من الكنيسة الذي يتخبط أكثر ما يتخبط ، يستعيد الأحلام ، بين العواطف العمياء واليدين المرفوعتين وأصوات الرجال ، ذاك الذي لم ينجح في أن يجده في المثل الأعلى الممجد المتوحد للكنيسة فوق الأرض يبدو له أنه رأى ذلك طوال الوقت أن ذلك الذي يدمر الكنيسة ليس التلمس الخارجي لأولئك الذين هم في داخلها أو التلمس الداخلي لأولئك الذين في خارجها ، بل هم المحترفون الذين يتحكمون بها والذين أزالوا الأجراس من أبراج الكنائس يبدو عليه أنه يراهم لانهائيين ، بلا نظام ، فارغين ، رمزيين ، متجهين الى السماء بنشوة أو بانفعال بل باستحلاف وتهديد وادانة . يبدو عليه أنه يرى كنائس العالم كمتراس،

www.ibtesama.com/vb

كواحد من تلك المتاريس الآتية من العصور الوسطى المزروعة بالموتى والخوازيق المبرية ، ضد الحقيقة وضد ذلك السلام الذي يؤثم فيه ويغفر له ألا وهو حياة الانسان

يفكر « وقد قبلت ذلك ، وافقت عليه كلا ، فعلت ما هو أسوأ لقد خدمته .خدمته باستخدامه لتوجيه رغبتي جئت الى هنا حيث الوجوه المترعة بالحيرة والجوع والتوق تنتظرني تنتظر أن تؤمن ، لم أرها حيث الأيدي رفعت لما صدقوا بأني سأجلبه لهم ؛ لم أرها جلبت معي ثقة واحدة ، ربما أول ثقة للانسان ، والتي قبلتها بارادتي أمام الله اعتبرت ذلك الوعد وتلك الثقة على أنهما ضئيلا القمة الى حد أني لم أعرف حتى أني قبلتهما ولو كان ذلك كل ما فعلته من أجلها ، ما الذي كان يمكنني توقعه ؟ ما الذي كان يمكنني توقعه سوى الخزي واليأس ووجه الله وقد أشيح بعيداً من العار ؟ ربما حدث في لحظة كشفي لها ليس عن عمق جوعي فحسب بل حقيقة أنها لن يكون لها أبدا أي دور في إشباعه ؛ ربما أصبحت في تلك اللحظة معزيها وقاتلها ، مؤلف عارها وموتها وقاتلها . وعلى أية حال ، فلا بد من أن هناك بعض الأشياء لايمكن للرب أن يتهم بها من قبل الانسان ويحمل مسؤوليتها لابد من ذلك » يبدأ التفكير بالابطاء الآن يبطيء كدولاب بدأ يمشي في الرمل ، ولكن المحور والمركبة والقدرة التي تدفعه ليست واعية بعد بذلك

يبدو أنه يراقب نفسه بين الوجوه ، دائما بين وجوه ، مطوقا ومحاطا بالوجوه ، كأنه يراقب نفسه في محرابه بالذات ، من مؤخرة الكنيسة ، أو كأنما هو سمكة في حوض بل وأكثر من ذلك تبدو

www.ibtesama.com/vb

الوجود كأنها مرايا يراقب فيها نفسه انه يعرفها جميعا ؛ ويستطيع يقرأ أفعاله فيها يبدو أنه يراها وقد انعكس فيها شكل غريب كأنه رجل استعراض مسرحي ، شكل شاذ بعض الشيء مشعوذ يعظ بما هو أسوأ من الهرطقة ، في تجاهل مطلق لأولئك الذين احتل لهم خشبة مسرحهم على نحو مسبق ، وعرض بدلا عنها الشكل المطلوب للشفقة والحب ، قاتل مختال غير عفيف قتل ببندقية رش في قن دجاج هادئ في ثغره مؤقتة من هوايته في القتل عجلة التفكير تبطيء ، المحور يعرف ذلك الآن ولكن المركبة نفسها لازالت غير واعية

يرى الوجوه التي تحيط به وهي تعكس الدهشة والحيرة ثم الغضب ثم الخوف كأنها تنظر الى ما وراء تهريجاته الغريبة ثم رأت ما وراءه وراحت تنظر باحتقار اليه ، وهو بدوره غير واع « الوجه النهائي » السامي نفسه ، البارد والرهيب بسبب تمرده « كلّي القدرة » يعرف أنهم يرون ما هو أكثر من ذلك أنهم يرون الثقة التي برهن على أنه لايستحقها ، فهو قد اعتاد على تأديبه ، بدا له الآن أنه يتحدث مع « الوجه » (الرباني) « ربما قبلت أكثر ممّا أستطيع فعلة . ولكن هل هذا جرم ؟ هل سأعاقب عليه ؟ هل سأسأل عن ذلك الذي ليس في مقدوري ؟ » ويقول الوجه « لم يكن قبولك بها لانجاز ذلك لقد أخذتها كوسيلة لأنانيتك كأداة حتى تستدعى الى جفرسون ؛ ليس من أجل خدمة أهدافي بل أهدافك »

يفكر « هل هذا صحيح ؟ هل يمكن لهذا أن يكون صحيحا ؟ يرى نفسه مجددا كما حدث حين حل العار يتذكر ذاك الذي أحس به قبل أن يولد ، وأخفاه عن تفكيره . يرى نفسه وهو يعرض كرشوة

www.ibtesama.com/vb

القوة والتحمل والكرامة ، وجعل الأمر يبدو كأنه قد تخلّى عن منبره لأسباب استشهادية ، حين كانت في اللحظة نفسها ، وفي داخله ، موجة قافزة منتصرة من الانكار خلف وجه خانه ، معتقداً أنه كان آمناً خلف كتاب الصلاة المرفوع حين كبس المصور آلته

يبدو أنه يراقب نفسه ، متنبها ، صبورا ، ماهرا ، يلعب أوراقه جيدا ، ويظهر الأمر وكأنه كان يقاد دون تذمر الى ما كان يرفض حتّى ذلك الحين الإقرار بأنه رغبته حتّى قبل أن يدخل المعهد اللاهوتي وبينما هو لايزال يرمي برشواته كأنه يرمي بفاكهة عفنة أمام قطيع من الخنازير الدخل الهزيل من إرث أبيه الذي تابع مقاسمته مع تلك المؤسسة في ممفيس ؛ والسماح لنفسه بأن يلاحق ، أن يجر من سريره ليلا ويحمل الى الغابة ويضرب بالعصي ، وهو يتحمل ذلك كله تحت نظر البلدة وسمعها ، دون خجل ، بتلك الذات الصبور الشهوانية التي يتمتع بها الشهيد ، المظهر ، السلوك **إلى متى يا رب** حتّى إذا ما أضحى داخل منزله مرة أخرى وأقفل الباب ، رفع القناع بنشوة شهوانية منتصرة **آه ، لقد فعلت ذلك الآن . لقد انقضى الآن. لقد اشتري ذلك ودفع ثمنه**

يفكر « ولكني كنت شابا في ذلك الحين كان علي أن أفعل ليس ما استطعت بل ما عرفت » التفكير يجري على نحو ثقيل الآن ؛ عليه أن يعرف ذلك ، يحس به لا زالت المركبة غير واعية بما يقترب « وعلى أية حال ، فقد دفعت لقد اشتريت شبحي وغم أني دفعت ثمنه بحياتي ومن يستطيع أن يمنعني من فعل ذلك ؟ من حق أي انسان أن يدمر حياته طالما كان لا يؤذي أحدا آخر ، طالما هو يعيش

www.ibtesama.com/vb

من أجل نفسه وبنفسه » يتوقف فجأة ودون حراك ، ودون تنفس،ينتابه ذعر على وشك أن يتحول الى رعب حقيقي. انه واع بالرمل الآن ؛ ومع ادراكه له يشعر ضمن نفسه بتجمع كأنما للقيام بمجهود هائل التقدم لايزال تقدما الآن ، ولكن لايمكن تمييزه عن الماضي القريب كالبوصات التي سبق قطعها من الرمل الذي التصق بالعجلة الدائرة ، وراح يرش نحو الخلف بهسيس جاف كان يتوجب أن يحذره على نحو مسبق « ... كشفت لزوجتي جوعي ، ذاتي ... أداة يأسها وعارها ...» ودون أن يضطر الى التفكير اطلاقا ، هناك جملة بدت كأنها تقف مرمية على جمجمته ، خلف عينيه **لا أريد أن افكر بهذا . لا اجرؤ** على ذلك وبينما يجلس في النافذة ، وينحني نحو الأمام فوق يديه الساكنتين ، ويبدأ العرق يتصبب منه ، متفجرا كالدم ، وبتدفق وعلى الفور تدور العجلة العالقة في الرمال بالعناد البطيء الذي يميز أدوات التعذيب في القرون الوسطى ، تحت المحاجر الملتوية والمكسورة لروحه ، لحياته « اذن ، ان كانت الأمور هكذا ، اذا كنت أنا أداة يأسها وموتها ، فأنا بدوري أداة شخص ما خارج نفسي وأعرف أنني لم أكن حتى طينا منذ خمسين عاما لقد كنت لحظة واحدة من العتمة خب بها حصان وانطلقت بندقية ولو كنت جدي الميت في لحظة موته ، اذن فأنا زوجتي ، زوجة حفيده أنا مغوي وقاتل زوجة حفيدي حيث أني لم أستطع أن أترك حفيدي يعيش أو يموت »

وبعد أن أطلقت العجلة من قيودها ، فقد بدت وكأنها تندفع بصوت تنهد طويل يجلس دون حراك في أعقابها ، في عرقه الآخذ بالتبرد ، بينما يتدفق العرق ويتدفق . العجلة لازالت لا تدور . تسير بسرعة

www.ibtesama.com/vb

وسهولة الآن ، لأنها تحررت من الثقل ، من المركبة ، من المحور وكل شيء في المزيج اللامع لشهر آب الذي يوشك الليل على دخوله الآن ، يبدو أنه يولّد التماعة خافتة كأنها هالة ويطوق نفسه بها الهالة مليئة بالوجوه الوجوه ليست متشكلة بأي شيء ليس الرعب ، الألم ، ولا حتى العتاب انها هادئة ، كأنها هربت الى سحالة تمجيد ؛ ووجه بينها وفي الحقيقة فانها تبدو جميعها متشابهة بعض الشيء ، مركّباً لكل الوجوه التي سبق له أن رآها ولكنه يستطيع تمييزها الواحد من الآخر : وجه زوجته ، وجوه سكان البلدة ، أفراد من تلك الرعية التي أنكرته ، والتي استقبلته في المحطة في ذلك اليوم بتوق وجوع ووجه بايرون بنتش ، والمرأة ذات الطفل ووجه الرجل المسمى كريسماس هذا الوجه لوحده ليس واضحا انه مشوش أكثر من أي وجه آخر ، كأنما هو في حالة احتضار هادئة لمركب أحدث وأكثر تعقيدا ثم يستطيع أن يرى أنهما وجهان يبدوان كأنهما يجاهدان (ولكنهما لا يجاهدان أو يرغبان بذلك من ذاتيهما هو يعرف ذلك ، ولكن بسبب حركة ورغبة العجلة ذاتها) بدورهما لتحرير نفسيهما واحدهما من الآخر ، ثم يتلاشيان ويندمجان مجددا ولكنه رأى الآن الوجه الآخر ، ذاك الذي ليس كريسماس يفكر « عجبا انه لقد رأيته مؤخرا عجبا ، انه ذلك الشاب ، مع ذلك المسدس الأسود ، الذي يسمونه بالآلي ذاك الذي الى المطبخ حيث قتل ، الذي أطلق الـ... » ثم يبدو له أن طوفاناً نهائياً لعيناً في داخله ينكسر ويندفع مبتعداً يبدو أنه يراقبه ، وهو يشعر أنه يفقد الاتصال مع الأرض. لقد أصبح أخف فأخف ، هاهو يفرغ ، يطفو يفكر : « أنا أحتضر يجب أن أصلي يجب أن أحاول الصلاة » ولكنه لايفعل. انه لا يحاول

www.ibtesama.com/vb

« مع الهواء كله والسماء كلها ، الممتلئين بالبكاء الضائع غير المبالي به لكل الأحياء الذين سبق لهم وعاشوا ، الناجبين لا يزالون كأطفال ضائعين بين نجوم باردة ورهيبة   لقد أردت القليل جدا   طلبت القليل جدا . سيبدو   » العجلة تدور الآن.إنها تدور بسرعة متلا شية ، دون تقدم ، كأنها تُدار بذلك الطوفان النهائي الذي اندفع خارجا منه ، تاركا جسده فارغا وأخف من ورقة شجرة منسية   بل وأكثر تفاهة من حطام يتمدد مستهلكا وساكنا فوق حافة النافذة التي لا صلابة لها تحت يدين لا وزن لهما ، اذن يمكن للآن أن يكون « الآن »

كأنما انتظروا فحسب حتى استطاع أن يجد شيئا ما يلهث به ، يعاد اعتباره في انتصار ويرغب به ، مع آخر ما تبقى من الشرف والعزة والحياة   يسمع فوق قلبه الرعد وهو يزداد ، متعددا وقارعا وكتنهيدة طويلة للريح في الأشجار تبدأ ، ثم يجتاحون الرؤية ، محمولين الآن فوق غيمة من غبار شبحي   يندفعون مارين به ، ينحنون في السروج نحو الأمام ، يلوحون بأسلحتهم تحت شرائط خافقة من رماح مائلة تواقة ؛ مع جلبة وصراخ صامت يجتاحون كمد تلتحم قمته مع الرؤوس المجنونة للأحصنة والأسلحة الملوح بها لرجال كأنهم فوهة بركان العالم المتفجر   يندفعون مارين ، يبتعدون ؛ الغبار يلوم نحو السماء ماصاً ، ثم يتلاشى في الليل الذي هبط تماما . ومع ذلك ، وبينما راح ينحني الى الأمام في النافذة ، ورأسه المضمدة ضخمة وغير ذات عمق فوق اللطختين التوأمين ليديه فوق الحافة ، فانه يبدو له أنه لايزال يسمعهم   الأبواق المجنونة والسيوف المقعقعة والرعد المحتضر للسنابك

www.ibtesama.com/vb

الفصل الحادي والعشرون

يعيش في الجزء الشرقي من الولاية مصلّح وتاجر أثاث قام مؤخرا برحلة الى « تينيسي » للحصول على بعض قطع الأثاث القديمة التي اشتراها بالمراسلة وقد قام بالرحلة بشاحنته ، حاملا معه بما أن الشاحنة (كان لها صندوق مغلق ذو باب في الخلف) كانت جديدة وهو لم يكن ينوي أن يقودها بأسرع من خمسة عشر ميلا بالساعة ، حاملاً معدات التخييم حتى لايدفع أجرة المبيت في الفنادق لدى عودته الى بيته حكى لزوجته عن تجربة مر بها على الطريق وقد أثارت اهتمامه في ذلك الحين واعتبرها مسلية بما فيه الكفاية لذا فانه سيرويها ربما كان السبب في أنه وجدها مثيرة للاهتمام وأنه شعر أنه يستطيع أن يجعلها مثيرة للاهتمام من خلال سردها هي أنه وزوجته ليسا عجوزين أيضا ، كما أنه كان بعيدا عن البيت (بسبب تلك السرعة المتواضعة بالذات التي كان يشعر أنه من الحكمة الالتزام بها) منذ أكثر من أسبوع والقصة تتعلق بشخصين ، مسافرين التقطهما من الطريق وهو يسمي البلدة ، ويقول أنها في الميسيسبي ، قبل أن يدخل تينيسي

« كنت قد قررت أن أشتري الوقود للسيارة وكنت أبطئ لأدخل بها المحطة حين شاهدت تلك الفتاة الشابة ذات الوجه اللطيف تقف

www.ibtesama.com/vb

عند الزاوية ، كأنها تنتظر شخصا يعرض عليها ركوب سيارته كانت تحمل شيئا ما بين ذراعيها لم أر ما هو في البداية ، ولم أر الشخص الذي كان معها اطلاقا حتى اقترب وكلمني ظننت في البداية أني لم أره من قبل كان بسبب عدم وقوفه حيث كانت ثم رأيت أنه كان ذلك النوع من الأشخاص الذين لايراهم المرء من أول نظرة ان كان لوحده في قاع بركة سباحة اسمنتية فارغة

اذن اقترب مني وقلت بعجلة

– لست ذاهبا الى ممفيس ان كان هذا ما تريده سأذهب لأمر بجاكسون في تينيسي

وقال هو

– هذا جميل انه يناسبنا تماما سيكون ذلك لطفا منك

– أين تريدان الذهاب ؟

ثم نظر هو الي ، كشخص غير معتاد على الكذب ولكنه يحاول أن يفكر بكذبة سريعة وهو يعرف مسبقا أنه لن يصدق على الأرجح قلت

– أنتما تتجولان وتتفرجان فحسب ، أليس كذلك ؟

يقول

– نعم هذا هو الأمر نحن مسافران فحسب يمكنك أن تأخذنا أنى تذهب ، وسيكون ذلك لطفا كبيرا منك

وهكذا طلبت منه أن يصعد الى الشاحنة

– أعتقد أنك لن تسرقني وتقتلني

www.ibtesama.com/vb

ذهب وأحضرها وعادا ثم رأيت أن ما كانت تحمله كان طفلا صغيرا ، مخلوقا لا يبلغ عمره عاما واحدا ساعدها على الصعود الى مؤخرة الشاحنة ، وقلت

– لماذا لا يركب أحدكما معي هنا على المقعد ؟

ثم تحادثا وأتت هي وركبت معي على المقعد وعاد هو الى محطة الوقود وجاء بواحدة من تلك الحقائب الكرتونية التي تبدو كالجلد ووضعها في الصندوق وصعد هو أيضا وهكذا انطلقنا ، هي على المقعد تحمل الصبي وتنظر الى الخلف بين الحين والآخر لترى ان لم يكن هو قد سقط أو ما شابه

ظننت في البداية أنهما زوج وزوجة لم يخطر لي مطلقاً خاطر آخر ، الا أني تعجبت أن تكون شابة طويلة قوية البنية مثلها قد تزوجت رجلا مثله كان يبدو كشخص طيب ، من ذلك النوع الذي يلتزم بعمله ويتمسك به لفترة طويلة دون أن يزعج أحدا بالمطالبة بعلاوة في الأجر طالما سمح له بالاستمرار في العمل هذا ما كان يبدو عليه لقد بدا أنه من النوع الذي ان لم يكن يمارس عملا ما فانه سيبقى في المنزل لم أستطع أن أتخيل أي شخص ، أي امرأة مستعدة للنوم معه ، ناهيك عن عرض شيء أمام الناس يثبت ذلك

تقول زوجته **ألا تشعر بالخجل من نفسك ؟ أن تتحدث بهذا الأسلوب أمام سيدة** أنهما يتحادثان في الظلام

يقول : على أية حال لا أستطيع أن أراك تحمرين خجلاً ثم يستأنف

– لم أفكر بذلك قط حتى تلك الليلة حين خيمنا كانت جالسة على المقعد الى القرب مني ، وكنت أحادثها ، كما قد يفعل أي شخص ،

وبعد فترة حكت هي أنهما قادمان من ألاباما . وظلت تقول « قدمنا » لذا ظننت أنها كانت تعني نفسها والشخص الذي في المؤخرة وكيف أنهما كانا مسافرين منذ ثمانية أسابيع قلت « ولكن هذا الطفل لا يبلغ من العمر ثمانية أسابيع ، حسب ما أرى من شكله » فقالت أنه ولد منذ ثلاثة أسابيع فقط ، هناك في جفرسون ، وقلت « أوه حيث أعدم ذلك الزنجي دون محاكمة لابد وأنك كنت هناك آنئذ » وقد خرست كأنما كان قد أمرها بالا تتحدث عن هذا الموضوع أبدا عرفت أن الأمر كان كذلك لابد لذا تابعنا السير ثم اقترب الليل وقلت « سرعان ما نصل البلدة لن أنام في البلدة ولكن ان كنتما تريدان الاستمرار معي غدا فسوف أمر بالفندق في السادسة صباحا من أجلكما » ظلت ساكتة كأنها تنتظر منه أن يتكلم ، فقال هو بعد فترة

— أعتقد أنه مع وجود هذه الشاحنة البيت ، لا داعي للتفكير في الفنادق

ولم أقل أي شيء وكنا ندخل البلدة فقال

— هل هذه بلدة كبيرة ؟

قلت

— لا أعرف أعتقد أن هناك نزلا أو ما شابه

قال

— كنت أتساءل ان كان لديهم مخيم سياحي هنا

ولم أجبه ، فقال

www.ibtesama.com/vb

ـ أي لديهم خيام للأجرة . هذه الفندق مكلفة ، خاصة بالنسبة الى أشخاص مثلنا لايزال أمامهم سفر طويل

لم يكونا قد قالا حتى الآن أين هي وجهتهما كأنما لم يكونا حتى هما يعرفان ذلك ، كأنهما كانا ينتظران فحسب ليريا أين يمكنهما الذهاب ولكني لم أكن أعرف ذلك في حينه الا أني عرفت ما كان يريد أن يقوله لي ، وأنه لن يأتي ليطلب مني مباشرة كأنما لو شاء لي الرب أن أقولها، لقلتها ، ولو شاء لي أن أذهب الى الفندق وأدفع ثلاثة دولارات ربما لقاء غرفة ، لفعلت ذلك أيضا لذا قلت

ـ حسنا ، انها ليلة دافئة آمل أنكما لاتعارضان وجود بعض البعوض ، وأنكما مستعدان للنوم على هذه الألواح العارية في الشاحنة

ـ طبعا سيكون كل شيء على ما يرام لطيف منك جدا أن تسمح لها

ولاحظت عندها كيف قال « لها » وبدأت ألاحظ وجود شيء مضحك ومشوب بالتوتر بينهما كما يكون عليه الحال حين يكون المرء مصمما على تحضير نفسه ليفعل شيئا يريد أن يفعله ولكنه يخشى ذلك، لا أعني أنه كان خائفاً مما قد يحدث له ، ولكن الأمر كان أشبه بشيء يتمنى هو أن يموت قبل أن يفكر بفعله لولا أنه جرب كل بشيء حتى أحس باليأس، كان ذلك قبل أن أعرف لم أستطع أن أفهم ما الذي يمكن أن يكونه ذلك الشيء آنئذ ولو لا تلك الليلة وما جرى أعتقد أني ما كنت سأعرف اطلاقا الوقت الذي غادورني به في جاكسون

www.ibtesama.com/vb

تقول الزوجة ما الذي كان يهدف اليه ؟

انتظري حتى أصل إلى ذلك . ؟ربما سأريك أنت أيضاً يستأنف كلامه « اذن توقفنا أمام المخزن كان قد سبق له وقفز قبل أن تتوقف الشاحنة لكأنه كان يخشى أني سأسبقه الى ذلك ، ووجهه قد أشرق تماما كوجه طفل يحاول أن يفعل شيئا ما من أجلك قبل أن تغير من رأيك في شيء وعدت أن تفعله من أجله دخل الى المخزن بسرعة وعاد ومعه الكثير من الأكياس الورقية والقماشية حتى أنه لم يكن قادرا على الرؤية من فوقها ، لذا قلت في نفسي « انتبه الي أيها الرجل هل تنوي الإستقرار الدائم في هذه الشاحنة وتبدأ بادارة المنزل ؟ » ثم تابعنا السير ووصلنا الى مكان معقول يمكن عنده أن أخرج بالشاحنة بعيدا عن الطريق ، نحو بعض الأشجار وقد قفز هو وركض وساعدها في النزول كأنها والطفل مصنوعان من الزجاج أو البيض ولا تزال على وجهه تلك النظرة كأنه على وشك أن يصمم على فعل ما كان مستقتلا على فعله ، ان لم أفعل أو تفعل هي شيئا على نحو مسبق يمنع حدوث ذلك ، ولو لم تلاحظ هي على وجهه أنه كان مستقتلا على فعل شيء ما . ولكني حتى ذلك الحين لم أكن أعرف ما هو

تقول الزوجة **وما كان ذلك ؟**

لقد أريتك مرة واحدة . لست مستعدة بعد لأريك مرة أخرى ، أليس كذلك ؟

أعتقد أني لا أكترث إن لم تكوني . ولكني ما أزال لا أرى أي شيء مضحك في ذلك . كيف حدث أن استغرق ذلك منه كل ذلك الوقت والجهد ؟

www.ibtesama.com/vb

يقول الزوج لأنهما لم يكونا متزوجين . لم يكن الطفل ابنه حتى . لم أكن أعرف في ذلك الحين على أية حال ، لم أكتشف ذلك حتى سمعتهما يتكلمان في تلك الليلة ، إلى القرب من النار ، حيث لم يكونا يعرفان أني أصغي ، على ما أعتقد . قبل أن يصل بنفسه إلى حد الاستقتال طوال الطريق ولكني أعتقد أنه كان يائساً بما فيه الكفاية يستأنف قائلا « ها هو ينطلق في أرجاء المكان ، يجهز المكان للتخييم ، حتى جعلني عصبيا هو يحاول أن يفعل كل شيء دون أن يعرف من أين يبدأ أو أي شيء آخر لذا قلت له أن يجمع بعض الحطب ، وأخرجت بطانياتي ونشرتها في الشاحنة كنت غاضبا قليلا من نفسي لأني ورطت نفسي وسأضطر للنوم على الأرض وقدماي نحو النار ولا شيء تحتي لذا أعتقد أني كنت عصبيا ونكداً ربما ، وأنا أتحرك في أرجاء المكان ، أجهز الأمور ، وهي تجلس وظهرها الى شجرة تطعم الطفل عشاءه تحت شال وتقول مرات عديدة كيف أنها تشعر بالخجل للارعاج الذي تسببه لي وأنها تنوي السهر قرب النار لأنها لم تكن متعبة على أية حال ، فهي تركب السيارة طوال النهار ولا تفعل شيئا ثم عاد هو حاملا من عيدان الحطب ما يكفي لشي ثور بحاله وبدأت هي تقول له وذهب هو الى الشاحنة وأخرج تلك الحقيبة وفتحها وأخرج منها بطانية ثم حدث ما كان يحدث كان الأمر أشبه بحكاية ذينك الشخصين التي كانت تروي في الصحف المضحكة ، ذينك الفرنسيين اللذين كانا ينحنيان باستمرار ويعود واحدهما بقدمه الى الخلف وهو يحيي الآخر طالبا منه ان يتقدم أولا ، وتظاهرنا

www.ibtesama.com/vb

جميعا أننا قد قطعنا كل تلك الطريق بعيدا عن البيت من أجل امتياز النوم على الأرض ، وكل واحد يحاول أن يكذب على نحو أسرع وأكبر من الآخر وقد كدت أقول « حسنا ، اذا كنتما تريدان النوم على الأرض ، فافعلا ذلك فلأكن ملعونا إن كنت أريد » ولكني أعتقد أنك تستطيعين أن تقولي اني كسبت أو أننا كسبنا أنا وهو فقد انتهى الأمر به وهو يرتب بطانيتهما في الشاحنة ، كأنما كنا نعرف طوال الوقت أن الأمر سيكون كذلك ونشرت أنا واياه بطانيتي قرب النار . أعتقد أنه كان يعرف أن الأمر سينتهي الى ذلك على أية حال ربما قدموا فعلا قاطعين كل تلك المسافة من جنوبي ألاباما كما تدعي هي أعتقد أنه لهذا السبب جلب هو كل هذا الحطب لغلي ابريق من القهوة وتسخين بعض المعلبات ثم أكلنا وبعدها اكتشفت

ما الذي اكتشفته ؟ ما الذي كان يريد فعله ؟

ليس آنذاك بالضبط أعتقد أنه كان لديها صبر أكثر

يستأنف « اذن تناولنا الطعام وكنت أتمدد على البطانية كنت متعبا ، ومع الاستلقاء شعرت بالراحة لم أكن أنوي الاصغاء كما لم أكن أنوي أن أبدو كالنائم وأنا لست بالنائم ولكنهما طلبا مني أن أركبهما في السيارة ، ولم أكن أنا الذي ألح عليهما بالركوب ولو استنسبا أن يتحدثا دون التأكد من أن أحداً يسمعهما ، فذلك ليس من شأني . وهكذا اكتشفت أنهما كانا يبحثان عن شخص ما ، يلاحقانه ، أو يحاولان ذلك أو أنها كانت من يلاحق ذلك الشخص وهكذا قلت لنفسي فجأة « هاهه ها هي فتاة أخرى تظن أنها تستطيع أن تتكلم مساء السبت ما انتظرت أمها حتى يوم الأحد لتسأل عنه القسيس » .

www.ibtesama.com/vb

لم يتلفظا باسمه مطلقا كما لم يكونا يعرفان الاتجاه الذي انطلق به وعرفت أنهما لو عرفا أين مضى لما كان ذنب ذلك الشخص أنه كان يهرب لقد فهمت ذلك بسرعة وهكذا سمعته يتحدث اليها ء كيف أنهما قد يضطران الى السفر هكذا من شاحنة الى أخرى وولاية الى أخرى البقية الباقية من حياتهما دون أن يجدا له أثرا ، وهي جالسة هناك على جذع شجرة ساقط ، تحمل الطفل وتصغي بهدوء كهدوء الحجر وكانت لطيفة كالحجر ، وعلى وشك أن تتأثر أو تشعر بالاقتناع وأقول لنفسي « حسنا ، أيها العجوز ، ركوبها في الأمام أعتقد أن ركوبها في الأمام لم يبدأ مع ركوبها على مقعد شاحنتي وأنت تركب في المؤخرة ورجلاك مدلاتان منها » . ولكني لم أقل شيئا تمددت هناك فحسب وهما يتحدثان ، أو هو الذي يتحدث بصوت غير مرتفع لم يذكر هو الزواج أيضا ولكنه كان يتحدث عنه وهي تصغي رابطة الجأش وهادئة كأنها سمعت ذلك من قبل وكانت تعرف أنها ليست مضطرة حتى الى الاكتراث بالرد بالايجاب أو بالنفي عليه كانت تبتسم قليلا ولكنه لم يستطع أن يرى ذلك

ثم استسلم نهض من على الجذع الساقط وسار مبتعدا ولكني رأيت وجهه حين التفت وعرفت أنه لم يستسلم عرفت أنه قد منحها للتو فرصة أخرى وأنه قد وصل به اليأس الى حد المخاطرة بكل شيء كان باستطاعتي أن أقول له انه كان يقرر الآن ما كان عليه أن يفعله في المقام الأول ولكني أعتقد أنه كانت لديه أسبابه الخاصة وعلى أية حال فقد سار في الظلام وتركها تجلس هناك ووجهها نحو الأسفل وتلك الابتسامة لاتزال عليه لم تلاحقه بنظرها اطلاقا ربما كانت تعرف أنه قد ابتعد ليحضر نفسه لما كانت تنصحه أن يفعل طوال الوقت ،

www.ibtesama.com/vb

دون أن تقوله با لكلمات ، وهو أمر لاتستطيع السيدة في العادة أن تفعله حتى لو كانت سيدة من أسرة ليلة السبت

ولكني لا أعتقد أن الأمر كان هكذا أيضا أو ربما لم يكن المكان والزمان ملائمين لها ، ناهيك عن الجمهور وبعد فترة نهضت ونظرت الي ، ولكني لم أتحرك مطلقا،وبعدها ذهبت وصعدت الى الشاحنة وبعد فترة سمعها تتخلى عن التقاب وعرفت أنها قد نامت وقد استلقيت هناك لقد أصبحت متيقظا نوعا ما الآن — وكانت تلك فترة طويلة ولكني عرفت أنه كان في مكان ما قريب ، منتظرا النار ربما حتى تخبو أو أن أغفو جيدا لأنه حدث بكل تأكيد بعد أن خبت النار للتو لأني سمعته يقترب ، خفيفا كالقط ، ووقف فوقي وهو ينظر الي ويصغي لم أصدر أي صوت اطلاقا لا أعرف ، ولكني تظاهرت بالشخير من أجله وعلى أية حال فقد سار نحو الشاحنة وهو يمشي كأنما على بيض ، وأنا مستلق هناك أراقبه وقلت لنفسي « أيها العجوز ، لو فعلت ذلك في الليلة الماضية لكنت أبعد عن هنا مسافة ستين ميلا باتجاه الجنوب حسب معرفتي ولو فعلتها قبل ليلتين ، فأعتقد أني ما كنت سأرى أي واحد منكما » ثم شعرت ببعض القلق لم أكن قلقا من أن يقوم هو بايذائها على نحو لم تكن هي راغبة به وفي الواقع كنت قلقا على الطفل الصغير اللعين هذا كل ما في الأمر لم أستطع أن أقرر ما أفعله حين ستبدأ بالصراخ عرفت أنها ستصرخ ، ولو قفزت وعدوت نحو الشاحنة ، فسوف يفزعه ذلك ، واذا لم أذهب عدوا سيعرف أني كنت مستيقظا أراقبه طوال الوقت ، وسيفزع أسرع بكثير ولكن ليس علي أن أشعر بالقلق كان علي أن أعرف أني من النظرة الأولى قد فهمتها وفهمته

www.ibtesama.com/vb

تقول الزوجة أعتقد أن السبب في معرفتك أنه ليس عليك أن تقلق كان أنك اكتشفت مسبقاً ما الذي ستفعله هي بالضبط في مثل تلك الحالة

طبعاً يقول الزوج لم أكن أنوي أن تكتشفي أنت ذلك . لم يا سيدي.لقد ظننت أني قد موهت آثاري جيداً هذه المرة

حسناً ، هيا ما الذي حدث ؟

ما الذي تظنينه حدث مع فتاة ضخمة قوية كتلك ، دون أي تحذير من أنه كان هو فحسب ، وطفل صغير لعين سبق أن بدا عليه أنه وصل مرحلة الانفجار من البكاء كأي طفل آخر يستأنف « لم يكن هناك لا صراخ ولا أي شيء آخر لقد راقبته فحسب وهو يصعد ببطء وسهولة الى الشاحنة ويختفي فيها ثم لم يحدث أي شيء لفترة تعادل فترة العد حتى الخمسة عشر وببطء ثم سمعت صوتا يدل على الدهشة أصدرته هي حين استيقظت ، كأنها قد دهشت ثم سكتت دون أن تكون خائفة على الاطلاق ، وتقول بصوت غير مرتفع « عجباً ، السيد بنتش ألا تخجل ؟ كان يمكن أن توقظ الطفل أيضا » ثم خرج من باب الشاحنة الخلفي ليس بسرعة ، ودون أن ينزل على ساقيه اطلاقا فلأكن كلبا ان لم أصدق أنها حملته وأنزلته على الأرض كما كانت قد تحمل ذلك الطفل لو كان عمره ست سنوات فعلا ، وقالت له « هيا اذهب واستلق الآن ونم بعض الشيء لدينا مسافة طويلة أخرى نقطعها غداً » ..

حسنا شعرت بالخجل الى حد لم أجرؤ معه الى النظر اليه ، حتى لا يعرف أن أي شخص قد رأى أو سمع ما حدث فلأكن كلبا

www.ibtesama.com/vb

إن لم أكن أريد أن أجد الحفرة وأزحف اليها معه وقد فعلت ذلك في الواقع وهو واقف هناك حيث وضعته هي كانت النار قد خبت تماما الآن ولم أعد أستطيع أن أراه أطلاقا ولكني عرفت كيف كنت سأقف وأشعر لو كنت مكانه . وسيكون ذلك برأس مطاطئة ، منتظرا القاضي ليقول : « خذوه خارجا واشنقوه بسرعة » . ولم أصدر أي صوت ، وبعد فترة سمعته يستأنف السير سمعت صوت الشجيرات تندفع بقوة كأنه يشق طريقه عبر الغابات على نحو أعمى وحين حل ضوء الفجر لم يكن هو قد رجع

حسنا ، لم أقل أي شيء . لم أدر ما أقول بقيت مقتنعا بأنه سيظهر ، سيعود ماشيا خارجا من بين الأشجار ، بكرامة أو دون كرامة لذا أشعلت النار وحضرت الفطور ، وبعد فترة سمعتها تنزل من الشاحنة لم ألتفت قط ولكني استطعت سماعها تقف هناك كأنها تتطلع فيما حولها ، كأنها تحاول ربما أن تعرف من طريقه اشعال النار أو شكل بطانيتي ان كان هناك أم لا . ولكني لم أقل أي شيء اطلاقا أردت أن أجزم أمتعتي وأنطلق وكنت أعرف أني لا أستطيع تركها في وسط الطريق وماذا لو أن زوجتي سمعت أني أسافر عبر البلاد مع فتاة ريفية جميلة وطفل رضيع عمره ثلاثة أسابيع رغم انها تدعى أنها تبحث عن زوجها أو زوجيها كليهما ربما . لذا أكلنا ثم قلت : « حسنا ، أمامي طريق طويلة وأعتقد أنه من الأفضل الانطلاق » ولم تقل لي أبدا أي شيء على الاطلاق وحين نظرت اليها رأيت أن وجهها كان هادئا وساكنا كما كان دائما فلأكن كلبا إن كانت مندهشة أو أي شيء آخر . وكنت أنا هناك ، لا أعرف ما علي أن أفعله من أجلها ، وقد

www.ibtesama.com/vb

أنها كانت تفكر بأن تجد من كانت تبحث عنه لا أظن أنها كانت تنوي ذلك ، ولكنها لم تكن قد أبلغته بعد أعتقد أن هذه كانت المرة الأولى في حياتها التي تبتعد فيها عن البيت بمسافة أبعد من أن تستطيع قطعها عائدة مرة أخرى قبل غروب الشمس وأنها قد تمكنت من الابتعاد كل هذه المسافة على نحو ناجح والناس تعتني بها ولذا أظن أنها قد قررت أن تسافر لمسافة قصيرة أخرى وترى بقدر ما هو ممكن ، حيث أني أعتقد أنها كانت تعرف أنها ما أن تستقر هذه المرة فسيكون ذلك استقرارا مدى الحياة على الأرجح هذا ما أظنه كانت تجلس في مؤخرة الشاحنة هناك ، وهو الى القرب منها الآن والطفل الذي لم يتوقف عن الطعام اطلاقا ، الذي كان يتناول فطوره مسافة عشرة أميال الآن ، كواحدة من عربات المطعم تلك التي في القطارات، وهي تتطلع الى الخارج وتراقب أعمدة الهاتف والحواجز تمر كأنها عرض في سيرك . لأني قلت بعد فترة « ها هي سولزبري » وتقول هي

— ماذا ؟

وأقول :

— سولزبري في ولاية تينيسي

ونظرت الى الخلف ورأيت وجهها وكان كأنه قد سبق له وصمم على أن يدهش وينتظر ذلك ، وأنها كانت تعرف أنه حين تأتي الدهشة ، فانها سوف تستمتع بها وقد جاءت وكانت مناسبة لها. فقد قالت

— عجبا ، عجبا الشخص قد يخدع لقد غادرنا ألا باما منذ شهرين فحسب، وها نحن قد سبق لنا وأضحينا في تينيسي

www.ibtesama.com/vb

المعالجة وتخفيض الحجم
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb